

فَرَدِيْعَةُ الْجَنَانِ

أَمْرَيْتَ شَوَّهَنَيْ
أَمْيَرَ الشُّعَاءِ

درَاسَةٌ وَنُصُوصٌ

دارِ الصُّبُّونِ
سِرْرُوت



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

أحمد شوقي
(أمير الشعراء)

فُوزِي عَطْوَى

أَحْمَدُ شَهْرَقَى
أَمِيرُ الشُّعَارَاءِ

دَرَاسَةٌ وَنَصُوصٌ

وَالرَّجُبَتُ
بَيْرُوت



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

رابط بديل lisanerab.com

الطبعة الثالثة

١٩٧٨

مقدمة

احتفلت هيئة اليونسكو ، في العام الفائت (١٩٦٨) بذكرى مرور مئة عام على ولادة أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي ؛ وقد حرصت الهيئة على أن يكون الاحتفال عالمياً ، عن طريق تدبيج المقالات ، وتصنيف المؤلفات في أكثر من لغة حية ، وذلك اعترافاً منها بالمكانة السامية التي تمكّن شوقي من احتلالها ، لا على صعيد الفكر العربي ، وإنما على صعيد الفكر الإنساني العالمي ، بوجه عام .

ولا ريب في أن احتفالات كهذه هي بمثابة مواسم مباركة ، تعلو فيها صيحات الفكر ، ونداءات العقل ، من خلال الانتفاثات المبحوحة الجوفاء التي تتعالى هنا وهناك ، في جنبات العالم المحموم ، المحتمد بألوان الخصومات العقائدية ، والعداوات السياسية ؛ فمهما اجتاحت تيارات العصر المادية ، قيم الإنسان ، ومثله العليا ، فإنها تبقى أعجز من أن تقضي على طبيعة الأشياء ، وأضعف من أن تحول الإنسان العاقل المفكر الذي خلقه الله على صورته ومثاله ، إلى آلة عمياء صماء ، تدار ولا تُدير ، توجه ولا توجه . ذلك أن الإنسان المعاصر وإن أغضى عن بعض المقاييس والمفاهيم التي تشوّه الحضارة الإنسانية الأصيلة ، ومهما اضطر للرضاوخ والخنوع ، فهوأ وغضباً ، فإنه لا يملك إلا الرفض التلقائي لكل ما يدنّس فكره ، ويذوّس مقدساته ، ويعيث بعصره كإنسان بديع مبدع ، له في مجالات الدنيا الرحاب أكثر من أدوار تنتدبه لها إنسانيته السامية السنية !

ولم يكن شوقي ، في واقع الحال ، بحاجة إلى ذكرى أو احتفال ، حتى تكون للناس رجعى إلى عطائه الرائع الذي أوصله إلى مقام ، من الشعر ، لا يُداني ، لأن للشاعر الفذّ من أبياته الخوالد ، وقوافيه الغواني ، ما يجعل أبيات شعره تردد ، جيلاً بعد جيل ، فوق كل شفة ولسان . وعليه ، يكون إحياء الذكرى المئوية ، لشاعر ضمن بشره خلود نفسه وذكره ، لوناً من التكريم للتفكير كشوقى ، وللإنسانية في إنسان مثله وقف عمره ليغنى آلام الناس وآمالهم ، مبتدئاً بمواطنه في وطنه الصغير مصر ، منتهياً بأبناء البشرية جمعياً ، في كل صدق من أصقاع العالم .

ولقد تكاثرت المؤلفات والمقالات التي وضعت حول أدب شوقي ، شرعاً ونثراً ، حتى بتنا نعتقد أنَّ أصحابها الأفضل لم يترکوا زيادة لمستزيد . فإذا كان مثل هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لما تتضمنه المؤلفات الموضوعة عن شوقي ، بوجه عام ، فإن أيَّ مؤلف منها لم يكن ليستكمل جميع الجوانب المتعلقة بأمير الشعراء ، إنساناً وفيناً ؛ ثم لو أنَّ بعضها استطاع أن يلمَّ ب مختلف هذه الجوانب ، فقد بقي قاصراً عن أن يعرف القاريء العربي والعالمي بإنتاج شوقي ، شعره ونثره ، ما خلا بعضاً من أبياته أو كلماته التي يذكرها المؤلفون عرضاً ، في معرض بحثهم ، وذلك استشهاداً برأي ، أو تدليلاً على موقف ، أو تذكيراً بجادته تكون موضوعاً لحديثهم .

ولما كنا نقف ، قبل الآن ، حيارى أمام تزاحم الأحداث ، وتقلب الأفكار التي يشهدها عصرنا ، بحيث لا يتسع وقت أحدنا لتبني ما كتبه مفكِّر معين أو ما كُتب عنه ، كشفاً لمواطن النقص ، أو لمكامن العبرية في شخصه وأدبِه ، فقدَّ حسُنَّ لدينا أن نقوم بمحاولة متواضعة تُضاف إلى محاولات كتاب العربية وأدبها ، عن طريق البحث الأدبي الكلاسيكي الذي يوفّي شوقي بعض حقّه على الأدب المعاصر ، وعلى الشعراء منهم بوجه

خاص ، بعدهما كان لشوقى ، في شاعريةتهم ، أكثر من أثر ، وأكثر من صدى يرجّع ضرباً من معانيه ، وألواناً من قوافيها .

وكان طبيعياً جداً ، في هذا المجال ، أن نعتمد الكتب التي أرَخت حياة شوقى الشخصية ، والسياسية ، ولعلاقته بقصور أميره محمد علي باشا ، في عهد الملكية بمصر ، فضلاً عمّا كتبه هو نفسه في هذا الصدد ، كما كان طبيعياً جداً أن ننقل إلى القارئ العربى صوراً عن المعارك الأدبية التي أثارها بعض معاصرى شوقى ، في حياته ، وبعد مماته ، بين مؤيد له ، ومنكر عليه حتى مجرد الشاعرية الأصيلة ، فكيف به ، شاعراً للأمير ، وأميراً لأشعراء؟

ولقد تكون أوجزنا في مكان ، واستطردنا في مكان آخر ، كما قد تكون اكتفينا بالقليل مما قاله الأدباء والشعراء في أحمد شوقى ، حيناً ، وحيناً آخر ، أطلنا إطالة تقاد تبلغ بالقارئ حد الإملال ، ولكنَّ يقيننا بأنَّ لكل حادث حديثاً ، وبأنَّ لكل مقام مقالاً ، هو الذي دفع بنا إلى تصنيف الكتاب على النحو الذي يطالعه القارئ الكريم ؛ وإن هي إلا حرية القلم ، وسماحة الفكر ، يُبَدِّع هنا ، ويقتبس هناك ، ويستنتاج هنالك ، حتى يجيء البحث وفق ما يراه كاتبه منطبقاً على الواقع ، كما يراه ، ومنسجماً مع الحقيقة ، كما يؤمن بها .

وفي اعتقادنا أنَّ ما كتبه أحمد شوقى لم يكن يوماً ملكاً لأحمد شوقى وحده ، لأنَّ شاعراً من طرازه عاش أحداث عصره ، فجagaraها بأسرع مما تجاريها الصحافة اليومية ، مع هذا الفارق القائم على كون المجهود الذي بذله شوقى لابراز الحدث ، واستنتاج العبرة أضخم بكثير من المجهود العابر العادي الذي تبذل الصحافة اليومية في نقل الأنباء ، والتعليق عليها ، مع ما يكتنف الأخبار والتعليق من الأخطاء المميتة ، والركاكة المقيتة !

فإذا كان ذلك هو شأن إنتاج شوقى ، فإنَّ من حقنا القول بأنَّ ما نكتبه

نحن ، وما سُبّقنا إلى كتابته عنه ، وما قد يلحق بنا من كتاب إلى الكتابة في موضوع أمير الشعراء ، لا يكون ، ولا يمكن أن يكون ، ملكاً للكتاب وحدهم ، وإنما هو ملك للشعوب التي تبقى وحدها المعنية بالإطلاع على ما يكتبه الشعراء والأدباء .

أما فصول الكتاب ، فقد قسمت وفق اجتهاضنا الشخصي ، وهو اجتهاض يلزمنا وحدنا ، ونرجو أن تكون قد وفّقنا إلى جعل البحث ، على أساسه ، مستساغاً لدى القراء ، قريباً من أذهانهم وأنهاهم .

وقد أتبَعْنَا هذه الفصول بمختارات من أدب شوقي ، نثراً وشعرآ؛ ولا نجدنا في حاجة إلى بيان مدى تفوّق شوقي الشاعر على شوقي الناشر ، كما نرانا غنيّ عن تبرير الأساليب التي جعلتنا نطيلُ قسم المختارات الشوقية عمّا هي عليه دراستنا الأدبية التاريخية التحليلية المتواضعة ، ذلك أن ما يكتبه أحدنا ، إذا قورن بما كتبه شوقي ، يبقى نعماً من يم هادر ، وغبيضاً من فيض ثائر ، وقطراً من بحرٍ زاخر .

فإذا حالفنا النجاح ، فذلك نعم المرتجى ، وإذا جانبنا الكمال ، فعذرنا أن الكمال للباريء وحده ، وهو ولي التوفيق ، وعليه الاتكال .

بيروت في ٢٧ آذار (مارس) ١٩٦٩

فوزي خليل عطوي

مِيَاهُ سُرْقِي

في حي من أحياء القاهرة ، يُقال له «الحنفي» ، ولد أحمد بن علي بن أحمد حلبي النجده لي شوفي ؛ فحمل الطفل اسم جده ، وهو الاسم الذي سيصبح فيما بعد ملء السمع والبصر ، في أقطار العروبة ، كما حمل في عروفة مزيجاً طريفاً من دماء عربية ، تركية ، يونانية ، كردية ، شركسية ، نظراً للروابط التي جمعت بين جديه وجده ، وأبيه وأمه ، وكل منهم ينتمي إلى شعب من الشعوب ، حتى ليُمكن بشوفي وحده ، أن نصفه كل دعاوة ترمي إلى تأكيد صفاء دم أي عنصر من عناصر البشرية ، في أي صقع من أصقاع العالم :

ولذا كان من المتفق عليه ، في علمي الاجتماع والأخلاق ، أن الوراثة ذات أثر كبير في تكوين النفسية الإنسانية ، وفي اختلاف مدى العبريات ، فقد اتفق العلماء أيضاً على أن النفسية الإنسانية تصبح أكثر تقبلاً للتطور والتجدد ، وأن العبرية تغدو أكثر قابلية للتفجر والإبداع ، كلما تمازجت دماء العناصر المتباينة ، وتفاعلـت فيما بينها .

فلم يكن من المستغرب في شيء ، والحال هذه ، أن تتعكس آثار قابلية التجدد والتطور في نفسية أحمد شوفي الذي اكتسب ذكاء في الطبع ، وفرطاً في الحياة ، ورجاحة في العقل ، وأصالة في الرأي ، حتى تنكب عن طريق الهجاء ، مكرتاً من المدحع ، كأنني ببابليا أبي ماضي ، الشاعر المهجري الكبير ، يردّ على خصوم شوفي ، إذ يقول :

والذى نفسه بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً
وإذن ، بحقٍ قال عنه الأمير شكيب أرسلان :

« إنه ، وإن كان أسرف في المديح ، وفي مدحه أمير بلاده خاصة ، فلم يلُوث شعره بالمجاء ، ولم أسمع له قصيدة يهجو بها أحداً .. فعفة لسان شوفى ، وتنكب طرقاً طالما سلكها شعراء كبار وصغار ومتسلطون ، دليل على زكام طبعه ، وفرط حياته ، وأيضاً على رجاحة عقله ، وأصالحة رأيه » (١) .

كما لم يكن من المستغرب أيضاً أن تتفجر عقريبة شوفي ، ابن الدماء العربية المتمازجة ، المتناهية إليه من شعوب عرفت بالإبداع ، والعطاء الفكري السامي ، وبالشعر والفلسفة ، ولا سيما العرب واليونان ؛ حتى لقد وفق محمد سعيد العريان إلى إبراز ذلك الdoiي الهائل الذي تركته عقريبة شوفي المتفجرة في الأمة العربية خاصة ، وفي الشرق عامة ، حيث يقول :

« كان شوفي رحمة الله شاعرًا ملء سمع الشرق ، ما يلفظ من قول إلا لفنته الآلاف عن الآلاف من أبناء الأمة العربية ، تُنشده وتُغنى به وتصر به مثلاً ؛ وما أحبب شاعرًا في الأمة العربية منذ كانت و كان الشعر ، قد ذهب صيته في الناس حياً مذهب شوفي أو بلغ مبلغه ؛ وقد كان حقيقاً بما بلغ ، لا من أنه شاعر العربية الأول ، ولا من أن الأمة العربية قد عقت فلم تنجب مثله في تاريخها المنطاز على ؛ ولكنه جاء على فترة انقطع فيها أمل الآمل في نهضة الشعر العربي بعد ما ناله من الانحطاط والركبة وضيق المذهب وسوء التناول . وكأنما كان البارودي من قبله إله اهلاً له ودعوة إليه وتنبيهاً إلى فضلاته ومكانه .

وقد كان البارودي بما اجتمع له من أدوات الشعر ، وبما تهيأ له من أسبابه العامة والخاصة ، أولَّ منَّ بعث الحياة في هذا الجسد الهامد ، ونفع فيه من قوّته

(١) راجع كتاب « شوفي أو صدقة ، أربعين سنة » للأمير شكيب أرسلان ، وذلك في فصل بعنوان « عفة لسان شوفي وبعده عن المجاد ». .

وخلع عليه من شبابه ، فكان تصديراً بلغاً لهذا الفصل الجديد في تاريخ الشعر العربي ، فلما خلا مكانه تلفت الناس ينظرون على حذر وخشية يربدون أن يسمعوا نفما صافياً كهذا الذي عودهم البارودي أن يسمعوه من إنشاده وتطريبه ، وما منهم إلا من ظن أن الشعر بعده متكميس بعلته ، وأن الرجل الذي كان يمدأه بأسباب الحياة والقوة قد ذهب ، فلا سبيل إليه بعد ، ولا أمل . . وفي هذه الفترة ظهر شوقي . . . (١) .

ولقد يطول البحث في موضوع « الوراثة » و« تمازج الأجناس » ، وتفاعل « الدماء » ، إلا أن الإشارة إلى ما ورثه شوقي هي من الكفاية بحيث تكون بمثابة مشعل على الطريق إلى عقريبة أحمد شوقي .

ثم إننا لو عدنا إلى الطبعة الأولى للجزء الأول من « الشوقيات » ، وقد أنجزت عام ١٨٩٨ ، لوجدنا أحمد شوقي ذاته ، في مقدمته لـ « لـ ديوانه » ، يثير أكثر من شأن شخصي حميم ، أو أدبي عام ، فلا ينسى أن يلمع إلى هذه الوراثة ، وكأنه لا يكتفي بسردها على سبيل العلم بالشيء فقط ، بل يسعى إلى إفهام القارئ أنه ، بانتسابه إلى عدة أصول ، وبتقلبات جده وأبيه في مناصب شتى ، إنما يحمل بنور التفوق ، ويتمتع بأسباب الأسبقية والأصالة .

نسب شوقي

فهي تلك المقدمة ، يقول شوقي :

« سمعت أبي رحمة الله ، يردّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب ، ويقول إن والده قدم إلى هذه الديار ، يافعاً ، يحمل وصاةً من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا ، وكان جدي ، وأنا حامل اسمه ولقبه ، يحسن كتابة العربية والتركية خطأً وإنشاء ، فأدخله الوالي في معيته ، ثم تداولت الأيام ، وتعاقب

(١) راجع مقدمة الاستاذ محمد سعيد العريان للجزء الرابع من « الشوقيات » الذي نشرت طبعته الأولى عام ١٩٤٣ ، بعد وفاة شوقي .

الولاة الفخامة ، وهو يتقلّد المراتب العالية ، ويتقلّب في المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية ، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية ، بـَدَّها أبي في سكرة الشباب ، ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم ، وعشت في ظله ، وأنا واحده ، أسمع بما كان من سعة رزقه ، ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة .. (١).

وكمُّ الطفل ، عاماً بعد عام ؛ وكانت له جدة يونانية كثيرة الشغف به ، كما كانت في عهد ابراهيم باشا ، على صلة وثيقة بالقصر ، لا سيما وهي معنوة من معتزات ابراهيم باشا ، كان قد زوجها لأحمد شوقي ، الجدة ، بعدهما أعجبه ، وقرَّبه منه .

وقد لبست علاقتها الوطيدة بالقصر ، عندما تولى الخديوي اسماعيل حكم مصر ، فأحببت أن يدرج حفيدها على مدارج الملوك ، وأن يكون مستواه في في مستوى « العزيز » المصري ؛ ولذلك أحمد شوقي يروي بنفسه ما جرى له ، وهو في الثالثة من عمره ، عندما ذهبت به جدته اليونانية ، هذه ، إلى القصر :

أول عهد شوقي بالقصر

حدثني (أبي جدته) أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل ، وأنا في الثالثة من عمري ، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديوي بدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه ، فوقعت على الذهب ، أشتغل بجمعها واللعب به ، فقال بحدّي : « اصنعي معه مثل هذا ، فإنه لا يليث أن يعتاد النظر إلى الأرض ». قالت : « هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك ، يا مولاي ». قال : « جيني به إلى متى شئت ، إني آخر

(١) راجع مقدمة أسد شوقي للعز، الأول من ديوانه « الشوقيات » - الطبعة الأولى - ١٨٩٨ .

من يثُر الذهب في مصر» ! (١) .

رأيت إلى فلسفة هذه اليونانية المعتوقة ، جدة شوقي ، التي لا تستبعد أن يكون ابنها ، في رأيها ، بحاجة إلى دواء « الغنى » الذي لا يخرج إلاً من « صيدلية » الخديوي . أوليس في عروق هذه الجدة اليونانية ما يستحق أن يستوقفنا ، أمام العبرية التلدية والطريفة ، في آن معاً ، التي تجلت في أحمد شوقي ، أمير الشعراء ؟ ! .

ثم هل رأيت هذا الجواب المتألم المقتصب الذي ردَّ به اسماعيل على جدة شوقي ، كأنما حده الشفاف صورَ له المصير الذي يتضرر ملكية التيجان ، والذهب ، في مصر ، على يد تحرُّر الشعوب وإيمانها بالديمقراطية التي لا تعرف بالتيجان والعروش ؟ !

دراسته الأولى :

ولما أنس ذوق أحمد شوقي منه إمكانية إقباله على العلم ، ألحقوه بمكتب الشيخ صالح ، في القاهرة ، وهو عبارة عن مدرسة قرآنية لا تلمَّ بشيء من طرائق التربية الحديثة ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى المدرسة الخديوية ، ولعلها المدرسة المعروفة بالمبتديان ، وبعدها التحق بالتجهيزية ، حتى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره ، التحق بكلية الحقوق ؛ ويبدو أن الحقوق لم ترق له ، في مصر ؛ فلما أنشيء قسم الترجمة في الكلية ، وكان شوقي قد أنهى السنة الثانية من دراسته القانونية ، انتقل إلى قسم الترجمة ، وتخرج منه حاملاً شهادته النهاية .

ونترك لأحمد زكي أن يتحدث عن أحمد شوقي لدى دخوله عام ١٨٨٥ إلى مدرسة الحقوق فيصفه بقوله :

(١) المرجع السابق .

« كان في جملة الوفدين سنة ١٨٨٥ فتى نحيف . هزيل ، ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلة تقريرًا . فتى بعيون متألقة تحفيقاً . ولكنها متقللة كثيراً ؛ فإذا نظر إلى الأرض دقية واحدة ، فلسماه منه دقائق متتمادية ؛ وإذا تلفت صوب اليمين ، فما ذاك إلا لكي يرمي بصره نحو الشمال ، وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنايرة ، هادئ ساكن وادع ، كأنما يتحدث بنفسه إلى نفسه ، أو يتلاugu مع عالم من الأرواح . ما كان يلبسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا يتهافت معنا على تلتفت الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما نتنفس الصعداء ، لانهاء مواعيit الدراسة » . (١) .

وما يروى عن الشيخ علي الليثي أنه كان كلما رأى شوقي الزائع النظرات ، يذكر قول المتنبي : « محاجرِ مُسْكِ رَكَبَتْ فوق زيق » .

هذه الانطوانية التي اتسم بها خلق أحمد شوقي ، هي انطوانية شاعرية تحمل الفتى وسيم ، المتألق العيون ، على التغلغل في أعمق نفسه الإنسانية ، لاكتناء مشاعرها ، واستكشاف مهماتها ومعنياتها ، وليس انطوانية أمرىء يتمحسن في ذاته ، نقصاً ، أو يشعر بعقدة نفسية تبعده عن الآخرين ، حتى لا يكون في مخالطتهم انتقاد من مكانته في أعينهم .

ولاذن هي انطوانية إيجابية خلقة ، يصرّ الشاعر على ولوح أبوابها ، والتسلل إلى دهاليزها ، ليطلع ، من بعد ، عبقرى العطاء ؛ وما هي انطوانية سلبية تواجه الحياة عن طريق الهرب من حقائق الحياة .

وهذا الانسغال باللامشي عن كل شيء . هذا التطلع الحالى إلى دنيا غير مرئية بالنسبة إلى العاديين من الرجال ، وواضحة الرؤية بالنسبة إلى الشاعر ، أي شاعر ، هو الذي رسم شوقي صورة في أذهان عارفه ، أو قارئه سيرته

(١) راجع كتاب « ذكرى الشاعرين . شاعر النيل وامير الشعراء » - صفحة ٣٢٦ - جمع أحمد ميد - المكتبة العربية - دمشق .

وشعره : حتى ليخيل اليك أنه أبداً على صلة نجوى ، تجمعه إلى ربّ الإلهام ، فتنعدم ما بينهما أرقّ المواجه ، في غفلة من الناس . وما هم في الحقيقة ، عن شاعرهم غافلون ؟ حتى إذا حسب أن ربّه الشعور تاهت من أمام ناظريه ، راح « يبحث عنها فيما حوله ، يصوّب نظره إليها يميناً ، فلا تلبث أن تزوج منه في الشمال ، فيرمي به وراءها ، فيجدها قد حلقت في السماء ، فيرفع عينه إليها ، فلا تلبث أن تغيب ، لتبدو له لا معة مشرقة بيازاته .

وكأنما كان ذلك يزيد في تألق بصره ، أو قل كأنما كان شوقي مشغولاً عن رفقائه ، وما هم فيه من لهو ولعب بحر كات مضطربة مختاطة متشابكة ، كانت تأتيها ربّ الشعر من حوله بأجنحتها حين تصطفق ، فتملاً أذنه برفيق وضجيج ، ولا ترك له فسحة ، كي يلمّ شatas نفسه ، ويندمج في صحبه ، إذ كانت تأخذ عليه كل طريق .

واستعجب شوقي ، فانعزل عن أخذاته ، ومكث يتضرّر ما توحّي به إليه ، وما تودّعه أذنه وعينيه ، من همسات وحركات ، ورؤى حالمه . وكان النبع أثناء ذلك يفيض ، والنور يسيل ، فإذا الشيخ محمد البيسوني البيباني ، أستاذه في اللغة العربية ، وكان شاعراً فصيحاً ، تبهره شاعريته ، يجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه . وكان هذا الشيخ يدّفع القصائد الطوال في مدح الخديوي توفيق كلما حلّ موسم أو أهلّ عيد ، فكان قبل أن يرسلها إلى القصر ، لتنشر في صحيفة «الواقع المصري» (١) وغيرها من الصحف العربية ، يعرضها على شوقي ، فما يزال يصلح له فيها ، فيمحو هذه الكلمة أو تلك ، ويعدل هذا الشطر أو ذاك ، ويسقط بعض الأبيات ، وأستاذه مرتبط به ، فرح لصنيعه . ولهم الشيخ بتلميذه ، والثناء عليه ، ولم يلبث التلميذ أن سار في الدرب الذي سار فيه أستاذه ، فكان ينشئ القصائد في مدح الخديوي توفيق .

(١) وهي الجريدة الرسمية المصرية . آنذاك .

شاعر الخديوي :

وخرج شوقي من قسم الترجمة ، وهو لا يتصف بالشاعر فحسب ، بل هو شاعر الخديوي توفيق ، فقد نسج على منوال أستاده البيسيوني في التقرب إلى القصر وصاحبها ، وأتاح له علي مبارك (باشا) فرصة لقائه ، فهناه بمخرجه ، وهو يستلم أذياً ثوبه ، ويقبلها . ولم يلبث أن عين أبوه مفتشًا في الخاصة الخديوية ، ثم عينه من بعده ». (١) .

وهكذا ، دخل شوقي إلى القصر ، موظفًا كبيراً ، وشاعرًا للخديوي ، لا عضواً هامشياً فضولياً في موكب الحاشية التي لا عمل لها سوى النهوض كلما أقبل الخديوي ، والإقبال على الطعام بشرابة الطفيليين ، والاغراق في النوم ، دون حساب لالزمن لأن الوقت ، عندهم ، غير ذي ثمن ، فلا خوف من ضياعه أو تبذيله على اللذائذ والرغائب الحسادية الحيوانية .

ولقد يكون الحق في جانب النقاد الذين ذهبوا إلى أن التحاق شوقي بالقصر كان بمثابة انتصارات إرادية منه لسجن نفسه ، وسط الرياش والأثاث الفاخر ، ووسط الرسميات والبروتوكولات التي يعروها الكثير من دجل الحياة وزيفها ، وكذبها ، وما إلى ذلك من مجاملات ومداورات ومناورات ، تبعد بالشاعر عن صفاء الجو الشعري ، وتختنق فيه تراتيل اللبلل الغريد ، فإذا هو في قفص مذهب ، ولكنه قفص في أي حال . ومني حرم الشاعر حريرته في الغناء ، غداً شعره رهين القوالب والموازين ، وَبَعْدَ عن الشدو الساحر ، والتغريد العقري .

كما قد يكون الرأي المخالف القائل بأن شوقي ما كان ليطل على الفكر العربي المعاصر مارداً عملاً ، كما أظلّ ، لو لا القصر ، والخديوي ، والأحداث

(١) راجع كتاب « شوقي شاعر العصر الحديث » للدكتور شوقي ضيف - صفحة ١٢ وما بعدها ، وكذلك مقدمة « شوقي » للجزء الأول من « الشوقيات » - طبعة ١٨٩٨ .

الكبار التي كان شعره على مستواها وأرقى ، قد يكون هذا الرأي من الوجاهة بمكان .

ولكننا نظن أن الخوض في هذا الأمر ، هو لون من البحث العقيم ، لا يؤدي إلى نتيجة فضلي ، فشوقى عاش حياته في القصر . كما شاء أو كما شاءت الأقدار له أن يعيش ، وكل حساب أدبي نجراه معه يجب أن يرتكز إلى ما أعطى أكثر من ارتكازه إلى الأسباب والظروف التي دفعته إلى العطاء .

وفي أي حال ، فما هي إلا سنة على توليه الوظيفة في القصر ، حتى وجد الحديبوى توفيق ، ابن العشرين ، لا يجوز أن يلتحق بقصره قبل أن يستكمل أسباب الثقافة القانونية ، بالإضافة إلى شهادة الترجمة التي يحملها ، وهكذا بعث به إلى فرنسا للالتحاق بكلية الحقوق ، والاطلاع على ألوان الثقافة الأوروبية .

يقول صالح جودت : « لم يسجل التاريخ للحديبوى توفيق شيئاً من الإحسان ، في تاريخ هذا البلد ، اللهم إلا حسنة واحدة ، هي أنه مهد التربة الصالحة لشاعرية شوقي . فقد أوفده ، بعد تخرجه في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق ، في بعثة إلى باريس ، وأمره أن يبقى هناك أربع سنوات حظر عليه أن يعود خالماً إلى مصر ، وأمره أن يقضيها في النظر في آداب الغرب ، وحياة الناس ، والتنقل بين باريس ومونبليه ولندن .

وهناك تفتحت عيناً شوقي على ألوان من الجمال ، في الحياة والأدب والفن ، فتفتق خياله ، وتفتحت له آفاق جديدة ، ما كانت لتتحقق له لو بقى في مصر ، شاعراً ناشئاً يعيش في اسوار القصر ، وكل رسالته أن يعرف المدائع للأعتاب الحديبوية .

هذه حسنة توفيق اليتيمة .

أما الحسنة الثانية ، غير المقصودة ، فهي الانجليز ، حينما نفوه إلى الأندلس ، حيث قضى في ظلّها خمس سنوات ، رأى فيها عوالم جديدة ، وراجعته

قصة الأندلس والمجد الذاهب فيها ، وقصص ملوك الإسلام الأقدمين ، وأساطيرهم هناك ، ومفاتن الشعر الأندلسي ، بألوانه الزاهية ، وبمحوره المفردة وأوزانه المتراقصة ..

كل هذا لعب في شاعرية شوقي دوراً جديداً وأضاف إلى قيثارته أوتاراً حببية » (١) .

ولئن كانت لنا رجعى إلى حادث نفي الشاعر ، فيكتفى هنا إلى ما سجله الشاعر من الأحداث ، وما سجله عنه مؤرخو سيرته ، وعن سفره للتحصص في فرنسا .

شوقي في فرنسا :

فقد أحاطت بالشاعر ، منذ أن أُنزلته الباصرة في مرافق مرسيلية ، مظاهر الرفاه والعناية والرعاية ، ذلك أن الخديوي كان قد كتب إلى مدير البعثة المصرية في فرنسا ، يأمره بالاهتمام بأمر شوقي ، وهكذا خفَّ مدير البعثة بنفسه لاستقبال « مبعوث » الخديوي ، وعني بأمر إلحاقه بمعهد الحقوق في مونبليه حيث أمضى عامين ، ثم أمضى عامين آخرتين في باريس .

وخلال العام الأول ، وبعدما رفض الخديوي السماح لشوقى بالعودة إلى مصر لرؤيه أهله ، متذرعاً بضرورة عدم تضييع أيام فتره طويلة ، بعيداً عن معهد الحقوق ، زار شوقي معالم عدد من الحواضر الفرنسية التي دعاه إلى زيارتها عدد من زملائه الفرنسيين في مونبليه .

وفي العام الثاني ، اصطحبه مدير البعثة المصرية في فرنسا ، معه في رحلة إلى لندن والمدن الانكليزية الأخرى ، حيث أمضى مع زملائه شهراً كاملاً . أما

(١) راجع مقال صالح جودت بعنوان « شرقى أمير الشعراء » بمجلة « الملال » العدد ٩ - السنة ٧٤ - سبتمبر ١٩٦٦ - صفحة ٧٩ و ٨٠ .

في العام الثالث فقد نصحه الأطباء على اثر مرض شديد أصابه ، بقضاء فترة في إفريقيا ، فوقع اختياره على الجزائر حيث أمضى أربعين يوماً ، وفي نهاية هذا العام نال الإجازة في الحقوق ، وبيدو أن مرحلة الدراسة كانت ثلاثة سنوات ، لا أربعاً ، كما هي الحال اليوم ؛ ثم ما لبث شوفي أن عاد إلى وطنه ، وقد بلغ من الشوق للأهل والديار كل مبلغ ، والتحق بقصر الخديوي توفيق من جدید .

وفي قصر الخديوي ، عاش شovic كـما يعيش الموظفون ، حياة فيها من الرتابة أكثر مما فيها من التجدد ، خصوصاً وأن وظيفته كانت تحيط عليه ، عن قناعة أو عن مجاملة ، أن يرفع المدائح في المناسبات الدينية والوطنية للخديوي ، وأن ينظم القصائد في تثبيت العرش والإشادة بال اسماعيل .. ذاك كان دأبه ، وقد بقي كذلك رداً من الزمن ، ولسان حاله يقول :

أَمْلَكُ فِيكُمْ آلَ اسْمَاعِيلَا لَا زَالَ بَيْتُكُمْ يُظْلِلُ النَّيلَا

وفي عام ١٨٩٤ ، عقد مؤتمر للمستشرقين في مدينة جنيف السويسرية ، فانتدبته حكومة مصر مثلاً لها ، ومتكلماً باسمها في ذلك المؤتمر ، فما كان منه إلا أن سافر إلى سويسرا ، ومن بعدها إلى بلجيكا ، إثر ارفضاض المؤتمر الذي قدم له قصيده ، بل ملحمته الشعرية التي جمع فيها « كبار الحوادث في وادي النيل » وبها عنوانها ، ومطلعها :

**هَمَّتِ الْفَلَكُ وَاحْتَواهَا الْمَاءُ وَحْدَاهَا بِمَنْ تُقْلِلُ الْرَّجَاءُ
ضَرَبَ الْبَحْرُ ذُو الْعَابِ حَوَالِيهِ هَا سَمَاءً قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ
وَرَأَى الْمَارِقُونَ مِنْ شَرْكِ الْأَرْضِ شَبَّاً كَمَا تَمَدَّهَا الدَّأْمَاءُ،
وَجَبَالًا مَوَاجِجاً فِي جَبَالٍ تَنْدَجِّي كَانَهَا الظَّلَمَاءُ**

ودوياً كما تأهبت الخيلُ ، وهاجت حُماتها الهيجاء
 لجَّةً عند لجَّةً عند أخرى
 كهضاب ماجت بها البيداء
 وسفينٌ طوراً تلو وحينما
 يتولى أشباحهنَّ الخفاء ،
 نازلاتٌ في سيرها ، صاعداتٌ
 كالهواي يهزّهنَّ الحداء
 ربِّ إن شئت فالفضاء مضيقٌ
 فإذا شئت فالمضيقُ فضاء
 فأجعل البحر عصمة وابعث الرحمة
 أنت أنسٌ لنا إذا بَعْدَ الأنس
 سُ ، وأنت الحياة والإحياء
 يتولى البحار مهما ادلهمت
 منك في كل جانب للاء

إلى أن يقول ، عن إغراق المصريين في الوثنية ، وفي تأليه ملوكهم :
 رب ، شقت العباد أزمان لاكته بُّ بها يُهتدى ، ولا أنبياء
 ذهبا في الهوى مذاهب شتى جمعتها الحقيقة الزهراء ،
 فإذا لقيوا قويًا إلهًا فله بالقوى إلينك انتهاء
 وإذا آثروا جميلاً بتنزير
 وإذا أنشأوا التماثيل غرًا
 فإذا قدروا الكواكب أرباً ، فمنك السنَا ومنك السنَا
 وإذا ألهوا النبات فمن آثار نعمك حسنة والنماء
 وإذا يَمْمِوا الجبال سجوداً فالمراد الجلاله الشماء ،

وإذا تُعبدُ الْبَحَارُ مع الأَسْمَاءِ مَاكُ ، والعاصفَاتُ وَالآنَوَاءُ ،
وسَبَاعُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَرْحَامُ ، وَالْأَمَهَاتُ ، وَالآباءُ
لُعْلَاكَ المذَكَّرَاتُ عَبِيدٌ خُضَّعُ ، وَالْمُونَشَاتُ إِمَاءُ
جَمْعُ الْخَلْقِ وَالْفَضْيَلَةِ سُرُّ شَفَّ عنْهُ الْحِجَابُ فَهُوَ ضَيَاءُ

وفي القصيدة ذاتها ينتقل شوقي ، بعد جولة تاريخية مع
ما عبده المصريون من آلهة ، الى يوم اشرق نور المدى
والمرؤة والرفق ، بولادة السيد المسيح عليه السلام :

وُلِدَ الْرَّفِيقُ ، يَوْمَ مَوْلَدِ عِيسَىٰ وَالْمَرْوَاتُ وَالْهَدِي وَالْحَيَاةُ
وَازْدَهَى الْكَوْنُ بِالْوَلِيدِ وَضَاءَتْ بَسْنَاهُ مِنَ الشَّرِى الْأَرْجَاءُ
وَسَرَّتْ آيَةُ الْمَسِيحِ كَمَا يَسِّ رِي مِنَ الْفَجْرِ فِي الْوِجْدَنِ الضَّيَاءُ
تَمَلَّأُ الْأَرْضُ وَالْعَوَالِمُ نُورًا فَالشَّرِى مَائِجُ بَهَا ، وَضَاءُ ،
لَا وَعِيدٌ ، لَا صُولَةٌ لَا انتِقامٌ لَا حَسَامٌ ، لَا غَزَوَةٌ ، لَا دَمَاءٌ
مَلِكٌ جَاَوَرَ التَّرَابَ ، فَلِمَّا
وَأَطَاعَتْهُ فِي الإِلَهِ شِيَوخُ خُشَّعُ ، خُضَّعُ لَهُ ، ضَعْفَاءُ
أَذْعَنَ النَّاسُ وَالْمَلُوكَ إِلَى ۚ رَسَمُوا ، وَالْعُقُولُ ، وَالْعُقَلَاءُ
فَلَهُمْ وَقْعَةٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ وَعَلَى كُلِّ شَاطِئٍ ارْسَاءُ

شوفي بين الخديوي توفيق والخديوي عباس

بعد ذلك ، لم تكتب الحياة طويلاً للخديوي توفيق ، فقد انتقل إلى جوار ربه . ليخلفه الخديوي عباس حلمي باشا .

ويبدو أن ما بين الخديوي توفيق وبين أحمد شوفي من فارق السن ، والمطامع وربما في الآراء والماضي أيضاً . كل ذلك لم يجعل من توفيق ذلك المثال الذي كان ينشده شوفي ليجعله رمزاً للحاكم المثالي ، ورمزاً لشعب مصر . حتى إذا ارتقى عباس حلمي العرش . اتصل به شوفي . وصار . كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمته للجزء الأول من «الشوقيات» كلامته ، ورأى يومئذ صنوأله على العرش . جعلته روحه الشابة مقداماً لا يهاب . ومع ما فوجيء به أول ولادته في حادث عرض الجيش في السودان مما اضطره للاعتذار . قد يقى شبابه يدفعه إلى ما كان يندفع إليه جده من مغامرة .

لكن قيام الاحتلال الانكليزي في مصر . جعل الخصومة بينه وبينهم ، ولم يست بيته وبين الأتراك ، بل لقد كان منظوراً إليه : أكثر الأحيان بشيء غير قليل من العطف في بلاد آل عثمان . لذلك كانت عواطفه متفرقة وعواطف المسلمين الذين كانوا . بعد انتصار الأتراك . يرون في الخليفة المؤثر الأخير للأمم الإسلام جميعاً .. اتصل الشاعر الشاب بالأمير الشاب . فتحتم عليه ذلك أن يكون المعاشر عن الميل وللآمال الكمية في نفوس المسلمين جميعاً . لا في نفوس المصريين وحدهم ، وبذلك اجتمع في نفسه من أول حياته . ميله للحياة . وجهة إياها . وحرصه على المتعة بها ، مع إيمان المسلمين جميعاً . وحرصهم على وحدتهم وعلى كيانهم . بإزاء الأمم الغربية التي تنظر إليهم بعين صلبية بحثة . وكانت هذه الناحية التي تمثلها نفسه من ظروف الحياة ، ومن البيئة المحيطة به أكثر استيعاباً لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه ، فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر ، ويصبح جندياً ، وجندياً

بأسلا ، ويتفوق في كل مواقف الحرب ، ويصبح القائد الأعظم ، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيته صديق النعمة السعيد بها غاية السعادة » (١). وتفصيل حادثة السودان التي ورد ذكرها منذ قليل ، أن عباس حلمي باشا تفقد الجيش المصري الذي كان يرابط في وادي حلفا ، فلم يعجبه نظام إحدى الفرق ؛ وإبداء الامتعاض من نظام الجيش ، إذ ذاك ، والجيش في يد البريطانيين كان من شأنه أن يثير المعتمد البريطاني كرومر الذي عدَّ أن ملاحظة الخديوي هي بمثابة إهانة موجهة إلى « كتشنر » قائد الجيش ، وعلب أن يقدم الخديوي الاعتذار عن الإهانة التي ألحقها بالقائد البريطاني .

وقد عمد رئيس الوزارة المصرية ، يومذاك ، رياض باشا ، إلى التنازل مما صدر عن الخديوي ، وحاول أن يحمل الخديوي على تقديم الاعتذار أو ما يشبه الاعتذار . حتىتمكن من استصدار برقية من الخديوي موجهة إلى « كتشنر » يشي فيها على نظام الجيش .

ثم إن رياض باشا ، اغتنم فرصة افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية في ٨ حزيران (يونيه) ١٩٠٤ . فألقى خطاباً أشاد فيه بكرومر ودولته . وكفر فيه بالخديوي عباس ودولته : فما صدرت صحف الصباح حتى كانت تصدرها قصيدة شوقي التي يقول فيها :

كبير السابقين من الكرام برغمي أن أنا لك باللام
مقامك فوق ما زعموا ولكن رأيت الحق فوقك والمقام
لقد وجدونا مفتونا فقالوا خرجت من الوقار والاحتشام
وقال البعض كيدك غير خاف وقالوا : رمية من غير رام
وقيل شططت في الكفران حتى أردت المنعمين بالانتقام

(١) راجع مقدمة المجزء الأول من « الشوقيات » للدكتور محمد حسين هيكل - الصفحة ٨ و ٩

غمرت القوم اطراءً وحمدأً
راؤا بالآمسِ أنفك في أثريأً
أمَا والله ما علموكَ إِلَّا صغيراً في ولائكَ والخصام
إِذا مالم تكن للقولَ أهلاً فما لكَ في المواقفِ والكلام
خطبَتْ فكنتَ خطباً لا خطيباً أضيفَ إلى مصائبنا العظام
لهجتَ بالاحتلال وما أتاهُ
وما أغناهُ عنْ قالَ فيه
أحبّتكَ أبلاد طويلَ دهْرٍ
حقرت لها زماماً كنتَ فيه
محاسنه غراسكَ والمساوي
فهلاً قلتَ للشبانِ قولًا
يبيثْ تجارب الأيام فيهم
خطبَتْ على الشيبة غير دار
ولولا أنَّ للاوطنِ حُبًا
جنيت على قلوب الجمع يأساً
أراعكَ مقتلُ من مصرَ باقٍ
وهل تركت لكَ السبعون عقلًا
وهم غمروك بالنعمِ الجسمان
فكيف اليوم أصبح في الرّغام
صغيراً في ولائكَ والخصام
إِذا مالم تكن للقولَ أهلاً فما لكَ في المواقفِ والكلام
خطبَتْ فكنتَ خطباً لا خطيباً أضيفَ إلى مصائبنا العظام
وحرحك منه لو أحسست دامي
وما أغناهُ عن هذا الترامي
وذا ثمن الولاء والاحترام
لعوباً بالحكومة والذمام
لك الشمران: من حمدِ وذام
يليق بحافلي الماضي الهمام !
ويدعو الرابضين إلى القيام
بأنكَ من مشبكَ في منام
يُصمَّ عن الوشاية كالغرام
كائنَكَ بينهم داعي الحمام
فقمت تزيد سهماً في السهام
لعرفانِ الحالِ من الحرام؟!

هذا إلى آخر ما هناك من نعوت تلقي بنعوت كفر بالنعمة ، وحابي رجال
الاحتلال ، وينهي القصيدة بهذه الأبيات :

أحبك مصر ، من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نامي
سيجعوني بك للتاريخ يوماً إذا ظهر الكرام على اللئام ..
وهبتُك ، غير هيابٍ ، يرعاها اشد على العدو من الحسام
سيكتب عنك فوق ثرى رياض وفي للتاريخ صفحة الاتهام :
أفي السبعين والدنيا تولّت ولا يرجى سوى حسن الختام
 تكون وأنت أنت رياض مصر عراibi اليوم في نظر الآنام؟

ولربما قال فائل : أبعد هذا ، يكون شوقي متزفعاً عن المجاد ، كما قال
الأمير شبيب أرسلان ، وفي شعره المثبت أعلاه ما هو أشد من المجاد ؟ !
والحقيقة ان ملاحظة كهذه كانت تخصى واقعة في مكانها ، لو لا أن المجاد ،
معناه المعروف في الشعر ، اجمالاً صادر عن أسباب شخصية بين الماجي
والهجو ؛ أما والأسباب التي حملت شوقي على مهاجمة رياض بمثل هذا
المجوم الصاعق ، هي أسباب وطنية بختة ، في رأيه ، لا سيما وإن هذه القصيدة
تنطوي على دفاع مزدوج عن مصر والحديدوي معاً ؛ فمن المتعدد علينا
احصاؤها في عدد الشعر المجاني الشخصي .

* * *

ومن المفيد ، قبل المضي في الحديث على موقف شوقي من عباس ، أن
أن نتحدث عن موقف عباس من شوقي في أول عهده بالحكم ؛ فقد أهمل
الحديدوي عباس شاعر القصر ، في بداية العهد ، ولم تكن للشاعر لدى عباس

تلك المكانة التي احتلها في عهد الخديوي توفيق ، وفي ذلك يقول داود بركات : « إن الخديوي عباساً كان يهمل شوقي بعض الاهتمام ، لا لاعتقاده . بل لأنهم أدخلوا على نفسه ان أحمد شوقي شاعر فقط ، وأنه هو بحاجة إلى رجل سياسي ، لما كان بينه وبين الانكليز من الكفاح والجلاد فاجتمع لازالة هذا التوهם من صدره المرحومون : بطرس غالى (وقد كانت به نزعة للأدب والأدباء) . وبشارة تقلا (صاحب جريدة الأهرام) ، ومصطفى كامل . و كان بطرس يطلب من الخديوي أن يسمح له بتوظيفه شوقي في الخارجية بغضفي مرتبه الذي كان يتناوله من قلم الترجمة في السראי ، وكان بشاره تقلا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليوليه تحرير الأهرام ، وتأييدها لذلك ، وضع شوقي في مكانة من الأدب وamarة الشعر ، إلى أن قربه الخديوي ، وناظط به كثيراً من المهام ، فقام بها خير قيام ، فأولاً ثقته ، وقدمه على جميع رجاله » (١) .

* * *

ولا ندرى ما إذا كان تقرير الخديوي للشاعر ، وابثاره ، من ثم ، على جميع رجاله . نتيجة مداخلات بطرس غالى وبشارة تقلا ومصطفى كامل ، وحسب ، أم نتيجة قناعة شخصية تكونت لدى الخديوي ، بأن شوقي ليس شاعراً وحسب ، بل رجلاً سياسياً من الطراز الذي يعتمد عليه ، إذا ما أولى إليه شأن من الشؤون ؟ !

كما لا نستطيع أن نصدر حكماً سليماً على كون هذا التقرير ، وهذا الإثار نعمة على شعر شوقي أم نعمة ، فالاتجاه الذي سلكه الشاعر اتجاه لا نستطيع مناقشه فيه ، الآن ، ولربما كان من حقَّ النقاد المعاصرين أن يتمتنوا لو دام الحفاء بين الخديوي عباس وشاعره ، ولو عاد شوقي إلى صنوف الشعب يتحدث باسمه لا باسم ولـي نعمته ، ويناضل من أجل قضيـاه ، لا من أجل

(١) راجع : « ذكرى الشاعرين : شاعر النيل وأمير الشعراء » - صفحة ٤٦٦ - المكتبة العربية - دمشق .

القضايا التي يربدها الحديوي ، وإنذن لازدت شاعرية شوقى تدفقاً ، بازدياد شعوره بتعثرات الحياة التي ما كان ليشعر بها ، وهو في أجواء القصر ، وبازدياد احساسه بمشكلات الناس التي كان بعيداً عنها إلى حدّ كبير ، كأنه يحيا في برج عاجي ، وما نحسب أن القصور الملكية التي تستنّ لينا زيارتها ، بعد انهايات الملكية ، أقل من البروج العاجية ، في إبعاد ساكنيها عن الناس ، ومشاكل الناس ، وهموم الناس ، وقضاياهم الحيوية .

وهكذا كتب أحمد شوقي على نفسه أن يكون ظلاً للخدبوبي، وبوقاً من أبواقه، إن لم نقل بوقه الوحيد، والمتحدث الرسمي بلسانه، دون أن يوجهه، أو يُدلي برأي معارضٍ لأيّ من آرائه، أو يرفع اليه شكوى شعبية، يُن منها المواطنون، تحت سياط جلادיהם، سواء كانوا من الأجانب أو من أهالي البلاد.

ولقد يكون أحمد شوقي وجدًا في عباس حلمي مثلاً، ورمزاً، كما ألمعنا
منذ برهة ، فلزمته ملازمة الفعل للشخص ، وتحمّلاته ، وسمع بأذنيه ،
وتتنفس برئتيه ، وأحسّ بمشاعره ، ولكن أبو الطيب المنبي الذي تأثر به
شوقي إلى أبعد مدى ، واقتضى سبيله في مدح الملوك ، واتبع منهجه في نثر
الحكم الغولي هنا وهناك في مطالع قصائده ومتونها وخواتيمها ، لكن أبو
الطيب المنبي لازم سيف الدولة الحمداني ، أمير حلب ، ومدحه ، وأكبر
مروءته ، وأنهى على خصاله وشمائله ، ووصف حروبه ، وهشّم أعداءه ،
غير أنه وإن فعل ، لبث صاحب الشخصية الطاغية المتلائمة في تاريخ دولة
بني حمدان ، بل في تاريخ الأدب العربي ، قدّمه وحدّيه ، لأنّه لم يتوارّ وراء
قصائده ، ولم يمح شخصيته إرضاء لشخصية أميره ، مثلما فعل أحمد شوقي
الذي كان دائمًا أن تلقى قصيده ، إذا ما نُشرت في الواقع المصري ، أو في
غيرها من الصحف العربية ، رضى الخديوي ، وان رضاه ليكفيه عن
رضي بقية الناس في بلاده .

فعجباً للأفواه تلبت مكمومة ، إذا حملت صدىً من هنافات الشعوب .
ولكتها تنطلق من عقابها ، إذا ما سبحت بحمد الأمير وآلاته ، بكرةً وعشيةً !

بين شوفي والمتني :

وقد بلغ من تعبية شوفي للخدبوسي أنه راح يفاخر النام بكونه شاعر «العزيز»
ومثل هذا المقام يكفيه عن كل مقام :

شاعر العزيز وما بالقليلِ ذا اللقبُ

وبيتٌ كهذا ، صعلوك إزاء موارد شوفي وعمالقه ، لا يكشف إيمانه
الشاعر بما يقول ، بمقدار ما يشفّ عن تزلف ما كان أغنى الشاعر عنه ، لأن
شاعربته لم تكن لتحتاج إلى لقب «شاعر العزيز» ، أو «شاعر الأمير» ،
هو الذي أجمع شعراء العربية ، من بعد ، على مبaitته أميراً للشعراء !

ولو كان شوفي في مثل طع المتني ، وفي مثل اعتداده بنفسه ، وهو يعيش
في كنف سيف الدولة ، لما اكتفى بلقب «شاعر العزيز» ولما هتف : «ولقد
ربيتُ بباب اسماعيلاً». بل لقال ما قاله المتني ، وهو يمدح سيف الدولة ،
ويمدح نفسه معه :

سيعلم الجمعُ مِنْ ضَمَّ مجلسنا بِأَنِّي خَيْرٌ مِنْ تَسْعَى بِهِ قَدْمٌ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي وَأَسْمَعَتْ كَلْمَاتِي مِنْ بِهِ صَمْ
الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرَفُنِي وَالسَّيفُ وَالرَّمْحُ وَالقَرْطَاسُ وَالْقَلْمَ

ولقال له أيضاً :

أَجْزَنِي إِذَا أَنْشَدْتْ شِعْرًا فَإِنَّمَا
بَشَّرَنِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ ، مَرَدَّاً

وَدَعْ كُل صوتٍ غَير صوتي ، فِإِنَّنِي
أَنَا الطَّائِرُ الْمَحْكُىُّ وَالآخِرُ الصَّدِىُّ ! !

أو لِبَلْغَ مِبْلَغاً أَبْعَدَ مَدِىًّا :

أَيَّ عَظِيمٌ أَرْتَقِي
وَكُل مَا قَدْ خَلَقَ
كُشْعَرٌ فِي هَمَّتِي
اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقَ

وإذن كان للقصر أثر عظيم في توجيه شاعرية شوقي ، سيماناً وأن تقريره من الجديوي ، جاء على أثر وساطات وشفاعات ، وعلى أثر مجازاة مقصودة أو غير مقصودة ، فكان لا بد له من التوفيق بين مقامه ، بالنسبة للشعراء ، وبين مقام الجديوي بالنسبة للأمراء ، وفي هذا يقول الأمير شبيب أرسلان : «من حيث قيل له شاعر الأمير ، آلى على نفسه أن يكون أمير الشعراء ، فانصرف بكلته إلى الشعر ، حتى تعطيه الإجادة قيادها ، ويعلم العزيز ، سيده ، أنه إن كان هو سيد الأمراء ، فإن شاعره سيد الشعراء ، وأن هذا المقام الذي يشغله شوقي برسمه ، يشغله أيضاً بنظمه .

وقد كان هذا الحرص منه على إفهام سيده أنه الشاعر الذي لا يُشقق له غبار ، والذي اتفقت على تقادمه الأقطار ، هو الذي يدعوه أن يكون أبعد من غيره نجعة ، وأوسع فتوحات عقلية ، فلا يقول الشيء الذي يقوله سائر الناس ، فكان يقضي معظم أوقاته في تجويد نظمه ، وتسديد سهمه ، في تعمير صدره بالمعاني العالية ، وشحد خاطره بالمرامي الدقيقة ، والأغراض السنوية . (١) »

* * *

(١) راجع كتاب «شوقي أو صدقة أربعين سنة» للأمير شبيب أرسلان .

والحق أن شوقي كان ، كما يقول الأمير شكيب ارسلان . غير أن تمثيل الأغراض التي عالجها ، وتشابه المواضيع التي خاص فيها . سجنت شاعريته في قفص ضيق ، فلم يتتجاوز شعر المناسبات المحلية الضيقة إلا لاماً . وإلا من خلال الحكم التي ينشرها ، عبر القصيدة ، أو من خلال العبر التي يستوحى بها من الأحداث . ولا نغالي إذا قلنا أن قيمة قصائده « الرسمية » تكمن في هذه الحكم وال عبر وحدها ، أما ما حورها من أحداث : ومن سرد أخبار ، فليس إلا هو امتداد لها وبدونها ، تكون لشوارد القوافي قمة فنية كبيرة .

ويقرر الدكتور شوقى ضيف أنه لم تكن لشوقى من رغبة إلا أن يكون ظلاً للأمير ، و «ربما كان لفساد الحياة السياسية في مصر ، حيثنى ، أثر في توجيه شوقى ، فقد نشأ وهو يرى القصر والأمير كل شيء في حياة المصريين . فهما مصدر العز والذلة ، والخض والرفة ، والجاه والسلطان . فأراد شوقى أن يفتح هذا الحصن الاسم ، وأن يكون له مجال فيه . ولو أن الحياة كانت تجري في مصر على شكل آخر ، فيه ديمقراطية ، وفيه إيمان بالشعب ، وعمل صحيح على احياءه ، لكان أحالم شوقى غير هذه الأحلام ، ولما رأيناها يجري منضوياً تحت لواء الأمير ، يسبح بحمده آناء الليل ، وأطراف النهار .

الظروف السيئة التي أحاطت بشوقي ، إذن ، هي التي صيغت حدود شاعريته ، وجعلتها محفوفة بالاشواك : في هذه الحقبة الطويلة من حياته التي تجاوزت عشرين عاماً ، فلم يعد شوقي يملك نفسه ، بل أصبح يملكه الأمير كما يملك أي شيء من ثروته ، وليس من شك في أن عباساً لم يحسن ملاك شوقي ، فقد سخره لنفسه ، وكان ينبغي أن يسخره لفنه ، وإن يقف منه موقف ملوك أوروبا من شعرها ، على نحو ما وقف قديعاً أغسطس من فرجيل ، وعلى نحو ما وقفت حديتاً إليزابت من شكسبير ، ولويس الرابع عشر من معاصريه . وقد تعلم عباس في «فيينا» ، عاصمة الفن والفنانين ، ولو أنه قرأ تاريخ عباقرها الموسيقيين : هايدن ، وموزار特 ، وبيتهوفن ، لعرف ان اسرة

هابس بورج كفلت لهم حياتهم الفنية ، كما ارادها ، ولم تجعل منهم تابعين ولا خدمأ لها . بل أحنت رؤوسها لهم ، وأبدتهم بكل ما استطاعت من مال وجاه .

وكان ينبغي لعباس أن يصون كرامة شوقي ، وأن يمده بالمال الذي يريده ، حتى يتقد هذا القبس المبارك في شاعره ، إذن كنا نعد عباساً حامياً للآداب في عصره ، ولكنه لم يচنع ، ولم يحاول ، بل استمر يشد البيل من خيط في اساته ، ليتملقه ويداهنه ، ويعنيه بما يشاء ويбоئ . » (١)

* * *

حياة شوقي الخاصة :

هذا ، فيما عن حياة شوقي « الرسمية » في قصر الخديوي عباس ، حيث تولى رئاسة القلم الأفرنجي ، فضلاً عن كونه شاعر الخديوي . أما في بيته ، فقد كان يحيا حياة متفرقة أخرى ، تبقى ، وان أبعدته عن رسميات القصر ، عاجز عن انبعده عن الأرستقراطية التي كانت تصطف الناس في مصر ، والتي تصنفهم وفي كل مكان وزمان ، سادةً وعبيداً ، فكان طبيعياً بالنسبة لشاعر « العزيز » أن يختار ، وقد أمكنه الاختيار ، حياة السيادة على حياة العبودية ، فإذا به ينشيء في المطرية بالقاهرة ، منزلًا فخماً أطلق عليه اسم « كرمة ابن هاني » ، ثمثلاً بل تبركاً بأبي نواس ، شاعر الحمرة في الأدب العربي ، غير منازع حيث كانت تدار الحمرة على زائفي شوقي ، في قاعة الاستقبال ، ومن قاعة أخرى كان يتناول صوت المطرب الكبير محمد عبد الوهاب ، فاجتمع لشوقي زينة الحياة الدنيا : المال ، وهو موفور لديه ، والخديوي لا يصن على شوقي بشيء منه ، والبنون : ابنيان اسمهما علي وحسين ، وابنته أسمها أمينة .

(١) راجع « شوقي شاعر العصر الحديث » للدكتور شوقي ضيف - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - صفحة ٢٥ و ٢٦ .

وفي كتاب وضعه عن شوقي ، كاتبه أحمد عبد الوهاب أبو العز ، نقرأ أطراً وألواناً من حياته الحالية منذ عام ١٩٢٠ ، حيث يذكر لك الكثير من مباحث تلك الحياة ، بورودها وعطورها ورياحينها ، حتى لقد غدا الشاعر تناول الحياة كثيروماً صافية (١) .

ونحن ، إذ نذكر ذلك ، عن أحمد شوقي ، لأن رغب في تحويل كلامنا أي صنف من الانتقاد أو أي لون من الانتقاد ، لا بل نحن ، على عكس ذلك ، نقر للشاعر بحقه في الحياة البهيجية الأنيسة ، بعيداً عن المتابع والمصابع والمصائب ، خصوصاً والشاعر إنسان مرهف الحسّ ، رقيق الشعور ، جيائش العاطفة ، يستطيع أن يملأ الحياة فيضاً من الجبور والمرارات ، إذا هو أعني من مشاق العيش ، وضيق مسالك الأرزاق .

ومن الغرابة بمكان كبير أن ينعقد شبه اتفاق بين النقاد والمؤرخين على أنَّ من مستلزمات الشعر ، عيش الشاعر وسط الحرمان والجوع والفقير والعوز ، حتى تتفجر الشاعرية دفقة إلهام وسحر وعطاء .

والواقع أن الشاعرية إن تدفقت بسبب الحرمان والجوع ، فهي تتدفق حقداً على البشرية ، وتتفجر سياطاً موجعة على ظهور الموسرين والأغنياء .

أما إذا تدفقت الشاعرية ، وهي لا ريب متدفعـة ، بسبب النعمة والرخاء والهناء ، فهي تسير مطمئنة ، بل مشيعة الطمأنينة والفرح والسعادة في نفوس البشر ، ومن ثم تترنم بمثل ما ترنم به أحمد شوقي :

حَفَّ كَاسِهَا حَبَّاً فَهِيَ فَضَّةٌ ذَهَبُ
أَوْ دَوَائِرُ دَرَرٌ مَائِجٌ بِهَا لَبَبُ (٢)

(١) رابع كتاب «اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء» لأحمد عبد الوهاب أبو العز صفحة - ٨٩ .

(٢) لب : موضع القلادة من الصدر .

أَوْ فِمْ الْحَبِيبِ جَلَّ
عَنْ جُمَانِيهِ الشَّنَبُ (١)
أَوْ يَسَادَهُ بَاطِنُهَا
عَاطِلٌ وَمُخْتَضِبٌ
أَوْ شَقِيقٌ وَجَنْتَهُ
حِينَ لَيْ بِهِ لَعِبٌ
رَاحَةُ الْنُفُوسُ، وَهَلْ
عِنْدَ رَاحَةٍ، تَعَبُ؟ !

إِنَّهَا ، وقد قالها شوقي نفسه ، راحةُ النُفُوسُ ، يسعى إليها المرءُ جاهداً ، ولربما لم تكن راحةً للنُفُوس حقاً ، على أننا لا نسمع لأنفسنا بمناقشة من يقول بها ، طالما هو مؤمن بها ، أو على الأصح ، طالما يخيل إليه أنه مؤمن بها .

ذلك أن الشاعر أو المصلح الاجتماعي أو السياسي إذا لم يستطع أن يجعل الغنى مشاعراً بلحيم الناس ، فليست ما يحول دون إقباله بنفسه على أسباب الغنى ، جاهداً ، في كل حال . ألا يجعل الفقر مشاعراً بلحيم الناس .

وبمثل هذا المفهوم يجب أن ينظر إلى الاشتراكية السليمة التي إنما تقوم ، مبدأ وواقعاً ، على إزالة أسباب التفاوت بين أفراد الشعب ، من أجل تحقيق تكافؤ الفرص ، ومن أجل رفع الامكانيات والطاقات والكافاءات الشخصية ، فوق الأنساب والانتماءات الطائفية أو العنصرية ، وبذلك لا تمنع الاشتراكية الغنى ، بل تعمد بقوة إلى تحريم الفقر الذي كاد أن يسمى كفراً ، على حد تعبير الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

ولكن إذا كان هذا رأينا في موضوع الغنى والفقير ، بالنسبة إلى الشاعر ، أي شاعر ، وبالنسبة إلى أحمد شوقي بالذات ، فليس معنى ذلك أن على الشاعر أن يكتفي بالغنى لنفسه ، بل عليه ، وإن استغنى ، أن يكون صوت الأمة المادر ، وضميرها اليقظ ، ووجданها الحبي . عليه أن يترنم بآمالها ، وأن

(١) جمانه : نولئه - الشنب : عنوية الأسنان .

يترجم آلامها ؛ عليه أن يوصل إلى أسماع المحاكمين مطالباتها وشئونها وشجونها ،
لأنه يسمع الأمة أوامر المحاكمين ، ورغباتهم العلية .

وشوقي لم يكن في الحقيقة إلا غنيّاً بنفسه ولنفسه ، سجينًا في القصر ،
«يعيش - على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف - في التواطأ والمحاورة ، مع
الإنكليز أحياناً ، ومع الشعب أحياناً ، ثم مع من يريدون الرتب والألقاب أو
الجاه والمناصب . وكان لا يترك القصر إلا ليجلس إلى أسرته الارستقراطية أو
مع من يشاكلونه من الأغنياء ، ولم يكن يجلس إلى الشعب ، ولا يخالط
بأوساطه وأنماطه ، فطبعي من أجل ذلك أن لا يكون بوقاً للشعب ، وإنما يكون
بوقاً للقصر وأميره ، يتكلم حين يريد هذا الأمير ، ويصيّبه الخرس حين
يريد » .

ذلك ما كان من أمر شوقي ، وهو في قصور أسرة محمد علي باشا ، فما
كانت حاله ، في المنفى وبعده ؟ !

أحمد سوقي في المقدمة

تمهيد تاريخي

نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وانقسم العالم إلى كتلتين متصارعتين ومن سوء حظ الشرق أنه كان ساحة لأكثر معارك تلك الحرب ضراوة ، فإذا بالخسائر التي أصابت الشرق عامة ، والشرق العربي خاصة ، أضعاف أضعاف ما أصاب غيرها من بلاد العالم ، سواء في الأرواح ، أو في المنشآت .

ومهما حاولنا أن نقصص الأسباب التاريخية التي تقف وراء نشوب الحرب العالمية الأولى ، فإننا ، ولا ريب ، واقعون على سبين جوهريين لهذه الحرب وهما :

أولاً : الأحقاد الدفينة في نفوس الدول الغربية التي لبست تحملها منذ انهزام الحملات الصليبية في الشرق حتى اندلاع نار الحرب العالمية الأولى .

ثانياً : ضعف الخلافة العثمانية ، وتفكك الروابط التي كانت تشد البلدان الواقعة تحت السيطرة التركية إلى بعضها البعض ، بحيث كانت في الماضي أمبراطورية لا تغيب الشمس عن أرضها ، فتحولت بفضل عدد من العوامل التي تلازم الدول ، عند انهيارها ، إلى رجل مريض تتناوب الدول على العبث به ، وتمني النفس بوراثته ، والحلول محله ، في حكم الشرق .

ولا بد من أن نسجل في هذا المقام ، ذلك الدور الكبير الذي لعبته العناصر الداخلية على الأمة العربية ، ولا سيما منذ العهد العباسي إجمالاً ، ومنذ عهد

الخليفة المأمون بالذات ، حيث بدأت العناصر الأعجمية ، وعلى الأخص العنصر الفارسي ، تتحكم بالخليفة ، وتعلي عليه إرادتها ، وتوجه شؤون الامبراطورية الإسلامية وفق أهوائها ، وبدافع من الحركة الشعوبية التي ما تزال حتى هذه الأيام تذر قرها ، في كل مناسبة ، تحت ستار من الدعاوات والشعارات التي لاتمت إلى المصلحة العربية في شيء كثير أو قليل .

فمنذ أن اندست عناصر أعجمية في جسد الدولة العربية ، بدأت العنصرية المختلفة تبرز هنا وهناك ، عاملة إلى إضعاف شأن العرب ، ولو بهدم الهيكل على رؤوس القائمين فيه ، فآلت حالة الخلافة العباسية ، في دورها الثالث ، إلى ما نعرفه من تفكك ، وإلى استقلال الأمراء بشؤون المناطق الواقعة تحت حكمهم ، حتى بتنا نطلع على ازدواجية في الحكم ، من حيث متولى السلطة : فالخليفة في بغداد لا يعلم شيئاً عما يجري في الدول المستقلة ، من من حمدانية ، وطرونية ، وإخشيدية ، وغيرها . ولو لا رابطة الإسلام ، والولاء الديني للخليفة ، لكان كل عهد للدول المستقلة بالخلافة قد انقطع إلى غير رجعة .

ثم إن تغلب العنصر التركي ، في أواخر الدور الثالث من العهد العباسي ، نقل الخلافة من العرب إلى الأتراك ، وعادت الهيبة للخلافة من جديد ، ولكن الولاء انتقل ، هذه المرة ، من تقديم العرب على غيرهم ، إلى تقديم الأتراك حتى على العرب الذين منهم محمد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفيهم أنزل القرآن الكريم .

وكان مصر ، دوماً ، قبلة الأنظار ، في تقلبات عهود الخلافة ، وعلى الأخص في عهد الخلافة العثمانية . ولقد شهدت مصر ، منذ حملة نابوليون بونابرت عام ١٧٩٨ التي كانت ، في جوهرها ، امتداداً للحروب الصليبية ، مهما حاول بعضهم أن يضفي عليها من أسباب المدينة والتمدن ؛ شهدت مصر ألواناً من التقلبات السياسية ، كانت ثورة أحمد عرابي عام ١٨٨١ إحدى صورها ، وذلك إلى أن تم الاحتلال الانكليزي لها .

وئمة حادثة في تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية و مصر ، ينبغي ألا نمر بها مروراً عابراً ، وهي حادثة قيام محمد علي باشا بمحاولة احتلال تركيا ، بعد أن أصابها الضعف ، وغدت مطمعاً للروسيا ، ولغيرها من الدول المحيطة بها . والحقيقة أن محمد علي ما كاد يقارب الأستانة حتى اثمرت به كل من بريطانيا وفرنسا والروسيا ، خوفاً من قيام حكومة قوية في العاصمة العثمانية من جهة ، ومن جهة ثانية ، لذا يوطّد ركني القوة والعلم في عاصمة وادي النيل .

ولولا أن نهوض الدول الثلاث في وجه محمد علي كان من أجل الدفاع عن تركيا همان الأمر . ولكن هذه الدول ، وعلى الأخص الروسيا ، لم تستثن الحرب تلو الحرب ، وتفتعل الغارة تلو الغارة ، إضعافاً للدولة العثمانية ، فانتهت حروب الامبراطورة الروسية كاترين عام ١٧٩٢ بعد حمود الروسيا إلى الدنیستر ، كما سلخت اليونان ، بفضل تامر انكلترا وفرنسا والروسيا ، عن جسم الدولة العثمانية ، ولو لا حرب ١٨٧٧ بين الروسيا وتركيا التي انتهت بانتصار عثمان باشا على الروس ، بعد أن دافع عن « بلقنا » دفاع الأبطال ، لما بقي للأتراك أي أثر للسلطة في الجزء الأوروبي من الدولة ، ولا نهارت الخلافة انهياراً تاماً .

في هذه الأثناء ، لبى المصريون ، يتعلّقون بالخلافة تعلقاً دينياً صرداً ، دون أي شعور ، أو اقتناع بضرورة الإبقاء على الارتباط السياسي بالدولة العثمانية ، وهكذا تمكّن الخديوي اسماعيل عام ١٨٧٣ من استصدار فرمان من السلطان العثماني أقرّ له بموجبه بأن يستقل في شؤون إدارة الدولة المصرية ، والتشريع لها ، وإنشاء الجيش الذي يستطيع الدفاع عن حمودها .

وكان من المعقول جداً أن تطمح الدولة المصرية ، كما طمع العرب في اختلاف ديارهم ، إلى التخلّص من السيطرة العثمانية السياسية ، وإن كانوا يشعرون بلون من الانعطاف الديني نحوها ، وذلك تمهدًا للتخلّص من كل

سيطرة سياسية أخرى ؛ وهكذا وجدنا مصر والعرب يتعاونون هذه الغاية مع الدول التي تمنّهم الألماني . وتعدهم الوعود بالحرية والاستقلال ، وفي طليعة دول « الوعود » البرّاقة بريطانيا وفرنسا والروسيا .

ولما آتت بريطانيا انعدام التبعية السياسية تقريرًا بين مصر وتركيا . عمدت إلى مطالبة الخديوي اسماعيل بما يُدعى « الديون المصرية » ، وبذلك مهدت خلعه . وإلى احتلال مصر ، بعد ثورة أحمد عرابي . اقتضاء لمدينتها . كأنما ديون الدولة توجب فقدانها لأسباب الحرية والاستقلال .

خلع عباس عن عرش مصر :

وبعد الخديوي اسماعيل اعتلى عرش مصر الخديوي « توفيق » . وبعد ذلك الخديوي عباس حلمي .. وكان هذا الأخير معروفاً بعدائـه للإنجليز (وقد أمعنا إلى بعض مظاهر هذا العداء في الفصل السابق) . فلما أن نشبـت الحرب العالمية الأولى ، وعباس في الآستانـة ، بعيد عن عاصمة ملـكه ، أبـت بـريطـانيا عليه الرجـوع إـلى مصر ، وتحقـقـ فيها قولـ المـثلـ العـاميـ : « لـيـسـتـ هـذـهـ حـبـةـ رـمـانـةـ ،ـ ولـكـنـهاـ قـلـوـبـ مـلـانـةـ » . وهـكـذاـ خـلـعـتهـ عنـ العـرـشـ . بـعـدـ أـنـ أـعلـنـتـ حـمـاـيـتهاـ عـلـىـ مـصـرـ . وـعـيـنـتـ مـكـانـهـ قـرـيبـهـ « السـلاـطـانـ حـسـينـ كـامـلـ » الـذـيـ كانـ يـكـنـ الـولـاءـ لـبـريـطـانـياـ .

لم تكتفـ بـريطـانياـ بـرأـسـ عـبـاسـ حـامـيـ . بلـ رـغـبتـ فـيـ أـنـ تـطـيـحـ بـالـرـؤـوسـ الـيـ تـعاـونـهـ أـوـ تـواـلـيـهـ جـمـيعـاـ ،ـ وبـذـلـكـ رـاحـتـ تـبـدـلـ مـوـظـفـيـ القـصـرـ وـتـغـيـرـهـمـ .ـ فـرـفـصـ الـكـثـيرـوـنـ مـنـهـمـ أـنـ يـقـوـاـ فـيـ الـمـنـاصـبـ الـيـ عـهـدـ بـهـاـ لـيـهـمـ .ـ وـفـأـ مـنـهـمـ لـلـخـدـيـوـيـ عـبـاسـ .ـ عـدـوـ الـانـجـلـيـزـ .ـ وـتـقدـمـواـ باـسـتـقـالـهـمـ مـنـ وـظـائـفـهـمـ ،ـ وـكـانـ أـحـمـدـ شـوـقـيـ أـوـلـ الـمـسـتـقـيـاـنـ .ـ

نفی شوقي

وكانت السلطة الانكليزية . وأعوانها في مصر . على علم تام بالمكانة الفكرية والسياسية التي يحتلها أحمد شوقي . لذلك طلب إليه أن يغادر البلاد ، وأن يختار له منفى في قطر محايد . فاختار بلاد الأندلس منفى له ولأسرته . ورفعت السفينة سلاسلها من بور سعيد . وألقت بشوقي وأسرته على ساحل إسبانيا في برشلونة ، فنزل في فندق فيها ، ثم أقام في ضاحية جميلة من ضواحيها تدعى « فلغميرا » . وهي ترتفع كثيراً عن سطح البحر . فكان يمتنع بهذا الارتفاع . وبما حوله من غابات الصنوبر ومشاهد الطبيعة الرائعة ، كما كان يمتنع برؤية البحر . والسفن غادية رائحة على برشلونة .. وعلى هذا النحو لم يعد شوقي يحيا حياته الرتيبة التي كانت تبدأ من « كرمة ابن هاني » إلى القصر . ثم تعود أدراجها من القصر إلى « كرمة ابن هاني » : فهذه الدورة من حياته قد دخلت في عالم الظلال إلى غير رجعة . وخاتمتها دورة جديدة . انتقل فيها الشاعر إلى عالم النور . حيث لا ترهقه قيود القصر وأغلاله ولا أفاعيه وسمومه .

و مع أن هذه الدورة الجديدة كانت فرصة هنية لربة الشعر : فإن شوقي لم يستقبلها بالفرح . بل استقبلها بالحزن والألم لغراق الوطن . وقلة المال وتعذره أحياناً بسبب الحرب . ولم يكن شوقي يعرف قبل ذلك الحزن . فقد كانت حياته تجري على وثيره واحدة من اللهو والمرح . فلما حيل بينه وبين عشه أحسَّ بغير قليل من الألم . بل أخذ يصهر الألم نفسه ، وكان شعرنا المصري الحديث محتاجاً إلى أن يصهر الألم نفس شوقي . حتى تصبح نفسيّة . وحتى يقترب شوقي من جمهور وطنه . وما يمكن ظُلْ به صدره من هموم » (١) .

(١) «شوق شاعر العصر الحديث» صفحة ٣٢ و ٣٣ .

ولم يمكث أحمد شوقي رهيناً للهموم والأحزان ، في دارته بضاحية برشلونة بل اغتنمتها فرصة مناسبة ليجوس رحاب «بلاد المجد المفقود» ، ويعيش مع العرب الأماجد : عبر صفحات التاريخ التي خطّت في ما تبقى من قصورهم ومساجدهم ومدارسهم . ويرافق موكب النصارىتهم الظافر ، فيما ساكنه من دروب الظفر . حتى لقاء باتت حبات الرمال وكأنها تتحدث عن آثار المجد العربي المدارس في الأندلس .

تأثير شوقي بالبحترى

وكان من شأن هذا التجوال أن يطلعه لا على الآثار الأندلسية العربية وحسب وإنما اطلع أيضاً على ما كتبه شعراء العربية في بلاد الأندلس وتأثر بهم أياً تأثر ، حتى لم يمكننا أن نطلع على الكثير من المعارضات الشعرية الموقعة التي نظمها شوقي على منوال عدد من القصائد الأندلسية الشهيرة .

ولقد كتب شوقي في «الشوقيات» مهدداً لإحدى قصائده :

«لما وضعت الحرب الشُؤُمى أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه وهنَّاك إزارها . ورمَّ لم ربوع السلم وجداً مزمارها . أصبحت وإذا العوادي مقصرة . والدواعي غير مقصرة : وإذا الشوق إلى الأندلس أغاب . والنفس بحق زيارته أطلب . فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجد ، والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط بلغت النفس بمرآه الأرب ، واكتحلت العين في ثراه بآثار العرب : وإنها لشَّي الواقع . متفرقة المطالع . في ذلك الفلك الجامع . يسري زائرها من حرم ، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالحرم . فلا تقارب غير العنق والكرم : (طلبيطلة) تظل على جسرها البالى . (وأنشيلية) تُشبل على قصرها الحالى : (وقرطبة) مُنتبذة ناحية

باليبيعة الغراء ، (وغرنطة) بعيدة مزار الحمراء ، و كان « البحري » رحمة الله رفقي في هذا الترحال ، وسميري في الرحال . والأسوال تصلح على الرجال . كل رجل الحال ، فإنه أبلغ من حلّي الأثر ، وحينا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، ومن قال في ماتم على الدول الكبير ، والملوك البهاليل الغرر ، عطف على (الجعفري) حين تحمل عنه الملا ، وعطّل من الخلّي ، ووكل بعد (المتوكل) للبلي . فرفع قواعده في السير ، وبني ركته في الخبر ، وجمع معالله في الفكر : حتى هاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن خلا البصر؛ وتكفل بعد ذلك (الكسرى) بإيوانه ، حتى زال عن الأرض ديوانه .

وسينيته المشهورة في وصفه ، ليست دونه وهو تحت (كسرى) في رصّه ورصفه . وهي تريلك حسن قيام الشعر على الآثار ، وكيف تتعدد الدبار في بيته بعد الاندثار . قال صاحب الفتح القسّي في الفتح القدسي بعد كلام « فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحري في وصفه ، تجدوا الإيوان قد خرت شعفاته ، وعمّرت شرفاته ، وتجدوا سينية (البحري) قد بقى بها (كسرى) في ديوانه . أصعب ما بقى شخصه في « إيوانه » وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها :

صنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَّعَتْ عَنْ نَدِي كُلَّ جِبِسٍ

والتي اتفقا على أن البديعَ الفردَ من أبياتها قوله :

وَالْمَنَابَا مَوَاثِلُ وَأَنْو شِرْوان يُزْجِي الصَّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفِسِ

فكنت كلما وقفت بحجر . أو طفت بأثر . تمثلت بأبياتها . واسترحت في موائل العبر إلى آياتها وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :

وَعَظَ الْبَحْرِيَّ إِيْوَانَ كِسْرَى وَشَقَّتْنِي الْقَصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي وأعابله على هذا الوزن حتى
نظمت هذه الفافية المهللة ، وأتممت هذه الكلمة الريضة . وأنا أعرضها
على القراء راجياً أن سيلحوظونها بعين الرضا . ويسحبون على عيوبها ذيلَ
الإغصاء «(١) :

وما يقوله أحمد شوقي في هذه المقصدية :

اختلاف النهار والليل يُنسِي أذْكُرَا لِي الصبا وَأَيَّامَ أُنْسِي
وصِفَا لِي حلاوة من شبابِ صورَت من تصورات ومنس
عصفت كالصبا اللعب ومرَّت
سنةً حلوة ، ولذة خلس
وسلا مصر هل سلا القلبُ عنها
أو أَسَا جرحه الزمان الموسي
كلَّما مرَّت اللَّيالي عليه
رقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيالي تُقْسِي
مُستطار إِذَا الْبَوَاحِر رَنَّت
أَوَّل اللَّيْل ، أو عَوَّت بعد جرسِ
راهبٌ فِي الْضُّلُوع للسفن فَطَن
كلَّما ثُرَن شاعهنَ بنقَس ،

(١) راجع «الشوقيات» الجزء الثاني - الصفحة ٤٣ و ٤٤ .

يا أبنةَ الْيَمِّ مَا أَبُوكَ بخيِلُ
 مالهِ مولعاً بمنعِ وحبسِ
 أَحْرَامٌ على بِلَابِلِ الدُّوَّ
 حُ ، حلالٌ للطير من كُلِ جنسِ ..
 وطنِي لو شُغلتُ بالخُلُدِ عنِهِ
 نازعنيِ إِلَيَا في الْخُلُدِ نفسيِ
 شهدَ اللَّهُ لِمْ يغُبْ عَنِ جفونيِ
 شخصِهِ سَاعَةً ، وَلَمْ يخلُ حَسِيْ .

إلى أن يقول في آخرها :

ربَّ بَانِ لَهَا دَمُ ، وَجَمْوَعُ
 لِمَشَتُ ، وَمَحْسِنُ لِمُحْسِنُ ،
 إِمْرَةُ النَّاسِ هَمَّةُ لَا تَأْتَى
 لِجَبَانٍ ، وَلَا تَسْنَى لِجَبْسِ ،
 وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ
 وَهِيُ خُلُقِ ، فَإِنَّهُ وَهِيُ أَسَّ !

تأثير شوقي بابن زيدون

وتأثر أحمد شوقي ، وهو في بلاد الأندلس ، بشعر ابن زيدون ، حتى
لتحسب أن قصيادة التونية التي عارض بها قصيدة ابن زيدون . هي تتمة لها . أو
هي من صلبها ، نظراً للتقارب العظيم بين عاطفي شوق ابن زيدون إلى
محبوبته « ولادة بنت المستكفي » الشاعر ، وشوق شوقي إلى محبوبه الأكبر .
وطنه مصر .

وفي هذه القصيدة يذوب شوقي رقة ، وحنيناً ، وحناناً ، بُضاف إلى ذلك
جرس موسيقي رائع ، وقافية رناثة حزينة . يقول في مطلعها . مخاطباً حمامه
« وادي الطلع » الذي كان المعتمد بن عباد شديد الولع به ، ومتحدثاً عن
عادى الدهر ومصابيه :

يَا نَائِحَ « الْطَّلَعَ » ، أَشْبَاهُ عَوَادِينَا

نَشْجِي لَوَادِيكَ ؟ أَمْ تَشْجِي لَوَادِينَا ؟

مَاذَا تَقْصُّ عَلَيْنَا غَيْرَ أَنَّ يَدَا

قَصَّتْ جَنَاحَكَ ، جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا

ثُمَّ يَقُولُ :

يَا سَارِي الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا

بَعْدَ الْهَدْوَءِ ، وَيَهْمِي عَنْ مَاقِينَا ،

لَا تَرْقُرُقْ فِي دَمَعِ السَّمَاءِ دَمَا

هَاجَ الْبُكَّا ، فَخَضَبَنَا الْأَرْضَ بَاكِينَا

الليلُ يشهدُ لِمْ تهتكُ دِياجيَّه
عَلَى نِيامٍ ، وَلَمْ يَهْتَفْ بِسَالِنَا
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَنَا إِلَّا عَلَى قَدْمٍ
قِيَامٍ لِيلَ الْهُوَى ، لِلْعَهْدِ رَاعِينَا
بِاللهِ إِنْ جُبْتَ ظَلْمَاءَ الْعُبَابِ عَلَى
نِجَابِ النُّورِ ، مَحْدُوًّا (بِجَرِيَّنَا)
تَرَدَّ عَنْكَ يَدَاهُ كُلَّ عَادِيَّةٍ
إِنْسَانًا يَعْشُنَ فَسَادًا أَوْ شِيَاطِينَا
حَتَّى حَوَّتْكَ سَمَاءَ النَّيْلِ عَالِيَّةً
عَلَى الغَيْوَثِ وَإِنْ كَانَتْ مِيَامِينَا
وَأَحْرَزْتَكَ شَفَوْفُ الْلَّازُورْدِ عَلَى
وَشِي الزَّبْرَجَدِ مِنْ أَفْوَافِ وَادِينَا
وَحَازَكَ الْرِّيفُ أَرْجَاءَ مُورَّجَةً
رَبَّتْ خَمَائِلَ ، وَاهْتَزَّتْ بَسَاتِينَا

فقفْ إِلَى الْنَّيلِ وَاهْتَفْ فِي خَمَائِلِهِ
 وَانْزَلْ كَمَا نَزَلَ الطَّلْلُ الْرَّيَاحِينَا
 وَآسِ مَابَاتَ يَذْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا
 بِالْحَادِثَاتِ ، وَيَضُوِي مِنْ مَعَانِينَا
 وَيَقُولُ أَيْضًا :

نَحْنُ أَلْيَوَاقِيتُ خَاصَّ الْنَّارَ جَوَهْرُنَا
 دَامْ يَهْنَ بِيَدِ الْتَّشْتِيتِ غَالِينَا
 وَلَا يَحُولُ لَنَا صَبْغٌ وَلَا خُلُقٌ
 إِلَّا تَلَوَّنَ كَالْحَرَبَاءِ شَانِينَا
 لَمْ تَنْزِلْ الشَّمْسُ مِيزَانًا وَلَا صَعْدَتْ
 فِي مَلْكَهَا الضَّخْمُ عَرْشًا مِثْلَ وَادِينَا
 أَلْمَ تَوَلَّهُ عَلَى حَافَاتِهِ ، وَرَأَتْ
 عَلَيْهِ أَبْنَاءَهَا الْغُرُّ الْمَيَامِينَا ؟ !

* * *

ثُمَّ إِنْ شُوقي نَفْسَهُ يَعْرَفُ بِالتَّطْوِيرِ الْخَطِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى نَفْسِهِ : بَعْدِ الْحَرَبِ
 الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى ، إِثْرَ نَفِيَهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، حِيثُ يُوضَعُ أَنَّهُ ، فَضْلًا عَنْ تَأْثِيرِهِ
 بِالشِّعْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ : كَمَا ذَكَرْنَا مِنْذَ قَلِيلٍ . فَقَدْ اطَّلَعَ عَلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
 بِكَامِلِهِ ، وَقَرَأَ شِعْرَاءَهُ جَمِيعًا ، وَأَخْتَزَنَ فِي وَجْدَانِهِ مَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ مُشَاعِرٍ

وَفِكْرٍ . فَتَرَاهُ يَرْدُ عَلَى سُؤَالٍ وَجَهْتِهِ إِلَيْهِ مَجَلَّةُ «الْمَلَلُ» عَام ١٩٢٩ عَنْ أَهْمَمِ حَادِثٍ أُثْرَ فِي حَيَاةِهِ . وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَدَادِ اسْتِفْنَاءِ أَدْبِيِّ عَامِ أَجْرِتِهِ الْمَجَلَّةُ المَذْكُورَةُ مَعَ عَدْدٍ مِنْ رِجَالَاتِ مَصْرُ . فَيَقُولُ :

«إِذَا عُزِّيَ إِلَى الْحَرْبِ الْكَبِيرِ الْكَثِيرُ مِنَ التَّغْيِيرَاتِ وَالانْقلَابَاتِ فِي أَنْظَمَةِ الْعَالَمِ . وَشَوَّهَنَهُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالْأَدْبَرِيَّةُ ، فَإِنِّي أُعْزُوُ إِلَيْهَا هَذَا الْأَثْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَحْدَثَهُ فِي بَعْرَى حَيَايِيِّ . وَكَانَ لَهُ فَضْلٌ كَبِيرٌ فِيمَا نَلَّتُهُ مِنْ مَكَانَةِ الْأَدْبَرِ وَامْتِلَاكِ لِنَاصِيَّةِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ .

ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَا وَقَعَتِ الْحَرْبُ الْكَبِيرُ . وَشَمَلَ الْعَالَمَ هَذَا الاضطَرَابُ الشَّدِيدُ . وَانْضَمَتْ تَرْكِيَا إِلَى الْأَلْمَانِ ، عَمِدَتْ انْكَلَتْرَا إِلَى قَلْبِ نَظَامِ الْحُكْمِ فِي مَصْرُ ، وَأَعْلَنَتْ اِنْتِهَاءَ حُكْمِ الْخَدِيُوْيِيِّ عَبَاسِ حَلْمِيِّ الثَّانِيِّ . ثُمَّ أَخْدَتْ تَنْفِيَّةً عَنْ مَصْرٍ كُلِّ مِنْ لَهُمْ بِهِ صَلَةٍ . فَأَمْرَتْنِي بِالرِّحْيلِ إِلَى إِسْبَانِيَا ، فَجَمِعَتْ عَائِلَتِي وَاصْطَحَبَتْ مَكْتَبِي وَسَائِرَ مَرَافِقِي . وَغَادَرْتُ مَصْرُ إِلَى بَرْشُونَةِ : . وَأَدْخَلَتْ أَوْلَادِي فِي بَعْضِ مَدَارِسِهَا الرَّاقِيَّةِ ، ثُمَّ عَكَفَتْ عَلَى قِرَاءَةِ كُتُبِ الْأَدْبَرِ الْعَرَبِيِّ . فَاسْتَوْعَبَتْ مِنْهَا مَا لَمْ أَكُنْ قَدْ اسْتَوْعَبْتُهُ ، وَطَالَعَتْهَا كُلُّهَا حَتَّى أَكَادُ أَقُولُ : إِنَّهُ لَيْسُ فِي الْأَدْبَرِ الْعَرَبِيِّ كِتَابٌ لَمْ أَسْتَوْعَبْهُ خَلَالِ السَّنِينِ الْخَمْسِ الَّتِي مَكَثَتْهَا فِي إِسْبَانِيَا » .

وَكُنْتُ فِي خَلَالِ ذَلِكَ أَكْتَبُ مَا يَعْنَّى لِي مِنْ نَثْرٍ أَوْ شِعْرٍ ، فَأَلَّفْتُ جُزْءاً كَبِيرًا مِنْ «أَسْوَاقِ الْذَّهَبِ» ، وَنَظَّمْتُ قَصِيْدَةً تَارِيخِيَّةً تَبْلُغُ أَلْفَ بَيْتٍ عَنْ دُولِ الْعَرَبِ مِنِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى مَهَايَةِ دُولَةِ بَنِي عَبَاسٍ» (١)

* * *

(١) راجع مجلَّة «المَلَلُ» - مجمُوعَةُ عَامِ ١٩٢٩ - السَّنَةُ ٣٨ - الْبَعْضُ الْأَوَّلُ - عَدْدُ نُوفُمْبَرِ ١٩٢٩.

أسواق الذهب

وما يقوله شوقي في كتابه : «أسواق الذهب» الذي أشار إليه في حديثه إلى مجلة «الهلال» :

«إذا تعلمت فتأدب ، وإذا تأدبت فتعلم . فإن فقر العلم إلى البيان ، فقر الخطيب إلى اللسان . أو الكاتب إلى البيان . وإن حاجة البيان إلى العلم حاجة القلم إلى الأنامل . أو اليد إلى محرك من الحسن عامل .

علم لا أدب معه ، عود بلا وتر . وسحاب ليس فيه مطر . وريحان غير نصر ولا عطر . وأدب لا علم معه . قالب ولا سبائك . ومنوال ولا حائلك » .

أتُرى كان في هذا الكلام رجعٌ لما في نفس شوقي من نفسه . إذ كان معروفاً عنه أنه لا يحسن البيان . ولا يُتقن الخطابة . ولا يجيد الإلقاء . حتى لقد كان يكلف الآخرين ، في الاحتفالات . بإلقاء قصائده . خلافاً لحافظ ابراهيم الذي كان معروفاً بسيطرته على سامعيه : نظراً لما وُجهه من مقدرة خطابية فائقة ، وطلاقة بيانية مبدعة .

وفي «أسواق الذهب» ، يتحدث أحمد شوقي عن العمل ، فيقول :

«متخذ الراحة عادة . مقتضي عليه بالبلادة ، وضجيج الدعة ، ما أضيعه ، وما أشأم مضجعه ؛ ومحالف البيت . حيّ كميت ؛ فيما أخا اليسار ، الضياع والعقار : لا تبين قعيد الدار . ولا تخلي بالنفس الأمارة ، وقم إلى مالك فأحسن استثماره . وزده إصلاحاً يزدك عمارة .

ويأيها الضارع لفقره . الضاجع في عقره . تأمل بعين الإفادة ، هل زادك التعود إلاذفة ؟ إن باليد المتبطلة لشلا . وإن نعم القدم المتعطلة لزللا . قم فاحترف ، ولد تعيشنَّ خبلاً على قرابتك . عيالاً على صحباتك . واعلم أن الكناس أشرف ممَّن يسأل الناس » (1)

(1) راجع مجلة «الهلال» - ج ٢ - م ٣٥ - ص ١٣٨ - عام ١٩٢٦ .

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية وضعت أوزارها . فقد تلكلأت الحكومة المصرية ، بوحي من الانكليز . في استدعاء الشاعر من منفاه : حتى إذا آذن الله بإصدار العفو عنه . أبخر مع أسرته إلى جنوبي . ومنها إلى البندقية . حيث استقل أول بآخرة تبارح أوروبا إلى مصر .

وما إن بلغ القاهرة حتى خرج الشعب المصري عن بكرة أبيه ، يستقبله ، ويحتفي به ، ويروى أن الجموع حملته على الأعنق ، والدموع تنهمر من عينيه . فقد اعتبره شعبه بطلاً من أبطاله . لا يهادن الاستعمار ، ولا يتواطأ مع الأعداء على حكام وطهه ولا على أبناء شعبه ، ولا ريب في أن هذا الاحتفاء الكبير بالشاعر الكبير كان له عظيم الأثر في نفسه . الأمر الذي جعله ، في شعره ، يتوجه اتجاهها جديداً ينافق اتجاهه الأول ، يوم كان سجين قصر أسرة محمد علي .

شوفي وامارة السر

عاد أحمد شوقي من منفاه في الأندلس ، لا ليتحقق من جديد بقصر أسرة محمد علي . وإنما لينطلق في الآفاق الرحاب التي تتسع لشاعرية ما كان يتمنى لها أن تجوب كل جانب ، لو لا تحررها من روتينية الوظيفة ، ومظاهر الرسميات ، بما فيها من مداورات وأباطيل وسفاسف ؛ وكيف يعود الشاعر إلى القصر . والإنكليز هم حكام الشعب غير المرئيين . أو قُل المرئيين : الذين يحكمون الأفواه ، ويخرسون الأصوات إذا ارتفعت طالب بحق ، أو تتصرّ لقضية شعبية محققة ؟ !

صحيح أن شوقي غاب عن وطنه ، فأقام على حنين دائم ، وسوق لاهب ، يحمل إليها الذكريات الملاح . وتطوف الحمارات في خاطره ، أشباحاً ترسم أمام ناظريه معالم العذاب القومي الذي تخسّه مصر ، حكامًا ومحكومين ، وتبُرَز آثار المذلة التي ترتع في ظلها بلاده ، على أيدي جلادي انكلترا وجلاوزتها ، ومن حالفها من دول أوروبية استعمارية غاشمة .

ولكن الشعب المصري لم يكن ، طيلة تلك الفترة ، مكتوف الأيدي ، متفرجاً ، ينظر إلى الأحداث . دون أن يتدخل فيها ، بل راح ينأى نضالاً مستعيناً ، ويذود عن كل شبر من أرضه ، دون اغتصاب المحتلين . وهكذا تخضب ثرى مصر بدماء بنائها ، وكتب الشعب المصري ملاحم البطولات بما قدّمه للأمة من ضحايا وقرايبين . فكانت هذه الأحداث الجسام التي ألمت بوادي النيل سبياً يضاف إلى الأساب الأخرى التي دفعت أحمد شوقي

إلى حب بلاده ، وإلى حب شعبه . والعطف على قضيائاه ، ومن ثم على قضيائـا
الشعب العربي في مختلف أقطاره .

وداع الأندلس

عاد شوفي إلـى مصر ، بعدما ودع ديار الأندلس بتحية عرفان الجميل ،
والإقرار بالفضل :

وداعاً أَرْضَ آنْدَلُسٍ ، وَهَذَا
ثَانِيَ إِنْ رَضِيتَ بِهِ ثَوَابًا
وَمَا أَتَيْتُ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ
وَكُمْ مِنْ جَاهِلٍ أَشْنَى فَعَابًا
تَخْذُلْتُكْ مَوْنَلَا فَحَلَّلْتُ آنْدَلِي
ذَرِيًّا مِنْ وَائِلٍ ، وَأَعْزَّ غَابًا
مَغْرِبُ آدَمٍ مِنْ دَارِ عَدْنٍ
قَضَاهَا فِي حَمَاكَ لِيَ أَغْتَرَابًا
شَكَرْتُ الْفُلْكَ يَوْمَ حَوْيَتْ رَحْلِي
فِيَا لِمُفَارَقِي شَكَرْ الْفَرَابَا
فَائِتَ أَرْحَتَنِي مِنْ كَلَّ أَنْفِ
كَانْفَ الْمِيتِ فِي الْنَّزَعِ اِنْتِصَابَا

ومنظر كل خوانٍ يراني
 بوجهه كالبغيِّ رمي النقابا
 وليس بعاميرٍ بنيانٍ قومٍ
 إذا أخلاقُهم كانت خرابا ! !

فكانت هذه التحية صدىً للوفاء ، يعمر قلب الشاعر لبلادٍ أنقذته من
 أنوف العداة ، وهي أشبه ما تكون بأنوف الأموات ، ومن مناظر الخونة
 الذين يتطلعون بعيون من زجاج ، كما تتطلع الساقطة البغية ، بعد إذ رمت
 النقاب . مؤمناً في كل حال أن الأوطان لا تسلم إلا إذا سلمت أخلاق
 بنائها . أليس هو القائل :

وإنما الأمُّ الأخلاق ما بقيت فإنهم ذَهَبْتُ أخلاقُهم ذهبوا

لقاء الوطن
 ثمّ بعد ذلك يلتفت شوقي إلى وطنه ، فيودّ لو يستطيع أن يحسّدَه وأن يحسّدَ
 أبناء شعبه معه في إنسانٍ فردٍ ، يزجيء كل ما في نفسه من أحبّ المصفى ،
 والودادِ القبيح :

ويا وطني لقيتك » بعد يأسٍ
 كثاني قد لقيتْ بكَ الشّبابا
 وكلُّ مسافرٍ سيوبٍ يوماً
 إذا رُزِقَ الْسَّلَامَةَ والإِيَابَا
 أديركَ إِلَيْكَ ، قبلَ الْبَيْتَ ، وجهي
 إذا فهتُ الشهادةَ والمتابا !

ولا ينسى ، في زحمة العاطفة الحياشة . أن يذكر شباب مصر : وقد خفوا لاستقباله ذلك الاستقبال الرائع ، تقديرًا له وإكباراً . فيقول فيهم :

وَحِيَا اللَّهُ فَتِيَانًا سَاحَّا

كَسَوا عَطْفَيْ مِنْ فَخْرٍ ثِيَابًا

مَلَائِكَةُ إِذَا حَفُوكَ يَوْمًا

أَحَبَكَ كُلُّ مَنْ تَلَقَّى وَهَا بَا

وَإِنْ حَمَلْتَ أَيْدِيهِمْ بُحُورًا

بَلَغَتْ عَلَى أَكْفَهُمْ السَّحَابَةُ

تلقّوني بكلّ أغرّ زاه

کَانَ عَلَىٰ أَسْرَتِهِ شَهَابًا

ترى الإيمان مُؤْتَلِفًا عليه

وَنُورَ الْعِلْمِ وَالْكَرَمِ اللَّبَابَا

وَتَلْمِحُ مِنْ وَضَاءَةِ صَفَحَتِهِ

محيا مصر رائعة كعبا

وَمَا أَدْبَى لَا أَسْلَدُهُ أَهْلُ

ولكن من أَحَبَ الشَّيْءَ حَابِيٌ ! !

وكم كان نعمى أن نكتفى بهذا القدر من أبياته في قصيده « بعد المنفى » ،
لولا أنها نطمئن إلى تأكيد هذا الانقلاب النفسي والوجданى الذي انعكس
في شعر شوقى : بعد تفيه وعودته . من ثم . إلى وطنه : فقد آلت ارستقراطية
القديمة إلى ديمقراطية حديثة . فلم يكتفى بأن بارح دارته في « المطرية » إلى
« الحيزه » : ولم يكتفى أيضاً ببناء بيت آخر في الاسكندرية أسماه « درة الغواص
جاعلا منه مقصدأ يؤمه » . صيفاً وشتاء ، ليمنع النفس من مخالطة الطبيعة الخلابة ؛
وليستعيد مشهد البحر الساحر الذي كان كحل عينيه به في ضاحية برشلونة ؛
بل تراه يثور على شعره القديم . ويغاطب شباب مصر بهذه اللغة :

شبابَ الْذِيلِ : إِنَّ لَكُمْ لَصَوتًا
مُلَبَّىً ، حِينَ يَرْفَعُ ، مُسْتَجَابًا
فَهُزُوا « الْعَرْشَ » بِالدُّعَوَاتِ حَتَّى
يَخْفَفُ عَنْ كَنَاتِهِ الْمُصَابَا !

وينهى قصيده بقوله :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ سُوقِ الْخَيْرِ كَسْبًا
وَلَا كِتْجَارَةَ السُّوءِ أَكْتَسَابًا
وَلَا كَأْوِلَتَكَ الْبُوَسَاءُ شَاءَ
إِذَا جَوَعَتْهَا اَنْتَشَرَتْ ذَئَابَا
وَلَوْلَا الْبُرُّ ، لَمْ يُبَعِّثْ رَسُولٌ
وَلَمْ يَحْمِلْ إِلَى قَوْمٍ كِتَابًا !

إلا أني أكاد أسمع مثل دوي في أذني ، يحرّف قول شوقي ، فيجدوا :
«فهزوا» «العرش» بالثورات حتى

يخففُ عن كنانته المصاباً

ولو قالها شوقي على هذه الصورة . لاتسق المعني أكثر ، بالنسبة
لقوله :

وَلَا كَأْوَلَتَكَ الْبُوَسَاءَ شَاءَ

إِذَا جَوَعَتْهَا انتشرت ذئاباً

ولو قالها شوقي . لكننا نسميه «ندير الثورة وبشيرها» في آن معاً .

* * *

ولبث شوقي . بعد عودته من المنفى . ينظم الشعر على هذه الشاكلة : حَتَّى
ذاعت شهرته أيمًا ذيوع ، وطار له صيت عظيم في جميع أقطار البلاد العربية ،
بعدما جعل شعره غناءً عذباً يترنم به العرب في كافة أقطارهم . وبعدما غدا
ممثل مصر ، في أفراح العرب وأتراحهم .

إمارة الشعر

ثم إن شوقي اختير في عام ١٩٢٧ عضواً في مجلس الشيوخ المصري . وأعاد
في ذلك العام بالذات طبع ديوانه «الشوقيات» فاتهزم محبوه وأصدقاؤه
المجاسبيين معاً لإقامة حفلة تكريمية انتقلت إلى مهرجان قومي عربي عظيم ، أعلن
فيه تتويج أحمد شوقي أميراً للشعر .

وقد اشتركت في الاحتفال وفود كثيرة عن الدول العربية ، فتحدثت
شاعر الأرز شibli الملاط باسم لبنان ، ومحمد كرد علي باسم المجمع العلمي
العربي في دمشق . وأمين الحسيني باسم فلسطين . وفندبرج المستشرق

البلجيكي . والأمير شكيب أرسلان ، وحافظ ابراهيم باسم شعراء مصر الذي أعلن . صراحة . مبادلة الشعراء المصريين والعرب لأحمد شوقي بإمارة الشعر . علمًا بأن ثمة من كان يميل إلى تفضيل أحد اثنين : حافظ ابراهيم أو خليل مطران . على أحمد شوقي في إمارة الشعر . ولكن نجل كل من حافظ ومطران . حمل إلى شاعر الأمير لقب « أمير الشعراء » بإجماع شعراء وأدباء العربية المتحفظين بتكريره لأحمد شوقي .

والواقع أن كل ما قيل في مهرجان تكريم شوقي تضمن ألواناً من الأدب الرفيع . والشعر العقري . يشيد كله بتفوق « أمير الشعراء ». ويثير على دروبه الأزاهر والمعطور . ولما كان حافظ ابراهيم هو الذي أعلن تتويج الشاعر أميراً للشعر . فقد رأيناً أن نكتفي بذكر قصيدة حافظ العصماء التي قال فيها :

بلادل وادي النيل بالشرق اسجعي
بشعر أمير الدولتين ورجعي
أعیدي على الأسماع ما غرّدت به
يراعة شوقي في ابتداء ومقطع
يراها له الباري فلم ينب سنها
إذا ما نَبَأَ العusal في كفٌ أروع
موقعها في الشرق والشرق مُجدب
موقع صيب الغيث في كل بلقع
لديها وفودُ اللفظ تنافق خلفها
وفودُ المعاني خُشعًا عند خشع

إذا رضيت جاءت بأشفاس روضة
وإن غضبت جاءت بنكبة زعزع
أَحَنْ على المكدود من ظل دوحة
وأَحَنْ على المولود من ثدي مرضع
على سنها رفق يسيل ورحمة
وروح لمن يأسى وذكرى لمن يعي
تسابق فوق الطرminus أفكار ربها
سباق جياد في مجال مربع
تطير بروق الفكر خلف بروقها
تنادها بالله لا تتسرع
تخاول فوت الفكر لو لم تكتفها
أنامله كف الجموح المروع
آلم تعلموا أننا بذري نباغة
نفاخر أهل الشرق في أي مجمع
نفاخر من شوقينا بيراعنة
ونزداد فخرًا من (علي) بعض
فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه
وتلك شفاء الواله المتوجع

نَتْكَ ظَلَالٌ وَارْفَاتُ وَأَنْعَمُ
 وَلَيْنُ عِيشٌ فِي مَصِيفٍ وَمَرْبَعٍ
 وَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِ الْمُلُوكِ ثَوَادُهُ
 يَنْشَأُ عَلَى النَّعْمَى وَيَسْرَحُ وَيَرْتَعُ
 لَئِنْ عَجَبُوا أَنْ شَابٌ شُوقِي وَلَمْ يَزِلْ
 فَتِيَّ الْهُوَى وَالْقَلْبُ جَمَّ التَّمْسَعُ
 لَقَدْ شَابَ مِنْ هُولِ الْقَوَافِي وَوَقَعَهَا
 وَإِتِيَانَهُ بِالْمَعْجَزِ الْمَتَمْنَعِ
 كَمَا شَيَّبَتْ هُودٌ ذُوَابَةُ أَحْمَدٍ
 وَشَيَّبَتْ الْهَيْجَاءُ رَأْسَ الْمَدْرَعِ
 يَعِيبُونَ شُوقِي أَنْ يُرَى غَيْرَ مَنْشَدٍ
 وَمَا ذَاكَ عَنْ عَيْ بَهُ أَوْ تَرْفَعَ
 وَلَكِنْ حَيَاءُ لَمْ يَفْارِقْ طَبَاعَهُ
 وَطَبَعَ الْكَرِيمُ الْحَرَّ فَوْقَ التَّطَبُّعِ
 وَمَا كَانَ عَابِاً أَنْ يَجِيءَ بِمَنْشَدٍ
 لِآيَاتِهِ أَوْ أَنْ يَجِيءَ بِمَسْمَعٍ
 فَهَذَا كَلِيمُ اللَّهِ قَدْ جَاءَ قَبْلَهُ

بهارون ما يأْمِرُه بالوحى يصدع

* * *

بلغتَ بوصف النيل من وصفك المدى
وأَيامٌ فرعونٌ ومعبوده (رع)
وما سقت من عادٍ البلاد وأَهْلَها
وما قلت في أَهرام (خوفو) و(خفرع)
فأَطلعتها شوقية لو تنسقت
مع النيرات الزهر خصت بمطلع
أَ (من أَي عهد في القرى) قد تفجرت
ينابيع هذا الفكر أم (أخت يوشع)
وفي (توت ما أَعْيى) ابتكار موفق
وفي (ناثيء في الورد) إلهام مبدع
أَسالت (سلا قلبي) شُوُّوني تذكرةً
كما نشرت (ريم على القاع) أَدمعي
و(سل يلدزاً) إني رأيتُ جمالها
على الدهر قد أَنْسَى جمال المقنع
أَطلت علينا (أخت أندلس) بما
أَطلت فكانت للنهى خير مشروع

وفي نسج (صدّاح) أتيت بآية
من السهل لاتنقاد لابن المفزع
ورائع وصف في (أبي الهول) سقته
كبستان نور قبل رعيك ما رُعى
خرجت به عن طوق كل مصوِّرٍ
يجيد دقيق الفن في جوف مصنع
وفي (انظر إلى الأقمار) زفرة واحد
وأنَّةً مقروح الفؤاد موزَّع
بكثت على سر السماء وطهرها
وما ابتدلوا من خدرها المترفع
شياطين أنس تسرق السمع خلسةً
ولا تحذر المخبوء للمتسمع
وسينية للبحترى نسختها
بسينية قد أخرست كل مُدَعَّ
أتى لك فيها طائعاً كل ما عصى
على كل جبار القرىحة الْمُعَيْ
شجا البحترى إيوان كسرى وهاجه
وهاجت بك الحمراء أشجان موجع

وقفت بها تبكي الربوع كما بكى
فيما لكما من واقفين بأربع
فنسجلك كالديبا ج حلاه وشيهُ
وفي النسج ما يأتى بثوبٍ مرقع
وشعرك ماء النهر يجري مجدداً
وشعر سواد الناس ماء بمنقع
أ(أفضى إلى ختم الزمان ففضّه)
من الوحي والإلهام أم قول لوزعي
و(قلبي أذكرت اليوم غير موفق)
رُقى السحر أم آنات أسوان مولع
تملكت من ملك القريض فسيحه
فلم تُبقي يا شوقي لنا قيداً أصبع
فبـالله دع للناثرین وسيلةً
تفيء عليهم واتقـ الله وأقنع
عملت على نيل الخلود فنلتـهُ
فقل في مقام الشكر: يا رب أوزع

* * *

جلا شعرهُ للناس مرأة عصره
 ومرآة ماضي الشعر من عهد تبعَ
 يجيءُ لنا آناً (بأحمد) ماثلاً
 وآونةً (بالبحري) المرصع
 وي Shawā رُقى (هوجو) ويأتِي نسيبه
 لنا من ليالي (ألفريد) بِأربَع
 وإن خطرت ذكرى الفحول بفارس
 وما خلفوا في القول من كُل مشبع
 أَتانا بروضٍ مزهر من رياضهم
 (وحافظهم) فيه يغنى ويرتعي
 فقل للذِي يبغى مداه منافساً
 طمعت لعمر الله في غير مطعم
 فذلك سيف سَلَّهُ الله قاطعاً
 فلَيَا يضرب يَفْرِ درعاً ويقطع
 وهل تدفع الدرع المنيعة صارماً
 به يضرب المقدار في كف سَلْفَع

* * *

نُفِيتَ فلم تجزع ولم تك ضارعاً
ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع
وأخصبتَ في المنفى وما كنت مجدباً
وفي النفي خصب العقري السميدع
لقد زاد (هوجو) فيه خصب قريحة
وآبَ إلى أوطانه جدّ مرع
وأدرك (سامي) بالجزيرة غابةً
إليها ملوك القول لم تتطلع
تذكرة عذب النيل والنفس صبةً
إلى نهلةٍ من كوب ماء مشعشع
وأرسلت تستسقي بني مصر شربةً
فقطعت أحشائي وأضرمت أحصلي
أنرويٌ ولا تروي وانت أحينا
برىٌ ! فيها قلب النبوغ تقطع
وإن شئت عننا يا سماء فأقلعي
ويا ماءها فاكفف ويا أرض فابلعي

حرامٌ علينا أَنْ نلذ بنهلةٍ
 وأنت تنادينا ونحن بسمع
 أبي الله إِلا أَنْ يرْدَك سالاً
 ومن يرعه يسلم ويغنم ويرجع
 وعدت فقرت عين مصر وأصبحت
 رياض القوافي في ربیع موعش
 وأدركت ما تبغي وشيدت آية
 بكوراً برّياً عرفه المتضوع
 حمى يتهادي النيل تحت ظلاله
 تهادي خود في رداء مجذع
 لقد كنت ترجو منه بالأمس قطرة
 فدونكه فابرد غليلك وانقع

* * *

أمير القوافي قد أتيت مُبَايِعاً
 وهدي وفود الشرق قد بايعت معي
 فغن ربوع النيل واعطف بنظرة
 على ساكن النهرين واصدح وأبدع

ولا تنس نجداً إنها منبت الهوى
ومرعى المها من سارحات ورُّتعَ
وحي ذريٌ لِبنان واجعل لتونسِ
نصيباً من السلوى وقسم ووزعٌ
ففي الشعر حثُ الطامحين إلى العلا
وفي الشعر زهدُ الناسك المتورع
وفي الشعر ما يغنى عن السيف وقوعه
كما روع الأعداء بيتٌ لأشجع
وفي الشعر إحياء النقوس وريها
وأنت لريٌ النفس أعزبٌ منبع
فنبه عقولا طال عهد رقادها
وأفتئدةً شدت إليها بائسع
فقد غمرتها محنَّةً فوق محنَّة
وأنت لها يا شاعر الشرق فادفع
وأنت بحمد الله ما زلت قادرًا
على النفع فاستنهض بيانك وانفع
وخذ بزمام القوم وتنزع بأهله
إلى المجد والعلیاء أَ كرم منزع

وقفنا على النهج القويم فإننا
سلكنا طریقاً للهـى غیر مهیـع
ملأـا طیـاق الارض وجدـا ولوـعـة
بهـنـد وـدـدـ والـرـبـابـ وبـوزـعـ
ومـلـتـ بـنـاتـ الشـعـرـ منـاـ موـاقـفـاـ
بسـقـطـ اللـوـىـ والـرـقـمـتـيـنـ وـلـعـ
وـأـقـوـامـاـ فـيـ الشـرـقـ قـدـ طـالـ نـوـمـهـمـ
وـماـ كـانـ نـوـمـ الشـعـرـ بـالـمـتـوـقـعـ
نـغـيـرـتـ الدـنـيـاـ وـقـدـ كـانـ أـهـلـهـاـ
يـرـوـنـ مـتـوـنـ الـعـيـسـ أـلـيـلـ مـضـجـعـ
وـكـانـ بـرـيدـ الـعـلـمـ عـيـراـ وـأـيـنـقـاـ
مـتـيـ يـعـيـهاـ الإـيـجـافـ فـيـ الـبـيـدـ تـظـلـعـ
فـأـصـبـحـ لـاـ يـرـضـيـ الـبـخـارـ مـطـيـةـ
وـلـاـ السـلـكـ فـيـ تـيـارـهـ المـتـدـفعـ
وـقـدـ كـانـ كـلـ الـأـمـرـ تصـوـيـبـ نـبـلـةـ
فـأـصـبـحـ بـعـضـ الـأـمـرـ تصـوـيـبـ مـدـفعـ
وـنـحـنـ كـمـاـ غـنـيـ الـأـوـاـئـلـ لـمـ نـزـلـ
نـغـنـيـ بـأـرـمـاحـ وـبـيـضـ وـأـدـرـعـ

عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى
شيءٌ جديدٌ حاضر النفع ممتع
لدى كلّ شعب في الحوادث عدّة
وعدتنا ندبُ التراث المضيع
فيما ضيّعة الأقلام إن لم نُقم بها
دعامة ركن المشرق المتزعزع
أتمشى به شمَّ الانوف عُداته
وربُّ الحمى يمشي بـأنيفِ مجده
عزيزٌ عليه يا بني الشرق أن يرى
كواكبه في أفقه غير طلّع
وأعلامه من فوقه غير خُفْقٍ
وأقلامه من تحتها غير شُرّع
وكيف يوقّى الشرُّ أو يبلغ المنى
على ما ترى من شمله المتتصدع
فإن كنتَ قوالاً كريماً مقاله
فقل في سبيل النيل والشرق أو داع

بعدئذ ، وقف أَحْمَد شوقي ، وقد أَحْسَنَ أَمْتَه أَعْطَنَه أَقْصَى مَا يَنْتَهِي
النفس به ، ليشكر المحتفلين بتكريمه ، في قصيدة تعدُّ من عيون شعره ،
يقول فيها :

مرحباً بالربيع في ريعانه
وبأنواره وطيب زمانه
رفت الأرض في موكب آذا
ر ، وشبَّ الزمان في مهرجانه ،
نزلَ السهل ضاحك البشر يمشي
فيه مشي الأمير في هستانه
عادَ حليماً براحتيه ، ووشياً
طول أنهاره ، وعرض جنانه
لَفَّ في طيلسانه طَرَّ الأَرَض ، فطابَ الأَدِيمُ من طَيلسانه ،
ساحرٌ فتنَةُ العُيُونِ مبينٌ
فصل الماء في الْرَّبِّي بجمانه
عقبريُّ الخيال ، زاد على الطَّيْفِ
فِي ، وأَرَبَّ عليه في الْأَلوَانِه

صبغة الله أَيْنَ مِنْها رفائي—
 لُّ و منقاشه و سحرُ بنانيه
 وشدَّتْ في الْرَّبِّيِّ الْرَّيَاحِينَ همساً
 كتعْنِي الطروب في وجداـنه
 كـلُّ ريحانة بلحنِ كـعرسِ
 أـلـفتْ للـغنـاء شـتـى قـيانـه
 نـغمُ في الـسـماء و الـأـرضِ شـتـى
 مـنْ معـانـي الرـبـيع أو الـحـانـه

ثم يقول :

ربَّ جـارِ تـلفـتَ مـصـرُّ تـولـيـ
 سـهـ سـوـالـ الـكـرـيمـ عنـ جـيرـانـه
 بـعـثـنيـ مـعـزـيـاـ بـمـاـقـيـ
 وـطـنيـ ، أوـ دـهـنـشـاـ بـلـسانـه
 كـانـ شـعـريـ الغـنـاءـ فـرـحـ الشـرـ
 قـ ، وـ كـانـ العـزـاءـ فـيـ أـحزـانـه
 قدـ قـضـىـ اللهـ أـنـ يـوـلـفـناـ الجـرـ
 حـ ، وـ أـنـ نـلـتـقـيـ عـلـىـ أـشـجـانـه

كُلّمَا أَنَّ بِالْعَرَاقِ جَرِيَحُ
لَمَسَ الشَّرْقُ جَنْبَهُ فِي عَمَانَهُ
وَعَلَيْنَا كَمَا عَلَيْكُمْ حَدِيدُ
تَنْزَى الْلَّيْوَثُ فِي قَضْبَانَهُ
نَحْنُ فِي الْفِكْرِ بِالدِّيَارِ سَوَاءُ
كُلُّنَا مُشْفِقُّ عَلَى أَوْطَانِهِ !
أَلَا مَا أَصْدِقُ شَوْقِي ، وَمَا أَصْدِقُ شِعْرِهِ مِنْ مَرَأَةٍ تَعْكِسُ حَقْيَقَةَ مَا يَقُولُهُ
عَنْ نَفْسِهِ :

كَانَ شِعْرِي الغَنَاءِ فِي فَرَحِ الشَّرِّ
قِ ، وَكَانَ العَزَاءَ فِي أَحْزَانِهِ

وَكَانُوا لَا كِرَامَةً لِنَبِيِّ فِي وَطَنِهِ حَفَّاً !
وَكَانُوا لَا تَكْرِيمَ يَصْفُو لِشَاعِرٍ !

فَقَدْ انْقَلَبَتْ مَصْرُ ، يَوْمَذَاكُ ، إِلَى مَهْرَجَانِ عَرَبِيِّ عَظِيمٍ ، لَا يَخْتَفِي
بِشَوْقِي ، إِنْسَانًا ، أَوْ أَمِيرًا لِلشَّعْرِ ، بِلْ بِشَوْقِي ، صَنَابِحةً لِلْعَرَبِ ، عَلَى أُوتَارِهَا
تَوْقَعُ الْحَانُ الْأَمْلَ وَالْأَلَمُ ، الْحَانُ الْفَرَحُ وَالْتَّرَحُ ، تَعْزِفُهَا أَنَامِلُ شُعْرَاءِ الْوَطَنِ
الْعَرَبِيِّ وَأَدْبَاؤُهُ عَلَى اخْتِلَافِ مَيْوَلِهِمْ وَنَزَعَاتِهِمْ .

وَمَعَ هَذَا اشْتَرَكَ بَعْضُ زَمَلَائِهِ ، فِي مَصْرُ ، بِتَكْرِيمِهِ ، تَكْرِيمًا مِنْ نَوْعِ
آخَرِ .

فَبِدْلًا مِنْ أَنْ يَشَارِكُوا الْأَمْمَةِ الْعَرَبِيَّةِ احْتِفَاءَهُمْ بِأَمِيرِ الشُّعْرَاءِ ، بِضَفْرِ أَكَالِيلِ
الْوَرَدِ وَالرِّيَاحِينِ ، رَاحُوا يَعْصِبُونَ هَامَ إِمَارَةِ الشَّعْرِ ، وَأَمِيرِ الشَّعْرِ ، بِأَكَالِيلِ

الشوك والعوسمج ، وبها جمونه ، ساخرين منه ومن قصيده البدعة التي ألقاها في يوم تكريمه .

ونسأع إلى القول ، في هذا الصدد ، أن من أيسر الأمور أن ترى الحبّة قبة ، إذا شئت ، أو أن تحول القبة إلى حبة إن رغبت ، كما أن من السهولة بمكان أن تطرب ، إن أحببت ، لبيت شعر رائع الواقع والأداء ، أو أن تستهجن جرسه وموسيقاه ومعناه ، إن أردت . ولكن موقفك ، إن جاء خلاؤ من الموضوعية والتجرد ، يبقى خاصاً بك ، وتبقى الحبة حبة ، والقبة قبة . ولا يفقد الشعر جماليته ، بسطحة قلم ناقد ، ولا يكتسب الهراء من القول قيمة شعرية ، ولو أضفت عليه من المادي والزلفي ضرباً وألواناً .

ومن الذين انصبت على شوقي حمم نقادهم اللاذع ، كالعادية ، عباس محمود العقاد الذي بدا ، فيما كتبه ، وكأنه يريد أن ينتقم من الحفاظ والمحتفى به والمحتفين على السواء ، فإذا به يتخد قصيدة شوقي ذريعة للهجوم ، فيقول : « ولندع من الأبيات ما يرادف نداء البااعة في الأسواق : « بالورد الجميل ، والفل العجيب ، والتمر حنّا روايع الحنة » ، ولننظر ما يبقى فيها من دلائل الإحساس بالربيع والامتزاج بالطبيعة والشغف بالحمل في موسم الحمل والحياة .

كل ما يبقى ، بعد ذلك ، أن الربيع يمشي في السهل مشي الأمير في بستانه ، وأن صبغة الله أجمل من صبغة رفائيل . فاما أن الربيع يمشي في السهل مشي الأمير في بستانه ، فيصبح أن تكون كلمة موظف في شارة الوظيفة ، لاكلمة إنسان في نشوة السرور بحمل الحياة وسكرة الفرح بالأأسواق ، والأمال ، والذكريات ، والأشجان ، وهي لا شيء من حقيقة ، ولا من تمويه ، ولا شيء من زينة صحيحة ، ولا من زينة مزيفة ، ولا شيء من عيان بالنظر أو تصوّر بالخيال ، فمشية الأمير في بستانه كمشية كل إنسان في كل بستان ، والأمير لا يكون على أجمل حالاته هناك ، لأنه قد يمشي في مبادله التي لا تميّزه عن سائر الناس ..

والربيع ، بعد ، هو البستان فهلاً قال شوقي إن الربيع يمشي في الربيع ، مشية الأمير في الأمير . والأمير أيضاً قد يكون شيخاً فانياً ، لا حسنه فيه ولا عاطفة ، وقد يكون فتى دمياً لا بهجة له . ولا وسامة ، وقد يكون أميراً كأمير الشعراء لا حسن فيه ولا عبرية ، ولم أشعار ولا أحان ، فماذا من إحساس الانسان ، فضلاً عن الإنسان الشاعر في ذلك التشبيه الذي جعل لنا الربيع ملحاً بالميرانية والتشريفات والدوابين ؟

وأما أن صبغة الله خير من صبغة رفائيل ، فكلمة لا دليل فيها على إحساس بالطبيعة ، ولا إحساس بالفنون ، كلمة فيها من الغباء ما يكشف عن عامية مطبقة ، وجهل بعد القرار ؛ فالعامة المسفرون هم الذين يفهمون أن طلاوات الصور أجمل من صبغة الطبيعة ، ويحتاجون إلى من يقول لهم إن تلوين الله أجمل من تلوين رفائيل . أما النفس التي تذوق جمال الطبيعة ، وتذوق جمال الفن ، فليست تحتاج إلى من يقول لها كيف أن الأصباغ في الرياض أجمل من الأصباغ في الطروس ؛ وليس تفهم أن الفن بهرجة ألوان تغالب ألوان الأزهار والأنوار .

ثم أي معنى عميق أو قريب لأن تقول للناس إن صبغة الله أجمل من صبغة رفائيل إلا أن تكون من يفهمون فهم العامية للطبيعة والفنون ؟ ثم هل كان رفائيل . بعد كل هذا . مصورةً مفتناً في تصوير الرياض والازهار ؟ لا ، بل كان الرجل مصور وجوه وشخوص مقدسة ، برع فيها براعته ، ولم يضرب به المثل قط في تصوير الرياض والأزهار ، فلا حسنه هناك بالطبيعة ، ولم ذوق للفن ولا علم بالتاريخ . فإن كان ثم إمارة «كذابة» في الدنيا ، فهي إمارة هذا الذي لا يكفيه أن يُعد شاعراً ، حتى يُعد أمير الشعر ، وحتى يقال إنه عنوان لأسمى ما تسمى إليه النفس المصرية من الشعور بالحياة » (١)

(١) راجع « ساعات بين الكتب » لعباس محمود العقاد - صفحة ١٠٩ .

وطبيعي أننا إذ نقرأ نقد العقاد ، بل تهجمم ، لنكاد لا نقوى على الاستمرار معه إلى آخر المطاف فيما أسبغه على شوقي من نعوت الغباوة والأسفاف والعامية ، وفي إنكاره على شوقي حتى مجرد الحس والشعور ، وأخيراً في الاستخفاف به أميراً للشعر ، بل شاعراً كبيراً .

والحقيقة أن تشبيه شوقي للربيع بالأمير ، إنما هو من جهة الشبه القائم بينهما في زهوه وكبرياته . لافي كهولته التي لم يستطع العقاد أن يلتفت إلى غيرها .

أما أن يكون قول كهذا . شبيهاً ومرادفاً لنداءات الباعة في الأسواق ، أو للغة الوظائف والدواوين ، فذلك تحامل على شوقي لأنقره ، إلا أن يكون المقصود صنمية الحكم ، يومذاك ، وبهذا فقط يكون للعقد مبرر لقول ما يقول .

وأما محاولة العقاد الانتقاد من قيمة شعر شوقي ، لأنه أورد ذكر رفائيل ورسومه . فهو إن لم يكن تجاهلاً من العقاد لقيمة رفائيل الفنية ، على الصعيد العالمي . فإنه ، ولا ريب . جهل بمكانة رفائيل الذي يُعدّ نادرة من نوادر العبرية الفنية في العالم .

وعليه يكون ذكر رفائيل ورسومه ، في قصيدة شوقي ، رجعاً للثقافة الفنية التي يتحلى بها أمير الشعراء ، لا للغباوة والأسفاف ، كما شاء العقاد أن يقول أو أن يقول .

وفي أي حال ، لم يكن من شأن هذه الانتقادات . على ما فيها من تجنب ، أن توقف عبرية شوقي ، ولعلها آلمته ، وهو يرى الظلم يأتيه من أقرب الأدباء إليه ، أعني من أدباء بلده ، وهو ظلم «أشد» مضاضة على القلب من وقع الحسام المهنّد» . ولكن ألمه هذا كان دافعاً له إلى التجديد ، ومعالجة ألوان لم تذع في الأدب العربي ، كالشعر القصصي . والخرافي ، والتمثيلي ، متاثراً بشعراء فرنسا ، كفيكتور هوجو ، ودي موسى ، ولا فونتين وسواحم ، وهذه الظاهرة سوف تكون موضوعاً الحديث آخر عن أحمد شوقي .

كلمة حول «الأمارة»

و الواقع أن لنا حول «إمارة الشعر» كلمة ، ينبغي أن نقولها بصرامة . إن لا ترك لقائل مجالاً . بعده . لانتقاد أو تأويل .

إن إمارة الشعر ، في رأينا ، بدعة جديدة لم يعرفها الأدب العربي إلا في القرن العشرين وحسب . ولقد عرفها ، حتى الآن ، مرتين : الأولى في مهرجان تكريم شوقي بالقاهرة . حين بايع حافظ ابراهيم زمليه أحمد شوقي قائلًا :

أمير القوافي ، قد أَتَيْتُ مُبَايِعاً

وهذِي وفُودُ الشَّرْقِ قدْ بايَعَتْ مَعِي

والثانية ، حين بايع صالح جودت زمليه بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في مهرجان تكريمه بيروت . قائلًا : «...وعقدنا له لواء الأمارة». وقرأ أنا قصيدة لأحمد شوقي ، لم نطلع عليها في ديوانه ، بل في مقدمة حد دواوين الشاعر الكبير الصديق الأستاذ أمين نخله . يقول عن أمين ، في طلعتها :

هذا ولِي لِعهْدِي وَقِيمُ الشِّعْرِ بَعْدِي ..

نقول إن إمارة الشعر بدعة ، لا انتقاداً منها . أو من قيمة الذين انعقد لهم لواءها ، وإنما للتدليل على أنها ظاهرة طريفة لم يؤمن بها العرب ، شعراء وأدباء وأشخاصاً عاديين ، حتى في أقدم العصور . وأعرقها عهداً بالحكم الملكي والاقطاعي الذي يقيم الناس ، ويصنفهم ملوكاً ، وأمراء . وزراء . ورعايا .

ولقد يكون مقام شوقي السياسي والأدبي ، واتصاله بقصور ملوك مصر .

وما له من الدالة والسطوة ، يومذاك ، فضلاً عن غزاره إنتاجه القائم ، سبب تأميره على الشعر والشعراء ، في زمانه .

كما قد يكون جهاد أبي عبد الله ، الأخطل الصغير ، ووطنيته وشاعريته دافعاً إلى تأميره هو الآخر ، على لسان صالح جودت .

ولكنَّ التكريم ، أياً كان مده ، لا ينبغي أن يصل إلى حدٍ تصنيف الشعراء ، وتقديم بعضهم بالألقاب على بعضهم الآخر ، لأن شوقى والأخطل الصغير لم يكونا ، في كثير من مجالات الشعر ، أقدر وأبلغ أو أثبت قدماً في الفن والفكر . من غيرهم من الشعراء الذين عاصروهما .

ولقد نفهم أن يتوج شوقي أميراً للشعر . في عهد المالك والإمارات ، وبدواتج سياسية وغير سياسية ، حين كان شوقي في قمة العطاء الفكرىَّ الخلائقِ . ولو جاء توجيهه قبل وفاته بخمس سنوات ، لأن شوقي لم ينقطع عن العطاء حتى أواخر أيامه (١) على أنسنا لا نفهم كيف يتوج الأخطل الصغير ، أميراً جديداً للشعر ، وعلى لسان شاعر درج إوطنه التيجان والعروش ، في عصر الديمقراطية والجمهوريات والمساواة بين الأفراد جميعاً ، وفي وقت كان «الأمير» شبه منقطع فيه عن النظم ، حتى لم يستطع أن ينظم لمناسبة تكريمه سوى أبيات قلائل ، مطلعها :

أيُومَ أَصْبَحْتُ لَا شَمْسِيٍّ وَلَا قَمَرِيٍّ

مَنْ ذَا يَغْنِيُ عَلَى عُودٍ بِلًا وَتَسِيرٍ

إذن ، نحن مع التكريم ، حين يكون تقديرآً لعبقريه رجل ، ولأمكاراً لعطاء شاعر إنسان ، وإذ ذاك تشرك الأمة كلها في التكريم والتقدير والإكبار . أما أن تصبح نتيجة التكريم تصنيفاً للشعراء ، جارحاً ، فذلك ما نحسب أن المكرم ذاته هو أول من يرفضه معنا ، ويتصدى له .

(١) في كتاب «المسرحية في شعر شوقي» ، ذكر محمد حامد شوكت ان شوقي الف سبع سرحيات لم يكمل الأخيرة منها .

ولقد كان هذا مدار حديث مطول بيني وبين صديقي المغفور له الأختطل الصغير ، رحمة الله ، في مكتبه بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٦١ . بعدها أهدى إلى نسخة من ديوانه الشعري ، وذلك بعد أسبوع من توجيهه أميراً للشعراء .

ونفصيل ذلك أني ، مع محبي البالغة ، ومشاركتي العملية في تكريم الأخطل الع غير . عمدتُ : عملاً بجريدة النشر ، إلى نشر تصريح في جريدة « بيروت المساء » التي كنت رئيساً للقسم الأدبي فيها . أدى به الأديب الفيلسوف الأستاذ ميخائيل نعيمة . مؤداه أن « إمارة الشعر تجليط » ، وأننا انتهينا من عهود المالك والامارات إلى غير ذلك من الانتقادات التي حسبها الأخطل الصغير ، رحمة الله ، عليّ وقاد يخصني في عداد المتحاملين عليه . لولا لإيضاح مطول جرى أثناء حديثنا الملمع إليه ؛ وعمدتُ ، بعد ذلك ، إلى إفصاح المجال أمام الأخطل الصغير للتعبير عن آرائه في الصفحة ذاتها ؛ عملاً بجريدة النشر ، والكتابة ، والرأي .

ونجد القول أن ما ندلي به . ههنا . من انتقاد لمبدأ الأخذ بإمارة الشعر . الشعر ، ليس افتئاناً أو انتقاداً من الأميرين الشاعرين الذين نؤمن أنهما ربما كانوا أحقّ بالإمارة السياسية ، من كثير من الأمراء القدامى والمحادثين . نظراً لما كانوا يتحلىان به من كفاءات عالية . ولربما تنبه شعراء العربية وأدباؤها ، بعد الآن . إلى ضرورة الإلقاء عن عادة التأمير . والتصنيف . إذ لا فضل ، في مجال الفكر ، لأحد على أحد . إلاّ بمقدار عطائه الأدبي العظيم .

تبقى الكلمة ثانية ، فيما عنى هذا الذي قرأناه لشوفي في مقدمة ديوان أمين نخلة ، وعن أمين نخلة بالذات . فإننا لا نشك مطالقاً بعلو كعب أديب العرب الأستاذ الكبير الصديق أمين رشيد نخلة في ميدان النثر والشعر . لا سيما وهو وريث أمير الرجل اللبناني المرحوم رشيد نخلة . واضع التنشيد الوطني اللبناني ، إلاّ أننا لا نعتقد أبداً بأن من حقّ أمير الشعر . أو أي شاعر آخر ، أن يوزع اللقب الوجاهة الشعرية هنا وهناك . أو أن يورث اللقب شاعراً

آخر ، لأنَّ الإمارة الشعرية هي ، من حيث المبدأ ، بدعة ، كما ألمعنا ، وهي ، على سبيل الاستطراد والاستنناس لا يمكن أن تتم إلاَّ ببيعة عامة من شعراء العربية ، على اختلاف أقطارهم على أفتراض أنَّ ثمة إمارة وبيعة .

والملهم . في كل حال . أن تكون قواني الشاعر في الخوالد البوافي ، سوام لقب «أميرًا» أو كني «صلو كاً» ، إذ فيص الشاعرية . وصادقها ، وعمق تأثيرها ، لا يرتبط في قليل أو كثير بالألقاب والكنيات .

شاعرية شوقي

إن من يستعرض حياة أحمد شوقي الشعرية ، ويتابع الأغراض العديدة التي حفلت بها قوافيه ، لا يسعه إلا أن يقف معجباً ، مندهشاً ، أمام السرعة الفائقة التي كانت أفكار شوقي تتنظم فيها قصيدة عصماء ، تلقى في حفل أو مهرجان ، وتنشر في جريدة أو مجلة ، فتفطّي على ما عدّها من القصائد والخطب ، وإن كان ملقيها غير صاحبها .

وأشد ما يثير إعجابك وعجبك معاً ، وأنت تطالع قصائد شوقي ، روعة السرد ، وأسر العبارة والفكرة على السواء ، حتى لو طلب إلى غير شوقي أن يعبر بالنشر عما يذيعه شوقي في الناس ، بالشعر ، لما حالفه التوفيق إلى سكب المعاني في قولها مثلما حالف التوفيق شوقي .

لا بل نحن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فترى أن مجرد المقارنة السريعة ، والمقارنة بين شعر شوقي ونثره ، يكشف عن تكلف واضح في نثر شوقي ، بما فيه من سجع غير موفق ، في غالب الأحيان ، وبما فيه من التوءم الأسلوب ، وأعوجاجه ، هذا التكلف الذي لا تكاد تلمع شيئاً منه في شعر شوقي ، إلّاماً .

ولقد تسنى لنا أن نطلع في «الشوقيات» ، بأجزائها الأربع ، على بعض نثر شوقي ، وعلى معظم شعره ، كما تسنى لنا أن نطلع على فصول من «أسواق الذهب» الذي كتبه في منفاه ، فلا لاحظنا أن ما كتبه شوقي من النثر كان ، في غالب الأحيان ومضات خاطر ، سريعة ، فهو لا يليث إن ينتقل من خاطرة إلى خاطرة ، ومن فكرة إلى فكرة ، حتى لتقع في الصفحة الواحدة من «أسواق الذهب» مثلاً ، على أكثر من أربعة عناوين لأربعة مواضع

مختلفة . وغني عن القول أن لشوقى من القصائد الطوال ما يستغرق صفحات وصفحات .

فإذا أدركتنا ، فوق هذا ، أن «أسواق الذهب» كتب بشيء من التأني ، فجاءت مواضيعه بمثيل القصر الذى أمعنا إليه ، وأن قصائده كانت تنظم بأسلوب يشبه الارتجال إلى حد بعيد ، وجدنا أنَّ من الواجب محاولة تفسير هذه الظاهرة في أدب شوقي .

ُخلق شوقي شاعرًا لا ناثرًا

وتفسيرها البسيط ، في رأينا ، أنَّ شوقيُّ خلق ليكون شاعرًا . ولم يخلق ليكون ناثرًا ؛ فإذا هو كتب الشعر أو أملاه على كاتبه ، كان كالبحر الدافق ، الآخر بالمعنى والمشاعر ، المتعقد في استنتاج العبر من حياة الناس ، أفراً وجماعات ، ومن أحداث المجتمع ، على ألوانها وأنواعها . ولكن مني يسع إلى النثر ، تتعذر به قدماء ، ولكن لا يعجزه الوصول إلى حرمته ، في كل حال ؛ وبذلك تبدو كتابته النثرية مشوبة بألوان الرنخزف والبديع ، وهذه كلها صناعة لفظية متسربة إلى عصر النهضة الذي بدأ بأمثال شوقي ، من عصر الانحطاط الأدبي .

بمعنى آخر ، إنَّ الشعر كان ملكرة وطبعاً في أحمد شوقي ، ولم يكن النثر كذلك . ولا نستبعد أبداً أن يكون لعمله ، رئيساً للقلم الافرنجي بمعية الخديوي عباس ، أثره في تحنيط نثر شوقي ، ضمن قوالب جامدة لا حياة فيها ، بينما لم يؤثر ذلك على شعره الذي كان متنفساً له ، من خلال روئينية الوظيفة وقيودها . فشوقي ، في رسالته التي قدم بها لقصيده «أنس الوجود» والتي وجهها إلى روزفلت ، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأميركية ، يلمح إلى ذلك بقوله له :

«أتاذن لرجلٍ تعودَ أن يخرج عن دائرة «الموظف» ، كلما عرضت حال

يُخدم الوطن ، فيها ، الرجال ، أن يرفع لشعره ذكره ، ويُشرف قدره ، مهدياً إليك منه هذه القصيدة في لغة «الضاد» وهي ما قلت في «أنس الوجود» ذلك الأثر المحتضر الذي جمع العِبْر ، ومحاه الدهر أو كاد...» (١) ولم يكن أحداً من الشعراء ليجاري شوقي في حضور البديهة ، وسرعة النظم ، حتى لقد قال داود بركات ، وهو يومذاك رئيس تحرير جريدة «الأهرام» :

«كانت الحادثة من الحوادث تقع صباحاً ، فلا يحلّ المساء حتى تُدَاعَ بين الجمهوّر بقصيدة شوقي ، لأنّه كان للحوادث تأثير شديد عليه ، يهزّ أعصابه ويستثير نفسه ، ويحفر خياله ؛ وكان أكثر ما ينظم الشعر وهو ماش أو واقف أو جالس إلى أصحابه ، يغيب عنهم بذهنه ، وفكرة ؛ فقلما يجلس إلى مكتبه لتفكيره وعصر الذهن ، فإذا جلس إلى المكتب فلتذوين ما يكون قد نظمه واستوعبه في ذاكرته ، فيبين سينكاره وأخرى يجد فكرته ، وبين كلمة وأخرى يجد الطرف الموافق له بكل المقدرة» (٢) .

وطبيعي أنّ من كانت هذه حالة ، فهو لا يفرق بين ليل ونهار ، بين مكتب أو منزل ، بين بقاطرة أو سيارة ، بين شاطئ نهر ، أو روضة زهر ، لنظم القصيدة بل القصائد الطوال . اسمع كاتبه أحمد عبد الوهاب أبو الغز يذكر ذلك فيقول :

«مرة . منذ عشرة أعوام (سنة ١٩٢٢) جاء من منزله في المطرية ، فوجدهني بالمكتب في الساعة الحادية عشرة ونصف ، فأملأ على ثمانية وعشرين بيّناً من قصيده التي مطلعها : «ففي يا أخت يوشع خبرينا» ، ثم قال لي : «لا تبعد عنّي ، حتى إذا جاءني شيء أميليه عليك» .

وخرج يمشي حول العمارة ، فكان كل بضع دقائق يعود فيُملي على

(١) راجع «الشوقيات» - الجزء الثاني - صفحة ٥٣ .

(٢) راجع «ذكرى الشعراء : شاعر النيل وأمير الشعراء» جمع أحمد عبيد - المكتبة العربية في دمشق - صفحة ٣٧٠ .

خمسة أو ستة ، أو سبعة أبيات ، وأخيراً دخل المكتب ، وجلس على مقعد ، وأخذ يمرّ برأسه ، ففهمت أنه ينظم في سرّه ، لأنّه كثيراً ما كان يفعل ذلك أثناء النظم . ثم قال : « اكتب » ، فكتبت ، وكتبت ، ونظرنا الساعة ، فإذا هي الواحدة بعد الظهر ، فقال : « كفى . أعطني ما كتبت ، لأنّي على موعد في هذه الساعة مع داود » (١)

فقدمتها له . بعد أن عدّت أبياتها ، ووجّهتها أربعة وثمانين بيتاً .. وقال لي صديق له : « لقد لازمته في ليلة في مطعم « دي لا برومينات » على كوبيري وقصر النيل » ، وكان ذلك قبل الحرب ، فشرع يعمل في قصيدة « النيل » ، وكان كل نصف ساعة يركب مركبة خيّل ، ويسيّر في الجزيرة بضع دقائق ، ثم يعود إلى المنضدة التي كان يجلس إليها ، فيكتب عشرة أبيات أو إثني عشر بيتاً ، وهكذا حتى انتهت القصيدة في ليلة ، إلاّ بيتاً استعصى عليه ، ولم يتمكّن منه إلاّ بعد يومين .. وكان إذا شغلته أشياء عن قصيدة طلب اليه عملها ، ولم يتذكريها إلاّ قبل ميعادها بساعات أو عند طلبها ، ابتسם . وطلب أن يتناول ثلاثة بيضات نية . ثم يبدأ في النظم ، فلا تمضي ساعة ، حتى تكون القصيدة في ياه طالبها » (٢)

ولقد تستغرب شرب شوقي للبيضات النية ، إلاّ أنك متى علمت أن في البيض تغزر مادة الفوسفور . وأن النظم يحتاج إلى أن يصرف الدماغ قسطاً من فوسفوره ، أدركت أية علاقة بين البيض النيء ونظم الشعر لدى شوقي الذي تؤثر فيه الإيحاءات والخيالات ، كما تؤثر في غيره من الشعراء !

ومن المفيد . وشوقى يتمتع بهذه الموهبة النادرة الفريدة من نوعها في نظم الشعر الجيد بسرعة فائقة . فلا يدع المناسبة تفوته ، كأنّي به صحيفة تخشى أن تطلع على القراء بغير الأخبار « الطازجة » ، من المفيد ، توكيداً لتمتعه

(١) أي داود بر كات رئيس تحرير « الاهرام » ، في ذلك الحين .

(٢) راجع « إثني عشر عاماً في صحة أمير الشعراء » لأحمد عبد الوهاب أبو العز - صفحة ١٩ .

بهذه الموهبة ، أن ننقل ما قاله شاعر القطرين خليل مطران في هذا الصدد :

« إنه ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة ، وفي السكة الحديدية ، وفي المجتمع الرسي . وحين يشاء ، وحيث يشاء . ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه . بادئ باء . عمودية تشبه النغمة الصادرة من غور بعيد . ثم رأى ناظريه وقد برقا . وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصر به ، وقد رفع يده إلى جبيه ، وأمرَّها عليه إمراً خفيفاً ، هنيهة بعد هنيهة . فإذا قطع في خلال النظم . انتقل إلى أي حديث يُبَاحُ فيه ، حاضر الذهن صافيه ، جميل البدرة ، كعادته في الحديث . ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ، ولو بعد أيام طوال . عاد إليه . كأنه لم ينقطع عنه ، مستظهراً ما تمَّ منه ، حافظاً لبقية المعنى الذي يضممه . ويكتب القصيدة بعد تمامها ، وربما نسيها شهراً ، ثم ذكرها ، فكتبتها في جلسة واحدة » (١)

مقارنات

والواقع أن هذه الحال ليست حال أحمد شوقي وحسب . بل حال سائر الشعراء الذين اخذوا الشعر هواية يشبعون بها رغائب العبرية . وأهواه النفس ، أو مهنة يتكسبون بها ، سواء كان تكتسبهم مالاً يأتينهم من أغنياء . أو إعجاباً يردهم من فقراء . وإنما برزت هذه الظاهرة لدى شوقي أكثر من بروزها لدى سواه ، لأنه أمير للشعراء ، ولأنه يتسم من الشعر مكانة تجعل كل حركة من حركاته ذات أهمية . في نظر المؤرخين ، والنقاد ، والكتاب جمعياً .

ولقد عرفت كثيراً من الشعراء المعاصرين الكبار ، ينظمون القصيدة ، ويسجلون بيئاً منها على ورقه ، وآخر على دفتر . وأبياتاً ثلاثة على غلاف

(١) راجع « مختارات المنفلوطي » ، صفحة ٦٨ .

كتاب ، ثم يستظهرون ذلك في سرّهم ، ولا تلبث أن تنتظم قصيدة رائعة
الجمال .

وما أذكره عن كثیر شعرائنا المعاصرین ، صدیقی الشاعر أحمد الصافی
النجفی ، أني زرته ، منذ سنوار ، في منزل كان يقطنه في مجلة « الغیری » ،
إحدی ضواحی بيروت ، فأقرأني بعضاً من قصائدہ التي جاءت على مثل
ما وصفت ، وكذلك قرأ لي مثلها لما أردت في الزيارة في متزلي .

والتحقیت به مرة في إحدی دور النشر بيروت ، وقد نشرت له بعض
دواوینه ومنها « الأمواج » و « حصاد السجن » ، كما نشرت لي دیوانین
هما « شموع المعبد » ، وهو من الشعر الغزلی الوجданی ، و « تحت الرماد »
وهو من الشعر الوطني الاجتماعي ، فوجدت ^{في} التجفی على حاله ، في النظم
على أوراق متناشرة ، بعضها متهالل ، وبعضها الآخر ممزق .

على أن من الواجب أن نسجل لشوقی تمکنه من وضع القصيدة الطويلة ، وسط
فوضی النظم التي عرفت عنه ، بينما جاءت معظم منظومات الصدیق الشاعر
النجفی مقطوعات ، في معظمها ، لا تتجاوز الأبيات المعدودات ، وإن
كان ذلك لا ينقص من قيمتها الإنسانية البالغة .

ومن هذا القبيل ما يضعه الشاعر المھجری الكبير الصدیق الأستاذ جورج
صیدح الذي ربما نظم أبياتاً من القصيدة في باریس ، وأخری في لوزان . وثالثة
في لوشون ، ومع ذلك تأیي أبیاته متسلقة ، متراپطة ، منسجمة ، وربما
لم يكتم بذلك ، بل عمد إلى التصحیح والتتحقق . وهذا ما حدث
لقصیدتين بعث بهما إلى من فرنسا ، إحداهما في تقریظ دیوانی « شموع المعبد »
وثانیتهما في تقریظ دیوانی « تحت الرماد » ، ثم مالبث ، في كل مرة ، أن
بعث بنسخة ثانية عن كل من القصیدتين ، يصحح وينفع ، احتراماً منه
لشعره ، وللشعر العربي إجمالاً .

ولا يفوتي أن أذكر مخالفة صدیقی ، شاعر الملأ حمـ العربـیـةـ ، الأستاذ بولـسـ
سلامـةـ لهذهـ السـنـةـ التيـ يتـبعـهاـ الشـعـرـاءـ غالـباـ ، فهوـ فيـ نـظـمـهـ لـشـعـرـهـ يـعـدـ إـلـىـ دـفـاتـرـ

خاصة . يسجّل عليها نفثات خاطره . بعد أن ينتهي أكثرها رواةً وجلاةً . ومن هنا صبره على النظم الملحمي الطويل الذي يسرّ له اتحاف الأدب العربي بملأحمه «عيد الغدير» . و«عيد الرياض» و«عيد المئتين» . ولربما كانت العمليات الجراحية الأربع والعشرون التي ألمّته فترة طويلة من عمره المديدة . بإذن الله ، فراش المرض . فاستحق بسببها لقب «أيوب القرن العشرين» ، هي سبب حرص شاعرنا على تدوين شعره في دفاتره الخاصة .

شوقى والشعر الملحمي

ولقد كان بإمكان أحمد شوقي أن يكون أسبق من بولس سلامة إلى نظم الشعر الملحمي ، بعدهما عرفنا عن سهولة نظمه للشعر ما عرفنا . ولكن اتصال شعر شوقي بالأحداث اليومية تقريرياً ، وشعوره بأنه يجب أن يلعب دوراً سياسياً ووطنياً بارزاً ، طالما أن ذلك ميسور له . هو الذي جعل نفسه ، على طوله . أقصر من النفس الملحمي الذي هيأه الله لأستاذ الجليل بولس سلامة الذي ، وإن أفعده المرض عن الخوض في مشاغل الناس العابرة ، فقد صعب على شعراء كثُر ، سابقين ومعاصرين ، أن يطاولوا البناء الشعري الفلسفى الأدبي الاجتماعى الذى شيدته ، عبر مؤلفاته . شعرًا ونثرًا . فاستقام له الشعر . كما استقام لشوقى ، وانصاع له النثر . «طوابعاً ، في حين كبا أمير الشعراء ، في حلبة الناثرين .

* * *

ومن المتفق عليه ، بعدهما أعطى شوقي من الشعر ما أعطى ، أن شاعريته التي أحرز بها هذه المكانة السامية في نقوس المصريين والعرب ، كانت تقوم على ثلاثة أقانيم : خياله ، وعاطفته . وموسيقاه .

ثم إن شاعريته كانت وقفاً ، قبل منفاه . على القصر ، كما غدت ، بعد عودته من المنفى وقفًا على الشعب ؛ ولا ينافق هذا الرأى ما نلمحه من

وتجانة شخصية في بعض قصائده ، وهكذا كان ، على حد قول عدد من نقاده ، شاعرًا غيريًّا أكثر منه شاعرًا ذاتيًّا .

ولأن شوقي لم يكن شاعرًا إثريًّا ، ذاتيًّا ، بل شاعرًا غيريًّا ابشاريًّا ، فقد خيل لبعض الكتاب ، وعلى رأسهم خصميه اللدود عباس محمود العقاد ، أنه لا مكان للعاطفة في شعر شوقي وقد كتب العقاد ، بهذا الصدد ، يقول :

«في شوقي ارتفع شعر الصنعة إلى ذروته العليا ، وهبط شعر الشخصية إلى حيث لا تتبين لمحـة من الملـامـح ، ولا قسمـة من القسمـات التي يتمـيز بها إنسـان ، بين سـائر النـاس . وشعر الصنـعة ليس على نـهج وـاحـد كـله ، فـمنـه ما هو زـيف فـارـغ ، لا يـمـتـ إلى الطـبـيعة بـواشـحة ولـو صـلـة ، ولـيسـ فيه إـلا لـفـظـ مـلـفـقـ ، وـتـقـلـيدـ بـراءـ منـ الـحـسـ والـذـوقـ والـبـراـعةـ . وـمـنـهـ ماـهوـ فـرـيبـ إـلـىـ الطـبـيعـةـ ، وـلـكـنهـ مـنـقـولـ مـنـ القـسـطـ الشـائـعـ بـيـنـ النـاسـ ، فـلـيـسـ فـيـهـ دـالـيـلـ عـلـىـ شـخـصـيـةـ الـقـائـلـ ، وـلـاـ عـلـىـ طـبـعـهـ ، لأنـهـ أـشـبـهـ شـيـءـ بـالـوـجـوهـ الـمـسـتعـارـةـ الـتـيـ فـيـهاـ كـلـ مـاـ فـيـ وـجـوهـ النـاسـ ، وـلـيـسـ فـيـهاـ وـجـهـ إـنـسانـ . وـمـنـ هـذـهـ الصـنـعـةـ كـانـ صـنـعـةـ شـوـقـيـ فـيـ جـمـيعـ شـعـرـهـ ، فـلـوـ قـرـأـهـ كـلـهـ ، وـحاـوـلـتـ أـنـ تـسـتـخـرـجـ مـنـ ثـنـيـاهـ إـنـسانـاـ اـسـمـهـ شـوـقـيـ يـخـالـفـ الـأـنـاسـيـ الـآخـرـينـ مـنـ أـبـنـاءـ طـبـقـتـهـ وـجـيـلـهـ ، لأـعـيـاكـ الـعـشـورـ عـلـيـهـ ، وـلـكـنـكـ قـدـ تـجـدـ هـنـاكـ خـلـقـاـ تـسـمـيـهـمـ مـاـشـتـ مـنـ الـأـسـمـاءـ ، وـشـوـقـيـ اـسـمـ وـاحـدـ مـنـ سـائـرـ هـذـهـ الـأـسـمـاءـ . وـلـيـسـ هـذـاـ بـشـعـرـ النـفـسـ الـمـمـتـازـ . وـلـاـ بـشـعـرـ النـفـسـ الـخـاصـةـ ، إـنـ أـرـدـنـاـ أـنـ نـضـيـقـ مـعـنـيـ الـأـمـتـيـازـ ، وـلـيـسـ هـوـ مـنـ أـجـلـ ذـلـكـ بـالـشـعـرـ الـذـيـ هـوـ رـسـالـةـ حـيـاةـ ، وـنـموـذـجـ مـنـ نـمـاذـجـ الطـبـيعـةـ ، إـنـماـ ذـاكـ مـنـ الـمـصـنـوعـاتـ ، غـلـاـ أوـ رـخـصـ عـلـىـ هـذـاـ التـسوـيمـ » (١)

(١) رابع كتاب «شعراء مصر وبياتهم في الجيل الماضي» لعباس محمود العقاد - صفحة ١٥٦ .

ثقافة سُوفِي

تقرأ سيرة شوقي ، ثم تقرأ ديوانه «الشوقيات» ، ومسرحياته الشعرية التي وضعها في أواخر حياته ، فتطالعك أصداء الثقافة التي كان أحمد شوقي يتمتع بها .

ومنذ فترات الدراسة الأولى ، تلاحظ أن الثقافة التي يجتنيها ، إنما كانت موجّهة قصداً ، من قبل ذويه ، وخاصة جدته اليونانية ، لتكون ثقافة راقية ، توضع ، فيما بعد ، في تصرف الخديوي . وهكذا عرف شوقي اللغة التركية ، والعربية ، والفرنسية ، وقد يكون ألمَّ باليونانية والإنكليزية ، نظراً لما ذكرنا عن تمازج الأصول ، في نسب الشاعر ، من جهة ، ونظراً لتحقّصه دراسة الحقوق في فرنسا ، وسيطرة بريطانيا ردحاً من الزمن ، على السلطة في مصر ، وحكم الأهالي بواسطة الأمراء الموالين لها حيناً ، المعارضين لها حيناً آخر .

وعلى الرغم من إقامة شوقي خمس سنوات في فرنسا ، فهو لم يحصل من الثقافة الفرنسية إلا قسطاً ميسوراً هو القسط اللازم للإنسان المثقف العادي ، أو ، لئلا نتهم بالبالغة ، للشاعر المفتاح على تيارات الفكر العالمي ، فلم يتأثر بمدرسة من المدارس الفرنسية والأوروبية عامة ، وإنما وقف تأثراً عند حد الأدباء والشعراء الكلاسيكيين ، وعلى الأخص الفرد دي موسيه ، ولافونتين وفيكتور هوجو ، وسواهم .

شوقى وشكسبير

ولقد كتب شوقى عن شكسبير ، عبقرى انكلترا ، فكانت كتابته عنه مثاراً لأكثر من النقداد ، إذ أخذ عليه النقداد جهله بالشاعر الانكليزى ، وبأفكاره .

ولم يقف نقاد شوقى عند هذا الحد ، بل تراهم يطلبون إلى الشاعر أن يكون متعمقاً في الفلسفة . متمكناً من معطياتها ، وإلا تجرّد شعره من كل قيمة فكرية . علماً بأن الشاعر يحيى الوجود ليعنى ، لا لي الفلسف . لأن الفلسفة شأن من شؤون أصحابها الذين لا تخسيبهم يدائون أنهم خلقوا للشعر ، أو للصيادة ، أو للهندسة .

فإذا كان لا يضر الفيلسوف أن يجهل الشعر والصيادة والهندسة ، فلا يضر الشاعر أو الصيدلي أو الفيلسوف أن يكون غير متعمق في العلوم الفلسفية .

ومع أن ذلك هو من المعطيات البدئية التي يعرفها متقدمو شوقى ، فقد أبوا و CABRERA ، كائناً يريدون لشوقى ألا يشدّ عن طريقة يتحكمون هم بوضعها ، ويطلبون إليه ألا يحيد عنها قيد أملة . فهذا الذكور طه حسين يتعرض لشوقى بسبب قصيّاته التي نظمها في شكسبير ، عبقرى انكلترا ، فيقول :

« أقل ما يحسّه قارؤها أن شاعرنا لم يعلم من أمر شاعر الانكليز إلا شيئاً ضئيلاً جداً يعرفه المثقف العادي ، وهو على كل حال لم يفهم روح شكسبير ولم يتمثله ، ولم يحس ، بل لم يحاول تصوير هذا الروح . وكل ما في القصيدة مدح لإنكلترا أول الأمر . ثم ثناء على شكسبير غريب ، يشبه فيه أبيات شكسبير بالأبيات المنزلة . ويشبه معانى شكسبير بعيدى . ولست أدرى ما هذا الحسن المشترك بين معانى شكسبير وبين المسيح ، بل لست أدرى كيف يذكر شكسبير المؤثر بوثنية القدماء ، وأداب الشمال الأوروبي ، إلى جانب المسيح ؟ وكيف يشبه أدب شكسبير بالإنجليز ؟ إنما هو كلام يقال ، ويعتمد

صاحبها على أن الذين سيقرأونه ستر دعهم الألفاظ دون أن يبحثوا عن المعاني ، لأنهم لا يعرفون من أمر شكسبير ، ولا من أمر المسيح والأنجيل شيئاً كثيراً .

ثم يقول شوقي إن قصص شكسبير تمثل الحياة ، وكل مثقف يعرف هذا ويقوله ، بل كل مادح لشاعر من الشعراء الممثلين يقول فيه هذا بالحق حياماً ، وبالباطل أحياناً .

ثم يتوجه شوقي إلى شكسبير ، فيسألها أسئلة عادلة قد ألفها الناس منذ قراؤا رثاء أبي العلاء . وعرفوا تصويره لبل الأجداد في القبور ، ثم يطلب إلى شكسبير الذي أجرى الدم أنياباً في قصصه أن ينهض ليروى كيف جرى الدم بمحاراً في ظل الحضارة الحديثة . ويدنم الحرب كما يندمها كل إنسان .

هذا علم شاعرنا بشakespeare . وهذا تصوير شاعرنا له ورأيه فيه ، وأين يقع هذا كله من آراء الشعراء الفرنسيين والألمان المحدثين في شكسبير ؟ وإنني لأعرف حماورات بجوطه حول بعض القصص التي تركها شكسبير حول «حملت» مثلاً في «ولهم مايسير» لا يُذكّر معها ما قاله شوقي من الشعر ، ومع ذلك فقد كان من الحق على شاعرنا أن يكون علمه بشakespeare أوسع من علم الألمان والفرنسيين في القرن الثامن عشر . لأن فقه الشاعر العظيم قد تقدم في قرن ونصف قرن تقدماً عظيماً » . (١)

ولا ريب في أن هذه الانتقادات ، على وجهتها وأهميتها ، تحمل الكثير من التحامل ، لأنها ترمي إلى تقني شاعرية الشاعر ، وإلى تعليها في إطار العلم والفلسفة . فالمقارنة التي يجريها طه حسين بين شوقي وجوطه واقعة في غير محلها ، لأنَّ شوقي كان شاعراً وحسب ، بينما كان جوطه شاعراً وناقداً معاً ، فمن الطبيعي أن تكون معلومات جوطه ، والحال هذه ، أوسع من معلومات شوقي في هذا المجال .

ثم إن شوقي إنما «يشبه شakespeare بآيات الانجيل أو بالآيات المنزلة لبيان

(١) راجع كتاب «حافظ وشوقي» للدكتور طه حسين - صفحة ٢٠٣ .

بلاغتها وسحرها و فعلها في النفوس . وقد ذكر الإلهام والإيحاء . وهما طبيعيان يذكرهما الشعراء ، كما يذكرهما القادة حين يتحدثون عن الشعر ؛ وذكره ليعنى أثناء ذلك ليس فيه غرابة ، فشكسبير مسيحي ، وإن كان متأثراً بوثيقة القدماء . وشعره انجيل الشعر عند الانكليز ، وهم يقدسوه تقديساً لا حدّ له . حتى ليقولون كلمتهم المشهورة : « لو خيرنا بين شكسبير ومستعمراتنا لا خيرنا شكسبير » .

أما قوله إن شكسبير يمثل الحياة . مضيفاً إلى ذلك أن فيه إضحاكاً وإبكاءً ، وأنه يكشف أسرار النقوس . فمن أدق ما وصف به شكسبير بين القادة ، لأنه من المعروف عندهم أن مأساته تحوي غير قليل من عناصر الفكاهة ، وأنه بارع ببراعة لا حد لها في كشف النقوس ونقل أسرارها ، وتمثيل الحياة في مختلف مظاهرها . إذ كانت له عين بصيرة واسعة نافذة استطاعت أن تحول الأعمال والأقوال البشرية . إلى شعر . فلشخص شوقي هذه الخصائص في أبياته على طريقة الشاعر الغنائي الذي يوجز ويلمح ويشير من طرف خفي . أما الأسئلة التي سألاها شوقي . بعد ذلك لشكسبير عن الموت وما بعد الحياة ، فقدم لها بأنه أبان للناس عن هذه الحياة الدنيا . وما يجري فيها من عواطف ونزوات وأخلاق . فنهل له أن يبيّن لهم عن آخرتهم . وما هم ملاؤون فيها . ويفضي إليه بما عنده من أسرار » (١)

طه حسين وثقافة شوقي

ويبدو أن للدكتور طه حسين ولعاً خاصاً بالحديث على ثقافة أحمد شوقي ، فتراه في كتابه « حافظ وشوقي » يتحدث عن هذه الناحية ، فيقول :

(١) راجع الدكتور شوقي ضيف في « شوقي شاعر العصر الحديث » - صفحة ١١٥ - ١١٦ .

« كان شوقي في أول أمره مثقفاً يحب الثقافة . ويشتد في طلبها والتزيد منها ، ولكنه كان كغيره من الشبان المصريين . يسيرون في الدرس والتحصيل على غير هدى ، ولا سيما حين يدرسون في أوروبا ، لا يقرأون من الأدب ، مثلاً . إلا ما لا بدّ للرجل المثقف من قراءته في هذه الآثار العليا التي فرضت على الناس فرضاً . فأما النائق في الثقافة ، والتماس الترف في الأدب ، فلا حظ لهم منه . وكذلك كان شوقي ، حين ذهب إلى فرنسا ، آخر القرن الماضي ، إذا ذكر الشعر الفرنسي . ذكر لامرتين وبجيشه التي ترجمها إلى العربية ، أو ذكر لافونتين وأساطيره التي قلّدها في العربية ، وإذا ذكر الفلسفة ، ذكر جول سيمون .

ومن المحقق أن آثار لامرتين ولافونتين آيات في الأدب الفرنسي ، وأن فلسفة جول سيمون لها قيمتها . ولكنك تلاحظ أن شوقي لا يذكر بودلير أو فرلين أو سولي بريديوم أو مالارمييه من الشعراء الفرنسيين ، ولا تراه يذكر تين أو رينان أو برجسون من الفلاسفة ، ذلك لأنه لم يكن يسير في ثقافته على هدى ، وإنما يأخذ من الأدب الفرنسي أيسره وأدناه إلى متناول اليد . وكذلك كان تجاهلاً شوقي متاثراً بهذا الحظ من الثقافة الفرنسية ، أي أنه كان يتاثر بالقديم الفرنسي أكثر مما كان يتاثر بالحديث . ولو قد اتصل شوقي بالمجددين الذين عاصروه في شبابه من الشعراء الفرنسيين . لسماع شعره سبيلاً أخرى . ولكنه لم يفعل . ولكنه لم يطلق لطبيعته مما هي عليه حريتها ، بل قبضها وأرادها كارهة على أن تتأثر في انتاجها الأدبي بسياسة القصر حينئذ ، وما كان يحيط به من الظروف . ولو قد أطلقها أو ارسلها لها العنوان بعض الشيء . لغيرت حياة الشعر العربي الحديث .

ولست في حاجة إلى أن أتكلف المشقة في الاستدلال على ذلك ، فقد كانت طبيعة شوقي من الحصب والقوة بحيث لم تكن تذوق أثراً أدبياً يمكن من حماكاه إلا حاولت هذه المحاكاة ، وحدثت فيها . وكانت توفق أكثر الأحيان

في هذه المحاكاة توفيقاً عظيماً ؛ ولو أن شوقي قرأ الإلياذة والأودسة كامتياز وفهمهما حق الفهم ، وأطلق لنفسه حريتها يحاول أن ينشيء الشعر الفصحي في اللغة العربية ، لا أقول على نحو ما كانت الإلياذة والأوديسة من الطول ، ولكن على نحو ما كانت الإلياذة والأودسة من الفن . ولو أن شوقي قرأ تمثيل اليونان ، وتمثيل المحدثين ، وأطلق لطبيعته حريتها ، لعني بالتمثيل شرعاً ونثراً في شبابه ، ولأعطي اللغة العربية من هذا الفن حظاً له قيمة صحيحة..

شوقي وارسطو :

ولا يكتفى الدكتور طه حسين بهذا القدر ، بل يتحين الفرصة لإثبات محاذير التمتع بثقافة مسطحية ، بحيث يحيى النتاج الأدبي خلواً من الدقة ، والعمق ، فضلاً عما يقع فيه صاحبه من أخطاء تاريخية . أو فلسفية فادحة ، تكشف عن ضائقة معلوماته في الموضوع الذي يبحثه .

فاما قام الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بتعريف كتاب « الأخلاق » لأرسططليس . انبرى الأدباء والشعراء الى امتداح هذه المأثرة الجليلة ، وبينهم أحمد شوقي . وحافظ ابراهيم وغيرهما .

ويهمنا أن نسجل للدكتور طه حسين ذلك الهجوم الذي صبه على أحمد شوقي ، دون ما هوادة أو مهادنة . متهماً إياه ، لا بضالة المعرفة . وقلة الاطلاع ، بل بالجهل المطبق في الفلسفة وتاريخها . وروادها ، بحيث نسب في قصيدة التي امتدح بها المغرب . والمغرب . والمغرب له . أفكاراً لأرسططليس . هي في الحقيقة لأفلاطون .

فهي « حديث أربعاء » . وبعد مقدمة طويلة . يخلص الدكتور طه حسين إلى القول :

(١) راجع كتاب : « حافظ وشوقى » للدكتور طه حسين - صفحة ٢٠٠ طبعة ١٩٣٣ .

« وربما كان شوقي أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب في هذا الموضوع . نعم ! هو أحقهم بالعتب ، فهو من بينهم قد تعلق بأرسطاطاليس وأراد أن يشيد بذكره ، ويرفع من شأنه ، وخصص له من قصيدة أكثر مما خص للاستاذ المترجم . ولعلك تدهش ، ولعل شوقي نفسه يدهش ، إذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرسطاطاليس ، وإنما مدح أفلاطون . نعم ! أراد عمرأ ، وأراد الله خارجة ! ولكنه أراد عمرأ بالخير ، فأنصرف هذا الخبر عن عمرو إلى خارجة لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل إلى عمرو . ولو لا أن نفوس الفلاسفه والحكماء رضية بطبيعتها ، لكان من حق أرسطاطاليس أن يخاصم شوقياً وأن ينفس على أفلاطون ، أستاذه ، هذا المدح الذي جاءه من حيث لا يحتسب ، أراد شوقي أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون . ولست في حاجة إلى أن أطيل القول في أن شوقياً لم يمدح أرسطاطاليس ، فيكتفي أن نقرأ قصيدة شوقي لنرى أنه يصف أرسطاطاليس بأنه سبق إلى التوحيد ، فأعلنـه قبل البنية والخطيم ، وقبل المسيح أيضاً ، وبأنه قدسي الروح ، وبأن « لطفي » (١) صدى صوته الأخير . وبأن رسائله كالسلالة إذا جرت في جسم النديم . وإذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق إلى أعلان التوحيد ، فليس هو أرسطاطاليس ، وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سocrates أيضاً : فقد سبق فلاسفة اليونان إلى إعلان التوحيد في القرن الخامس قبل المسيح . ولكن الشيء الذي يستحق العناية هو أن هناك فيليسو فـأيونانياً يقرن إلى المسيح . وتعتبر فلسفته أصلاً من أصول الديانة المسيحية . ومصدراً من مصادرها . وليس هذا الفيلسوف أرسطاطاليس ، وإنما هو أفلاطون صاحب المثل . أفلاطون الذي أمعن في طلب المثل الأعلى ، والذي استطاع أن يرقى بالنفس الإنسانية ، وال فكرة الإلهية إلى حيث لم يسبة ، ولم يدركه فياسوف بعده ؛ أما أرسطاطاليس فـقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد في السماء ، وهذا لم يصعد أرسطاطاليس في السماء . ولعله لم يرفع بصره إلى

(١) أي أحمد لطفي السيد ، معرب كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس .

السماء ، وإنما خفضه إلى الأرض ؛ ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء ، وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . وإذا كان هناك فيلسوف تلائم فلسفته الشعر حقاً ، أو قل إذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً ، فهذا هو أفلاطون لا أرسطاطاليس . فلو عرف شوقي إله أرسطاطاليس . هذا الإله العاجز الجاهل المفتون ب نفسه ، المنصرف إلى جماله عن كل شيء . الذي لا يعلم إلا نفسه ، ولا يفكر إلا في نفسه ، ولا يعجب إلا بنفسه .. أقول لو عرف شوقي إله أرسطاطاليس هذا ، لرثى لهذا الإله ، ولرثى لأرسطاطاليس نفسه ، ولما استطاع أن يقول :

مَنْ كَانَ فِي هَدْيِ الْمَسِيحِ وَكَانَ فِي رُشْدِ الْكَلِيمِ وَغَدَا وَرَاحَ مُوحَّداً قَبْلَ الْبَنِيهَةِ وَالْخَطِيمِ

أفهم جداً لأنها يتعمق الشعراء في فهم المذاهب الفلسفية ، وإنما أريد شراءنا خاصة - وأعذر شوقي وغيره إذا خيل إليهم أن توحيد أرسطاطاليس يشبه توحيد المسيح أو توحيد المسلمين . فهو توحيد على كل حال . وقد لا يصح أن نلح على شعرائنا في أن يدرسو ما بعد الطبيعة . ويتحققوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نواس ، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه ، ولا أن أعتذر ، هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد . فيخيل إليهم أن أرسطاطاليس كان حلو النثر ، رخيم الصوت . قدسي النفحات ، تشبة آثاره بالسلامة . صف بهذه الأوصاف كلها أفلاطون ، فلن تبلغ من وصفه ما تريده . ولكن لا تصف بها أرسطاطاليس . فكم كدّ نثر أرسطاطاليس عقولاً ، وصدع رؤوساً ... » (١)

تبقى لنا الكلمة الأخيرة حول ثقافة شوقي .

(١) راجع « حديث الأربعاء » الجزء الثالث للدكتور طه حسين ، صفحة ٨٦ وما بعدها - دار المعارف بمصر .

فقد تناول نقاد شوقي بالبحث . عدم تعمق الشاعر في مطالعاته وتأثراته بالأداب الأجنبية – وعلى الأخص الأدب الفرنسي ، كما أخذوا عليه عدم وضوح معلوماته ودقتها فيما عنى الذين كتب عنهم شرعاً من الأدباء والشعراء الأجانب .

وقد يكونون محظيين في بعض انتقاداتهم . كما قد يكونون مخطئين أو متحاملين في بعضها الآخر .

إلا أن ما لم يشر إليه النقاد . ولو إشارة خاطفة . الثقافة القانونية التي يتمتع بها أحمد شوقي . بعدها أمضى سنتين ، في بداية عهده بالدراسة الجامعية ينهل المعين القانوني في مدرسة الحقوق بالقاهرة . ثم سنتين آخريتين في وونيسياه بفرنسا . وسنتينأخيرتين في باريس إلى أن حصل على الإجازة في الحقوق .

وصحيغ أن شوقي لم يتوجه إتجاه المحاماة . ولا غاص في أصول المحاكمات المدنية والجزائية . ولا في اعداد المواقع . ما بين ادعاء او دفاع . ولكنه لبث أبداً مدافعاً عن القضية التي يقين شعره من أجلها . هكذا كان دأبه ، يوم كان بوقاً للخدوي . يرد الحجة بالحجوة ، ويلنود عن موقف القصر بما أوتيه من حجة ومنطق وثقافة قانونية عالية . وهكذا كان دأبه أيضاً ، يوم اتجه وجهة الشعب . بعد عودته من المنفى . فدافع عن قضايا مواطنية ، وأثار فيهم دعوى الحق والخير والجمال . ودفعهم دفعة إلى ارتياح سبيل الفضيلة ولا ريب . عندنا ، أن الرصانة التي تشيع في محمل شعر شوقي عائدة إلى هذه الثقافة القانونية التي نهل معينها ، وتسلح بمحاجتها ، في نظم قصائده الوطنية والاجتماعية على السواء .

شُوقي بين النفي والتجدد

عاش شوقي في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ؛ وقد أمضى الفترة الأولى من حياته في أجواء مصر ، ثم ما لبث أن يم ، في بعثة دراسية ، شطر فرنسا ، حيث أمضى أربع سنوات ، عاد بعدها إلى وطنه ، ليتنف ، بعد مدة ، إلى بلاد الأندلس ، حتى إذا وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، عاد إلى بلاده يمضي فيها ما تبقى له من سني عمره .

هذه المعاصرة بجزئين من قرنين ، وهذا التنقل بين مصر ، وببلاد الغرب ، فضلاً عمّا تخلله من سفرات توجهه فيها إلى بلدان الشرق ، وعلى الأنصاف تركيا والبلاد العربية ، جعلت لشعر شوقي طابعاً خاصاً يتارجح بين القدم والحداثة ، كأنه بشوقي ذلك الشاعر المخضرم الذي يتجادبه تياران : حفاظ على القديم ، بعراقته وأصالته من جهة ، ومن جهة ثانية ، اقبال على الجديد بما فيه من مغريات . فلقد كان شوقي في ما نظمه ، محافظاً على أصالة الشعر العربي ، متمسكاً بعموده ، حتى جاءت معظم قصائده عصماء ، يندر أن تأخذ عليها مأخذأ لغوياً أو فنياً .

ولكن شوقي لم يقف عند حد المواضيع القديمة التي راح شعراؤنا القدماء وعلى الأنصاف شعراء العصر العباسي الثالث ، وبصورة أدق ، شعراء عصر الانحطاط ، يلوكونها لوكا ، ويحيطونها اجتراراً ، في إطار من التعبير المنحوتة من صخر ، البدية الصنعة والتتكلف ؛ وهكذا رأيت أمير الشعراء يقبل على شؤون لم يكن للشعر ، من قبل ، عهد بها . فبالاضافة إلى أغراض الشعر

التقليدية من مدح وغزل ورثاء وفخر ووصف ، نظم أحمد شوقي في المختارات الحديثة . ونظم في الاساطير والأمثال متأثراً ، على الأنصب ، بالشاعر الفرنسي لافونتين ، صاحب الحكايات الشهيرة ، (١) التي لا زدرى مدى تأثر صاحبها بالقصص الفهلوى (أى الفارسي القديم) والسننكريتى (الهندى القديم) الذي استوحى منه عبد الله بن المفعع الشىء الكثير عندما وضع أو ترجم كتاب «كليلة ودمنة» إلى لغة الصاد (٢) ؛ ولم يكتفى شوقي بذلك وحسب ، بل وقف السنوات الخمس الأخيرة من عمره للنظم المسرحي الذى جاء يسد فراغاً كبيراً في الأدب العربى بعدهما ظل خلواً ، حتى ذلك الحين ، من الأدب المسرحي بمعناه الكلاسيكى ، من حيث ضرورة توافر ثلاثة عناصر في المسرحية ، مأساة كانت أو ملهاة ، وهذه العناصر هي :

(١) وحدة المكان *Unité de lieu*

(٢) وحدة الزمان *Unité de temps*

(٣) وحدة العمل (أو الموضوع) *Unité d'action*

تأثير شوقي بالأدب العربي والأدب الأجنبية :

ثم إن شوقي قرأ الأدب التركى ، والأدب اليونانى ، وخاصة المسرح الأغريقى الذى استوحى منه أدباء الغرب عديداً من مسرحياتهم ، وقرأ الأدب الانكليزى ، فتأثر بكل ما قرأ ، غير أن تأثيره بالأدب العربى (وقد أشرنا في الفصل السابق إلى بعض تأثيراته بالأدب الأندلسى) ، بقى أقوى وأظهر ، في شعره ، من كل أدب آخر . على أن تأثير شوقي بالأدب العربى ، إلى هذا الحد والمعارضات الشعرية التى وضعها ، على أساس الوزن والروى اللذين تقوم عليهما قصائد من عارضهم شوقي ، جعل بعض النقاد لا يرون في

(١) راجع مجموعة : les fables de la Fontaine منشورات لاروس

(٢) راجع كتابنا «الأعلام والفنون الأدبية» - طبعة ١٩٦٦ - دار الكاتب العربى ، ومقدمتنا لكتاب «كليلة ودمنة» الذي حققناه - منشورات «الشركة اللبنانية للكتاب» طبعة ٦٩

الأدب الشوقي أي تجديد يذكر ، أو بالأحرى ، أي تجديد يمكن أن يلفت إليه الأنظار .

وفي مثل هذا المعنى . يرى أحمد الأسكندرى أن شوقي « ما كان بدعاً من الشعراء . ولا خرج بشعره ثائراً على القدماء . وأنما تأدب بأدبهم ، وسار على دربهم ، وما زال شعره كشعرهم تألف القصيدة منه من أبيات مستقلة في اللفظ والمعنى ، على وزن واحد ، وتنركب من أخلاقية جزئية ، لا من خيالٍ كليٍ مفصل الأجزاء . شأن الشعر القصصي الأوروبي ، واتبع شوقي هذه الطريقة العربية حتى في المقطوعات الكبيرة من مسرحياته . والذى حدا به أن يكون عظيماً في الشعر العربي ، اطلاعه على شعر البارودي البليغ وسماعه إعجاب الناس به » (١)

من مقدمة « الشوقيات »

ويبدو أن أحمد شوقي كان يشعر ، فيما بينه وبين نفسه ، أن وقوفه عند حدود التقليد لأساليب الأقدمين ولما تعاهدواه من الموضوعات التي كادت أن تبتذر وتهرب ، لكتلة ما عوبلحت ، عبر عصور الأدب العربي ، من شأنه أن ينتقص من مكانته الشعرية ، وأن لا يبلغه ، وبالتالي ، ذلك المقام الذي كان يعد نفسه به ، عنinet به « إمارة الشعر » التي انعقد له لواؤها ، فيما بعد .

وهكذا أطلق شوقي ، في مقدمته لمجموعه « الشوقيات » ، صفاراة إنذار توكل بأن الشاعر قد اعتزم قطع الصلة بينه وبين ما اعتناده القدامى من مدح وزلف ، وأنه لذلك ، سيضر بها ثورةٌ فكريةٌ بناءً ، تجعل للأدب العربي المعاصر مشارف ومطلات جدداً ، فيقول :

« إن إإنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ، ولا تقوم بغیره ، تجزئة يحفل عنها ، ويتبأ الشعراء منها ؛ ألا أن هناك ملماً كبيراً ما خلقوا إلا ليغنووا بمدحه ، ويتفنوا بوصفه ، ذاهبين فيه كل مذهب ، آخذين منه بكل نصيب ،

(١) راجع مقالة أحمد الأسكندرى « أثر الأدب العربي في شعر شوقي » في عداد مجموعة محمد خورشيد وعنوانها : « أمير الشعراء شوقي ، بين الماظفة والتاريخ »

وهذا الملك هو الكون . فالشاعر من وقف بين الثريا والثري ، يقلب احدى عينيه في الذر ، ويجهل أخرى في الذرى ، يأسر الطير ويطلقه ، ويكلم الجمامد وينطقها ، ويقف على التبات وقفه الطل ، وتمر بالعراء مرور الويل ، فهناك ينفع المجال له للتخيل ، ويتسع له مكان القول . »

ثم يقول :

« أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة أن يحيا المتنبي ، مثلاً ، حياته التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ، ثم يموت عن نحو مائتي صحيفة من الشعر ، تسعه أشعارها لمدوحية ، والعشر الباقي هو للحكمة والوصف للناس ؟ هنا يسأل سائل : وما بالك تنهي عن خلق وتأتي مثله ؟ ولا أجد أمامي غير دوافين للموتى لا مظهر للشعر فيها ، وقصائد للحياء يحنون فيها حذو القدماء ، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحًا في مقام عالٍ ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الاسمى في البلاد ، فما زلت أتمنى هذه المنزلة ، وأسمو إليها على درج الاخلاص في حب صناعتي ، واتقانها بقدر الامكان ، وصونها عن الابتدا ، حتى وفقت بفضل الله إليها . ئم طلبت العلم في أوروبا ، فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم ، وعلمت أنني مسؤول عن تلك الهيئة التي يؤتى بها الله ولا يؤتى بها سواه . وأنني لا أؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراً منها التي لا تحده . وإذا كنت أعتقد أن الاوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان ، لا يطاق لقاوئه . ويفتحن ذ من خلف بأطراف البنان ، جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا ، مملوءة من جديد المعانى ، وحديث الأساليب ، بقدر الامكان ، إلى أن رفعت إلى الخديوي السابق قصيدي التي أقول في مطلعها :

خدعواها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الشناع
 وكانت المداعع الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية ، وكان يحرر

هذه أستاذى الشيخ عبد الكريم سلمان ، فدفعت القصيدة إليه ، وطلّب منه أن يسقط الغزل وينشر المدح ، فودأ لو أسقط المدح ونشر الغزل ، ثم كذلك كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر . فلما بلغنى الخبر ، لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديـد دفعـة واحدة إنما كان في مـحـامـه ، وـانـ الزـلـلـ مـعـيـ إـذـاـ أـنـاـ استـعـجـلـتـ . ثـمـ نـظـمـتـ روـايـتـيـ «ـعلـىـ باـثـ أوـ فـيـماـ هيـ دـوـلـةـ المـمـالـيـكـ»ـ معـتمـداـ فيـ وـضـعـ حـوـادـثـاـ عـلـىـ أـقـوـالـ الثـقـاتـ منـ المؤـرـخـينـ الـذـيـنـ رـأـواـ ثـمـ كـتـبـواـ . وـبـعـثـ بـهـ قـبـلـ التـمـثـيلـ بـالـطـبـعـ إـلـىـ الـمـرـحـومـ رـشـدـيـ (ـباـشاـ)ـ لـيـعـرـضـهاـ عـلـىـ الـخـدـيـوـيـ السـابـقـ ، فـوـرـدـنـيـ مـنـهـ كـتـابـ بـالـلـغـةـ الـفـرـنـسـاـويـةـ ، يـقـولـ فـيـ خـلـالـهـ :

«ـأـمـاـ روـايـتـكـ ، فـقـدـ تـفـكـهـ الـجـنـابـ الـعـالـيـ بـقـرـاعـتـهـ ؛ـ وـنـاقـشـيـ فـيـ مـوـاضـعـ مـنـهـاـ وـنـاقـشـتـهـ ، وـهـوـ يـدـعـوـ لـكـ بـالـمـزـيدـ مـنـ النـجـاحـ .ـ وـيـجـبـ انـ لـاـ تـشـغـلـكـ درـوـسـ الـحـقـوقـ الـتـيـ يـمـكـنـكـ تـحـصـيلـهـاـ وـأـنـتـ فـيـ بـيـتـكـ يـمـرـ عـنـ التـمـتـعـ مـنـ مـعـالـمـ الـمـدـنـيـةـ الـقـائـمـةـ أـمـامـكـ ، وـأـنـ تـأـتـيـنـاـ مـنـ مـدـيـنـةـ النـورـ (ـبـارـيزـ)ـ بـقـبـسـ تـسـتـضـيـعـ بـهـ الـآـدـابـ الـغـرـبـيـةـ»ـ .

وـتـرـجـمـتـ الـقـصـيـدـةـ الـمـسـمـاـةـ بـالـبـحـيرـةـ مـنـ نـظـمـ لـأـمـرـتـينـ ،ـ وـهـيـ مـنـ آـيـاتـ الـفـصـاحـةـ الـفـرـنـسـاـويـةـ ،ـ ثـمـ أـرـسـلـتـهـاـ إـلـىـ الـبـاشـاـ الـمـشـارـ إـلـيـهـ فـيـ كـرـاسـ وـبعـضـ كـرـاسـ ،ـ لـيـطـلـعـ الـجـنـابـ الـخـدـيـوـيـ عـلـيـهـ .ـ وـإـذـ كـنـتـ لـأـنـحـذـ شـعـرـيـ مـسـوـدـاتـ رـجـوتـ أـنـيـ أـجـدـهـاـ عـنـدـهـ ،ـ بـعـدـ العـودـةـ إـلـىـ مـصـرـ ،ـ ثـمـ عـدـدـتـ دـوـنـ ذـلـكـ عـوـادـ .ـ وـجـرـبـتـ خـاطـرـيـ فـيـ نـظـمـ الـحـكـاـيـاتـ عـلـىـ أـسـلـوبـ لـأـفـوـتـينـ الشـهـيرـ .ـ وـفـيـ هـذـهـ الـمـجـمـوعـةـ «ـشـيـءـ مـنـ ذـلـكـ»ـ .

* * *

تجـدـيدـ ،ـ فـانـكـفاءـ :

غـيـرـ أـنـ مـنـ يـتـبـعـ شـوـقـيـ ،ـ فـيـ الـأـجزـاءـ الـأـرـبـعـةـ مـنـ دـيـوـانـ «ـالـشـوـقـيـاتـ»ـ أـوـ فـيـ مـسـرـحـيـاتـ الـشـعـرـيـةـ ،ـ أـوـ حـتـىـ فـيـ نـثـرـهـ ،ـ يـتـبـينـ بـكـثـيرـ مـنـ الـحـلـامـ أـنـ ثـورـةـ

شوفي لم تكن ثورة تجديديه تلقائية ينهض بها الشاعر ، بداعة ، وإنما هي في حقيقتها دعوة إلى الثورة ، موجهة إلى الآخرين ، كما هي موجهة إلى ذاته .

ولو كانت ثورة مجددـة حقـاً ، لافتـضـنا أن شـوفي خطـطـ لتـلكـ الثـورـةـ ، ووضعـ لهاـ «ـروـزـنـامـةـ عـمـلـ»ـ ، أوـ منـهـاجـاـ وـاضـحاـ ، ثمـ دـأـبـ علىـ تنـفـيـذـ مـخطـطاـتـاهـ ، وإنـ هيـ ، فيـ رـأـيـناـ ، إـلاـ نـفـنـاتـ شـاعـرـ يـرـغـبـ رـغـبـةـ صـادـقـةـ فيـ التـجـدـيدـ ، وـيـومـيـ ، بـكـثـيرـ منـ الإـلـاـخـلـاصـ ، إـلـىـ الـمـاـهـلـ الـغـرـبـيـةـ الـيـ يـسـتـطـعـ شـعـراءـ الـعـرـبـيـةـ ، وـلـاـ يـسـتـشـفـيـ نـفـسـهـ مـنـهـمـ ، أـنـ يـرـتـادـوـهـاـ ، لـيـسـاـكـوـاـ مـنـ ثـمـ سـيـلـ التـجـدـيدـ ؛ـ أـمـاـ أـنـ يـكـونـ رـائـدـاـ مـجـدـداـ ، فـقـدـ كـانـ ذـلـكـ ، عـلـىـ الـأـقـلـ ، مـتـعـذـراـ عـلـىـ شـوفيـ .

ولـاـ اـسـتـشـنـيـاـ مـذـلـكـ بـعـضـ الـمـحاـولـاتـ الـشـوـقـيـةـ الـيـ تـحـمـلـ ، فـيـ ثـنـيـاـهـاـ ، بـنـورـ التـجـدـيدـ الـحـقـيقـيـ ، فـأـنـتـاـ لـاـ نـلـبـثـ أـنـ تـبـيـنـ ذـلـكـ الـمـوقـفـ السـلـبيـ الـذـيـ وـقـفـهـ مـنـ مـحاـولـاتـ شـوفيـ ، بـعـضـ الـكـتـابـ الـمـصـرـيـنـ ؛ـ وـقـدـ أـشـارـ الدـكـتـورـ شـوفيـ ضـيـفـ إـلـىـ هـذـهـ الـوـاقـعـةـ ، فـيـقـولـ :ـ «ـ وـبـيـنـمـاـ كـانـ شـكـريـ(١)ـ وـالـمـازـنـيـ(٢)ـ وـالـعـقـادـ(٣)ـ يـقـودـونـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ ، وـقـعـ تـصـادـمـ بـيـنـهـمـ ، أـوـ قـلـ بـيـنـ المـازـنـيـ وـشـكـريـ ، فـقـدـ هـاجـمـ شـكـريـ فـيـ مـقـدـمـةـ الـجـرـءـ الـخـامـسـ مـنـ دـيـوـانـهـ ، المـازـنـيـ ، وـأـتـهـمـ بـاغـارـتـهـ عـلـىـ شـلـلـيـ وـهـيـنـيـ وـغـيـرـهـمـ .ـ وـوـضـعـتـ الـحـرـبـ أـوـزـارـهـاـ .ـ وـرـجـعـ شـوفيـ مـنـ مـنـفـاهـ ، وـكـانـ شـعـرهـ فـيـ رـأـيـ المـازـنـيـ وـصـاحـبـهـ الـعـقـادـ يـحـبـ أـنـ يـنـبـذـ ، لـأـنـهـ لـاـ يـجـرـيـ عـلـىـ سـنـ الـمـذـهـبـ الـجـدـيدـ .ـ وـيـظـهـرـ أـنـ بـعـضـ الـصـحـفـ الـاسـبـوـعـيـةـ ، وـخـاصـةـ «ـصـحـيفـةـ عـكـاظـ»ـ أـخـذـتـ تـشـيدـ بـشـوفيـ وـشـعـرهـ ، وـتـخـطـ منـ الـعـقـادـ وـصـاحـبـهـ ، وـاستـطـالـتـ عـلـيـهـمـاـ بـالـشـمـ ، وـعـيـرـهـمـ بـالتـقـصـيرـ عـنـ قـدـرـ شـوفيـ وـالتـخـلـفـ عـنـ شـأـوـهـ .ـ

(١) عبد الرحمن شكري

(٢) عبد القادر المازني

(٣) عباس محمود العقاد .

وكان ثمرة ذلك كله أن ألف العقاد والمازني كتيباً سمياه «الديوان» وأخرجا منه حلقتين تناولا في الحلقة الأولى منه شوقي وشكري ، وفي الثانية شوقي والمنفلوطى .

وانصب العقاد على شوقي سوطاً عذاب ، فأنكر تقليله للشعر القديم ، وأنكر صوره الأدبية في رثاء محمد فريد ، وعثمان غالب ، ومصطفى كامل ، والأميرة فاطمة ، وتجاوز الأعتدال في نقده إلى غير قليل من العنف ، وكان شوقي استحال أمامه إلى صنم ينبغي أن يحطمه ، . بينما ذهب المازني على شكري والمنفلوطى وطريقتهما في الشعر والكتابة «(١)»

موقف العقاد من شوقي :

والحقيقة أن ما أصاب العقاد والمازني من نقد جارح أطلقته صحيفة «عكاظ» وغيرها ، انعكس حقداً – ولا نقول نقداً – يشتعل في صدر العقاد ، حتى لقد غدت كتاباته عن شوقي بالذات لوناً من التعریض والتهجم الذي لا ينظر إلى المصلحة الأدبية الفكرية إلاً لاماً .

ويتبين لنا ذلك الواقع ، لو اطّلعنا على ما خاطب العقاد به أحمد شوقي ، في الحلقة الأولى من كتاب «الديوان» المشار إليه ، فيه يقول العقاد ، مخاطباً شوقي :

«اعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يعددها ويخصي أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول ما هو ، ويكشف عن لبابه وصلة الحياة به ، وليس هم الناس أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع ،

(١) راجع «شوقي شاعر العصر الحديث» للدكتور شوقي ضيف – دار المعارف مصر – صفحة ١٠٦ و ١٠٧

ولأنما همهم أن يتعاطفوا ، ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رأه وما سمعه ، وخلاصة ما اسْطَابَهُ أو كرَهُ .

وإذا كان وكذا في التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر، ثم تذكر شيئاً أوشياء مثله في الأحمرار ، فما أن زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء يدل شيئاً واحداً ، ولكن التشبيه أن تطبع في وجдан سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك . وما ابتدأ التشبيه لرسم الأشكال والألوان فإن الناس جمياً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدأ لنقل الشعور لهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ، ونفاده إلى صميم الأشياء ، يمتاز الشاعر على سواه ..

وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطيء في نقد الشعر هو ارجاعه إلى مصدره ، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس ، فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمع وراء الحواس شعوراً حياً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر المطر ، فذلك شعر الطبع القوي ، والحقيقة الجوهرية . » (١)

ولا يغيب عن ذهن القارئ هذا النقد الذي يبقى إلى التهجم والتهشيم أقرب منه إلى العمل البناء الذي يرمي إلى المصلحة الأدبية العامة .

فلحين كان العقاد محقاً في ضرورة انسياط الشعر من الشعور ، بل مما هو أعمق من الشعور ، فليس صحياً أن التوفيق لا يخالف التشبيه ، إذا ما اعتمدته الشاعر ، إلا إذا انطبع في وجدان القارئ ، إذ كثيراً ما يجهل القارئ تجربة الشاعر الفنية ، ولا تنسكب الناقد بجهلها ، في أي حال .

(١) راجع الحلقة الأولى من « الديوان » - الصفحة ١ - ١٦

موقف نعيمة من شوقي :

ولقد تمنى لنا ، في حديثنا عن شوقي ، بعد المنفى ، أن نستشهد بأبيات من قصيده البائمة التي كانت أولى قصائده ، بعد عودته إلى الوطن ، وأن نكشف عن مواطن العاطفة الحياشة التي تعمر بها تلك القصيدة، سواء نحو الأندلس ، أو نحو مصر وبنها الدين استقبلوا الشاعر ، إذ عاد ، استقبلاً مؤثراً حقاً .

ولكن بعض النقاد العرب ، وفي طليعتهم ناسك الشخربوب الأديب الكبير الاستاذ ميخائيل نعيمة ، لم يجد في هذه القصيدة أي أثر من آثار التجديد ، رغم وجدايتها ، وبعض أبياتها التي تلمع كالنجوم في سماء الشعر المعاصر . فقد عقد ميخائيل نعيمة عام ١٩٢٠ بحثاً حول هذه القصيدة ، وجّه عدداً كبيراً من الانتقادات إليها : ويمتاز بحث نعيمة بأنه ، وإن كان قاسياً في أكثر من موضع ، لون من البحث الموضوعي المتجرد ، جريأاً على عادة الكاتب في إطلاق أحكامه النقدية والأدبية عامة .

وبعد أن يقدم ميخائيل نعيمة لبحثه ، مشيراً إلى التوطئة التي زف بها صاحب «الهلال» ، جرجي زيدان ، «الدرة الشوقية» ، أول قصيدة لأمير الشعر العربي ، وأخبر قراءه كيف «تهللت مصر باستقبال شاعرها الكبير ، وطفحت قلوب الأدباء فرحاً بعودة رئيسهم وزعيمهم وحامل لوانهم» (١) يوضّح أن القصيدة الشوقية قد «نظمت لاحتفال أقيم في دار الأوبرا السلطانية» غرضه «إنشاء جمعية تعاون لمساعدة الفقراء» في القطر المصري .

ثم يقول : «ما وقع بصري على هذه القصيدة ، بعنوانها الدرى ، حتى التقفتها التcaf الجائع للرغيف ، وانفردت بنفسي لأنعم روحي بجمالها ، دون رقيب أو مزاحم . واحتللت «بأمير» الشعر لأسکر بسحر معانيه ، وأرتعش

(١) عدد مجلة «الهلال» - نisan (أبريل) ١٩٢٠

لرّنة قوافيه ، وأسبع في جوّ خياله ، وأطوف في جنبات عالم أفكاره ، وأغطس في بحر تأملاته ، فأخرج من خلوتي ، ودرة شوقي درتي ؛ لأنّ بنات الشعر متى بربن من مخيلة الشاعر ، أصبحن بنات كلّ مخيلة قادرة أن ترافق مخيلة الشاعر ، في كلّ أدوار الحمل والمخاض والولادة .

لقد سمعت «بدرر» شعرية كثيرة . ولما أعملت فيها طرف المبرد ، وجدتها صدقاً لاماً . وقد حدّثني الكثير ، كما حدّثني الكتب عن «معجزات» شعرية ، ولما فحصتها ، وجدتها خزعبلات عرضية تبهر البسيط ، وتخدع المغفل . وقد عودتني جرائدنا ومجلاتنا المباركة أن أسمع كلّ يوم تقريراً بشاعر «لا يُشَقُّ له غبار» . وحين عرفت هؤلاء الشعراء ألفيتهم وغبار الدهور الخالية فوقهم قامات كأنّهم ليسوا من أبناء اليوم ، ولا يشعرون بدقة أنباض حياة اليوم . لذاك أصبحت شديد الحرص ، كثير الشكوك ، كلّما سمعت «بدررة» جديدة . ولو لا ما «لللهال» عندي من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفني والأدبي ، لما أقبلت على مطالعة « الدرة الشوقية » . لكن للهال ، في عيني ، منزلة خاصة به بين سائر المجالات والجرائد العربية . فقد تعودت منذ أيامي المدرسية ، أن أصدق ما يقوله اللهال ، وأن أعتبر من يعتبره ، وأحترم من يحتقره . لذاك ، عندما رأيته يقدم إلى درّة قلت : لا شك أنها درّة . وعندما سمعته ينعت صاحبها بأمير الشعراء ، قلت: لا شك فهو أمير الشعراء . أو لم يقل فيه كذلك زميله «شاعر القطررين» (١) بأنه :

كالبحر يهدي كل يوم درةً
أزهى سنىًّا من أختها الحسناء

وهكذا «فعلى ذمة» صاحب الهال ، وشاعر القطررين ، جلست أقرأ

(١) شاعر القطررين (لبنان ومصر) ، هو خليل مطران

وفي قابي نار شوق مستعراً إلى ما سيتجلى لعيبي من الرسوم ، والرموز ،
والخيالات ، والأفكار الشعرية . فقرأت :

أنا دني الرسم لو ملك الجوابا

وأجزيـه بدمـعي لو أثـابـا

وقفت قليلاً لأنـا كـدـ ما إـذـ كـنـتـ أـطـالـعـ قـصـيـدةـ جـاهـلـيـةـ أمـ عـصـرـيـةـ ،ـ إذـ
تبادرـتـ فيـ الحالـ ،ـ إـلـىـ ذـهـنـيـ ،ـ أـبـيـاتـ كـثـيرـةـ فـيـهاـ «ـ أـطـالـلـ»ـ وـ «ـ رـسـومـ»ـ
وـ «ـ دـمـوعـ»ـ .ـ «ـ لـعـبـةـ أـطـالـلـ...ـ»ـ .ـ «ـ قـفـاـنـبـلـ...ـ»ـ .ـ «ـ عـفـتـ الـدـيـارـ...ـ»ـ
إـذـ وـقـفـ اـمـرـؤـ الـقـيـسـ ،ـ وـبـكـيـ وـاسـتـبـكـيـ «ـ مـنـ ذـكـرـ حـبـبـ وـمـنـزـلـ»ـ ،ـ
فـفـيـ وـقـفـتـهـ ،ـ وـفـيـ ذـكـرـاهـ ،ـ وـفـيـماـ يـلـيـ مـنـ وـصـفـهـ ،ـ مـاـ يـبـكـيـ .ـ فـلـاـ تـكـلـفـ
فـيـ بـكـائـهـ ،ـ وـلـاـ تـصـنـعـ .ـ لـكـنـ مـاـذـاـ الـذـيـ يـبـكـيـهـ أـحـمـدـ شـوـقـيـ ؟ـ —ـ عـزـ الـأـنـدـلـسـ ؟ـ
مـجـدـ الـعـرـبـ ؟ـ —ـ لـاـ شـكـ أـنـ فـيـ أـشـبـاحـ عـرـوـشـ ثـلـاثـ ،ـ وـفـيـ رـسـومـ مـجـدـ بـادـ ،ـ
وـفـيـ بـقـايـاـ مـدـنـيـةـ درـسـتـ ،ـ مـاـ يـقـبـضـ عـلـىـ القـلـبـ ،ـ وـيـعـصـرـهـ ،ـ فـيـطـلـقـ دـمـ العـيـنـ
لـكـنـ عـيـنـاـ تـرـىـ الـاشـبـاحـ وـالـرـسـومـ وـالـبـقـايـاـ ،ـ لـاـ تـسـكـ عـلـيـهـ دـمـعـاـ إـلـاـ إـذـ
تـجـسـسـتـ تـلـكـ الـخـيـالـاتـ أـمـاـهـاـ فـيـ وـصـفـ رـاوـيـ أوـ رـسـمـ رـسـامـ أوـ نـحـنـاتـ
أـوـ حـرـكـاتـ مـمـثـلـ .ـ وـمـاـ الشـاعـرـ إـلـاـ رـاوـيـ يـقـصـ فـيـ قـالـبـ جـمـيلـ عنـ اـنـفـعـالـاتـ
نـفـسـهـ ،ـ وـتـمـوجـاتـ عـوـاطـفـهـ وـآـمـالـهـ ،ـ وـتـقـلـيـاتـ أـفـكـارـهـ فـيـ كـلـ مـاـ يـسـمـعـهـ وـيـرـاهـ
وـيـشـعـرـهـ .ـ وـشـوـقـيـ ،ـ بـعـدـ أـنـ صـرـفـ سـنـوـاتـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ ،ـ عـادـ إـلـىـ مـصـرـ
وـوـقـفـ يـخـبـرـ أـهـلـهـ بـمـاـ شـاهـدـهـ ،ـ وـيـقـاسـمـهـ عـوـاطـفـهـ وـتـأـثـيرـاتـهـ الـتـيـ وـلـدـهـاـ فـيـهـ
تـلـكـ الـمـاـشـاـدـهـ ،ـ لـيـنـقـلـ إـلـىـ قـلـوـبـهـ بـعـضـ الـانـفـعـالـاتـ الـتـيـ تـسـرـبـتـ إـلـىـ قـلـبـهـ ،ـ
يـوـمـ كـانـ وـاقـفـاـ بـيـنـ تـلـكـ «ـ الـدـمـنـ الـبـوـالـيـ»ـ .ـ

فـمـاـذاـ قـالـ هـمـ ؟ـ

قامـ يـنـادـيـ الرـسـمـ وـ «ـ يـجـزـيـهـ بـدـمـعـهـ»ـ ،ـ وـيـقـولـ إـنـ الـعـبرـاتـ «ـ قـلـتـ لـحـقـهـ»ـ ،ـ
وـأـنـهـ —ـ يـعـنيـ الـعـبرـاتـ —ـ «ـ سـتـبـقـيـ مـقـبـلـاتـ التـرـبـ»ـ عـنـهـ ،ـ وـإـنـهـ «ـ نـثـرـ الدـمـعـ

في الدمن البوالي » ، وبكلمة أخرى بكى . ولماذا ؟

لو بقيت شهرآً بل عاماً أقول للناس : « يا نام إني بكيت ! » لما بكى معي أحد ، ولما رقّ لحاله مخلوق . غيرأني لو أدخلتهم قلبي ، وقد خيّم الحزن لما بكى معي أحد ، ولما رقّ لحاله مخلوق . غيرأني لو أدخلتهم قلبي ، وقد خيّم الحزن فيه . وفتحت أمامهم أبواب نفسي ، وقد عافت في شراك اليأس ، لتبللت مع عيني عيون ، ولا تقبضت مع قلبي قلوب ولا كدت مع نفسي نفوس . وهذه هي مهمة الشاعر ، إن قصر فيها ، فهو وزان وليس بشاعر . وكم هم الشعراء بيننا ، الذين يستعيضون عن وصف عاطفة بذكر نتيجتها الخارجية ، فإن حزنو ، قالوا : « بكينا ، وان فرحا ، قالوا : « ضحكنا ». كأن لا سبيل لوصف الحزن إلا بالدموع ، أو لوصف الفرح إلا بالضحك ؟ فما أغزر الدموع في ماقينا ، وما أسعى ماقينا بسكب الدموع !

في « الدرة الشرقية » أمثال كثيرة من هذا الوصف السطحي الذي لا يحرّك فكراً في رأس . ولا يرسم صورة في مخيلة ، ولا يهيج عاطفة في قلب . غير أن فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشعّ بتلك الترهات لو لم يكن ضائعاً بين أبيات جاءت حشوأ ، فبان كضمة من الزهر في حقل من العوسم .

فمن ذلك الوصف تعبيره عن شوقة إلى مصر ، وحبه لها ، حيث يقول :

ويَا وطنِي لَقِيْتُكَ بعْدَ يَاسٍ
كَانَيْ قَدْ لَقِيْتُ بِكَ الشَّبابَا

ولو أَنِّي دُعِيْتُ لَكَتَ دِينِي
عَلَيْهِ أَقْبَلَ الْحَتْمَ الْمُجَابَا

أَدِيرُ إِلَيْكَ قَبْلَ الْبَيْتِ وَجْهِي
إِذَا فَهْتُ الشَّهَادَةَ وَالْمَتَابِا

وَمِنْ الْحَشْوِ قَوْلَهُ ، بَعْدَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْفَقْرَةِ :

وَكُلُّ مَسَافِرٍ سَيَعُودُ يَوْمًا
إِذَا رُزِقَ السَّلَامَةَ وَالْإِيَابَا (١)

فَلَا فَرْقَ عَنِّي بَيْنَ هَذَا الْبَيْتِ ، وَبَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ :

اللَّيْلُ لِيْلٌ وَالنَّهَارُ نَهَارٌ
وَالْأَرْضُ فِيهَا الْمَاءُ وَالْأَشْجَارُ (٢)

وَمِنْ الْحَشْوِ قَوْلَهُ كَذَلِكَ ، بَعْدَ الْأَبْيَاتِ الْثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ :

وَقَدْ سَبَقَتْ رَكَائِبِيِّ الْقَوَافِيِّ
مَقْلَدَةً أَزْفَتْهَا ، طَرَابَا

تَجْوِبُ الدَّهْرَ نَحْوَكَ لَا الْفَيَافِيِّ
وَتَقْتَحِمُ الْلَّيَالِيِّ ، لَا الْعُبَابَا
وَتَهْدِيكَ الثَّنَاءَ الْحَرَّ تَاجًا
عَلَى تَاجِكَ مُوتَلِقًا عَجَابًا

(١) وَرَدَتْ فِي «الشَّوَّقَاتِ» : «سَيَرُوب» ، بَدْلٌ «سَيَعُود» ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ .

(٢) وَمِنْ سَخِيفٍ مَا يَرَوْيَ مِنْ شَعْرِ الْأَنْحَاطَ ، قَوْلُ أَحَدِهِمْ :
الْأَرْضُ أَرْضٌ ، وَالسَّمَاءُ خَلَافَهَا وَالرِّيحُ بَيْنَ الْحَابِنِ تَجْوِلُ .
فَالْأَرْضُ ثَبَتَ وَالنَّفَصُونَ تَمْيلٌ .
وَإِذَا تَعَاصَفَ الرِّيَاحُ بِرَوْضَةٍ

فماذا يؤهل هذه الأبيات لأن تدعى شعراً؟ إذ لا رسم فيها جديداً ، ولا فكر مبتكرةً ، ولا عاطفة حية تزيد على العاطفة التي وصفها في الأبيات السابقة . بل جلّ ما يقال فيها : إنها ، لو قام الخليل (٣) من قبره لقال إنها محكمة النظم من البحر « الوافر » .

ومن وصفه الشعريّ أيضاً قوله ، حيث يشكر للأندلس أنه في مدة إقامته فيها ، تخلص من وجوه المماليق والأغبياء المدعين :

فَأَنْتَ أَرْحَتِنِي مِنْ كُلَّ أَنْفٍ
كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي النَّزْعِ اِنْتَصَابًا
وَمَنْظَرٌ كُلَّ خَوَانٍ يِرَانِي
بِوْجَهِ كَالْبَغْيِ رَمِيَ النَّقَابَا

ومن الحشو قوله بعد هذين البيتين :

وَلِيُسْ بِعَامِرٍ بَنِيَانٍ قَوْمٍ
إِذَا أَخْلَاقَهُمْ كَانَتْ خَرَابًا

فعلام هذا الانتقال الفجائي الغريب من نقد عنيف مرّ ، إلى « حكمة » مبتذلة لا حكمة فيها؟ أما كان الأخرى به أن يتمم صورة حالة قومه الاجتماعية حتى إذا تحلىت أمام أعين سامييه ، بكل خطوطها وألوانها ، قالوا من تلقاء أنفسهم : « لا والله ؟ فلا يعمد أبداً بنياناً ما دامت أخلاقنا خراباً؟ ». .

لئن غفرنا للشاعر أبياتاً ما حشا بها القصيدة إلا لزيادة العدد ، فإن نغير له تناقضآً فاحشاً في المعاني . فوالله لتعجب من أمر شاعر يشكر الغربة لأنها أراجعته من كل أنف كأتف الميت في النزع انتصاباً ، ومن منظر « كل

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، واسع علم العروض

خوان» يراه «بوجه كالبغى» رمى النقاباً ، وينذر قومه بأن بنiamهم لا يقوم «إذا أخلاقهم كانت خراباً» ، ثم يعود بعد لحظة ، يخاطب وطنه : وأولئك القوم أنفسهم بهذه اللهجة :

وَحِيَا اللَّهُ فَتِيَانًا سَمَاحًا
كَسَوا عَطْفَيْ مِنْ فَخْرِ ثِيَابَا
مَلَائِكَةٌ إِذَا حَفُوكَ يَوْمًا
أَحَبَّكَ كُلُّ مَنْ تَلْقَى ، وَهَا بَا
وَإِنْ حَمَلتَ أَيْدِيهِمْ بَحُورًا ،
بَلَغْتَ عَلَى أَكْفَهُمُ السَّحَابَا ،
تَلْقَوْنِي بِكُلِّ أَغْرِ زَاه ،
كَانَ عَلَى أَسْرَتِهِ شَهَابَا
تَرِي الإِيمَانَ مُؤْتَلِقاً عَلَيْهِ ،
وَنُورُ الْعِلْمِ وَالْكَرَمِ الْلَّبَابَا
وَتَلْمُحُ مِنْ وَضَاءَةِ صَفَحَتِيهِ
مَحِيَا مَصْرُ ، رَائِعَة ، كَعَابَا

فِيلْدُ ، فَتِيَانَهُ مَلَائِكَةٌ إِذَا «حَفُوهُ يَوْمًا» أَحَبَهُ وَهَا بَهُ كُلُّ قَادِمٍ إِلَيْهِ ، وَإِنْ حَمَلَتْهُ «أَيْدِيهِمْ بَحُورًا» بَلَغَ السَّحَابَ ، وَبَلَدٌ تَرِي عَلَى أَوْجِهِ فَتِيَانَهُ شَهَابَا ، وَتَرِي الإِيمَانَ «مُؤْتَلِقاً» عَلَيْهَا ، وَنُورُ الْعِلْمِ وَالْكَرَمِ الْلَّبَابَا «لَبَسَلَدٌ» سَعِيدٌ ، وَأَهْلُهُ لِقَوْمٍ مَهْمَا جَازَ أَنْ يُقَالُ فِيهِمْ ، فَلَا يَصْحُ أَنْ يُقَالُ إِنْ «أَخْلَاقُهُمْ خَرَابٌ» أَمْ

هي «الدرر» ، لا تكون كاملة ، ما لم يتخللها قليل من النقد ، وقليل من الإطراء ، وقليل من الفخر ، وقليل من الحكم ، سواء تألفت معانٍ أم تناقضت ؟ بل هو الموقف . فلا يجب أن ننسى أن القصيدة «نظمت لاحتفال أقيم في دار الأوبرا السلطانية، غرضه إنشاء جمعية تعاون لمساعدة الفقراء» .

وكيف يمكن شاعراً أن يتلو قصيدة ، في اجتماع ، تلك خايتها ، بدون أن يندد ، ولو قليلاً ، بالأغنياء ، والتجار ، ويحنن القلوب على الفقير والجائع والبائس ؟ وكيف يمكن شاعراً استهل قصيده بمناداة الرسوم ، ونشر العبرات بين «الدمن البوالي» ، أن يخلص من خرابات الأندلس إلى غلاء المعيشة ، إلى شقاء الفقر ، إلا إذا غالى في اطراء ساميته ، فوصفهم بالملائكة ، وحيثند صاح فيهم :

شباب النيل إِنَّ لَكُمْ لِصوتًا
يُلْبِيُ ، حِينَ يُرْفَعُ ، مُسْتَجِابًا
فَهُزُوا العرش بِالدُّعَوَاتِ حَتَّىٰ
يُخَفِّفَ عَنْ كَنَانَتِهِ العَذَابَا
آمِنٌ حَرْبُ الْبَسُوسِ إِلَى غَلَاءٍ
يَكَادُ يَعِدُهَا سَبْعًا صَعَابًا !

هذا ما يدعون «حسن التخلص» . لكن شاعرنا ما بلغ بنا هذا الحد ، إلا بعد أن دار بنا ألف دورة لولبية أنسستنا أول الطريق ونصفها . مع ذلك ، فقد سرنا معه حتى الآن ، فلتسر معه حتى النهاية :

بعد أن تخلص الشاعر إلى الغلاء والضنك ، وقف يُعَاوِب ربيه على ما أنزله بمصر : «أَنِيلًا سَقْتُ فِيهِمْ أَمْ سَرَابًا» ؟ ثم يضرع إليه :

حنانك ، واهدِ للمشلى تجاريًّا
 بها ملوكوا المرافق والرقبابا
 ورقٌ للفقير بها قلوبًا
 محجَّرة ، وأكبادًا صلابا

ومَنْ انقلب الشاعر ، فجأة ، من نائح يبكي « الدمن البوالي » ، إلى ناقد
 يسخر بأدعاء قومه وجهلهم ، إلى مغرم يتغزل بحب وطنه ، إلى مادح يرى
 في قومه ملائكة ينالأ على وجوههم نور العلم والإيمان والكرم ، إلى شيخ
 أو قسيس يُعاتب ربّه ويسترحمه ، إلى عالم اجتماعي يناضل عن الفقير ،
 إلى فيلسوف لا يرى « مثل سوق الخير كسباً ، ولا كتجارة السوء اكتساباً »
 وأخيراً إلى لا هوقي يفسّر لنا غاية الله من إرساله الأنبياء على الأرض :

ولولا البر لم يبعث رسولٌ
 ولم يحمل إلى قوم كتاباً

مَنْ تقلب الشاعر هذا التقلب السريع بين مطامع القصيدة وختامها ، ولم يترك
 في النفس سوى رنة القافية الممتّابة ، حار في أمره الناقد ، وسدّت في وجهه
 السبل ، فلا حول ولا !

قال دعلب :

إني إذا قلتُ بيتاً ، مات قائله
 ومن يقالُ له ، والبيتُ لم يمُتْ

ولعمري سواء أصدق دعلب بقوله في شعره أم كذب ، ففي البيت أفضل
 مقاييس للفصل بين جميل الشعر وردائه . وبين غثّه وسمينه . فالشعر الذي

يحق أن ندعوه شعرآ لا يموت ما دام في الأرض بشر تتحرك في قلوبهم عواطف وتجول في رؤوسهم أفكار . فهل قصيدة شوقي شيء من هذا النوع من الشعر ؟ ودرر الشعر لا تحمل بها الغير ، ولا يسلبها الزمان رونقها . فهل « درة » شوقي من هذه الدرر ؟ أم ما هي إلا صدفة برآفة ؟ إيني أترك الجواب للقراء . وأخاف أنني تعديت الحادىد المرعية في شرع الكثير من أدبائنا . إذ إنني جسرت أن أرفع عيني « الخاطئين إلى عرش « أمير الشعر » وما كنت لأجد من نفسي جرأة على ذلك ، لولا علمي بأن بيني وبين الأمير وأعوانه بحراً بل بحوراً لا إخلاص قادرٍ أن « يرفعواها على أكفهم ! » (١)

شوقي ووصف المختارات الحديثة :

ولما حاول شوقي التجدد . عن طريق معالجة الموضوعات الحديثة . فيما استجدى من آلات ومختارات : وقف العقاد . وكأنه وكل نفسه بالخصوصة الحاقدة على شوقي . وراح يهاجم هذا التجدد الذي عمد إليه شوقي والشوقيون . فيها هو يصف الشعراء الذين انتهجو النهج المذكور . وفي طليعتهم أحد شوقي بأنهم « ظنوا في حيرتهم أن الشعر العصري هو وصف المختارات الحديثة من بخار وكهرباء وطيارات ، وأمثال ذلك من آلات ناطقة . وصور متحركة . ومعجزات لهذا العصر الحديث ، لم يتقدم بوصفها المتقدمون ، فقلنا لهم : لا . لو كان هنا هو الشعر ، لوجب على كل شاعر أن يظل على اتصال بالمصانع ، تنفعه « بالكتالوجات » أولاً فأولاً . ليسابق سواه في العصرية . ويكون في شعره « على آخر ساعة » . كما يقولون في لغة التجارة والمصناعة .

(١) راجع كتاب « الغربال » لميخائيل نعيمة - صنحة ١٤٥ وما بعدها - الطبعة السابعة -

وبعد ، فهؤلاء شعراء أوروبا وأمريكا لم يجتمع مما نظموه في وصف المختبرات ما يملاً كراسة صغيرة ، وفيهم الشعراء . جاد الشعراء في الوصف وفي سائر الفنون القصيدة ، فهل يزري بهم ذلك أو يدخلهم في عداد الأقدامين والمقلدين ؟ كلا ! وإنما أنتم تولعون بالطiarات وما أشبهها ، لأنكم تقسيون الشعر بمقاييس القديم ، وتأثرون بالجاهليين ، وأنتم تزعمون أنكم تأخذون بالحديث ، فقد وصف الجاهليون الناقة . فوجب أن تصفوا أنتم الطيار ، لأن الأقدامين كانوا يركبون النوق ، والمعربين يركبون الطيارة . فكأن الشاعر لم يخلق في الدنيا ، إلا لينظم في وسائل المواصلات ، كيـفـما تبدلت بها الغير ، وتقلبت بها الأحوال .

وظنوا وظن معهم بعضهم المطلعين على طرف من العلوم الحديثة أن الشاعر شاعر الأخلاق والاجتماعيات ، لا يكون ابن عصره إلا حين تقرأ في ديوانه قصيدة لكل حادثة من حوادث السياسة والمجتمع في أيامه ، ولو أنَّ هؤلاء راجعوا ديوان « جوته » مثلاً . لما عثروا فيه على بيت في وصف الزلزال السياسية التي أحاقت بألمانيا في حياته ، وهو هو بأحمد العقاد ، شاعر وطنه العظيم ، والرجل الذي كان له أثر في يقظة ألمانيا الأدبية . يُعد في طليعة الآثار .

فللشعر في إيقاظ الأمم طريق غير طريق السياسة ودعاة الاجتماع ، وللدقنات النفعية مثالك ومسارب لا يستدل عليها بعنوانين الحوادث السياسية والدعوات الاجتماعية التي تكتب فيها الصحافة ، ويتحدث بها اللاغطون بالموضوعات اليومية » (١) «

موقف اليازجي من شوقي :

مثل هذا الهجوم ، بل مثل هذا التهجم ، لم يكن ليثنى شوقي عن مسيرة

(١) راجع « ساعات بين الكعب » لعباس محمود العقاد - صفحة ١١٩ - طبعة ١٩٢٩ .

التجديد ، ولكنه ، في الوقت ذاته ، لم يكن ليوفر لشوفي العوامل المشجعة على المضي ، بقدم ثابتة ، في الطريق التي اختطها ، وتبعه فيها بعض الشعراء . ومن المحاولات التجددية التي قام بها شوفي ، وضعه لبعض الروايات والمسرحيات التي وقف منها بعضهم وقفه المتهيب ، حيناً ، وأحياناً وقفه المنتقد ، المنكر على شوفي معرفته بأصول الأدب المسرحي ، حتى لقد قالوا إن شوفي ، في مسرحياته غبي ولم يمثل ، بمعنى أن ما يهتم شوفي بإبرازه هو الشعر الغنائي الوجданى أكثر من السرد والتمثيل المسرحي ، وحيث الفصول ، ولو كان ذلك على حساب الناحية الفنية ، في الكتابة المسرحية . لقد وضع شوفي ، على سبيل المثال ، رواية «عذراء الهند» ، فانتقدتها الكاتب اللغوي اللبناني الشهير الشيخ ابراهيم اليازجي ، فقال : «انتهت إلينا نسخة من هذه الرواية العذراء ، لحضره منشئها الأديب المتنفذ أحمد باك شوفي ، الشاعر المشهور .. وهي رواية غرامية غريبة السرد ، تنتهي وقائعها إلى زمن رعمسيس الثاني .. والذي تبين لنا ، بعد تصفح جانب منها أن مؤلفها لم يقصد من وضعها إلا تمثيل ما كان عليه أهل ذلك العصر من المحرافات والترهات

وعلى الجملة فإن هذه الرواية كلها غرائب ، وأغرب ما في تلك الغرائب صدورها عن مثل المؤلف ، على ما اشتهر به من النقدم في الأدب ، وطول مزاولته لصناعة القلم . وما نسبته إلا قصد مراعاة النظير بين موضوع الرواية وعباراتها ، حتى تكون كلها غريباً في غريب (١)

موقف طه حسين من شوفي :

وتحادث الدكتور طه حسين عن مسرحيات شوفي ، فقال : «أما عن التمثيل ، فقد غنى شوفي ، فأطرب ، وأثر ، ولكنه لم يمثل ، لأن التمثيل

(١) راجع كتابنا «الأعلام والفنون الأدبية» صفحة ١٤٣ - طبعة ١٩٦٦ دار الكاتب العربي .

لا يُرتجل ارتجالاً ، ولا يهجم عليه ، وإنما هو فنٌ يحتاج إلى الشباب والدرس والقراءة . . . فكان تمثيله صوراً تنقصها الروح ، وإن حبّها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء » (١)

ولم يتخلص شوقي ، حتى في مسرحياته ، من شواطئ العقاد الذي قال : إن الروايات التي نظمها شوقي قد خللت من الشخصيات ، والتبتست منها ملامع الأبطال أيام التباس . . مع أنها كلها أو بعضها تاريخية ، ليس في تحضيرها أو تصورها فضل كبير بالقياس إلى فضل الإنشاء والإبداع . » (٢)

شوقي والمسرحية الشعرية العربية :

والواقع أننا لو حاولنا أن نحصر تجديد شوقي ، في موضوع معين ، لاستطعنا أن نقول إن محاولات أمير الشعراء المسرحية ، فضلاً عن محاولاته في « حكاياته » الموضوعة على السنة البهائم والطيور ، هي أهم ما قام به شوقي من تجديد في موضوعات الشعر العربي المعاصر . لذلك لا نرى ضيراً في إثبات طرف من بحث الدكتور عبد المحسن عاطف سلام ، عن « المسرحية الشعرية العربية » (٣) ، يومئ فيه إلى فضل شوقي ، وأثره فيمن تلاه من الشعراء الذين عالجوا الشعر المسرحي . فهو يرى أن « أحمد شوقي يعتبر ، في عرف النقاد والباحثين الأكاديميين ، الرائد الأول للمسرحية الشعرية . ولابد من ترجيح ذلك التقدير الضخم لنتاج شوقي ، برغم ما وجده إليه من نقد لاذع في بعض الأحيان ، إلى إنتاج مسرحي غزير أذاته ، كما لا يرجع إلى درامة مسرحية أبداًها ، فيما كتب من مسرحيات ، ولكنه يرجع في الأغلب

(١) راجع كتاب « حافظ وشويق » للدكتور طه حسين . صفحة ٢٢١ .

(٢) راجع كتاب « شعراء مصر وبياتهم في الجيل الماضي » لعباس محمود العقاد - صفحة ١٦٦

(٣) راجع عدد « الملال » الممتاز عن « المسرح » - أول أغسطس ١٩٦٥ - السنة ٧٣ - العدد ٨ - صفحة ١١٣ وما بعدها ، في مقالة بعنوان « المسرحية الشعرية العربية » للدكتور عبد المحسن عاطف سلام .

إلى أن شوقي قد استطاع أن يفرض هذا النوع الشعري على الأدب العربي ودارسيه ؛ واستطاع أن يخلق له جمهوراً يعجب به ، ويطرد ، ويستمع . وكان جمهوره هو نفس الجمهور الذي اعترف بعقربيه ، شاعراً غائياً جماعياً معتبراً عن آمال الوطنية وال المسلمين والعرب ، في أرجاء العالم الإسلامي كله . واستطاع أن يجعله نوعاً شعرياً أدبياً يدرس في المدارس والجامعات والمعاهد . وأزال عن الانتاج التمثيلي ما كان يضفي عليه من سوقية كانت تنزل به وبمنتجيه ومثلثيه ومخرجيه .

وقد استفاد شوقي ، دون شك ، من جهود من سبقه من الكتاب المسرحيين والمتجمرين . فقد كشفوا عن بعض المشكلات التي كان عليه أن يواجهها لأول مرة ، عندما يكتب مسرحية . كما ذللوه بعض الصعوبات التي كانت تعرض كل كاتب لمسرحية بالشعر .

وقد سار شوقي على الدرب الذي سلكه من سبقه . فاختار موضوعاته من التاريخ العربي والإسلامي والمصري والحياة الاجتماعية المصرية . فقد كتب شرعاً : « مصرع كليوباترا » ، و « مجنون ليلى » ، و « عنترة » ، و « علي بلث الكبير » ، و « المست هدى » . وكتب مسرحية نثرية واحدة هي « أميرة الأندلس » ووافته منيته قبل أن يتم مسرحيتين آخرين ، وهما « البخيلة » و « محمد علي الكبير » (١)

وقد نالت « مصرع كليوباترا » و « مجنون ليلى » شهرة عارمة ، و مثلتها غير مرة وشغف بها كثير من الشباب ، ويروي كثير منهم أجزاء من هاتين المسرحيتين ، وبخاصة تتمة القطع العنائية الخالدة التي ضمنها شوقي مسرحيته .

(١) عقد الدكتور شوقي ضيف في كتابه « شوقي شاعر العصر الحديث » فصلاً خاصاً عن ملهاة خططه لشوي إسمها « المست هدى » ، ولم يذكرها الدكتور سلام في بحثه .

ولا يخضع مسرح شوقي ، فيما لاحظ نقاده ودارسوه ، لمدرسة أدبية معينة ، فما هو بكملاسيكي ، ولا هو بروماني ، ولا هو غير ذلك . وإنما هو شوقي الذي يعبر الحدود ، ويحطم القيد ، ويشخص ببصره إلى كل شيء .

ولا يعني هذا أنه قد استطاع أن يكتب مسرحيات إنسانية خالدة ، كما فعل شكسبير وكورناي وراسين ومولير ، ولا يعني أنه استطاع أن يخلق شخصاً خالدة في تاريخ الخيال البشري كما فعل كبار كتاب الشعر التحابي ، فشوقي أبعد من أن يتحقق ذلك . ولكن ملاحظتنا تدل على أنه لم يكن يتلزم في خلقه اتجاهًا معيناً . على الرغم من أنه كان على صلة بهذه التيارات الأدبية التي كانت تخدم في أوروبا إبان دراسته فيها ، وظلت تخدم ، من بعد ، حتى يومنا هذا .

كما تدل أيضاً على أنه لم يعن نفسه لاكتشاف أصول جديدة لمسرحية شعرية تناسب الذوق العربي . وكل ما نعلمه أنه تناصر من قيود الكلاسيكية التي تحتم وحدة الزمان ووحدة المكان . وسار مل الرومانسيين في خدم إصراره على الوحدة الدقيقة للموضوع . ونحو هجنهم أيضاً عندما ملّ مسرحياته بالانفعالات الفياضة . والمناظر البراءة . وفي عرضه لكل شيء .

ونكاد نقول إنه سار مع الرمزيين . عندما حاول أن يكشف عن أعماق أعمق الشخص . ولكنه كان كلاميكياً أيضاً لانتقامه نوعاً واحداً من الشخص الذي امتلأ حياتها بألوان البطولة النفسية والأخلاقية والوطنية ، « أو هكذا يصوّرها وينهضها » .

وكان كلاميكياً لأنّه يحاول . ما استطاع إلى ذلك سبيله . أن يصور أوّاناً من الصراع بين التقليد والأخلاق . وبين قوى نفسية وأخلاقية ، متعارضة . وكان كلاميكياً لأنّه ارتفع بشعره إلى سماوات خطابية عليا عندما يصف الأحداث أو فعلها في نفوس شخصه .

ويمتاز شعر شوقي التمثيلي بأنه شعر غنائي مطرب ، لا يهتم كثيراً بالفعل المسرحي ، ولا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور الحدث ، ونحوه ، وحاجة الشخصوص إلى الحركة . وقد أطال شوقي إطارات كبيرة في مواقف الفخر والرثاء والحزن والتأمل والمرح والشكران . وبعض هذه المقطوعات مقطوعات غنائية خالدة ، مثل خطاب أنطونيو لروما في « مصرع كليوباترا » التي أنها :

« روما حنانك ، واغفرني لفتاكِ

أَوَاهْ مُنْكِ ، وآهِ مَا أَقْسَاكِ »

ومقطوعة :

« أَنَا أَنْطُونِيو وَأَنْطُونِيو أَنَا !

ما لرُوحِنَا عن الْحُبِّ غَنِيٌّ ! »

ومقطوعة :

« الْيَوْمَ أَقْصَرْ بَاطْلِي وَضَلَالِي »

وغير ذلك من مقطوعات نجدها في مسرحياته المختلفة :

ولم يلتزم شوقي في شعره التمثيلي وزناً واحداً ، كما حاول ذلك كلَّ من سبقه من كتاب المسرح الشعراء . فقد كان يتنقل في الحوار الواحد ، من وزن إلى وزن ، ومن قافية إلى أخرى ، دون مراعاة لشيء ، إلا مقتضيات الحوار نفسه ، وقد خلص ، بذلك ، الشعر المسرحي من قيدٍ كان يمكن أن يكتبَه ، فلا يستطيع أن يتطور ، وأعطى للكاتب المسرحي حرية كبيرة للتعبير .

ولقد درس مسرح شوقي غير دارس ، ونقده غير ناقد . ولعل أهم نقد وجَهٌ إليه ، أنه لم يستطع أن يحافظ على وحدة الموضوع ، أو ما يُعرف بالحبكة ، محافظة دقيقة ، وأنه لم يستطع أن يجعل العمل المسرحي عملاً داخلياً يتطور بالشخصيات ومن خلالها ، وأنه أضاف قصائد غنائية طريقة كانت

توقف في كثير من الأحيان تطور الفصل المسرحي ونحوه^(١) ، وأنه لم يستطع أن يجعل من المسرحية كائناً عضوياً متكاملاً ، يتعاون أعضاؤه ، من شخصوص وحوار وغناء ومناظر على أداء وظيفة واحدة ، مما أدى إلى وجود تفكك في بناء المسرحية ، وانقسام في تركيبها .

موقف الدكتور محمد مندور :

وقد أرجع ذلك بعضُ النقاد ، وعلى رأسهم المرحوم الدكتور محمد مندور إلى أن شوقي كان يستجيب لطبيعة الشعر العربي القديم ، ولتراث قدمه ، وحب جمهوره للطرب والغناء . ومن ثم أنتج مسرحيات لو كان أتيح لها من كبار الموسيقيين مَنْ يلحّنها ، لنجحت نجاحاً كبيراً ، وأصبحت غذاء فنياً ممتعاً للكثيرين ، ولصارت خير «أوبرات» أنتجها أكبر شعراء عصره .

ويستدل على ذلك بالنجاح الذي لاقته مقطوعات «مصرع كليوباترا» و «مجون ليلي» التي لحنها وغناها الأستاذ محمد عبد الوهاب . وقد وجّه العقاد إلى شوقي نقداً من نوع آخر .. فزعم أنه لا يلتزم باللامع التي يذكرها التاريخ للأحداث والشخصيات التي يوردها في مسرحياته .

ونقد مندور ، نقدٌ صحيح ؛ ونصيف إليه أن الغناء لا يستطيع أن يصلح من بناء المسرحية ، ولكنه قد يغطي على ما في المسرحية من تفكك ، ويصرف النظر عن متابعة التطور الدقيق للحدث .

أما نقد العقاد ، فقد فيه شيءٌ كثير من التعسف . فليس على الشاعر أو القاص أن يلتزم بالحقائق التاريخية الدقيقة مادام لا يفاجئ الناس بمخالفة جريئة لحقيقة راسخة في أذهانهم .

وكما أثر شوقي في كثير من الشعراء العتائين من بعده ، أثر في الشعراء

(١) وقد أشرنا ، من قبل ، إلى نقد كل من طه حسين وعباس محمود العقاد لمسرح شوقي .

المسرحيين أيضاً ، فساروا جمِيعاً على الدرب الذي سار عليه ، وجمع بعضهم بين الشعر الغنائي والشعر المسرحي كما فعل ، وكما يفعل كثير من الشعراء الأوروبيين ، ونذكر من هؤلاء : علي محمود طه ، وعزيز أباظة ، ومحمد فريد أبو حديد ، وعلي أحمد باكثير .

ويذكر الدكتور سلام أن عزيز أباظة يتفوق في شعره الدرامي على شوقي نفسه ، ويرجو أن يستمر أباظة في إنتاجه « حتى تبلغ مسرحياته عدداً يجعله الرائد الحقيقي لهذا النوع الشعري في تاريخنا أدبنا العربي » .

و قبل أن نلجم باب الحديث عن تجديد شوقي في « الحكايات الخرافية » ، نرى أن نضع بعض النقاط على الحروف ، بالنسبة لما أورده من أقوال عباس محمود العقاد ، بصورة خاصة ، عن شوقي .

إن النظرة الأولى للمعركة التي ألهبها العقاد ضد شوقي وأمثاله ، تجعلنا نعتقد أن ثمة خصوصية شخصية بين الرجلين . أو أن العقاد ثاراً لدى شوقي . ولكن استقراعنا للأحداث تاريخ مصر ، في تلك الحقبة الملكية ، يجعلنا نلمح فيما وراء هجوم العقاد على شوقي ، هجوماً آخر يشهه على أولياء نعمة شوقي ، وعلى الأخضر الملك أحمد فؤاد ، والملك فاروق . فإذا هو – كما يقول عبد الرحمن صدقي – المنازل العديدة لخصم عتيد من الأدباء أو الشعراء ، وا يكن هذا الخصم شاعر القصر ، المفاخر بلقبه :

« شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب »

الذي يملأ من كان في مثل منصبه ، بشكّم اتصاله بالسلطة العليا . الاستفادة من تسخير الدعاية الصحفية لولاه ، فيخرج منها بنصيّب لنفسه حين تنشر مدائحه الرسمية ، بالثناء على شعره ، والتمجيد لصاحبه . والنيل من غيره ، منادين بتفضيله حتى على شاعر العربية « المتنبي » الذي قيل في وصفه إنه

« ملأ الدنيا وشغل الناس » والذي كتب عنه ، قبل ذلك ، فيلسوف العربية الشاعر أبو العلاء المعربي كتاباً سماه « معجزة أحمد » ، والذي كان في القرن العاشر يقول حين يمدح ، مهنياً كافور الإخشيدى الحالس ، وقتذاك ، على عرش مصر :

« وأنا منك ، لا يهيني عضو
بالمسرّات سائر الأعضاء »

على حين جاء مزاحمه ، شاعر القرن العشرين ، ليقول للخديوي :

« فاسمعْ لعبدك ، وابن عبدك ، منطقاً
متطايرأً بك في القوافي صيته » (١)

رأى صالح جودت :

والواقع أن مسرحيات شوقي التي أقامت أدباء مصر والبلاد العربية وما أقعدتهم ، وإن نالها الكثير من الانتقادات المحققة حيناً ، المتسمة بـ « يرسم التحامل والتجریح حيناً آخر ، تبقى في مكانة عالية من الأدب العربي » ، وأعلن خير ما يمثل النظرية الموضوعية إلى مسرحيات شوقي ، قوله الشاعر صالح جودت : « لم يعرف المسرح العربي المسرحية الشعرية متكاملة المقومات إلا حينما نزل شوقي إلى ميدانها سنة ١٩٢٧ ، وكان إمامه الواسع بالأدب الفرنسي ، ولديه الطويلة في مسارح باريس وهو يطلب العلم هناك ، أيام شبابه ، ولا

(١) راجع « الملال » العدد الرابع - السنة ٧٥ - أبريل ١٩٦٧ - صفحة ٧ ، مقالاً لعبد الرحمن صدقى بعنوان : « ذكريات في ذكرى العقاد ».

سيما مسرح « الكوميدي فرانسيز » (١) وما شاهده على خشبة من رواعه كورناري ، وراسين ، وموليير .. كان كل هذاعاته في الاقدام على هذه الحملة الرائدة في تاريخ المسرح العربي ، وفي تاريخ الأدب العربي جملة ، فكتب مسرحياته : « مصرع كليوباترا » ، و « علي بك الكبير » ، و « قمبيز » و « مجنون ليلي » و « عترة » ، و « أميرة الأندلس » وملهاة « السست هادى » التي تميزت بلون جديد ، هو المحلية ، والروح المصرية المرحة ، واللغة المصرية الفصحى ، أي اللغة السهلة التي لا تخرج عن حدود القاموس العربي ، مع تطعيم يسير ببعض الألفاظ والتعبيرات القاهرة ، بحيث يستمتع القصبة كلها ، ويستوعبها كل قارئ أو مشاهد ، سواء أكان من الخاصة أم العامة .

وقد تغنى شوقي ، من خلال الحوار الشعري ، في هذه المسرحيات ، بالحب العنيف في « مجنون ليلٍ » ، وبالعاطفة والبطولة في « عنترة » وبحورية مصر وكفاحها ضد الاستعمار في « مصرع كليوباترا » ، و « محمد برك الكبير » و « قمبيز » ، وبأمجاد العرب في « أميرة الأندلس » وبنقد المجتمع في « المست هدى » . . .

ولذا كانت حرفية المسرح في هذه الروايات تعرّضها لناحية من النقد ، في بعض المواقف ، فإن روعة الشعر ، وانسياب الموسيقى ، وضمخامة الموضوع تطغى على أكثر من هذا النقد ، وتضع هذه الأعمال في مكان خفي من تاريخ الأدب العربي » (٢)

卷八

ولقد نكون أطلنا في عرض بعض آراء كتابنا و مفكرينا حول مسرحيات شوقي ، غير أنَّ الـدوبيِّ المأئل الذي أحدهته تلك المسرحيات ، باعتبارها

Le Théâtre de la comédie Française (۱)

(٢) راجع : «الهلال» - العدد التاسع - السنة ٧٤ - أول سبتمبر ١٩٦٦ ، مقالاً لصالح جودت بنعنان «شوقى أمير الشعرا». .

حدثاً جديداً في تاريخ الأدب العربي ، يجعلنا نعتقد بأن ما أثبتناه ، هو في حقيقة الأمر ، جزء يسير من أصداء ذلك المدوي .

ولئن كنا نلاحظ هذا التباين في الآراء ، تجاه الشعر المسرحي ، لدى شوقي ، فذلك التباين نتيجة طبيعية جداً ، إذا ما عرفا قيمة شوقي ومكانته الأدبية ، وقد يمّاً قيل : « ما اختلف اثنان على أمرٍ إلا كان عظيماً » .

الخرافات والأمثال :

ولا تخف عظمـة هذا العمل التجديدي ، لدى شوقي ، عند حدود مسرحياته ، وإنما تعتبر أمثلـه وخرافاته وحكـياتـه الشـعـرـية لـونـاً آخـرـ من ألوانـ التجـديـدـ الأـدـبـيـ ، وـذـلـكـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـوـنـهاـ مـسـتـوـحـةـ مـنـ الـأـدـابـ الـأـجـنبـيـةـ ، وـقـدـ لـفـتـنـاـ إـلـىـ ذـلـكـ أـكـثـرـ مـرـةـ .ـ فـصـولـ هـذـاـ الـكـتـابـ .ـ

وكان من الميسور على الأمثلـ والـحـكـيـاتـ الشـعـرـيةـ أـنـ تـدـخـلـ إـلـىـ صـفـوفـ الطـلـبـةـ فـيـ مـدـارـسـهـمـ ، مـنـ الـبـابـ الـوـاسـعـ ، بـحـيثـ يـخـفـظـهـاـ الـأـحـدـاثـ ، وـيـلـقـوـنـهـاـ ، وـيـتـدـاـلـونـ مـاـ فـيـهـاـ مـنـ حـكـمـ تـعـلـيمـيـةـ مـفـيـدـةـ لـمـنـ كـانـ فـيـ عـمـرـهـمـ ، لـاـ سـيـماـ وـقـدـ سـبـقـ لـشـوـقـيـ أـنـ نـظـمـ لـطـلـابـ الـمـارـسـ عـدـدـاـ مـنـ الـأـنـشـيـدـ وـالـأـدـعـيـةـ ، تـمـتـازـ بـالـلـوـزـنـ الرـشـيقـ ، وـالـفـعـلـةـ العـذـبةـ ، وـالـإـيقـاعـ الـموـسـيـقـيـ الـمـطـرـبـ .ـ

ومن الأمثلـةـ عـلـىـ أـنـشـيـدـهـ ، نـشـيـدـ وـضـعـهـ عـلـىـ لـسانـ الـمـدـرـمـةـ ، يـقـولـ فـيهـ :

أـنـاـ المـدرـسـةـ اـجـعـلـنـيـ كـامـمـ ، لـاتـمـلـ عـنـيـ ،
وـلـاـ تـفـزـعـ كـمـأـخـوذـ
مـنـ الـبـيـتـ إـلـىـ السـجـنـ
كـانـيـ وـجـهـ صـيـادـ
وـأـنـتـ الطـيرـ فـيـ الغـصـنـ
وـلـاـ بـدـ لـكـ الـيـوـمـ ، عـنـيـ ،
أـوـ اـسـتـغـنـ عـنـ الـعـقـلـ
إـذـنـ عـنـيـ تـسـتـغـنـيـ

ومن أناشيده أيضاً «نشيد مصر» ، ومنه قوله :

بني مصرٍ مكانكم تهيا
فهيأً مهّدوا للملك هيأً
خذوا شمس النهار له حلياً
ألم تكُ تاجَ أوّلكم ملياً !

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا
فليس وراءها للعز ركنٌ
أليس لكم بوادي النيل عَدْنٌ
وكوثرها الذي يجري شهياً !

لنا وطنٌ بأنفسنا نقىٌ
وبالدنيا العريضة نفتديه
إذا ما سُلِلت الأرواح فيه^(١)
بذلناها كان لم نعط شيئاً

ومن الواضح أن ما في هذا الشعر من الوزن الرشيق ، واللفظة المذهبة ، والإيقاع الموسيقي المطرب ، لا يخفى سطحية الأفكار والمعاني الواردة فيه ، ولعل ذلك عائد إلى أن شوقي نظم هذا الشعر في أول عهده بالكتابة . إذ لا يعقل أن تُنسب شعراً من هذا الطراز إلى المرحلة الذهبية من عمر شوقي ، ولا إلى

(١) سيلت : سلت .

المرحلة الأخيرة من عمره التي أبدع فيها مسرحياته الشعرية الرائعة .
وإذا كانت المند هي التي احتضنت المثل الحرافي ، قدّيماً ، وهو ما يزال
في مهدّه . وإذا كان قد اشتهر بنظم الأمثال الحرافية كل من « ايزوب »
لدى اليونان ، و « فيدر » لدى الرومان . و « لا فونتين » لدى الفرنسيين ، فقد
كان مثل هذا الفن الشعري في الأدب العربي هو أحمد شوقي ، بلا منازع ، على
الرغم من المحاولات التي قام بها آخرون ، قبله ، كالتابع الغربياني ، أو بعده ،
من أمثال محمد المراوي ونقولا أبي هنا وسواهما ..

فقد ألف شوقي ما يربو على الخمسين أسطورة ، ابتكر بعضها ، واستوحى
بعضها الآخر . وكم كان نوّادأ ينسّع المجال لإجراء مقارنات دقيقة بين
ما كتبه شوقي ، في هذا المجال ، وما سبق أن كتبه المندود (وكليلة ودمنة
 مليء بالأمثال الحرافية) . وايزوب وفيدر ولا فونتين ، ولكن لا يفوتنا
أن نشير إلى أن مثل هذه المقارنة تصلح موضوعاً للدراسة مطولة أخرى .

وهذه الأمثال الحرافية ذات « قيمة أخلاقية واجتماعية لا تنكر ، على
حد قول الأب حنا الفاخوري » (١) . فهي تتناول الأغراض التي يتناولها
الشعر التعليمي عادة من حضُّ على النضائل . لا سيما النشاط في العمل ، وحفظ
الوفاء في الصدقة . وتدبر الأمور قبل وقوعها ، وتقييم الرذائل ، ولا سيما
الحمول والعدن والتهاون ، كما تتناول بعض الموضوعات السياسية من مثل
تنظيم البلاط ، و اختيار الأعوان « الأسد وزيره الحمار » .

أما قيمتها الأدبية ، فهزيلة إجمالاً ، فإنما عمل متناقل الخطو . أو عقدة
 Roxoة الإحكام ، تافهة المتعة ، أو تصوير للأأشخاص بعيد عن الطبيعة
 والمدقة ، أو تعبير لا يلائم الموقف : فإن اتصفت أسطورة من تلك الأساطير
 بالرشاقة . وخففة الروح . وحسن سياق القصة . وحفظ المتعة . فما ذلك
 إلا في التقليل النادر ، كما في قصة حمار السفينة :

(١) راجع الجديد في الأدب العربي » للأب حنا الفاخوري - الجزء الخامس - طبعة ١٩٦٢ ،
صفحة ٧٦٠ .

سقطَ الحمارُ من السفينةِ في الدُّجى
 فبكى الرّفاق لِفَقْدِهِ ، وترحّموا
 حتّى إذا طَلَعَ النَّهارُ ، أتَتْ بِهِ
 نحوَ السَّفِينةِ موجةً تَتَقدَّمُ
 قالتْ : « خذوهُ كما أتَانِي سالماً ،
 لم أَبْتَلِعْهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَهْضُمُ »

ونذكر ، على سبيل المثال أيضاً ، مثل « الشعلب والديك » وفيه يقول :

بَرَزَ الشَّعْلَبُ يَوْمًا فِي شَعَارِ الْوَاعِظِينَ
 فَمَشَى فِي الْأَرْضِ يَهْدِي وَيُسَبِّبُ الْمَاكِرِينَ
 وَيَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَهِ الْعَالَمِينَ
 يَا عَبَادَ اللَّهِ تَوَبُوا فَهُوَ كَهْفُ التَّائِبِينَ ،
 وَازْهَدُوا فِي الطَّيْرِ إِنَّ
 لِصَلَةِ الصُّبْحِ فِينَا
 فَأَتَى الْدِيْكُ رَسُولُ
 عَرَضَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ
 وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَأْتِيَنَا ،
 فَأَجَابَ الدِّيْكُ : « عُذْرًا
 يَا أَضَلَّ الْمُهَتَدِينَا ،
 بَلْغُ الْشَّعْلَبَ عَنِّي

عن ذوي التيجان مَنْ
دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا، وخيرُ
القول قولُ العارفينا :
أَنَّ لِلشَّعْبِ دِينًا !
مُخْطِيٌّ مَنْ ظَنَّ يوْمًا

معارضات شوقي :

ولقد أشرنا أكثر من مرة إلى معارضات شوقي لقصائد الشعراء القدماء ، مما حمل بعض النقاد على اعتباره . لهذا السبب ، مقلدًا لا مجددًا . والحقيقة أننا نستغرب استغراباً تاماً كيف يكون اتخاذ شوقي لوزن وقافية سبق أن نظم شاعر قديم قصيده على أساسها ، هو بمثابة تقليد أعمى لذلك الشاعر . فالأوزان والقوافي لا يمكن أن تصفع ملكاً حلالاً زلاً لشاعر معين ، إذا نظم قصيدة بهذه الأوزان والقوافي ، بمعنى أن آلاف القصائد لآلاف الشعراء يمكن أن تنظم على ذات الوزن ، ذات الروي . مع تشابه أو تباين الموضوعات التي يعالجها هؤلاء الشعراء ، فلا يمكن الشاعر مقلدًا أو مجددًا بسبب استعراضه عن وزن بوزن ، أو عن روبي بروي ، لأننا لو قلنا بذلك لحصرنا الشعر في إطار النظم وحده ، ومعلوم لدينا أن الشعر هو نظم من ناحية ، وتعبير عن شعور أو فكرة من ناحية ثانية .

ثم لو أننا طلبنا لـ الشعراء أن يقلعوا عن أوزان وقوافي سُبقوها اليها ، لكان ذلك يعني أن الفكر العربي كان ينبغي أن يخلو من الشعراء ، منذ عهد عنترة ابن شداد ، صاحب الكلمة الشهيرة : « هل غادر الشعراء من متقدم » ؟

نعم ! عارض شوقي كثرين من الشعراء ، كالأبوصيري ، وابن زيدون والبحري ، والمنتبى ، ونقل بعض المعاني الواردة في شعر ابن الرومي وأبي تمام . وأبي خالد بن محمد الملهي ، وسواهم ، ولكن شوقي في جميع معارضاته ، واقتباساته لبئث متفوقاً على الذين عارضهم أو اقتبس معانيهم .

صحيح أن الشيخ أحمد الاسكندرى يحاول إبراز تفوق الأقدمين على شوقي حين يقول : « والحق أن المباراة التي عقدها بين نفسه والفحول من الشعراء ، قد انجلت عن أن السابق في الزمن مازال سابقاً في الشعر » (١) ، ولكن مثل هذا الرأي اليتيم يبقى قليل الأهمية فيما عني تجديد شوقي في معارضاته .

وقد علق أحمد زكي على قصيدة « نوح البردة » تعليقاً يؤكّد أنّ أحمد شوقي في معارضاته لقصائد السابقين من الشعراء ، لم يكن مجرد ناقل أو مقلّد ، وإنما كان يتعذّر من القصائد المذكورة ، وبكلمة أدقّ من أوزان القصائد المذكورة ورويها ، مرتكزاً لنظم قصائده الجديدة الملايى بألوان العاطفة ، الصادقة ، والمفعمة بالمعاني المتكررة ، بحيث تكاد قصيدة شوقي أن تنطّي على سائر ما عارضه من قصائد . وما قاله أحمد زكي :

« طالما عارض الناس بردة الأبوصيري في القديم وفي الحديث ؛ بمئات ومئات من المنظومات ، لكن الصيت بقى لهذه البردة وحدها ، إلى الآن . على أن قصيدة شوقي ، وإن لم تزحزحها عن مكانتها ، فإنها قد نالت شرفاً ليس له نظير ، ذلك بأن الأستاذ الأكبر الذي انتهت إليه وبه سلسلة الحديث النبوى في مصر ، الشيخ سليم البشري ، مع جلالته قدره ، وسمو مركزه ، ورفع مقامه ، قد تولى بنفسه وقلمه شرح هذه القصيدة ، وقد صاغها شوقي وهو لا يزال في سن الفتوة وطراوة الشباب ، ولكن براعته فيها جعلتشيخ الشيوخ يعرف فضلها ، ويقدر ناظمها ، ثم يتوفّر على شرحها ، وما رأى الناس لذلك مثيلاً قبل شوقي » (٢)

كما يدلّي شاعر القطرين خليل مطران بدلوه ، في هذا الموضوع ، فيقول

(١) راجع كتاب : « ذكرى الشاعرين : شاعر النيل وأمير الشعراء » - صفحة ٣١٨ - المكتبة العربية - دمشق .

(٢) المرجع السابق صفحة ٣٢١ .

عن شوقي : « إنه يكلف أحياناً بمعارضة المتقديرين ، ولا يندر عليه أن يبزّهم . لا يجهد فكره . ولا يكده في معنى أو مبني ؛ فأما المعنى ، فيجيئه على مرأمه أو على أحد من مرآمه . ولا ينضب عنده . لأنّه يستخلص من عقل فوار الذكاء ، و المعارف جامدة ، إلى أفنان الأدب في لغات الأفرنج والعرب ، فلسفة الحقوق ، وحقائق التاريخ ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية ، استفادها من مطالعته في صنوف الكتب ، واتخذها عن ملحوظاته ومسمو عاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب ، وأما المبني ، فله فيه أدوات متعددة بتنوع مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحري ومن صياغة أبي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف الرضي ، ومن مسلسلات مهيار . وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهي أنه من نظم شوقي ، ذلك شعر العبرية والتقوّق » (١)

ازجال شوقي :

ولا نرحب في إنتهاء هذا الفصل ، قبل الإشارة إلى محاولة طريفة لشوقي ، كان في غنى عنها ، لو شاء ، ولكن سلك سبيلها لثلاً يُقال إن فتاً من الفنون الأدبية بقي مغلقاً دون أمير الشعراء .

لقد نظم أحمد شوقي الأزجال ، باللهجة المصرية العامية ؛ ولكن أزجاله جاءت من اللون المثقف الرفيع ، تضج بال أحاسيس المؤثرة ، من حنين وحنان وشوق ومحبة ، كما تضج بالألوان الزاهية الزاهرة ، فضلاً عمّا في هذه الأزجال من موسيقى جعلتها تغدو أغانيات تردد على شفاه المنشدين .

(١) راجع « مختارات المنقولطي » صفحة ٦٨ .

اسمع هذا المطلع الشعري الزجي . في أغنيته الذائعة : « في الليل لما
خلي » . إذ يقول :

الفجر شائشاً وفاضٌ على سوادِ الخميلةُ
لمَحْ كَلْمَحَ الْبَيَاضَ من العيونِ الكَحِيلَةُ
والليل سَرَحْ فِي الْرِّيَاضِ أَدْهَمْ بُغْرَهُ جَمِيلَهُ

ونستمع في القارىء عذراً ، لتعيد كتابة هذه الأبيات مرة ثانية ، مع تقديم
أو تأخير بعض الكلمات في السطر الواحد ، دون مراعاة للوزن :

« شائشاً الفجرُ وفاضَ على سوادِ الخميلةُ ،
« لمَحْ كَلْمَحَ الْبَيَاضَ ، من العيونِ الكَحِيلَةُ
« والليل أَدْهَمْ ، سَرَحْ فِي الْرِّيَاضِ بُغْرَهُ جَمِيلَهُ »

فإن سأل سائل لم إعادة كتابة الأبيات ، على هذه الصورة غير الموزونة
لأجينا ببساطة : ذلك للتأكد بأن شعر شوفي الزجي ، بجميله . كان شعرًا
فصيحاً ، غير محرّك . كأنه بشوف أراد إيقاع القارىء العادي . والمستمع
الشعبي ، بأن الرجل لا يحتاج إلى الكلمات العامية المتبدلة حتى يصبح زجلاً ،
ولكن تسكين الألفاظ الفصحى . فقط ، يجعل الكلام الفصيح في متناول
المستمع الشعبي الذي يلذه سماع الرجل .

ألا ليت الشعراء ينهضون مثل ما نهض اليه شوفي . والأخطلل الصغير
بشرارة عبد الله الحورى في أغنيته الشهيرة ، ومطلعها :

« يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك »

ولو فعلوا ، لأعفوا الآذان والأذواق من سماع هذه السخافات التي
يسموها شعرًا يُدْعَى ملحناً . ومعنى . بعدما يدعّي أصحابه أنَّ هذا اللون

الباht يتتجاوB والذوق الشعبي العام . ولقد يكون الذنب ذلب المطر ب أو الملحن ، أو ذنب الإذاعة والتلفزيون ، غير أن المسؤولية الأولى والأخيرة ، في رأينا ، تقع على عاتق الشعراء الذين تمهر القصائد باسمائهم الكريمة ، فتعكس مدى شاعريتهم ، وذوقهم الفني .

ومن هنا أنتا حملنا لواء الدعوة ، منذ عشر سنوات ، إلى تبديل أنماط هذه الأغاني التي تفسد الشبيبة وتحتشدها ، وتشوه أذواها ، وتسيء في الوقت ذاته إلى الفن الإذاعي ، والأصالة الأدبية . وما نذكره أنَّ أحد كبار المطربين في لبنان ، وهو صديق عزيز ، استمع إلى أغنية فصحى معروفة كتَّنا نظمناها ، ومطلعها :

سُكُرُ اللُّحْنُ وَجْنُ الْوَتَرُ وَتَشَنَّتْ فِي الْجَفُونِ الْعِبَرُ
مَا خَفِرَتُ الْعَهْدَ ، يَا عَهْدَ الْهُوَى
لَا وَلَا عَنِّي تَغِيبُ الدَّكَرُ !

وكان يقرأ حملتنا على الأغانيات الرخيصة التي تذاع ، فاتصل بنا طالباً أن ننظم له أغنية باللغة العامية عن «الريف المهجور» حتى يتداهها الإذاعة؛ وبعدهما أمهينا نظم الأغنية التي نقول فيها :

هُونِيك ، عَ شَوَّارِ السَّمَا شَمِيلَةِ بُيُوتٍ
فَوْقًا النَّجُومِ مُنْتَفِهِ شَالَاتِهَا
بَسْقُوفِهَا نَاسِجُ بَيْوَتِ الْعَنْكِبُوتُ ،
وَالْحَزْنِ مُتَشَلِّقٌ عَلَى سَطِحَاتِهَا
مَا فِي حَدَا بَيْزُورُهَا غَيْرُ السُّكُوتُ
وَغَيْرُ نَسِيمِهِ مَكْسَرَهُ جَنَاحَاتِهَا

وغير طير بيسشق علّيها وبيفوت
يشرب لها من عيونها دمعاتها.

حملها إلى الإذاعة لنيل الموافقة على تلحينها ، فأبوا الموافقة إلا بعد تبديل عدد من الألفاظ والأبيات ، فرفضنا الوصاية ، والرقابة في آن ، لأن المطلب وارد في غير محله .

وكان صديقنا المطر ب الكبير يحدّثنا في ذلك ، والراadio يذيع إحدى الأغانيات التي . مع احترامنا لنظمها ومعندها ، لا تعتبر من الشعر في قليل أو كثير ، فقلنا له : من الطبيعي جداً أن ترفض أغنتنا ، في إذاعة تعتبر أن من أغنتها العصماء :

يا قمورة ، يَمْ الْقَدَ شو جَدَ عَلَيْكِ شو جَدَ

جيتي الجمعة ، وجيتني السبت

وليش ماجيتي نهار الحَدَ !!

وللقارئ غير اللبناني نشرح المعنى « العميق » الذي ربما استغلق عليه في البيت الثاني ، ومؤداًه مخاطبة الحبيبة : « جئت يوم الجمعة . وجئت يوم السبت ، فـ « ليش » ؟ أي لماذا ما جئت نهار الأحد » ؟
حقاً إنه الشعر العذب السلسلي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وبعد ، فقد كان أحمد شوقي مجدداً ، وكان داعية إلى التجدد في الأدب العربي ، ولكن في إطار الأصالة التي لا تقطع الصلة بالقديم ، فتأخذ منه جمالاته ومحاسنه ، وتضيف إليه محسن الجديد وجمالاته ، وبذلك اعتُبر شوقي أحد رواد عصر النهضة الأدبية الحديثة .

احمد شوقي ومعارك الصحافة

أشرنا فيما سبق إلى بعض المواقف التي انخذلها أدباء وشعراء ونقاد معروفون ، من شوقي ، فمنهم من ظاهر وناصر ، ومنهم من هاجم وعنف ، كل ذلك على مرأى من شوقي ومسمع منه .

والعارفون بحياة شوقي يؤكدون أن شاعرنا كان يخشى أعظم الخشية من من النقد والنقاد ، ولذلك فقد كان يعمل على استرضاء أولئك الذين يتناولون أمير الشعر من قريب أو بعيد ، بكل ما وسعه إمكاناته ، حتى عرفت هذه النقطة من الصعف فيه، وشاعت بين الصحفيين الذين أصبحوا يسترزقون من وراء انتقاداتهم المحققة وغير المحققة ، أو من وراء التلويع بكتابه مثل هذه الانتقادات.

وفي ذلك يقول أحمد محفوظ : « كان شوقي ، على عظيم مكانته ، وعلى قدمه الراسخة في الفن ، لا يستقر من الدأب بين دور الصحف ، كذلك مائذته لا ترفع أطباقيها ، ولا يطوى غطاوها ، فهي دائماً محفوفة بالصحفيين وغيرهم من تخشى أقلامهم ، ويختلف نقدمهم ، وفي الحق أنه هو الذي صب على نفسه هذا البلاء . فقد أغري به جزعه الشديد من النقد كل هؤلاء السادة ، فقد عرفوا ضعفه في هذا السبيل ، فاستغلوه .

. وقد غضب عليّ مرة غضباً شديداً لأنني كنت قد رأيت في إحدى الصحف نقداً لشعره ، فقال لي : « يا أخي ، هل من اللازم أن تبلغني شتيمتي ؟ أنا لا أقرأ هذه الصحف ». ولم يكن صادقاً ، فقد كان حريصاً على قراءة هذه

الصحف ، ودليلي أنه أرسل إلى صاحب هذه الصحيفة ، في اليوم التالي لنشره النقد ، وأعطاه ، وخلع عليه .

ولم أره جازعاً يوماً ، كيوم ظهور كتاب «الديوان» للعقاد والمازني وفي الحق أن العقاد لم يكن يعني إرضاء الفن في هذا النقد بقدر ما كان يعني شيئاً آخر : كان يعني الشهرة على حساب هذا النقد ؛ وقد أطلق شوقي أصحاب الصحف الصفراء الذين كانوا عبيداً ماله على هذه الجماعة ، فأعملوا في أعراضهم تمزيقاً ، وفي أدبهم هدمًا ، وكان هذا ما يبغونه لأنه كان سبب لهم إلى الشهرة » (١)

شوقى وعبد الوهاب

فإذا كان هذا هو شأن شوقي ، الخائف دوماً من النقد والنقد ، فلا ندرى مدى صحة ما يروى عن موقف شوقي من الصحافة التي عمدة إلى الطعن والتبرير في فن المطرب الأستاذ محمد عبد الوهاب ؟ وخلاصة تلك الرواية أن أحمد شوقي كان يعني بمحمد عبد الوهاب ، في مطلع حياته الموسيقية ، عنابة فائقة ، ويتوسع له في بيته «كرمة ابن هاني» مكاناً يحمل فيه على رحب وسعة ، وينظم له القصائد التي يلحنها ويغنيها في المجال .

وسواء كان هذا الاعتناء لمصلحة شوقي ، أو لمصلحة عبد الوهاب ، فقد كان مما يلفت انتباه الصحفيين والنقاد الفنانين الذين راحوا يشنون حملة لا هوادة فيها ، على «الموسيقار الكبير»

وجاء محمد عبد الوهاب ذات يوم ، متأبطاً عدداً غير قليل من الصحف التي تتضمن حملات مسحورة عليه ، وقد منها إلى شوقي متبرماً شاكياً .
فلما أن رأه شوقي ، وسمع شكايته ، طلب إليه أن يرمي بتلك الصحف

(١) وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذا الكتاب في فصل سابق .

في الأرض . ففعل . ثم طلب اليه أن يقف فوقها : ففعل . فقال شوقي له لي
عند ذلك : « هل رفعتك هذه الصحف أم هبطت بك؟ » قال عبد الوهاب :
« لا بل رفعتني » فقال شوقي : « إذن . سبيبك . دا كلام جراید ».
فإما أن تكون هذه الرواية ملفقة (ولا نظنها كذلك خصوصاً وأنها
معروفة من العديد من الناس) ، وإما أن يكون ما يروى عن خوف
شوقي من الصحافة ونقادها أمراً مبالغأ فيه ، وهذا الرأي ، في حسباننا هو
الأرجح .

مفهوم النقد عند شوقي :

معرکتان :

وقد عقد الأستاذ أنور الجندي في مجلة «الهلال» (١) بحثاً عن «المعارك

(١) راجم «الهلال» العدد ١١ - السنة ٧٦ - نوفمبر (تشرين الثاني ١٩٦٨).

الأدبية بين شوقي ونقارده» ، تحدث فيه عن ملامح كثيرة من شخصية الشاعر ، باعتباره كان عاملاً هاماً في معارك النقد التي أثيرت حول شعره و حول شخصيته ، وبين محاولات شوقي : بعد عودته من المنفى وتخلصه من القصر ، في استرضاء جميع الأحزاب التي كانت بدورها تتصارع و تتعارك على استرضائه وتقريره ، وكان كتاب الشباب في تلك الفترة ، يلتزمون من نقهـة وسيلة إلى الشهرة . كما يجد بعض الصحفيـن من نقده وسيلة إلى الكسب ، وبذلك ليـث شـعـر شـوـقـي مـوـضـع نـقـدـ الـكـتـابـ وـتـقـرـيـرـهـ طـوـالـ حـيـاتـهـ .

ثم يفصل وقائع تلك المعارك الأدبية ، مبرزاً معركتين هامتين هما : معركة «الديوان» ، ومعركة تكريم شوقي ، بحيث «يمكن القول بأن أولى المعارك وكبراها هي معركة الـديـانـوـنـ». فقد أصدر العقاد والمازني كتاباً تحت عنوان «الـديـانـوـنـ» عام ١٩٢١ (صدر منه جـزـءـانـ فـقـطـ ثـمـ تـوقـفـ) ، وقد ضم دراما مطولة لـشـعـرـ شـوـقـيـ ، وـدـرـاسـاتـ أـخـرـىـ عـنـ المـفـلـوـطـيـ وـعـبـدـ الرـحـمـنـ شـكـريـ « وقد هاجـمـ العـقـادـ شـوـقـيـ فـيـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ هـجـومـاـ شـدـيدـاـ حـيـثـ قالـ :

«كـناـ نـسـمـ الصـحـجـةـ الـيـ يـقـيمـهاـ شـوـقـيـ حـوـلـ اـسـمـهـ فـيـ كـلـ حـيـنـ ، فـنـمـ بـهـ سـكـوتـاـ ، كـمـ نـمـرـ بـغـيرـهـ مـنـ الصـحـجـاتـ فـيـ الـبـلـدـ ، لـاـ استـضـخـاماـ لـشـهـرـتـهـ ، وـلـاـ لـمـنـعـةـ فـيـ أـدـبـهـ عـنـ النـقـدـ ، إـنـ أـدـبـ شـوـقـيـ وـوـصـفـائـهـ مـنـ أـتـبـاعـ الـمـذـهـبـ الـعـقـدـيـ ، هـدـمـهـ فـيـ اـعـقـادـنـاـ ، أـهـوـنـ مـنـ الـهـيـنـاتـ . وـلـكـنـ تـعـفـفـنـاـ عـنـ شـهـرـةـ يـزـحـفـ إـلـيـاهـ زـحـفـ الـكـسـيـحـ ، وـيـضـنـ عـلـيـاهـ مـنـ قـوـلـةـ الـحـقـ ضـنـ الشـحـيـحـ ، وـتـطـرـىـ دـقـائـقـ أـسـرـارـهـ عـلـىـ الـصـرـيـحـ ، وـنـخـنـ فـيـ ذـلـكـ التـفـرـيقـ مـنـ النـاسـ الـذـينـ إـذـاـ أـرـادـواـ شـيـئـاـ بـسـبـبـ يـقـنـعـهـمـ . لـمـ يـبـالـواـ أـنـ يـطـبـقـ الـمـلـأـ الـأـعـلـىـ وـالـمـلـأـ الـأـسـفـلـ عـلـىـ تـبـجيـلـهـ وـتـنـوـيـهـ بـهـ ، فـلـاـ يـعـنـيـنـاـ مـنـ شـوـقـيـ وـضـجـجـهـ أـنـ يـكـونـ لـهـمـاـ فـيـ كـلـ يـوـمـ زـفـةـ ، وـعـلـىـ كـلـ بـابـ وـقـفـةـ . فـإـذـاـ اـسـتـطـاعـ أـنـ يـقـحـمـ اـسـمـهـ عـلـىـ النـاسـ بـالـتـهـليلـ وـالتـكـبـيرـ ، وـالـطـبـولـ وـالـزـمـورـ ، فـيـ مـنـاسـبـ وـبـغـيرـ مـنـاسـبـ ، وـبـعـقـ أوـ

بغير حق ، فقد تبوأ مقعد المجد ، وتنسم معقد الخلود ؛ وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ، وسحقاً للمقدرة والإنصاف ، وُبعداً للحقائق والظنون ، وتبأ للخجل والحياء . فإن المجد سلعة تُقْتَنِي ، ولديه الشمن في الخزانة ؛ وهل للناس عقول ؟ ومن كان في ريب من ذلك ، فليتحقق في تتابع المدح لشوقى ، من لا يمدح الناس إلا مأنجوراً . فقد علم الخاصة وال العامة ، شأن تلك الخرق المتنية تعنى بها بعض الصحف الأسبوعية ؛ وعرف من لم يعرف أنها ما خلقت إلا لسلب الأعراض والتسلو بالمدح والندم ، وأن ليس للحشرات الآدمية التي تصدرها ، مُرْتَزَقَ غير فضلات الجبناء ، وذوي المأرب ، خبز مسموم تستمرثه تلك الجيف التي تحركها الحياة لحكمة ، كما تحركها الهوا وخشاش الأرض ؛ هذه الصحف الأسبوعية ، وهذا شأنها ، وتلك أرزاق أصحابها ، تكيل المدح جزاً لشوقى في كل عدد من أعدادها ، وهي لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها في تم حل الأسباب ، واقتصار الفرص ، فإن ظهرت له قصيدة جديدة ، وإلا فالقصائد القديمة المنسية في بطون الصحف .

ولقد استخف شوفي بجمهوره ، واستخف ، واستخف ، حتى لا مزيد عليه ، ما كفاه أن تسخر الصحف ، سراً ، بسُوقَه إليه ، واحتلاله ثقته ، حتى يسخرها ، جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذي يؤدي بيده أجراً سوقه واحتلاسه .

إن امرءاً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ ، لا يدرى من يستنكف في سبيل بغيته ، وأي باب لا يطرقه تقرباً إلى طلبه ، والحق أن تهالك شوفي على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ، ورد به كل مورد ، وأذهله عما ليس يذهب عنه بصير أريب » .

هذا نموذج من نقد العقاد لشوفي ، وقد بلغ هذا النقد ٩١ صفحة في جزئي «الديوان» ، وتناول عشرات المواقف من شعر شوفي ، من خلال ميزان

حدُّه العقاد في أمرتين : الأول ، أمر وحدة القصيدة ، وعنده أن أي قصيدة لشوفي يمكن تغيير موقع أبياتها ، فلا يؤثر ذلك في وحدة نظمها . والثاني : قدرة الشعر على مضمونه إذا ترجمه إلى أي لغة أخرى ، وعنده أن شعر شوفي لا يثبت لهذا العمل .

رد شوفي على نقاده :

والمعروف أن شوفي لم يكن يواجه مثل هذه الحملات بالرد الصريح ، بل كانت له صحف وكتاب ينفق عليهم ، ومن أهم هذه الصحف مجلتان هما : « عكاظ » لصاحبها الشيخ فهيم قنديل ، و « الصاعقة » لمحررها أحمد فؤاد . وقد واجهت مجلة « عكاظ » ظهور « الديوان » بحملة منفصلة تحت عنوان : « القافلة تسير » في عشر مقالات تحت أسماء (النزلة الأولى ، الثانية ، الثالثة ...) وقد وسمت فيها « العقاد والمازني » باسمي « البربري والقزم » . وقالت « عكاظ » إن من أكبر أخطائها أنها هي التي أخرجت للناس العقاد والمازني من حشرات الأرض :

« أردانا أن نمهد لهم طريق الرزق ، وأن نخرجهم من حياة البطالة والكسل ، ونعودهم العيش في طرقه الشريفة ، فألحقناهما بتحرير « عكاظ » في أول نشأتها ، واحتملنا في سبيلهما وفي سبيل ما كانا ينشرانه من المطاعن والمثالب فلما امتلأت البطون ، ظهر اللوم والانحطاط . وما نسي الناس من شيء ، فلننسوا طيش المازني وخفته ، ولا رعونة العقاد وحماقته » .

ثم أشارت إلى أن المازني والعقاد كانوا يمدحان شوفي أولاً ، ثم استخدمهما حافظ ابراهيم « للنيل من النبوغ والعبقرية ومن فخر الناطقين بالضاد في ذات أمير الشعراء شوفي » ، وقالت : « لم يغبط أمير الشعراء قبله بمدح العقاد له ، بل غصب وتالم ، ولم يشعر بذمه الآن ، بل ضحك وتبسم » . وقالت : « إن العقاد والمازني يطمعان في الشهرة ، ويدعوان إلى مذهب لا يعرف ، ويقولان شرعاً لا يفهم ، ونثراً لا يُ Prism ». وقالت إنما يهاجمان شوفي ، « وشوفي

لا شاعر اليوم مثله ، أجمل الأقدمين بمتانة لفظه ، ونصاعة أسلوبه . وان شوقي ليس في حاجة إلى التنويه بمجده ، ولا الدفاع عن شعره ، » وهتفت تقول : « يا شوقي ، يا شمساً مشرقة وقمرًا منيراً ، يا كمالاً مطلقاً ، وكتاباً قيّماً ». .

وفي مجال نقد العقاد لشوقي ، أورد الشيخ فهيم قنديل (١) قوله لشوقي : « أنا لا أدفع أجرًا لمن يمدحني ويطعن في غيري » وقال ان هذا هو ذنب أمير الشعراء في نظر عباس العقاد وابراهيم المازني وفي مقال آخر ، قال : أليس من الجنون والحمامة أن يحاول مانعان كالعقد والمازني – وهو من نعرف – إنزال شوقي من العرش الذي يتبوأه في قلوب الناس ؟

وقال : « إذا قرأت « أوراق الشتايم » (٢)، حسبت أن صاحبيهما ينقدان شوقي أمير الشعراء . فإذا بحثت عن قياسهما وحجتهمما وجدتهما يتهمان الشعر العربي كلّه بالقصور والضعف ، فإذا شئت أن تصل إلى غاية الناقددين ، فانظر إلى القياس الذي جعلاه حدّاً بينهما وبين الشاعر ، تراهما لا يقيسانه بقياس عربي ، ولا بأصول معرفة يقادس بها شعراء العرب عامة . ولو اتبعنا طريقتهما في النقد ، وأتينا بكثير من شعر المتنبي ومعانيه وأخليه ، وكلفنا من ينقلها إلى الأوروبي بلغته ، وجعلنا حسن استقباله إليها موقفاً على أنه لا ينكرها لقلب القياس ، واتّهم العرف ، وأنكر أكثر الشعر العربي »

معركة تكريم شوقي :

ويشير الاستاذ الجندى في مقاله الى المعركة الأدبية الثانية التي نشببت غداة معركة تكريم شوقي ، حين هاجم العقاد ، في افتتاحية « البلاغ » وكان يومئذ الكاتب الاول لحزب الوفد ، حفل تكريم شوقي ، وذلك تحت عنوان « تكريم

(١) هو صاحب « عكاظ » .

(٢) أي كتاب « الديوان » .

النوايغ » ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ذلك في الفصول السابقة . وما قاله العقاد ، في ذلك المقال الافتتاحي الذي صدر يوم التكريم بالذات :

إذا كان الأكرام حثاً لكل ناين من نوابع العلوم والفنون ، فقد يكون الشعراء والادباء ورجال الفنون الجميلة أحلى به من سائر النوايغ . لهذا نستبشر بالتفات الشرقيين إلى تكريم الشعراء والعلماء ، ونود أن نرى تكريماً كريماً ، لا إعلاناً يُشتري بالمال أو بالمصناعة والمجاراة .

وإن لنا في شعر شوقي ، وفي صاحب الشعر رأياً معروفاً لا يحولنا عنه ما يحول الناقدين والكتابين في هذه البلاد .

أما الشعر ، فمجمل رأينا فيه ، أنه لم يرتفع بنفس قاريء واحد إلى أفق فوق أفقه ، ولم يفتح لقاريء واحد نهجاً من الإحساس أوسع من نهجه ، ولم يعلم أحداً كنه الحياة ، ولا زَيْن لأحد شيئاً من صور الحياة .

أما صاحب الشعر ، فمجمل رأينا فيه أننا لم نرَ ، ولن نرَ ، ولم نسمع ، ولن نسمع برجل مثله نصب للتكريم في أمّة تفهم معنى الكرامة والرجولة . ولا نظنه ، على الرغم من كل شيء ، يستوجب من أحد عرفاناً بحق ، أو تنويهاً بفضل ، فإنه هو لا يعرف حقاً لإنسان ، ولا يطيق أن ينوه بفضل إنسان وقال العقاد أيضاً : « إن ضجة التكريم من بدايتها إلى نهايتها إن هي إلا دعاية شوقية يقوم بها الرجل لنفسه ، ويستخدم فيها ماله ووسائله التي ما فيء يستخدمها في بث الدعاية ، وشراء الشأن . وبهذا نفس كيف أن جميع البدائيين بالدعوة إلى « التكريم » هم أصحاب شوقي ، وزملاؤه في « المعية الخديوية » ، ومن لا علم لهم بالشعر ، ولا اشتغال لهم بالأدب . فشقيق باشا ، ومحمد علي دولار ، وأمين واصف ، وحافظ عوض ، وغيرهم : قوم لا جامعة بينهم إلا أنهم زملاء شوقي في المعية الخديوية .

وبقى بعد ذلك ، دليل الإجماع من الصحف المأجورة على الترويج والتgebid وتغخ المزامير ودق الطبول . فلو أن هذه الصحف المأجورة أكرمت

أحداً قط ، لفضلٍ مأثور ، أو لسجية محمودة ، أو لو أنها ذكرت غير شوقي مرة ، كلما ذكرت شوقي عشرًا ، لقلنا : صحف تعرف الحق ، وتهتم بالشعر ، وتبجل من يستحق الإجلال .
ولكن السر واضح من ذاك ؛ شأن هذه الصحف أظهر من أن يخفى على إنسان .

بل ما لنا لا نقول إن شوقي ما برح يحتال على الصحف اليومية ، منذ سنة ، ليُسكتها ، أو ليُسیر بها في زفة التكريم والتهليل ، بل ما لنا لا نقول إن هذا الرجل لا يعرف الوفاء ، ولا يبذل من عاطفته شيئاً إلا في غرض من أغراض الأنانية والإعلان ، ولستنا نذكر التقلب في السياسة ، ولا التذبذب بين الزعماء ، ولا الرياء الذي تكشف حتى صار من الصدق الصراح ؛ فهذا كله من صفات شوقي التي بطل فيها القول ، وانفق عليها الخصوم والأنصار » .

رأي المازني في شوقي :

وبمناسبة تكريم شوقي أصدرت « السياسة » الأسبوعية ، عدداً خاصاً عن شوقي ، حوى ما ألقى في حفلة التكريم ، وإلى جانبه خمسة وعشرون مقالاً ودراسة ؛ وقد تنوعت هذه البحوث من أقلام متعددة في دراسة جوانب شوقي ، وكلها التقدير والتقرير ، ماعدا مقالين : أحدهما للعقاد ، والآخر للمازني .

أما المازني فقد كتب يقول : « لا يا سيدي هيكل » (١) : تقيمون كل هذه الضجيجات والضوضاء حول شوقي ، وتحفون بالزمر والطلب من أرجاء المعمورة كلها ، ثم تعمدون إلى رجل خفيض الصوت مثلّ ، وتدعونه أن ينهض وسط هذه الزفات المجلجلة ليُفصّي لكم برأيه الصريح . لقد خطر لي في هذه الورطة ، أن أنقل صفحات ما كتب العقاد في نقد شوقي وأذيلها بكلمة أقول فيها :

(١) الدكتور محمد حسين هيكل ، رئيس تحرير « السياسة » يومذاك .

«ليس بعد هذا كلام لناقد ، وناقل الكفر ليس بكافر» . وأنخرج أنا ،
ولا لي ، ولا عليّ ؛ وأدع العقاد مورطاً مكاني ..
إنني سيء الظن بهذه المخلافات ؛ وإنها لا تدل على شيء . ليس الخلود هو
الشهرة أو دهان الآخوان ؛ إنما الخلود هو أن تبقى روح الرجل في خواطر
الناس ونقوسهم . وما أحق من تصفح ذئنه هذه المعاني الجليلة ، أن يشيع
بوجهه عن ضجعات النساء المجلوب ، وأن يتتجافى بنفسه عن الزهو بها .

وليس شوقي ، عندي ، بالشاعر ولا شبيهه ، وإنه لقطعة قديمة متلκة من
زمن غابر لا يعبر فيه ، يغنى عنه كل قديم ، ولا يُضيف هو إلى قديم أو
حديث ؛ وما أعرفني قرأت له شيئاً إلا أحسست أنني أقلب جثة ملئت صدیداً
وشاع فيها الفناء علواً وسفلاً .

لهذا نقول : إن مقاييسنا كان ولا يزال «أن الجيد في لغة ، جيد في سوهاها»
والأدب شيء لا يختص بلغة ، ولا زمان ، ولا مكان . فمن كان يكابر
بالخلاف في أن شعر شوقي كما نصّف ، فما عليه إلا أن يتناول خير ما يذكر
له ، وأبرعه في رأي أنصاره ، ثم فلينقله إلى لغة أخرى . وللينظر بعد ذلك
مبلغه في الفساد والاضطراب والاعتساف والشطط والسفه والغلو من الصدق
والعجز عن صحة النظر . وليت كل عيب شوقي أنه لا يسمو عن المطروق
ولا المألوف والمبتذل ، إذن لكان له على الأقل ، مزية الفطنة إلى ما كانت
له في زمنه طلاوة الجدة ، فإن المطروق اليوم كان مبتكر الأمس .
والمرء إما أن يكون شاعراً أو لا يكون ، ولا وسط هناك ...»

موقف أنصار شوقي :

وما كاد عدد «السياسة» الأسبوعية يصدر ، حتى واجه حملة ضخمة
من النقد من أنصار شوقي . فأصدرت مجلة «عكااظ» عدداً خاصاً بتكريّم
شوقي ، وكتبت مقالاً تحت عنوان «حصاد شوقي» ، ثم نشرت مقالاً مطولاً
آخر في العدد التالي ، وكان مما قاله الشيخ فهيم قنديل :

«نبحث مصر في تكريم شوقي بك ، وما يرجع الفضل في هذا إلى شقيق باشا ، ولا إلى حافظ عوض ولا إلى نعمان الأعصر ، ولا إلى أضرا بهم وأشياهم ، وإنما يرجع إلى نبوغ شوقي وعظمة شوقي .

أما أهل الثقافة ، والقائمون بأمر «السياسة» ، أما أعداء النبوغ وخصوم العبرية ، أما السفهاء والأدنياء ، أما السفلة الطعام والفسحة اللثام ، أما هؤلاء الحقادون جمعا ، فقد طلعوا ينبحون ، وخرجوا يعربدون . كيف تتهاها الفرصة ، ولا ينتهزها فلان للطعن في شوقي ، وللنيل من شوقي ، ولهما عند شوقي أجور لم تسدّد ، وحقوق لم تردّ .

كيف تربidon من رجلين (١) كانوا وما يزالان يطمعان في مال شوقي ، ولهما ثأر قديم عند شوقي ، ولم يُعرَفَا إلا عن طريق الطعن في شوقي ، كيف تربidon من هذين الرجلين ، وقد دعتهما «السياسة» إلى ذم شوقي ، أن يتورعا عن ذم شوقي ؟

وكيف يكون شوقي أمير الشعراء ، وسيد الأدباء ، وهو يأبى أن يعطي الشعراء والأدباء ، وهو لا يجعل ماله منها يتقاسمها الشعراء الخلقاء . ما يقصد هؤلاء الفسحة انتقاداً أدبياً ، ولا إصلاحاً لغويًا ، وإنما يقصدون الازدراء والسب وشفاء حرارة الحقد .

إنكم طلاب نكایة ، لا هداية ، أتتالون من شوقي ؟ أتحججون شمسه ؟
أم تطفئون نوره ؟ أتهدمون الجبل ...

هيكل في المعركة

ولم يلبث الدكتور هيكل أن دخل المعركة ، فكتب مقالاً عندها تحت عنوان : «أخلاق شاعر الأخلاق : نحن وشوقي بك» وما قاله : «على أثر ظهور عدد «السياسة» الأسبوعية الخالص بتكرييم شوقي بك ، رأيته مغبطاً

(١) أبي العقاد والمازني .

به ، راضيا عنه ، مؤثراً إياه على ما يذهب في الهواء من ضجيج الطاعمين الكاسين ؛ ثمرأيت ، بعد أيام من ذلك ، جرائد تأخذ على السياسة الأسبوعية إياحتها نقد شوقي بك في العدد الذي خصصته لتكريمه ؛ وسمعت من أقرب الناس إلى شوقي تردیداً لنفحات هذه الصحف ، وأسرّ إلى بعضهم ، في مجلس كان شوقي بعض حضوره ، ما يعبر عن ذعر أمير الشعراء من أن يظهر عدد السياسة الذي يلي يوم التكريم ، وفيه شيء من مثل النقد الذي ظهر في عدد التكريم . فعجبت كيف انقلب اغباط شوقي ذعراً ، وكيف بلغ به خوف النقد هذا المبلغ ، وهو الذي طالما أخبرني أن النقد لا يهزّ مجدآً مكوناً .

وبعد أيام علمت أن شوقي لفق بعض أخبار عن «السياسة» ومحرريها ، وانطلقت جماعة من صبيانه يذيعونها في المقاهي ، وفي الطرقات ، فأصغرت ذلك منه ، وأعرضت عنه ، وأبانت أن أحدهما فيه كيلاً أحرجه بأن أصارحه بهذا التدلي إلى حضيض الخلق . وبقيت بمعزل عنه ، راجياً أن يثوب إلى رشاده يوماً ، ولكنه لم يقف عن رواية أخباره الملفقة ، وإرسالها على ألسن صبيانه ، بل جرت السفاهة على صفحات كثيرة ينفق عليها لتصفق له ،

ويدير تحريرها باسم مستعار لتناول من أعراض من يحبسهم خصومه (١) ،
بإزاء ذلك ، لم يكن بُدًّا من أن أبين للرأي العام ما حدا بشوقي إلى نزول
هذه المترلة ، وإنني ليحزنني ، عَلِمَ الله ، أن أقف من شوقي هذا الموقف ،
ولو اضطررت إليه اضطراراً ، فلست بالرجل يهدم الماضي ، ويهدم الصدقة ،
ويحيث في حق ما أكرم يوماً من الأيام . ولشوقي يدًّا عندي ، يحزنني أن
تشوتها شائبة وكانت أود أن تظل مقدسة قداسة الذكرى التي تثيرها في
نفسى .

وبعد ، فما الذي أثار حفيظة شوقي وأغضبه ، حتى جعله يتدارى إلى ما تدلل إليه ! (وذكر هيكل كيف عرضوا على شوقي إد مدار عدد خاص من

(١) وأشار الدكتور هيكل ، بعد هذا ، إلى ما ورد في صحيفة « عكاظ » .

السياسة) ، وقال : « واغتبط شوقي لذلك اغبطةً ، وبعث اليانا ، كي يزداد هذا العمل كمالاً ، ببعض صورٍ له لم تكن نشرت ، وتردد علينا أثناء إعداد العدد للطبع ، وطلب اليانا ، فأجبناه إلى عدم نشر مقال معين . ثم ظهر العدد مقدماً بكلمة « السياسة » الأسبوعية : « شوقي بك ، علم البيان في الشعر العربي ، في هذا العصر الحاضر ». .

وقف شوقي من هذا العدد الموقف الذي أشرنا اليه . ففيما كان الاغبطة ، ثم الفزع ، ثم الاضطراب والتلتفيق ، أنا لا أستطيع أن أجده لهذا التطور العجيب مبرراً من روبيَّة أو تفكير ، وإنما هو إسلام النفس للبطانة من الصبية ، وسوس اليه الصبية المتملقون أنهم لا يرضون عن أن يُنقد ، ويعتبرون أي نقد له جنائية على مجده ، تقاد تسله ، فزع ، ثم اضطراب ، ثم لفق ، ثم جائِيَ الاسم المستعار .

كنت أودَّ ألا يطلع الناس من شوقي إلا على شعره ، وأن يقفوا من شخصه ، عند سماعهم به ؛ ولكن حركة الائمة ، وحركة صبيانه ، وهذا الاسم المستعار الذي يستمر وراءه، لا يصح أن يتركه غير حساب . ولا يطمئن شاعر الأخلاق أَنَّا لا ننزله في الميا狄ن التي يعرفها ، فهو يعلم أننا نعلو عن ذلك علوًّا كبيرًا ، وما زلت أرجو أن يرتدي جانب من الحكمة التي استظهرها في الشعر إلى قلبه ، فيرد اليه صوابه ، وأن تبرد الأيام غلته ، فيرى عبث من اصطفى من بطانته ، فيعوده شيء من حسن التقدير وسلامة الحكم ». .

وهجوم على هيكل

وعادت « عكاظ » إلى مهاجمة « السياسة » الأسبوعية ، والدكتور هيكل بالذات ، وقالت : « إن الدكتور هيكل من المعروفين بالتقرب إلى شوقي ، والسير في ركبـه ، والإشادة بذلكـه ، فماذا جرى حتى ينقلب الإعجاب استخفافاً؟

لو أن رجلاً غير الدكتور هيكل ، كان في مكانه في تحرير « السياسة »

وهو يهبط عليه الوحي ، كعادته في كل يوم ، بأن يحول الدفة من مدح شوقي إلى ذمه ، قبل أن يجف مداد مدحه ، لترىـتـ كثـيرـاً ، ولكـنهـ رـجـلـ مـثـلـ الـبـوقـ فـيـ فـمـ النـافـخـ ؛ لأنـهـ لاـ إـرـادـةـ لـهـ فـيـ شـيـءـ ؛ وـنـحـنـ نـعـلـمـ أـنـهـ طـالـماـ دـلـفـ إـلـىـ «ـ كـرـمـةـ اـبـنـ هـانـيـءـ »ـ ، وـأـنـخـسـرـ فـيـ زـمـرـتـهاـ . وـذـاقـ طـعـامـهـاـ وـشـرابـهـاـ .

هل يستطيع رئيس تحرير (السياسة) أن يذكرنا أين كانت تلك المطالب التي يحاول أن يهبط بها سمعة أمير الشعراء ، يوم كتب مقدمة ديوانه ، ويوم تطوع للاشراك في تكريمه ، واستئثار الأقطار العربية لإرسال وفودها ؟ وأين كان يوم جمعت «السياسة» ورئيس تحريرها على شوقي ، فضائل الدنيا ، وأنزلته منزلة الملائكة والمقدسين ؟

يا دكتور هيكل : .. كان أجدرك بـكـ أـنـ تكونـ آخرـ منـ يـذـكـرـ الأـسـماءـ المستـعـارـةـ ، والـصـحـفـ الـمـأـجـورـةـ ، وـآخـرـ منـ يـقـفـ أـمـامـ شـوـقـيـ بـكـ مـوـقـفـ المـخـاصـمـ أوـ الـبـنـيـءـ »ـ .

وطه حسين أيضاً

وقد أشرنا فيما سبق إلى ألوان من الانتقاد ، وجهها الدكتور طه حسين إلى شوقي ؛ ويحسنُ بـنـاـ ، والـحـدـيـثـ حـدـيـثـ الدـكـتـورـ هيـكـلـ وـعـلـاقـتـهـ بـشـوـقـيـ أنـ نـذـكـرـ رـأـيـ الدـكـتـورـ طـهـ حـسـنـ فـيـ المـقـدـمـةـ الـتـيـ وـضـعـهـ الدـكـتـورـ هيـكـلـ «ـ للـشـوـقـيـاتـ »ـ حيثـ قـالـ : .. لـغـرـيـيـ أـنـ يـمـدـحـ شـوـقـيـ بـلـ حـسـابـ ؛ أـمـاـ أـنـاـ ، فـلـاـ أـرـيدـ أـنـ أـمـدـحـ ، وـلـاـ أـرـيدـ أـنـ أـذـمـ ، وـإـنـماـ أـرـيدـ أـنـ أـنـقـدـ ، وـأـنـ أوـثـرـ الـقـصـدـ فـيـ النـقـدـ . وـأـظـنـ أـنـيـ أـجـلـ شـوـقـيـ وـأـكـبـرـهـ بـالـنـقـدـ ، أـكـثـرـ مـنـ إـجـلـالـيـ إـيـاهـ بـالـنـقـرـيـظـ وـالـثـنـاءـ ، وـقـدـ شـبـعـ شـوـقـيـ ثـنـاءـ وـتـقـرـيـظـاـ ، وـأـحـسـبـهـ لـمـ يـشـبـعـ نـقـداـ ، بـعـدـ . وـلـيـسـ شـوـقـيـ ، فـيـمـاـ أـعـلـمـ مـنـهـ ، شـرـهـاـ إـلـىـ حـسـنـ الـحـدـيـثـ ، وـطـيـبـ الـمـقـاـلـةـ .

قرأت مقدمة هيكل لديوان شوقي ؛ وكنت أظن أنني سأظفر بشيء في العقيدة الشعرية لشوقي ؛ فيما كتب هيكل ، أترى أن مصدر ذلك أن ليس

لشوقى عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها ، أم ترى أن مصدر ذلك
أن هيكل لم يُعنَّ بشعر شوقى عناته بثُر أناطول فرانس ؟
الواقع أني لا أعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة في الشعر ، وما أرى
أنه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة ، وما أرى أنه فكر في الشعر
إلا حين يقوله ، وإنما هو ، كما يقول هيكل في شيء من الدهاء « مجدد حينةٌ
ومقلد حينةٌ آخر » ؛ وهو في تجديده وتقليله ، لا يصدر عن عقيدة فنية
واضحة ، وإنما يتأثر بالساعة التي يتهيأ فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذى
يفرض فيه الشعر ، ليس غير .
والخرج ظاهر في مقدمة هيكل كلها ، وإن شئت ، فقل : إن المجاملة
ظاهرة .

.. كان شوقى مجددًا ملتوي التجديد ؛ ويعضي الزمن ، فإذا تجديد شوقى
يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد ، حتى إذا كانت أعواامه الأخيرة ، كانت
قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء لا يتستر فيه ولا يحتاط ، ينشيء
القصيدة ، فلا تحتاج إلى تعب أو مشقة ، لتجدد القصيدة القديمة التي يحاكيها » .

تبدل آراء النقاد بعد وفاة شوقى

هذه السهام التي كانت ، في بعض الظروف ، قادرة على أن تصيب من شوقى
أكثر من مقتل ، انقلب بعد وفاته عام ١٩٣٢ إلى ضروب من الإنفاق بحق
أمير الشعراء ، وإلى ألوان من إكبار ذلك الشاعر الذي ملا الدنيا وشغل الناس
فها هو المازني يقول :

« إن شوقى كان من أنفع شعراء طبقته ، وكان أدقهم تعبيراً ، وأبلغهم
وما زال رأيه في شعره كما كان ، وهو أنه كان في صدر حياته أشعر منه
في أخر يياتها ، ولكنه في العهد الأخير كان أبلغ عبارة ، وأعلى بياناً ، وأنه
كان ذا حيوية عجيبة ؛ ومن ذلك أنه اقتنع في شيخوخته بأن نظم القصائد
على الطريقة القديمة التقليدية عبث وباطل ، فتحول إلى وضع الروايات

الشعرية التمثيلية ، وطبع في أن يكون في الأدب العربي كشكسيير في الأدب الانكليزي .

رحم الله شوقي ، فقد كان عنواناً ورمزاً لمصر في الشرق العربي كله ، وأكبر ظني أنَّ اسمه سيظل مذكوراً في تاريخ عصره ، مهما بلغ اختلاف الناس في أمره » .

وكل ذلك عدل العقاد رأيه في شوقي فقال عنه : « هو إمام مدرسة تستطيع أن نسميتها بمدرسة التقليد المبتكر أو التقليد المستقل . لم يكن شوقي من المقلدين الآلين الذين يتزمون ححدود المحاكاة الشكلية ، ولا يزيدون ؛ ولم يكن من المجددين الذين يعطون من عندهم كل ما أعطوه من معنى وتعبير » ولكنَّه كان يقلد ويتصرف ، وكان تصرفه يخرجه من زمرة الناقلين الناسخين ، ولكنَّه لا يسلكه في عِداد المبدعين الحالقين الذين تنطبع لهم « ملامع نفس مميزة » على كل ما صاغوه من منظوم أو منثور ؛ فهو قد نشط بالشعر من جمود الصيغ المطروقة ، والمعاني المكررة ، ولكنَّه لم يستطع أن ينتقل به من شعر القوالب العامة إلى شعر الشخصية الخاصة التي لا تخفي معالمها ، ولا تلبس بغيرها ؛ وخلاصة القول فيه أنه مقلد مبتكر ، أو أنه مبتكر مقلد . فهو لا يقتفي آثار الأقدمين ، ولا هو ينفرد بملامحه الشخصية ، في التعبير عن نفسه أو التعبير عن سواه » .

وفي حديثه عن ذكرياته مع شوقي ، عاد الدكتور هيكل فكتب عن أمير الشعراء : « إن شوقي كان يصنف بالفقد ، ولا يطيقه ، ولعله كان يحسبه عبياً في ذات أمير الشعراء كالعيب في الذات الملكية » .

ويروي الدكتور هيكل أن شوقي كان يقول له ، كلما أقرَّ نقداً موجهاً إليه من طه حسين في جريدة « السياسة » الأسبوعية : « ما الذي يقصده صديقاته طه في توجيهه النقد إلىَّ في كل مناسبة ؟ أيعْلن أنه قادر على أنْ بهمني ؟ قل له إنَّي « مجدٌ تكونَ » ، ومن المستحبيل هدم مجد تكونَ ؛ وإنَّه ينطح صخرة لا تستجيب له » .

ثم يقول الدكتور هيكل معلقاً : « ولم أتعجب لهذا الكلام ، وإنما كان عجبي لأن شوقي كان يسرع إلى مقاطعة من ينقدونه ، ثم كان يسرع إلى استر ضائمه بكل وسيلة مستطاعة ». .

والواقع أن الدكتور طه حسين كان أكثر نقاد شوقي تمسكاً بالروح العلمية ، وبالفن الرفيع في توجيه الانتقادات ، لذلك رأينا ، بعد حين ، ينصف شوقي ، فيقول عنه : « إنه ، بعد أن عاد إلى مصر من المنفى ، تحول تحولاً خطيراً حقاً : لا نكاد نعرف له نظيراً عند غيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أدبنا العربي ؛ وتحول من ناحيتين خطيرتين :

فأما إحداهما : فهي أن شعره التقليدي تحرّر من التقييد بظروف السياسة ، فانطلق ؛ كان شعره يصبح صورة لأهواء الشعب من حوله وميل هذا الشعب ، بكل قوة وبكل حرية ، لأن الشعب إنما كان ينطق بلسانه .

والناحية الثانية : هي أنه فجأة استكشف نفسه ، وإذا هو شاعر قد خلق ليكون مجدداً ، فأقبل على التجديد في السنتين الأخيرة من حياته ، فأدخل في اللغة العربية ، وفي الشعر العربي خاصة ، فناً جديداً لم يسبقه أحد إليه ، وهو فن التمثيل الشعري .

ومهما يكن من شيء ، فحسب شوقي أنه قد ردَّ إلى الشعر العربي قوَّته ورصانه ومتانته ، وحسبه أنه ، بعد البارودي ، الشاعر الذي ردَّ الشعر العربي إلى حياته الأولى ». .

ومهما يكن من أمر هذا الانصاف يأتي الشاعر من أخصام الأمس ، فهو ، وإن جاء بعد فوات الأوان بالنسبة إلى شاعر أغمض عينيه مبارحاً هذا الوجود ، يبقى وثيقة ذات قيمة تاريخية جليلة في تقرير المكانة الرفيعة التي احتلها شوقي ، على صعيد الفكر والشعر ، حياً وميتاً ، والتي أشار إليها شقيق جبري في مهرجان المجمع العربي بدمشق الذي أقيم لتكريم شوقي بتاريخ العاشر من آب عام ١٩٢٥ ، حيث قال ، مخاطباً أمير الشعراء :

أَلْقَتْ إِلَيْكَ الْعَبْقَرِيَّةُ سَرَّهَا
وَحَنَّتْ عَلَيْكَ وَجْرَرَتْ أَذِيَّهَا

الله شعرك في القلوب ، فإنه
بلغ القلوب ، فهزها وأمالها

شوق أمير الشعر ، غير مدافع
غرر القرىض خلت له ، وخلال لها

هذا حصاد سريع لصور شيقة عن المعارك الفكرية التي أثيرت حول شاعرية شوقي وشخصيته . ولقد يكون بعضها منصفاً ، ولقد يكون بعضها الآخر ممحقاً ، إلا أن القاريء المتجدد يلمس بسهولة باللغة أن بعضها كتب بروح موضوعية علمية تهدف إلى النقد الفني العالمي ، وأن ما تبقى مكتوب بدوافع مادية رخيصة ، أو شخصية نفعية ، أو لأسباب قد تمت إلى كل شيء إلا إلى النقد الفني الموضوعي المتجدد .

وكل هذه الانتقادات تؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن شوقي لم يكن صاحبوا كأ^يعيش على هامش الأدب ، ولكنه كان في ميدان الفكر ، فارساً بطلاً انتقدات له الأعناء ، وأحرز في الشعر العربي قصب الساق ، فصدق فيه قول القائل : «ما اختلف اثنان على رجل إلا كان عظيمًا» .

شوفي شاعر الوطبة والفصائل الونابة

لئن انتهى شوفي نسباً ، إلى أعراق غير عربية ، فكان كردي الأب ، تركي الأم ، شركسي جدته لأبيه ، يوناني جدته لأمه ، فقد كان ولازمه الوطني موضع تجاذب بين مصر ، والعروبة ، والإسلام .

السياسة والشعر

وإذا كان من شأن السياسة ، ومقتضياتها ، وظروفها القاهرة ، أن نسكت الشاعر ، إما مداراة ، وإما محاباة ، فلقد كان لوجود شوفي وسط الأجراءات السياسية المحمومة ، في مصر ، أكبر أثر على نفسه ، وأكبر انعكاس على شاعريته ، فإذا به ، على سبيل المثال ، يتزداد في رثاء صديقه الحميم مصطفى كامل الذي كان في أواخر أيامه ، على علاقة غير طيبة بالقصر بسبب تقربه الخديوي من المعتمد البريطاني . ولكن شوفي سرعان ما ثاب إلى رشده ، ورثى صديقه بقصيدة عصماء وهي من عيون الشعر العربي ومطلعها :

المشرقان عليك ينتحبان

فاصيهما في ماتم والدانى

ومنها هذه الأبيات :

جار التراب وأنت أكرم راحل

ماذا لقيت من الوجود الفانى ؟

إِنْ كَانَ لِلْأَخْلَاقِ رَكْنٌ قَائِمٌ
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَأَنْتَ الْبَانِي
 وَجَدَانِكَ الْحَيُّ الْمَقِيمُ عَلَى الْمَدِيِّ
 وَلِرَبِّ حَيٍّ مِيتٍ الْوِجْدَانِ ..
 دَقَاتُ قَلْبِ الْمَرْءَةِ قَائِلَةٌ لَهُ :
 إِنَّ الْحَيَاةَ : دَقَائقَ وَثَوَانِيَ
 فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا
 فَالذَّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِيٌّ .

وفي القصيدة ، يحاول شوقي أن يبرر الأسباب التي حالت دونه ودون رثاء مصطفى كامل ، عند وفاته ، وكأنه سمع أصواتاً تهمس بذلك ، عاتبةً أو لائحة ، فيقول :

لَوْلَا مَغَالِبَةُ الشَّجُونِ لِخَاطَرِي
 لَنَظَمْتُ فِيكَ يَتِيمَةَ الْأَزْمَانِ
 وَأَنَا الَّذِي أَرَى الشَّمْوَسَ إِذَا هُوَتْ
 فَتَعُودُ سِيرَتَهَا إِلَى الدُورَانِ
 قَدْ كُنْتَ تَهْتَفُ فِي الْوَرَى بِقَصَائِدِي
 وَتُجْلِي فَوْقَ النَّيْرَاتِ مَكَانِي

مَاذَا دهانِي ، يوْمَ بَنْتَ ، فَعَقَّنِي
 فِيكَ الْقَرِيبُ ، وَخَانِي إِمْكَانِي ..
 هُونَ عَلَيْكَ ، فَلَا شَمَاتَ بِمَيْتَ
 إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةُ الْإِنْسَانِ ! !

ومهما حاول شوفي التبرير والاعتذار ، فإن السمة العامة لقصيدته الرثائية هي البُعد عن العاطفة العميقه ، نظراً لما فيها من مبالغات ، والاقراب ، بالتالي ، من الحكمة الإنسانية ، والنظرية المتألفة إلى الحياة والموت .
 وقد كان موقف شوفي من أحمد عرابي ، قائد الثورة العرابية الشهيرة ، بوحي من موقف التصرّف منه ، موضع انتقاد مرير من جانب كل من قرأ القصيدة التي « استقبل » الشاعر بها ذلك القائد الشعبي العظيم ، بعد عودته من منفاه ، ولا سيما قوله في مطلعها :

صَغَارٌ فِي الْذَهَابِ وَفِي الْإِيَابِ
 أَهْذَا كُلُّ شَانِكَ يَا عَرَابِي ؟ !

ذكرى دانشواي :

ومن القصائد التي انقدتها الكثيرون ، قصيدة شوفي في « ذكرى دانشواي » التي نظمها بعد مرور سنة على الحادثة . وملخصها أن جنود الاحتلال الانكليزي مروا عام ١٩٠٦ بقرية « دانشواي » المصرية ، وصادوا حمامها الداجن ؛ وقد حاول الأهالي اقناع الجنود بالإفلال عن ذلك ، فظن أحدهم أن الأهالي يريدون به سوءاً ، فجرى هارباً حتى أصيب بضررية شمس مات على أثرها .
 وكان اللورد « كرومِر » الذي أوردنا ذكره في فصل سابق ، قد وجدها فرصة مناسبة لمحاكمة أهالي القرية بصورة وحشية ، فصلبت طائفه منهم ،

واعذبت طائفه ثانية : وسجنت طائفه ثالثة . ، فلم يهتز شوقى لذلک الحادث
المحزن إلا بعد عام ، حيث أطلَّ على قراء الجريدة الرسمية بقصيدة عاديه
فيها موسيقى شعبيه ، ولكن لا عاطفة حزينة في ثناياها :

يا دنشواي على رُباك سلامُ

ذهبتْ بِأنسِ ربوءاتِ الأَيَامُ

شهداء حكمك في البلاد تفرقوا

هيئات للشمل الشتت نظامُ

عشرون بيتاً أَقْفَرْتُ وانتابها

بعد البشاشة وحشةُ وظلامُ

ياليت شعرى في البروج حمائُ

أم في البروج منيَّةُ وحمامُ

نيرون ! لو أدركت عهد كرومِ

لعرفت كيف تنفذ الأحكام

نوحى حمائِ دنشواي وروعي

شعباً بوادي النيل ليس ينام ..

في كل ناحيةٍ وكل محلَّة

جزعاً من الملاِّ الأَسيف زحامُ

وعلى وجوه الشاكلين كآبةٌ

وعلى وجوهِ الشاكلاتِ رغمُ

وهكذا ينهي شوقي القصيدة ، وكأنه يرحب ، وحسب ، في رفع العتب عنه ، فلا تجني عالحاتمة ، كعهدنا بقصائد شوقي ، قوية ، مؤثرة ، آسرا .

ولكن هذه المئات القلائل التي نعتقد أن المبرر الوحيد لها هو انغماط شوقي في سياسة القصر ، ومشاكل القصر ، تتضاءل أهميتها أمام الوطنية الصافية التي أبدتها شوقي ، وأمام الولاء الذي خص الشاعر به مصره ، وعروبه ، وإسلامه .

ولاء شوقي لمصر

أما مصر ، فلعل قصيدة شوقي الملحمية : « كبار الحوادث في وادي النيل » التي قدمها للمؤتمر الدولي المتعدد في مدينة جنيف في أيلول سنة ١٨٩٤ ، بصفته مندوباً للحكومة المصرية ، تدل دلاله واضحة على ما يكتنه شوقي لوطنه ، وما يمحضه إزياه من ألوان الولاء والوفاء .

ونكتفي ، في هذا المقام بقوله ، وهو في المنفى :

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعني إلیه في الخلد نفسي

وبقوله بعد عودته من المنفاه :

ويأ وطني لقيتك بعد يأسٌ
كأني قد لقيتُ بكَ الشبابا

ولو أني دُعيتُ ل كنتَ ديني
عليه أقابل الحتمَ المجابا

أَدِيرُ إِلَيْكَ ، قَبْلَ الْبَيْتِ وَجَهِي
إِذَا فَهْتُ الشَّهَادَةَ وَالْمَتَابَا ! !

ففي هذه الأقوال وأمثالها ، مما نصح به جوانب «الشوقيات» دليلاً لا يرقى
إليه الشك على وطنيه شوقي ، وولاته لبلده مصر .

ولاء شوقي للعروبة :

وأما العروبة ، فشوقي شاعرها ، ورسوها ، والمؤمن بها إيماناً عميقاً ،
حتى لتهزه كل نكبة تصيب قطرأً عربياً ، ويؤثر فيه كبل مجده يرى فيه
موضعأً للفخار .

فالأمة العربية ، هي في نظر شوقي :

أُمَّةٌ يَنْتَهِيُ الْبَيْانُ إِلَيْهَا
وَتَوَوَّلُ الْعِلُومُ وَالْعُلَمَاءُ
جَازَتِ النُّجُمُ وَاطْمَأَنَتِ بِأُفْقٍ
مَطْمَئِنٌ بِهِ السَّنَاءُ وَالسَّنَاءُ
كَلَّمَا حَثَّ الرَّكَابُ لِأَرْضٍ
جَاوَرَ الرَّشْدَ أَهْلَهَا وَالذَّكَاءُ
فَلَمَنْ حَاوَلَ النَّعِيمَ نَعِيمٌ
وَلَمَنْ آثَرَ الشَّقَاءَ شَقَاءً .

وفي نكبة دمشق التي رمي بضروب القنابل ، لإثر الثورة الدرزية على

الانتداب الفرنسي ، يخاطب دمشق بقوله ، مذكراً بالدولة العربية التي
امتدّت ما بين المحيط الأطلسي والخليج العربي :

وَكُلُّ حِضَارَةٍ فِي الْأَرْضِ طَالَتْ
لَا مِنْ سَرَحَكَ الْعُلُويِّ عَرَقُ
سَمَاوَكَ مِنْ حُلَّ الْمَاضِي كِتَابُ
وَأَرْضَكَ مِنْ حُلَّ التَّارِيخِ رَقُ
بَنَيَّتِ الْأَدْوَلَةِ الْكَبْرِيِّ ، وَمَلَكًا
غَبَارُ حِضَارِتِيهِ لَا يُشَقُّ
لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامُ وَعُرَسُ
بِشَائِرِهِ بَانِدُلُسٍ تَدَقُّ.

إلى أن يقول :

دُمُّ الْثُوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا
وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نُورٌ وَحْقٌ ..
بَنِي سُورِيَّةَ أَطْرِحُوا الْأَمَانِي
وَأَلْقَوْا عَنْكُمُ الْأَحْلَامَ أَلْقَوَا
وَقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حِيَاةً
فَإِنْ شِئْتُمْ نَعِيمَ الْدَّهْرِ فَاشْقُوا

وللأوطان في دم كل حُرٌّ
 يَسْدُّ سَلَفَتْ وَدِينُ مُسْتَحْقُّ
 ومن يُسْقِي وَيُشَرِّب بِالنَّايمَا
 إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقَوْ وَيَسْقُوْ
 وَلَا يَبْنِي المَالِك كَالضَّحَايَا
 وَلَا يُسْدِّنِي الْحَقْوَقَ وَلَا يُحِقُّ
 وَلِلحرِيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَاب
 بَكُلٌّ يَسِّدِ مَضْرَبَجَةِ يُسْدَقُ
 وَيَتَحَدَّثُ شَوْقِي عَنْ لَبَنَانَ ، الْبَلَدُ الَّذِي أَحَبَّ شَوْقِي ، وَالَّذِي أَحَبَّهُ
 شَوْقِي ، فَيَقُولُ ، بَعْدَمَا زَارَ مَصِيفَ (بِكْفِيَا) :
 لَبَنَانَ وَالخَلْدُ اخْتَرَاعُ اللَّهِ لَمْ
 يَوْسَمْ بِأَزَيْنَ مِنْهُمَا مَلْكُوْتُهُ
 هُوَ ذُرْوَةُ فِي الْحَسْنِ غَيْرُ مَرْوَمَةِ ،
 وَذُرْيُ الْبَرَاعَةِ وَالْحَجَّيِ بَيْرُوْتُهُ
 مَلْكُ الْهَضَابِ الشُّمُّ ، سَلَطَانُ الرَّبِّيِّ
 هَامُ السَّحَابُ عَرْوَشُهُ وَتَخْوَتُهُ .
 وَكَانَ أَيَّامُ الشَّابِ رَبْوَعَهُ ،
 وَكَانَ أَحْلَامُ الْكَعَابِ بِيَوْتَهُ !

وله في «زحلة» بحارة «البردوني» التي عرفت فضل أمير الشعراء عليها ، فأقامت له تمثالاً في ساحتها ، تخليداً لذكره ، أبيات متفرقة المعاني ، أنيقة المباني ، ومنها :

يا جارة الوادي ، طربت وعادني
ما يُشَبِّهُ الأَحْلَامَ مِنْ ذِكْرِكِ
مُثَلَّتٌ فِي الذَّكْرِ هُوَاكِ ، وَفِي الْكَرِي
وَالذَّكْرِيَاتِ صَدِيُّ السَّنَينِ الْحَاكِي
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الرِّيَاضِ بِرْبُوَةِ
غَنَّاءً ، كُنْتُ حِيَالَهَا أَلْقَاكِ ..
لَمْ أَدِرِّ مَا طَيْبُ الْعَنَاقِ عَلَى الْهَوَىِ
حَتَّى تَرَفَّقَ سَاعِدِي فَطَوَاكِ
وَتَأَوَّدَتْ أَعْطَافُ بَانَكِ فِي يَدِي ،
وَأَحْمَرَّ مِنْ خَفَرَيْهِمَا خَدَّاكِ
وَدَخَلْتُ فِي لِيلَيْنِ : فَرَعُوكَ وَالْدَّجِيِ
وَلَثَمْتُ كَالصَّبْعِ الْمَتَوَرِ فَاكِ ..
وَتَعَطَّلَتْ لُغَةُ الْكَلَامِ وَخَاطَبَتْ
عِينَيِّي فِي لُغَةِ الْهَوَىِ عِينَاكِ ..
لَا أَمْسِ مِنْ عُمْرِ الزَّمَانِ ، وَلَا غَدْرُ ،
جُمْعَ الْزَّمَانُ ، فَكَانَ يَوْمَ رِضَاكِ .

وأما ولاء شوفي للإسلام ، ولتر كيا ، مركز الخلافة الإسلامية ، في أيامه ، فأمر نراه في غير حاجة إلى دليل أو إيضاح . وحسبك أن تقرأ فصائله الدينية التي يدعوا فيها إلى الاعتصام بحبل الدين ، ورفع الشعارات الإسلامية ، والقضاء التخلف ، والابتعاد عن التعصب الطائفي الأعمى ، وحيث يندد بالذين يتاجرون بالدين وشعاراته ، إلى أي دين انتما ، ومن أي وطن كانوا .

ففي « نهج البردة » ، نرى شوفي يمدح الرسول محمدًا عليه الصلاة والسلام ، فيقول :

مَحْمُدٌ صَفْوَةُ الْبَارِيِّ ، وَرَحْمَتُهُ
وَبُغْيَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ نَسْمَهُ
وَصَاحِبُ الرَّسُلِ ، يَوْمُ الرَّسُلِ سَائِلَةُ
مَتِيٍ الْوَرَودُ ، وَجَبَرِيلُ الْأَمِينُ ظَمِيٌّ
سَنَاوَهُ وَسَنَاهُ الشَّمْسُ طَالِعَةُ
فَالْجِرْمُ فِي فَلْكٍ ، وَالضَّوْءُ فِي عِلْمٍ ..
نُمَا إِلَيْهِ ، فَزَادُوا فِي الْوَرَى شَرْفًا
وَرُبَّ أَصْلِ لَفْرَعٍ فِي الْفَخَارِ نُمِيٌّ
لَا رَآهُ « بَحِيرَاً » قَالَ : نَعْرَفُهُ
بِمَا حَفَظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسَّيْمِ ..
وَنَوْدِيَ : أَقْرَأُ ، تَعَالَى اللَّهُ قَائِلُهَا
لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قَيَّلَتْ لَهُ بِفَمِ

هناكَ أَذْنَ لِلرَّحْمَنِ فَامْتَلَأَتْ
أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قَدْسِيَّةِ النَّغْمِ

ثم يتحدث شوقي في القصيدة ذاتها عن «ليلة الإمراء» ، فيخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً :

أَسْرَىٰ بِكَ اللَّهُ لِبْلَا إِذْ مَلَائِكَهُ
وَالرَّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ عَلَى قَدَمِهِ .
جُبْتَ السَّمَاوَاتِ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ
عَلَىٰ مُنَورَةِ دَرِيَّةِ الْلَّجْمِ ..
مَشِيَّةُ الْخَالِقِ الْبَارِيِّ وَصَنْعُتُهُ
وَقَدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشَّكِّ وَالْأَثْمَمِ
حَتَّىٰ بَلَغَتْ سَمَاءً لَا يُطَارُ لَهَا
عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يَسْعَىٰ عَلَى قَدَمٍ
وَقَيْلَ كُلِّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَتْبَتِهِ
وَبِيَا مُحَمَّدًا ، هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمْ !

وفي قصيدة « ذكرى المولد » أكثر من آية شعرية على لانه للدين ولتعاليمه ، واستجابته لحكم الله عز وجل :

فَلِمْ أَرَّ غَيْرَ حُكْمَ اللَّهِ حُكْمًا
وَلَمْ أَرَّ دُونَ بَابَ اللَّهِ بَابًا ..

وإنَّ البرَّ خيرٌ في حياةٍ
وأبقىَ بعد صاحبه ثواباً..

وفي قصيدة «ولد المهدى» آياتٌ أخرى ، تدل على عمق الإيمان لدى شوقي ،
فإسلام في نظره :

دينٌ يشيد آيةٌ في آيةٍ
لبنائهِ السورات والأضواءُ
الحقُّ فيه هو الأساسُ ، وكيف لا
والله جلَّ جلاله البناةُ ؟

إلى أن يقول في النظام الإسلامي ، مخاطباً الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم :

فرسمت بعذرك للعباد حكومةٌ
لا سوقَةٌ فيها ولا امرأةٌ
اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحدهُ
والناس تحت لوانها أكفاءٌ
والدينُ يُسرُّ والخلافةُ بيعةٌ
والامرُ شُوريٌّ ، والحقوقُ قضاءٌ
الاشتراكيون أنت إمامهم
لولا دعاوى القومِ والغلواءِ ..

أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغُنْيِ
 فَالْكُلُّ فِي حَقٍّ الْحَيَاةِ سَوَاءٌ
 فَلَوْ أَنَّ اِنْسَانًا تَخِيرَ مَلَّةً
 مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفَقْرَاءُ

شاعر الأخلاق

ولا ريب في أن ولاء شوفي لمصر والعروبة والإسلام ، لم يجعله منعزلا عن غير مصر ، من بلاد العروبة ، ولا عن غير الغربة ، من البلد الأجنبية ، ولا عن غير الإسلام ، من الأديان السماوية .

ذلك أن شوفي هو شاعر الإنسانية ، بمعناها الشامل الواسع ؛ ونکاد لا نبالغ إذا قررنا ، في هذا الصدد ، أن الإنسانية والأخلاق ، في عرف شوفي توأمان لا يفتران ، وأن الدنيا إذا شاعت الأخلاق فيها ، أصبحت في مثل غنى عن الأنظمة والقوانين والشرع ؛ ففي قصidته « ولد المدى » التي أثبتنا ، منذ قليل ، بعض أبياتها ، يخاطب محمدًا الرسول الذي قال : « إنما بعثت لأتتم مكارم الأخلاق » :

يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهُوِي الْعُلَا
 مِنْهَا ، وَمَا يَتَعْشَقُ الْكُبْرَاءُ
 لَوْ لَمْ نُقْمِ دِينًا ، لَقَامَتْ وَحْدَهَا
 دُنْيَا تَضيئُ بِنُورِهِ الْآنَاءُ

ثم إن شوقي هو صاحب البيت الشهير :

وإنما الأُممُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فإن هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

وصاحب البيت القائل :

وليسَ بِعَامِرٍ بُنِيَانَ قَوْمٍ

إِذَا أَخْلَاقُهُمْ كَانَتْ خَرَابًا

وشوقي يعتبر أن بناء الوطن لا يغدو عامراً إذا أصيب الخلق بالوهي والوهن ، لأن الوهي والوهن يصييان ، إذ ذاك ، أسس البنيان :

وإِذَا مَا أَصَابَ بُنِيَانَ قَوْمٍ

وَهِيُّ خُلُقٌ، فَإِنَّهُ وَهِيُّ أَسٌّ

والأخلاق ، عنده ، هي التي تحقق المهابة ، وإلا فإنها تصيب أركان كل بناء بالاضطراب والخراب :

وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ سُوَادٌ حَصْنٌ

إِذَا مَا الضُّرُّ مَسَّهُمْ وَنَابَا

بَنِيتْ لَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ رَكْنًا

فخافوا الركن ، فانهدم اضطرابا

وكان جنابهم فيها مهيباً

وللأخلاق أَجْدَرُ أَنْ تُهابَا ! !

ولعلَّ موقف شوقي من الأخلاق ، ودعوته إلى الاعتصام بعروتها الوثقى ،
يتجسد في هذين البيتين :

صلاحُ أمرك للأخلاق مرجعهُ
فقومٌ النفس بالأخلاق تستقيم
والنفسُ من خيرها في خير عافيةٍ
والنفسُ من شرّها في مرتع وخمٍ

التجارة بالأديان

فإذا لم يشوق شهواناً في المثل الخلقة أو الوطنية أو الدينية ، فإنه يعلنها ثورة هو جاء لا تُبقي ولا تذر . لقد نظر إلى الغربيين الذين راحوا يدعون تمدين الشعوب ، باسم الطائفية ، محاولين تفرقه العرب بل الشرق كله إلى مسلمين ونصارى ، فإذا به يقف متقدداً بتجهيز الديانة ، في خطابه للسيد المسيح ، رسول الرحمة والتسامح والسلام ، فيقول :

عيسيٌّ ، سبilk رحمةً ومحبةً
في العالمين ، وعصمةً وسلامً
ما كنتَ سفّاك الدماء ، ولا امرأً
هان الضعاف عليه والأيتامُ
يا حامل الآلام عن هذا الورى
كثرت عليه باسمك الآلامُ
أنت الذي جعل العباد جميعهم
رحماً ، وباسمك تقطع الأرحام ..

واليَوْمُ يهتفُ بالصَّلِيبِ عصائبُ
 هُم لِلإِلَهِ ورُوحُهُ ظُلَامٌ ،
 خلطوا صَلِيبَكَ وَالخنَاجِرَ وَالْمَدِي
 كُلُّ أَدَاءً لِلأَذِي وَحَمَامُ
 أَوْمَا تراهمْ ذَبَحُوا جِيرَانَهُمْ
 بَيْنَ الْبَيْوتِ كَأَنَّهُمْ أَغْنَامُ
 كُمْ مَرْضِعٍ فِي حَجَرٍ نَعْمَتِهِ غَدَا
 وَلَهُ عَلَى حَدِّ السَّيُوفِ فِطَامٌ ..

إلى أن يقول هذا البيت الذي يجري مجرى الحكم :

إِنَّ الْغُرُورَ إِذَا تَمَلَّكَ أُمَّةً

كَالْزَّهْرَ يُخْفِي الْمَوْتَ ، وَهُوَ زَوَّامٌ

شاعر الحكمة

لقد كان شوفي شاعر الانسانية بكل معانيها ، شاعرآً يتالم فبرئي ويأمل فينشر قوافيءه بشائر سعادة ، وأغار يد نشوة ، ونحن لم نقرأ للشاعر ، قبل شوفي أو بعده ، عدداً يماض عدد قصائده التي نظمها في مناسبات ، بعضها مفعم بالأمل ، وبعضها الآخر يمتلىء بالألم ، رثاء لأحبائه الذين استوعب البكاء عليهم الجزء الثالث بكماله من « الشوقيات » .

ولإنسانية شوفي تتجل فيما نثره هنا وهناك من الحكمـة الرائعة التي جامت نتيجة عقل نير ، وعاطفة مستمرة ، وتجربة عميقة في الحياة ، ومن فيها ، وما

فيها ؟ أليس هو القائل :

وَمَا نِيلُ الْمُطَالِبِ بِالْتَّمَنِي
وَلَكُنْ تُؤْخَذُ الذِّيَا غُلَابًا
وَمَا اسْتَعْصَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنَالٌ
إِذَا إِلْقَادَمْ كَانَ لَهُمْ رِكَابًا

ولعل أوضح صورة يمكن لشاعر أن يرسمها عن نفسه ، هذه الصورة التي بدا فيها شوقي ، في رثائه لحرجي زيدان ، مؤسس الهلال ، اللبناني الأصيل ، وكأنه يرثي نفسه :

لِي دُولَةُ الشِّعْرِ ، دُونَ الْعَصْرِ ، وَائِلَةُ
مَفَارِخِي بَيْنَ حِكْمَيِ فِيهَا وَأَمْثَالِي
إِنْ تَمَشِّ لِلْخَيْرِ أَوْ لِلشَّرِّ بِي قَدْمٌ
أَشْمَرُ الدَّيْلُ أَوْ أَعْشَرُ بَأْذِيَالِي
وَإِنْ لَقِيتُ ابْنَ أَنْشَىٰ لِي عَلَيْهِ يَدٌ
جَحَدْتُ فِي جَنْبِ فَضْلِ اللَّهِ أَفْضَالِي
أَلِي أَنْ يَقُولُ :

وَمَا عَلِمْتُ رَفِيقًا غَيْرَ مُؤْمِنٍ
كَالْمَوْتِ لِلْمَرءِ فِي حَلٌّ وَتَرْحَالٍ
أَرْحَتَ بِالْكَمَلَةِ مِنْ دُنْيَا بِلَا خُلُقٍ
أَلِيْسَ فِي الْمَوْتِ أَقْصَىٰ رَاحَةِ الْبَالِ ؟

ولقد مات شوقي ، وبلغ أقصى راحة البال ، كما يقول .

أغمض عينيه على النظرة الأخيرة إلى الدنيا الفانية حوالي الساعة الثانية من ليلة ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٢ ، ليترك في كل عينِ أحبتَه دمعة ، وفي كل قلب أرقصته قوا فيه ألمًا وحزنًا .
مات ولسان حاله يقول :

والمجدُ في الدُّنيا لَأَوَّلِ مبْتَنٍ
ولِمَن يُشَيدُ بعده، فَيُطْبَلُ

ومثلماً أجمعَت الأمة العربية على مبايعة شوقي أميرًا للشعر ، أجمعَت باللسنة شعرائها وأدبائها ، على تكريم الشاعر العقري الذي قال ، عن نفسه ، صادقًا ، يوم مبايعته بإمارة الشعر :

كَانْ شَعْرِيْ الغَنَاءِ فِي فَرَحِ الشَّرِّ
قِّ ، وَكَانَ الْعَزَاءِ فِي أَحْزَانِهِ

شاعر يرلي شاعرًا

ولقد كانت وفاة شوقي حزنًا ، لم يكن شعر شوقي فيه عزاءً؛ إلا أنَّ أبلغ عزاءً في حزن شوقي ، تمثل في قصيدة الأخطلل الصغير بشارة عبدالله الحوربي ، وقد قال فيها :

قف في ربِّيِّ الْخَلْدِ وَاهْتَفْ بِاسْمِ شَاعِرِهِ
فَسَلَدَرَةُ الْمُنْتَهِيِّ أَدْنَى مَنْسَابِهِ
وَامْسَحْ جَبِينَكَ بِالْكُنْ الَّذِي انْبَلَجَتْ
أَشْعَعَةُ الْوَحْيِ شِعْرًا مِنْ مَنَابِرِهِ

إِلَهُ الشِّعْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ
وَرَبَّةُ النَّثْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَاسِرِهِ
وَالْحُورُ قَصَّتْ شَعُورًا مِنْ غَدَائِرِهَا
وَأَرْسَلَتْهَا بَدِيلًا مِنْ سَتَائِرِهِ
أَتَرَابُ مَرِيمٍ تَلَهُو فِي خَمَائِلِهِ ،
وَرَهْطُ جَبْرِيلٍ يَجْبُو فِي مَقَاصِرِهِ
وَالْمَلَهُمَونَ بَنُو « هُومِيرٍ » مَا تَرَكُوا
لَمَّا أَهَلَّ لَهُمْ سَجْعًا لَطَائِرِهِ
قَالَ الْمَلَائِكُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَيْلٌ لَهُمْ :
هَذَا هُوَ الشَّرْقُ ، هَذَا ضَوْءُ نَاظِرِهِ
هَذَا الَّذِي نَظَمَ الْأَرْوَاحَ فَانْتَظَمَتْ
عَقْدًا مِنَ الْحُبِّ ، سَلَكَ مِنْ خَوَاطِرِهِ
هَذَا الَّذِي رَفَعَ الْأَهْرَامَ مِنْ أَدْبِ
وَكَانَ فِي تَاجِهَا أَغْلِي جَوَاهِرِهِ
هَذَا الَّذِي لَمَسَ الْآلَامَ فَابْتَسَمَتْ
جَرَاحَهَا ، ثُمَّ ذَابَتْ فِي مَحَاجِرِهِ
كَمْ فِي ثُغُورِ الْعَذَارِيِّ مِنْ بُوارِقِهِ
وَفِي جَفُونِ الْبَتَّامِيِّ مِنْ مَوَاطِرِهِ

سل جنة الخلد كم ودَتْ أَزاهِرها
لو استحالَتْ عبِيرًا في مجامِرِهِ
وصادَح الطَّيْرَ لو سَالَتْ حناجِرُهَا
مع الصَّبَاحِ نَشِيدًا في مزاَهِرِهِ
والزَّهْرُ لو كُنَّ أَزَرَارًا مفَضَّفَةً
على الذِّيولِ الضَّواحي في مآذِرِهِ
ما بَلَدَةٌ سَعِدَتْ بالنَّهْرِ يغمرُهَا
بكلِّ أَزَهْرٍ حالي العود، ناضِرِهِ
بِالبلبلِ التَّغْنِي في ملاعِبِهِ
وَالسُّبُلِ المُثْنِي في غدائِرِهِ
بِالْحَقْلِ ترعى به الْقُطْعَانُ هانِثَةً
وَالنَّحْلُ يرْضَعُ من ثَدَيِّ أَزاهِرِهِ
يُستَقْبِلُ الفجرَ أَهْلُوها بُغْرَتِهِ
ويُغْرِقُونَ اللَّيَالِي في سرائِرِهِ
ناموا على سُرِّ الأَعْرَاسِ وانتبهُوا
على صَبَاحٍ بَكِيًّا الطَّرْفَ، غائِرِهِ

على مَاتَمَّ من طِيرٍ ومن شجَرٍ
 خرساً كالقُبْرِ ، غَرْقِيٌّ في دِيابُرِه
 يا للرَّزْيَة .. غال النَّهَرَ غائِلَتُهُ
 وغَارٌ في لَهَوَاتِهِ من هُواجُرِه
 فلا الصَّبَاحُ ضَحْوَكٌ في شَوَاطِئِهِ
 ولا الْمَسَاءُ لَعَوبٌ في جَزَائِرِهِ
 وأَسْلَمَ الْأَزْهَرَ أَجِياداً مَنْصَرَةً
 للشُّوكِ جَفَّتْ على دَامِي أَظَافِرِهِ
 والنَّاسُ في غَمَرَةِ عَمِيَاءٍ ، لا وَتَرُ
 لِنَاشِدِيهِ ، ولا نَجْمُ لِسَامِرِهِ
 ما الخطب بالنَّهَرِ ، مُجْرِي الرَّوْحِ في بَلَدِ
 فَرَدِ رَقِيقِ حُواشِي الذِّكْرِ ، دَائِرَهُ
 كَالخطب يَذْوِي لَهُ كَوْنُ بِجُمْلَتِهِ
 إِذَا أَصَابَ الرَّدَى شَعْبًا بِشَاعِرِهِ

• • •

ما للملاعب في لبنان مقفرةً
 وللمناهل عُطلاً من حرائره

وللمآذن في الفيحة كاسفةٌ
 كخاشع السُّرُو في داجي مقابرِه
 وللأصائل والأسحار أثخنَهَا
 عاتٍ من الريح إرهاقاً بحافريه
 وللجدائل آنَاتٌ مجرحةٌ ،
 كأنَّها حَمْلٌ في كَفٍ ناجِرهِ
 وللنَّدى في الثَّرى جَهْشٌ ووسْوَةٌ
 كأنَّها هَمَسَاتٌ في ضمائرِهِ
 أوَدِي القرَيْضُ فلِلأَحْزَانِ مَا لَبِسَتْ
 على سليل الدَّرَاري من عباقرِهِ

* * *

«شوقى» ، أتذكر إذ «عالیه» موعدنا
 نمنا وما نسام دَهْرٌ عن مقادره (١)

(١) في هذا المقطع يشير الأختلط الصغير إلى حادثة وقعت لأحمد شوقي ، أثناء انتقاله إلى «عالیه» في لبنان ، وقد روى لنا الأختلط الصغير تلك الحادثة ، وأخبرنا أن شوقي ، بعد أن أصيب بالحادثة واستدعي الطبيب لمعالجته على وجه السرعة ، قال للأختلط الصغير : «كنت رئيسي ، يا أبي عبد الله ! » ، فجاء جواب الأختلط ، في تأيین شوقي : « خذه من كبدِي ... » .

وأنت تحت يد الآسي ورأفتـه
 وبين كل ضعيف القلب خائرـه
 ولا بتسامتك الصفراء رجـتها
 كالنـجم خلف رقيقـ من ستائرـه
 ونحن حولك عـكـافـ على صـنمـ
 في الجـاهـلـية ، ماضـي البـطـشـ قـاهـرهـ؟
 سـالـتـنـيـهـ رـثـاءـ ، خـذـهـ مـنـ كـبـديـ
 لا يـؤـخـذـ الشـيءـ إـلـاـ مـنـ مـصـادـرهـ

• • •

تـغـربـ الـحـسـنـ وـالـاحـسـانـ فـالـتـمـساـ
 وجـهـاـ مـنـ الـأـرـضـ هـشـاشـاـ لـزـائـرـهـ
 لا يـسـتـوـيـ المـجـدـ إـلـاـ فـيـ مـفـارـقـهـ ،
 وـلاـ يـصـفـقـ إـلـاـ فـيـ ضـفـائـرـهـ ،
 ما غـادـرـاـ بلدـاـ إـلـاـ إـلـىـ بلدـ
 وـالـحرـ يـلـهـبـ مـنـ خـدـيـ مـسـامـرهـ
 حـتـىـ أـطـلـاـ عـلـىـ مـصـرـ فـرـاعـهـماـ
 ما زـخـرـفـ النـيلـ مـنـ إـبـداـعـ سـاحـرهـ

فَأَلْقَيَا بِعَصَا الترْحَالِ ، وَاعْتَصَمَا
بِضَفَّتِيهِ ، وَهَامَا فِي حَوَاضِرِهِ !

فَاطَّعُمُ الْجُودُ مِنْ كَفَّيْ مَسَاوِرِهِ
وَاسْرِبُ الْحُسْنَ مِنْ عَيْنَيْ جَاذِرِهِ

يَا مَصْرُ مَا انْفَتَحَتْ عَيْنُ عَلَى حَسْنٍ
إِلَّا وَأَطْلَعَتِ الْأَفْلَأَ مِنْ نَظَائِرِهِ

وَلَا تَفْتَقَدَ الْأَفْكَارُ عَنْ أَدْبِ
إِلَّا وَأَنْبَتَ رَوْضَأَ مِنْ بُواكِرِهِ

لُبْنَانُ، يَا مَصْرَ، مَصْرُ فِي مَطَامِحِهِ
كَمَا عَلِمْتَ، وَمَصْرُ فِي مَفَالِخِهِ

هَلْ كَانَ قَلْبُكِ إِلَّا فِي جَوَانِحِهِ
أَوْ كَانَ دَمْعُكِ إِلَّا فِي مَحَاجِرِهِ

أَوْ كَانَ مَنْبَتُ مَصْرِ غَيْرَ مَنْبَتِهِ
أَوْ كَانَ شَاعِرُ مَصْرِ غَيْرَ شَاعِرِهِ

قِيشَارَةُ النَّبْلِيِّ كَمْ غَنِيَتِ قَافِيَّةً
فِي مَسْمَعِ الدَّهْرِ مَسْرَاهَا وَخَاطِرِهِ

لو عاد فرعون كانت من ذخائره أو ختم الخلد كانت في خناصره^(١)

* * *

ولا ريب عندنا أن شوقي ترك فراغاً كبيراً في الأدب العربي المعاصر ، إلا أن الرجل وفى قسطه للعلى ، ونام قرير العين ، مطمئن البال ، يُغضي على النقد ، بعد موته ، كما أغضى عنه في حياته ، مؤمناً بأنه لو لم يكن في مقام رفيع من الشعر والفكر ، لما أثار حول شاعريته خلافات ابتدأت ولم تنته حتى الآن .

ولسوف تشهد الأجيال القادمة في شعر أحمد شوقي ، كما شهدنا نحن ، ألواناً وضروباً من الفن الشعري الممتاز الذي يستأثر بالاهتمام ، نظراً لامكانياته الأدبية السامية التي يختلها أحمد شوقي . رحمة الله ، في تاريخ الأدب العربي المعاصر .

(١) راجع «شعر الأخطل الصغير» لبشرة عبدالله المخوري - دار المعارف بلبنان - صفحة ١٧٧ وما بعدها طبعة ١٩٦١ .

مراجع الكتاب

- | | |
|--|--|
| لأحمد شوقي | ١ - الشوقيات |
| للدكتور شوقي ضيف | ٢ - شوقي شاعر العصر الحديث |
| للأمير شكيب ارسلان | ٣ - شوقي أو صداقه أربعين سنة |
| ذكرى الشاعرين : شاعر النيل و أمير الشعراء لأحمد عبيد | ٤ - ذكرى الشاعرين : شاعر النيل و أمير الشعراء لأحمد عبيد |
| مجلة «الحلال» : بجموعات ١٩٢٥ و ١٩٢٦ و ١٩٢٩ و ١٩٦٥ | ٥ - مجلة «الحلال» : بجموعات ١٩٢٥ و ١٩٢٦ و ١٩٢٩ و ١٩٦٥ و ١٩٦٧ |
| لأحمد شوقي | ٦ - أسواق الذهب |
| لأحمد شوقي | ٧ - مجنون ليلي |
| لأحمد عبد الوهاب أبو العز | ٨ - اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء |
| لعباس محمود العقاد | ٩ - ساعات بين الكتب |
| لمحمد حامد شوكت | ١٠ - المسرحية من شعر شوقي |
| لصطفى لطفي المنفلوطى | ١١ - مختارات المنفلوطى |
| لعباس محمود العقاد | ١٢ - شعراً مصر وبياته في الجيل الماضي |
| للدكتور طه حسين | ١٣ - حافظ وشويقى |
| للدكتور طه حسين | ١٤ - حديث الأربعاء - ج ٣ |
| لفوزي عطوي | ١٥ - الأعلام والفنون الأدبية |
| لمحمد خورشيد | ١٦ - أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ |
| للعقاد والمازني | ١٧ - الديوان - الحلقة الأولى |
| ليمخائيل نعيمة | ١٨ - الغربال |
| لأحمد شوقي | ١٩ - مصر كليوباترا |
| لأدب حنا الفاخوري | ٢٠ - الجديد في الأدب العربي |
| لبشاره عبد الله الخوري | ٢١ - شعر الأخطل الصغير |
| لعبد اللطيف شراره | ٢٢ - شوقي |

شوقى يؤرخ نفسه

عندما صدرت الطبعة الأولى من «الشوقيات» وضع أحمد شوقي مقدمة مطولة لديوانه بحث فيها مختلف جوانب شاعريته ، ، وسائل شؤون نفسه في مطلع حياته الأدبية ، ولما كان الملاحظ أن طبعات «الشوقيات» الصادرة بعد عام ١٩١١ أصبحت تخلو تماماً من أية إشارة إلى تلك المقدمة — الوثيقة ، فقد رأينا إدراجها في الصفحات التالية ، متوكلاً من ذلك أمرين : أولهما إلقاء القارئ على شوقي ، وهو يرى نفسه في مرآة نفسه ، وثانيهما تعريف القارئ بأسلوب شوقي في الكتابة النثرية التي أشرنا ، أكثر من مرة ، في هذا الكتاب ، إلى أنها دون منزلة قصائد أمير الشعراء ، من حيث القيمة الفنية .

كتب أمير الشعراء :

الحمد لله الذي علم البيان . وجعله أثراً من روحه عند الإنسان . والصلة والسلام على نبي الأمة . القائل إن من الشعر حكمة .

أما بعد . فما زال لواء الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم . وما برح نظمه حبيباً إلى علمائهم وحكمةهم . يمارسونه حق المراس . ويبنون كل بيت منه على أمن أساس . موفين إجلاله حافظين خلاله . مدنين إلى الأذهان خياله .

قاله أمرؤ القيس واصفاً وحاكيأ . وضاحكاً وباكياً وناسياً وغازلا . وجادأ وهازلا . وجمع شمله بحيث تعد المنظومة الواحدة له أثراً في البيان مستقداً وبنياناً قائماً برأسه .

ونظمه أبو فراس فخرًا عالياً . ونسيباً غالياً . وحكماً باهرة ، وأمثالاً سائرة . لكنه لم يقله فوضى ولا قرب في نظمه الخلط فإن قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

أراك عصيَ الدفع شيمتك الصبر أَمَا لِهُوَ نَبِيٌّ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرٌ
ليست إلا عقداً توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه . تعافت فيه
ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية . فإذا فرغت من قراءتها
فكأنك قد قرأت أحسن رواية : وهذا وكونها أشبه شيء بالشعر في شعور
الأنفس هما سبقاً ممتلئة إلى الأبد .

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعي تجارب الحياة في منظمه
ويشرح حالات النفس ويقاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيده :
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحاب ليس تنظم البلاد
وقابل بين هذا البيت ، وبين قول أبي فراس :

وكان أبو العتاهية ينشيء عبارة وموعظة . وحكمة باللغة موقظة وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرجع اليه كذلك في الوعظ والارشاد والتحذير من الرذائل ، والإغراء بالفضائل .

وكان الشافعي رحمة الله وهو القائل :
ولولا الشعر بالعلماء يزري لكت اليوم أشعر من لم يلد
تتحجري ألفاظه بالشعر وله مقاطعيم مختارة . وحكم في الناس سيارة . وحسبك

أن الطبع جميعه لو جمع لما خرج عن البيتين المسؤولين إليه وهم :
ثلاث هن مملكة الأنام وداعية الصحيح إلى السقام
دوام مدامه ، ودوام وطء ودخول الطعام على الطعام
ولو انفسح لهؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان وشهدوا عصر البخار
كما نشاهده . و CABDOA الدهر في الهرم مثلما نكابده . لامتلأت الصدور
من محفوظ أشعارهم ولضاقت المطابع على تنافسها عن نشر آثارهم .
قدمنا هذا ليعلم به فريق يحتقرن الشعر وآخرون منا عشر الشبان يضمرون
للعربي منه عداوة من جهل الشيء ويرون بينه وبين الشعر الافتريجي بعد ما بين
المشرق والمغرب ناسين أن العرب أمة قد خلت ودولة تولت فلا ينبغي أن
يؤخذوا إلا بما تركوا وأن المسؤول عن خروجه بعدهم إنما هو الخلف المفرط
والوارث المتلاطف .

اشتغل بالشعر فريق من فحول الشعراء جنوا عليه وظلموا قرائحهم النادرة
وحرموا الأقوام من بعدهم . فمنهم من خرج من قضاء الفكر والخيال ودخل
في مضيق اللفظ والصناعة . وبعضهم آثر طلمات انكفة والتعقيد على نور
الإباهة والسهولة . ووقف آخرون بالقربيض عند القول المأثور «القديم على
قدمه» فوصفو النوق على غير ما عهدها العرب وأتوا المنازل من غير
أبوائها ودخلوا البيداء على سراب . وانعم فريق في بحار الشابيه حتى
تشابه عليهم اللجاج ثم خرجوا منها بالبلل . وزعمت عصبة أن أحسن
الشعر ما كان في واد الحقيقة في واد ، فكلما كان بعيداً عن الواقع ، منحرفاً
عن المحسوس ، مجانباً للمحتمل . كان أدنى في اعتقادهم إلى الخيال .
وأجمع للجلال والجمال . حتى نشأ عن ذلك الإغراء الثقيل على النفوس
والغلو الغيبي إلى العقول السليمة .

على أن الكل قد مارسوا الشعر فناً على حدة . واتخذوه حرفة وتعاطوه
تجارة إذا شاء الملوك ربحت وإذا شاعوا خسرت . ثم لم يكتفهم ذلك حتى
هجوا الشعر وذموه بكل لسان فزعموا مجلبة الشقاء وقالوا انه محسوب على
الشعراء يفيف من أرزاقهم وينتحت من قلوبهم ويعرضهم لإراقة ماء الوجه
ولقد والله زعموا صدقأً وقالوا حقاً وإن هذا لجزاء قوم يتوقعون أرزاقهم

من ملوك كرام يخلقهم الله لرواج حرفتهم فإذا لم يخلقوا كسدت الحرفة وأخطأت الأرزاق على أنه يستثنى من هؤلاء قليل لا يذكر في جنب الفائدة الصائعة بضياع الشعر مدحّاً في الملوك والأمراء . وبناء على الرؤساء والكباراء . وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتدى في شعر الأمم . كابن الأحنف مرسل الشعر كبيباً في الهوى ورسائل، ومتخذنه رسلاً في الغرام ووسائل . وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومحجون ليلاها . وواصف بداعها وحالها . وكالبهاء زهير سيد من ضاحك في القول وبكي . وأفصح من عتب على الأ جهة واشتكى . وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعزّزهم ألف ناثر على أن يخلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثر في سهولته لا نصرفوا عنه وهو كما هو .

ولا أرى بدأً من استثناء المتنبي مع علمي أنه المداح الممجاء . لأن معجزه لا يزال يرفع الشعر ويعليه . ويغري الناس به فيجدده وينحيه . وحسبك أن المشتغلين بالقرىض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا ينتظرون إلا إلى غباره ولا يجدون المدى إلا على مناره . ويتنمى أحدهم لو أتيح له مددوح كمدوحه ليمدحه مثل مدحه أو لو وقع له كافوره ليهجوه مثل هجائه . فمثل أبي الطيب في تشبه الشعراء به وسعفهم لبلوغ شاؤه في المدح أو المهجو كمثل قائد مشهور الأيام . معروف بالحزم والإقدام . قد أشربته قلوب الجندي وملئت نقوسهم ثقة منه ، فلو قذف بهم في مهافي الملائكة وهم يعلمون لما جنوا ولا أحجموا . هذا مع اعترافي بأن المتنبي صاحب اللواء . والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء . ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لأجلته إجلال الأنبياء .

والحاصل أن إنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئه يجعل عنها ويثير الشعراء منها . إلا أن هناك ملكاً كبيراً ما خلقوا إلا ليتعلموا بمدحه ويتفنوا بوصفه ذاهبين فيه كل مذهب آخردين منه بكل نصيب وهذا الملك هو الكون ، فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى ، يقلب إحدى عينيه

في الدر ويخيل أخرى في الدرى . يأسر الطير ويطلقه . ويكلم الجمامد وينطقه . ويقف على النبات وقفه الطل . ويمر بالعراء مرور الوبيل . فهناك ينفع له مجال التخييل ويتسع له مكان القول ويستفيد من جهة علمًا لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسللًا في الحم . ومتجيأً من الغم . وشاغلا إذا أمل الفراغ ومؤنساً إذا تملكت الوحشة . ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه فإذا الخاطر أسرع وانقول سهل والقلم أجري والمادة أغزر بحث لا تخضى السنون حتى تداول الأيدي مؤلفاته . وإذا مات أكبر الناس من بعده مختلفاته . أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلا حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ثم يموت عن نحو مائةٍ صحيفة من الشعر تسعه أعشارها لمدحه والعشر الباقى وهو الحكمه والوصف للناس .

هذا يسأل سائل وما بالك تنهى عن خلق وتائي مثله ؟ فأجيب : إنني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجده أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها . وقصائد للأحياء يحيذون فيها حذو القدماء . والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحًا في مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد . فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها على درج الإخلاص في حب صناعتي وإتقانها بقدر الإمكاني وصونها عن الابتزال حتى وفقت بفضل الله إليها ثم طلبت العلم في أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أنني مسؤول عن تلك الحبة التي يؤتى بها الله ولا يؤتى بها سواه وإنني لا أؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراً منها التي لا تخد ولا تنفذ وإذا كنت أعتقد أن الأوهام إذا تعمكت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان . لا يطاق لقاوئه ويرخذن من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المدح من أورووبا مملوءة من جديد المعانى وحديث الأساليب بقدر الإمكاني إلى أن رفعت إلى الخديوي السابق

قصيدتي التي أقول في مطلعها :

خدعواها بقولهم حسنة والغولي يغرهن الثناء
والتي غزها في أول هذا الديوان . وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ
في الجريدة الرسمية وكان يحررها يومئذ أستاذى الشيخ عبد الكريم سلمان
فدفعت القصيدة إليه وطلب منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ
لوأسقط المدح ونشر الغزل ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر
فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد
دفعه واحدة إنما كان في محله وإنزاله معي إذا أنا استعجلت .

ثم نظمت روایتی « علي باك أو فيما هي دولة المالك » معتمداً في وضع
حوادثها على أقوال الثقة من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا وبعثت بها قبل
النمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق
فوردني منه كتاب باللغة الفرنساوية يقول في خلاله :

« أما روایتك فقد تفكك الجناب العالى بقراءتها وناقشتني في موضوع منها
وناقشته وهو يدعوك لـ بالمرىد من النجاح ويحب إلا تشغالك دروس الحقوق
التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدينة القائمة
أمامك وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقياس تستضيء به الآداب العربية »
فصادفت هذه النصيحة العالية من أمير ذكي حكيم هو في فؤاد مطوى
على طاعته نازل على حكم الشعر والأدب فترجمت القصيدة المسماة « بالبحيرة »
من نظم (لمرتين) وهي من آيات الفصاححة الفرنساوية . ثم أرسلتها إلى
الباشا المشار إليه في كراس وبعض كراس ليطلع عليها جناب الخديوي عليها
وإذ كنت لا أخذ لشعري مسودات رجوت أني أجد لها بعد العودة إلى
مصر ثم عدت دون ذلك عواد .

وجريدة خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لا فونتين) الشهير وفي
هذه المجموعة شيء من ذلك فكنت إذا فرغت من وضع إسطورتين أو ثلاث

اجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره وأنا أستبشر بذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراe للأطفال في البلاد المتقدمة منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم .

والخلاصة أني كنت ولا أزال ألوi في الشعر عن كل مطلب . وأذهب من فضائه الواسع كل مذهب . وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المزن على الأدب . والمؤلف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأممية . على أني لا أستصعب في مصر اليوم صعباً بعدهما علمت أن كثيراً من المخدرات في العاصمة أصبحن يرببن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافذ وأن إحداهم طردت خادماً لها أرسلته يشتري نسخة من جريدة فأبطأ مع علمه بأن مولاته لا تستطيع صبراً عن أخبار الحرب الترسفالية . إذا فالواجب على الكتاب ورجال الصحافة في أو لهم أن يبيّنوا أسباب النجاح لهذا الميل الحادث وعلى الأدباء والشعراء أن يعرضوا فاكهتهم على النساء مثل الرجال حتى تصبح جنات قرائحهم فيها من كل فاكهة زوجان .

بقي استدراك لا بد من ايراده وذلك أن بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم أن الناشر لا ينشر كذلك ولا ينبغي له ، وهذا وهم يداني اليقين عندهم وقد جاوز الشعراء في الانخداع به حداً أضر بهم مع أنه يكفي للخروج منه أن نعلم أن أكثر ما أعجز به أدباء الإفرنج اليوم في القصص والإنشاء وما يمثل على أكبر ملاعبيهم وتتدوا له ألسنتهم من مرسل الكلم ومنتور الحكم وما كتب في هذا القرن والذي قبله في الفلسفة العليا والسياسة الكبرى إنما هو من قلم مشاهير الشعراء حتى لتسمع عن أحدهم أنه مات عن عشرات من المؤلفات ثم ترى المنظوم منها أقلها بل إن بعضهم يقدم «الأشقياء»^(١) وهو كتاب لفكتور

(١) يقصد به «البؤساء» ، ويستثنى مراجعة تعرّينا لكتاب «البؤساء» في عدد منشورات الشركة اللبنانيّة للكتاب - طبعة ١٩٦٧ .

هوجو على سائر مؤلفاته وفيها الشعر كما يرون «اعتراف ابن العصر» لأنفريه دي موسيه أجمل أثر له بين كثير من الآثار وفيها الروايات المنظومة والأشعار وكل أشعارهن مطبوع لم يختلف في سليقته اثنان.

على أني كنت أول من انقاد بأزمة هذا الوهم وطالما أوذيت به فكنت إذا عرضت لي كتابة أشتفق منها وأجفل عنها فصرت مثل كمثل الشاعر الفرنسي الذي يحكي عنه أنه لما رأى أهل باريز يبالغون في الحفاوة به ويكترون من دعوته إلى موائدتهم ومجالسهم ليسعوا حديثه على ظن أنه يقول ما لا يقوله الناس بلغ به الاحتراس منهم إلى أن كان إذا دعي إلى وليمة حضر القوم على المائدة فأكل صامتاً ثم انصرف وال القوم لم يفرغوا من الطعام فقيل له في ذلك . فقال له : أنا على المائدة كأحدكم فإذا جلست إزاء مكتبي فتصوروني كيف شتم .

أما كون الناثر لا ينظم إلا إذا كان حاصلاً على هذه الملائكة الموهوبة فحقيقة لا مشاحة فيها وإن لم يكن بذلك عار على الكاتب بل العين الفاحش والحسران المبين أن تضيع حياة الكثيرين من الكتاب والعلماء وليس بقليله الثمن في محاولة المحال والتسادي في مثل هذا الضلال. على أن الشعر ليس من حاجيات العمران المادي الذي تتوقف عليه سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولكنـه من كماليات العمران الأدبي الذي تسام النفس عنده الحقيقة المجددة . والمادة المجردة . وتميل في بعض أوقاتها إلى التنقل بشعورها من عالم إلى آخر ، ومن فضاء إلى سواه ولعل هذه هي الحكمة في كون الشعراء قليلاً عديداً هم في كل زمان ومكان لا تعطى الأمم منهم إلا بقدر حاجتها إليهم وما يحمل إبراده في هذا المقام أنه بدا لأحد الإنكليز أن تكون عنده مجموعة فيها من كل شاعر عصري شيء من نظمه بخطه فجعل يطوف بها على مشاهير الشعراء حتى وفد على جول سيمون فقييد فرنسا وفيلسوفها المشهور فطلب منه أن يكتب شيئاً من نظمه فاعتذر الرجل بكونه ما نظم قط ولا يملك قول الشعر

فما زال الانكليزي يلع عليه حتى أخرجه وكان جول سيمون يحفظ أبياتاً للشاعر الشهير مارتين وكانت أحسن ما في منظومته التي سماها «البحيرة» فأخذ المجموعة وكتب الأبيات ثم جعل اسمه تحتها واتفق بعد ذلك أن المجموعة وقعت في يد متقدّد أدبي لبعض الصحف السيارة في باريز وكان لا يعرف الشعر ولا يدرى لمن هو فلم يكن منه إلا أن ملأ عمدة الجريدة من انتقادها ورمى جول سيمون بالدخول فيما لا يعنيه والتغافل على موائد الشعراء ثم نصح له أن يبقى فيلسوفاً كما كان ومن الفلسفة ألا يحاول الإنسان ما ليس في الإمكان أهـ.

يعلم مما تقدم جميعه أنني أرى للمشتغلين بالشعر من أبناء «الوطن العربي» أن يجمعوا في مسيرهم على الدرب بين أزواج ثلاثة لا وصول بدوتها مجتمعة .
«الأول» : ثقة الإنسان في كون الشعر في طباعه وهذا هو الشرط الأوجب وأنه لأمر يعني الآباء والأساتذة أكثر من سواه ولا ينبغي لهم أن يتصرفوا في مساق الأطفال الذين هم أمانة الله في أيديهم بمقدار ميلهم الشخصية وأفكارهم الخصوصية بل عليهم إذا آنسوا هذه الهبة عند الطفل أن يأخذوا بيده ويعينوه عليها ولو كانوا من ينظرون إلى الشعر بعين السخط لأن الله سبحانه وتعالى وهو الواهب قد رأى له ذلك وما يرى الله أفضل وإذا وجدوه دعياً في الشعر دخila من الطفولة وجب عليهم تبغيضه إليه ومانعه عن نظمه ولو كانوا من محبي الشعر ونثراته .

«والثاني» أخذ العلوم وتناول التجارب لأن الشعر لا يخرج عن كونه أخباراً وحكمة وهم لا يكونان إلا من عليم مجرب .

«الثالث» لا يجحد الشعر حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها فإن كان ولا بد من التفرغ للأدب حباً به أو طلباً للكسب فليكن الشعر هو اليقنة القعساء في عقد علومه وصاحب العلم في موكب فتوته لا ينافي تعاطيه الكتابة نثراً في جميع المطالب وضروب الموضع فإنك لا تجد الشعر وسلطانه عندئذ إلا مرشدین أمينین وذخرين ثمينین .

فمن جمع بين هذه الأدوار الثلاثة وكان عاملاً متقناً لعمله حريصاً عليه متربقاً فيه ، يخاف الله في الغرور ، وينحسأ في إيذاء خلقه . فقد انكشف له سر النجاح ، وأحرر قصب السبق في حلبة الكتاب والشعراء .

الآن أدخل في الحديث مع فريق طبوا مني أن أجعل صورتي في هذه المجموعة وآخرين رغبوا إلي في كلمة تقال عنها وعن صاحبها وألا يقولوا ما سواي معذرتني إلى الفريق الأول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل ، على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون إليها فإذا مت فليأخذوها من أهلي إذا جد بهم الحرص عليها .

وللآخرين أقول أني لا أزال في أول النشأة وأن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلىء من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأنجبارها لكنني لا أثق بيومي الآتي وأخاف بمدى رجمون الظن وضلالات الأحاديث في العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب .

سمعت أبي رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا وكان جدي وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطأً وإنشاء فأدخله الوالي في معيته ثم تداولت الأيام . وتعاقب الولاية الفخامة . وهو يتقلد المراتب العالية . ويتقلب في المناصب السامية . إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبي في سكرة الشباب ثم عاشر بعمله غير نادم ولا محروم وعشت في ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل ألا أفتات من فضلات الموتى .

أما جدي لوالدتي فاسمها أسماء بنت حليم ويعرف بالمجدة لي نسبة إلى

نجدة إحدى قرى الأناضول وفد على هذه البلاد فتياً كذلك فاستخدمه والي مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمعوقته جدتي التي أرثتها في هذه المجموعة وأصلها من مورة جلبت منها أسيرة حرب لا شراء وكانت رفيعة المنزلة عند مولاهما وكان زوجها محبوباً عنده كذلك فما زالا كلاهما معهورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفى جدي وهو وكيل لخاصة الخديوي اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشًا لا إحسانًا وكان الخديوي المشار إليه يقول عنها «لم أر أعناف منه ولا أعناف من زوجته ولو لم يسمه أبي حلبياً لحلمه لسميته عفيفاً لعفته».

أنا إذاً عربي . تركي . يوناني جركسي بجذني لأبي . أصول أربعة في فرع مجتمعة . تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل . وما وزال لمصر الكنف المأمول والنائل الجzel . على أنها بلادي . وهي منشأي ومهادي . ومقبرة أجدادي . ولد لي بها أبوان ولي في ثراها أب وجدان . وببعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان .

أما ولادي فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو إلى الثلاثين ، حدثني سيد نداماء هذا العصر المرحوم (الشيخ علي الليثي) قال: لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقصص عليَّ حلمًا رآه في نومه فقلت له وأنا أمازحه: ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً في الإسلام .

ثم اتفق أنني عدت الشيخ في مرض الموت وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي يقول هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقي فوالله ما قالها قبل في الإسلام أحد. قلت: وما تملك يا مولاي؟ قال : قصيدة لك في وصف (البال) التي تقول في مطلعها :

حفَّ كأسها الحبُّ فهيَ فضةٌ ذهبٌ

وها هي في يدي أقرأها . فاستعدت بالله وقلت له : الحمد لله الذي جعل هذه هي «الخرق» ولم يضر بي الإسلام فتياً .
أخذتني جدتي لأمي من المهد وهي التي أرثتها في هذه المجموعة وكانت

منعة موسرة فكفلتني لوالدي وكانت تحنو علي فوق حنوهما وترى لي مخايل في البر مرجوة . حدثني أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل وأنا في الثالثة من عمري وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوي بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوquette على الذهب أشتغل بجمعه وألعب به فقال لحدني اصمعي معه مثل هذا فإنه لا يليث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت : هنا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي . قال : جنبي به إلي متى شئت إني آخر من ينشر الذهب في مصر أ.ه . ولا يزال هذا الارتفاع العصبي في الأ بصار يعاودني وكان المرحوم الشيخ علي الليثي كلما التقت عينه بعيني ينشد هذا المصراع للمتنبي :

« محاجر مسك ركبت فوق زئبق »

دخلت في مكتب الشيخ صالح وأنا في الرابعة وهي من أهل جنابه على وجداني أغفرها لهم ثم انتقلت منها إلى المبتديان فالتجهيزية فكنت التلميذ الثاني لهذه المدرسة وأنا في الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لي من النظارة على « المجانية » بوجه الاستثناء لا عن حاجة إليها ولكن على سبيل المكافأة ثم رأى لي أبي أن أدرس القوانين والشريع فدخلت مدرسة الحقوق وكان ناظرها المأسوف عليه « فيدال باشا » لا يرانني أهلاً لذلك بالسن فما زال أستاذي وصديقي المذهب يحيى بك ابراهيم وكيل المدرسة يومئذ يؤيدني عند رئيسه إلى أن قبلت ثم لم يكفه ذلك حتى حصل لي من النظارة على مائتي قرش في الشهر فدرست الحقوق ستين ثم ارتأت الحكومة أن ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يتخرج فيه المترجمون الأكفاء فنصح لي الوكيل أن أدخل هذا القسم ففعلت ..

وأقمت به ستين ثم منحتني نظارة المعارف الشهادة النهائية في فن الترجمة وبينما أنا أتردد على المغفور له علي باشا مبارك في شأن ورد عليه مرسوم من المعية السنية بطلبي إليها فكان سره بذلك أضعاف فرحي بالنعمنة المفاجئة فذهبت

إلى السראי وهنالك استؤذن لي على المرحوم الخديوي توفيق باشا فلما
مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ولكني مدحته مراراً وأنا في المدرسة
خاطبني بهذا اللفظ الشريف «قرأت يا شوقي في الجريدة الرسمية أنك أعطيت
الشهادة النهائية و كنت أنتظر ذلك لاحقك بمعيتي لكن ليس بها الآن محل
حال فهل لك في الانتظار ريثما يهبيء الله لك الخير » فاستلمت أذياك
العزيز وقبلتها ثم قلت : حسبي يا مولاي أنك قد ذكرتني من تلقاء نفسك
الشريفة وأي خير يهبيء الله لعبدك أفضل من هذا . فأطرق هنيهة ثم قال :
قد سمعت أن أباك قد عطل من الخدمة بلغه أبي ربما دخلته في عمل قبلك ثم
تهلل وأذن لي بالانصراف .

فلبشت في المعية بضعة شهور أنتظر فرجاً يأتي به الله و كان المرحوم علي باشا
مبارك لم يقطع عن الراتب . إلى أن كان يوم كثر غيمه و تناقل مطره فخرجت
قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي وبينما أنا عائداً إلى منزلي
أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز في بهو السראי يشرف منه فنزلت عن
الدابة أمشي كرامة للملك المطل وأمرت الخادم أن يتبعها وأن يلاقيني خلف
القصر ثم مشيت على الأقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضني رسول من
الأمير يدعوني إليه فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب وكان معه ماعتنى
المرحوم الأمير عبد الرحمن باشارشدي فتحلى الحليم بصورة الغضب ثم قال أليس لي أن
أظل من بيتي حتى نزلت عن حمارك وألحاكتني إلى انتقام ؟ قلت : عفواً
يا مولاي هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم :

وإذا المطيُّ بنا بَلَغْنَ مُحَمَّداً فظهورُهُنَّ على الرجال حرامُ
فتivism صاحكاً . ثم قال : إنكم معاشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم فهذا اليوم من
أيامكم فاسمع للباشا فإن عنده لك فلأاً . فالتفت الباشا عندئذ إلي وقال : الآن
أمرني أفتدينا أن أبلغك تعين أبيك مفتشاً في الخاصة الخديوية وأما أنت
فتعين بعد شهر ثم مد العزيز إلي يده فقبلتها واجماً قد غلب علي السرور حتى
أنساني الشعر وكان ذلك وقته ثم لم يخل علي حول في الخدمة الشريفة حتى

رأى لي الخديوي أن أبلغ التأديب في أوربا فخيرني في ذلك وفيما أريده من العلوم فاخترت الحقوق لعلمي أنها تكاد تكون من الأدب وإن لا يدخل فيها لمن لا لسان له فأشار الأمير عندئذ أن أجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنساوية بقدر الإمكان ثم سافرت على نفقته فكانت أتقن ستة عشر جنبها في الشهر نصفها من المعية ونصفها من الخاصة وأعطياني يوم سفري مائة جنيه أرسل نصفها إلى مدير الإرسالية لميهيء لي جميع ما أحتاج إليه حال وصولي ودفع إلى النصف الآخر بيده الشريفة وما أنس من مكارمه رحمة الله عليه لا أنس قوله لي في ساعة الوداع « لا حاجة بلك منذ اليوم إلى هملك فلا تعنتهم بطلب النقود واعنت أباك هذا الغني » .

فركت البحر لأول مرة أوم مرسيليا ، فلما قدمتها وجدت مدير الإرسالية في انتظاري فأخبرني بأن الأمير يأمر بأن أقضى عامين في مدينة مونبلية وآخرين في باريز وكان المدير قدماً من مونبلية للقائي فعاد بي إليها على الفور وهناك قدم لي جميع ما أحتاج إليه وأدخلني مدرسة الحقوق الجامعية ثم رجع إلى العاصمة . فلما انقضت السنة الأولى التمست منولي النعم أن يأذن لي في الأولية إلى مصر لقضاء زمان العطل بين أهلي فأوقع إلى أمره أن هذا من نزق الشباب وأنه يرى لي أن أقيم أربع سنوات كاملة في أوربا وألا أضيع منها دقيقة واحدة ثم أرسل إلى خمسين جنيهاً لأنفقها في رحلته أزمعها إلى أي بلد أشاء إلا مصر وكانت الدعوات قد تولت علي من الفرنسيين ، رفقاء في المدرسة بالذهاب إلى مدنه المتفرقة في الجنوب وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هناك فقضيت نحو شهرين كنت فيهما قرير العين طيب النفس ناعم البال حيث التفت رأيت حولي مناظر رائعة ومجالي شائقة . ومعالم للحضارة في أقصى القرى شاهقة وآثاراً لدولة الرومان . تزداد حسناً على تقادم الزمان وعرفت الفلاح الفرنساوي في داره وكانت ألقاه في مزرعته وأماشيه في الأسواق فيخيل إلي أنه قد خلف العرب على قرى الضييف وإكرام الحار وكان أعجب ما رأيت مدينة « كركسون » وجدتها قسدين وألفيت

القوم عليها صنفين فمنهم الباكون إلى اليوم كما كان عليه آباؤهم في القرون الوسطى بناوئهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق الآخرون خلق جديد وشعبة كسائر شعب الأمة فيأخذهم بأشياء التمدن العصري وبالحملة كانت نتيجة هذه التقل من أجل نعم الله على وأسى أبيادي الخديوي السابق عندي .

ثم ما كدت أن أنهي من السنة الثانية حتى كتب إلى مدير الرسالة المصرية يستقدمي لباريز ويخبرني أنه ذاهب بتلامذته إلى إنكلترا لقضاء أكثر أيام العطلة فيها وإن الأمير رحمة الله أدى نفقة هذه السياحة عني فإذا رغبت فيها فبرحت مونبلية على عجل أيام باريز للمرة الأولى فأقمت بها يومين ريثما أهبت للرحلة ثم سافرنا إلى عاصمة إنكلترا فلبيتنا فيها نحو شهر نعشى من معالمها في الحضارة ونشاهد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهي إليه العظم والجلال في هذا العصر لكننا لم نلبث أن سمعناها وهذا أكبر عيوبها فخرجنا إلى بعض المداشر على بحر الشمال وهناك وجدنا راحة الخاطر وقرة الناظر وإن يكن الجو كثير التقلب غداراً في غالب الأحيان فلما كانت السنة الثالثة وهي الأولى لي في باريز أصبحت بعرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت مرض تسهر علي وتعمل بإشارتي في الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا في سكرات الحمى تقول : «أفي مثل هذا الشباب تذهبون» ثم تكفل الدمع لكن الله خيب ظنونها ومن على بالشفاء وعندي أشار على الأطباء أن أقضى أياماً تحت سماء أفرقيا على زعم أن الذي بي من الضجر والسمامة ليس إلا حنيناً إلى الوطن فوق اختياري على الجزائر فرحلت إليها مع أحد قضاياها الفرنساويين ففتحتني مرافقته وظل دليلي على المدى عاصمة المستعمرة نحو عشرين يوماً ثم برحها إلى أوران .

أما جو الجزائر فلا يعدله بين الجواب في صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه لا جنوب فرنسا . ولم أتأثر فيها كتأثيري من رؤية المصريين في القهاوي البلدية

إذ أكثر أصحابها وغلمانها منهم وكان قد بلغتهم جلوس مولانا الخديوي القائم عباس باشا على الأريكة المصرية فكانت أراهام فرحة بالبنا وأسماعهم يدعون لسموه. ولا عيب في الجزائر سوى أنها قد ساخت مسخاً فقد عهدت مساح الأحذية يستكشف من النطق بالعربية وإذا خاطبته بها لم يجرب إلا بالفرنساوية على أن حركة العمران في المدينة عجيبة وآثار التمدن الفرنسياوي بادية عليها ولكن المسلمين من أهلها لا يشاركون القوم في شيء من ذلك ولا يتهاون مترفون إلا على مضار التمدن وأسوائه فكان حظنا واحد في كل مكان.

أقمت بالجزائر أربعين يوماً أو تزيد ثم حشت الرحال عنها قافلاً إلى باريز وهناك تمت لي السنة الثالثة في الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها فرأى لي الجناب العالى أيده الله أن أقضى في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها وقد كان في الدراسة ما يشغل عن ذلك ويحول دونه ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لي الرأي العالى أيده الله فعدت إلى الوطن وأنا نصو فراق، تهزني إليه الأسواق.

وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنوية في مؤتمر المستشرقين الذي كان انعقاده في مدينة جنيف عاصمة سويسرا.

فكان خير فرصة تغتنم لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجل البديع لعروض الطبيعة فرحلت إليها وأقمت بها شهراً ثم انقض المؤتمر فبرحثها إلى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذي أقيم بمدينة انترن في ذاك العام.

ولما كانت السنة الماضية وكنت قد سنت الحضر على أثر رمد طال أمده خرجت إلى الآستانة طلباً للعافية على ضفاف السفور فأذن الله وكان ما رجوت. وعدت من عاصمة الإسلام وأنا أعتقد أن خطوات النسيم فيها تفعل في أربعين يوماً ما لا يفعله طب الأطباء في أربعين شهراً. هذه هي أيام صباي وخطوات شبابي وأوائل نشأتي أجبت عنها السائل

يعلم كيف تقضت وفيم انفقت وأين ذهبت وأنا أستغفر الله لي ولأهل بي
ولمن ينظر هذا الكتاب بعين الكرم المتجاوز أو المتقد العدل .

جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ في طلب
العلم والأمير حفظه الله في التماس الشفاء فانعقدت بيننا الإلفة ، بلا كلفة
و كنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبرى وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه
منها منشوراً في صحف مصر فتمنى أن تكون لي يوماً ما مجموعه ثم تمنى علي
إذا هي ظهرت أن أسميها الشوقيات ..

ثم انقضت تلك المدة فكانها حلم في الكري أو خلسة المختلس أو هي كما
قللت :

صحيتُ شكيبياً برها لم يغز بها سواي ، على أنَّ الصحاب كثيرٌ
حرست عليها آنة ثم آنة ، كماضنَ بالماضي الكبير
فلما تساقينا الوفاء وتمَّ لي ودادُ على كل الوداد أميرٌ
تغرق جسми في البلاد وجسمه ولم يتغرق خاطرٌ وضميرٌ
هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لاتخالف ودفعت اليه طاعة واجبة
وأنا بين هاتين هدف للقالَ والقولِ . يظن بي نسبة الأثر الضليل . إلى الاسم
القليل .

كانت وفاة والدي من نحو ثلث سنوات فكان لي عجبًا أن وجدت بين
أوراقه شيئاً كثيراً من مشتت منظومي ومتلورى ما نشر منها وما لم ينشر قد
كتب بعضه بالخبر وبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد
لده في ورقة كتب عليها هذه العبارة « هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي
أحمد وهو يطلب العلم في أوروبا ذكرت كأني أراه . واني أمره أن يجمعه
ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدي من يعني بشؤونه وربما لم يجد بعد ، من
بعده ، من يعني بالشعر والآداب » فيبينما أنا ذات يوم تعجب بهذه الأوراق
حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي مصطفى بك رفعت
فحديثه . حديثي فسألني أن أغيره الأوراق أيامًا ثم يعيدها إلي ففعلت ثم

لم يمض شهر حتى بعث بها إلى وإذا هي قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح . بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى المطابع فأخذتها وبوادي لو وفيت صديقي المشار إليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول في نفسي : لئن صدق أبي في الأولى لقد ظلم في الثانية فإن الخير لا يزال في الناس .

على أن ما جمع في «الشوقيات» ثم طبع ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن في الزمن الأخير فاما ما أسقط عمداً فاكتُرَه من قولي في زمن الصبا الذي لا يؤمن فيه على المرء الغرور . ولا يسلك الفن فيه سبيلاً إلا وهو مضلل عنور . وقد خشيت أن يقع مثل ذلك في أيدي الناشطة فأسأل عن سوء وقوعه ويكون أمهأ أكبر من نفعه لكنني حرصت على إثبات بعض الشيء منه كما يحرص الإنسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب وأما ما عثرت عليه والمجموعة في أيدي الطباع فلم يكن في الوسع أخذه لثلا يختلط الكتاب وبختل ترتيب الأبواب على أنه محفوظ لينشر في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى مع سائر القصائد التي قيلت بعد الإعلان عن الشوقيات ولم يتيسر إدخالها في أبواب هذا الجزء .

وقد عزمت بحول الله ومشيته على أن أنشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عندي من منظوم ومنتور ولو قل عدده وصغر حجمه وأن أجعل ذلك بمثابة أجزاء متالية «للشوقيات» تسمى باسمها وتكون لها متممة .

القسم الثاني

محنارات تربية مسرحية، تربية

من

أدب احمد شوقي

فَازِجٌ مِنْ تَرَهُ شَوَّافِي

لأحمد شوفي كتاب ثري ، وضعه في أثناء إقامته بمغارب في بلاد الأندلس وأسماه : «أسواق الذهب» .

ويتضمن «أسواق الذهب» خطرات سريعة سجلها أحمد شوفي ، على ما يвидوا ، في أوقات متبااعدة وظروف مختلفة ، وذلك نظراً للثبات والتبان في المواضيع التي تعاملها هذه الخطرات .

وإذا كان ثمة من رابطة توحد هذه الخطرات في كتاب ، فلكونها من بنات أفكار أمير الشعراء ، لأنها فضلاً عن ذلك ، عبارة عن نظرات إلى الحياة بما فيها من شؤون وشجون وتناقضات .

وفي هذا الفصل ثبت بعضاً من خواطر شوفي التي وردت في كتابه «أسواق الذهب» ليطلع القارئ على أسلوبه الثري ؛ كما ثبت بعضاً من رسائله الأدبية العالية التي أرفق بها بعض منظوماته الشعرية ، وبعضها موجه إلى ملوك ، أو كتاب كبار ، أو مؤرخين رفيعي الشأن في بلاده ، نظراً لما تتضمنه تلك الرسائل من جوانب أدبية لا يعرُفها قراء أحمد شوفي .

من أسوأ الذهب

الحجر الأول

من لم يُجِرْ زورقاً لم يُسِيرْ فلكاً ، ومن لم يَدْبِرْ مِنْزلاً ، لم يَسْسُسْ ملكاً :
ومن خذلته أسرته لم تأتِ من الأبعد نصرته ، ومن تفَرَّقَ عنه ولده ، لم
يَجْتَمِعْ له بِلدَه .

* * *

الخطة

أيها الراكب ، وما تأهَّبْ ، الذاهب ، في غير مذهب : مكانك ،
واحبس عنانك . إن الحياة لا تصحب سدى ، ولا تسابر على غير هدى .
هذا الشراع فأين الدفة ؟ وتلك الراحلة (١) فأين المحفة (٢) ؟
لا بدَّ مع الحياة من خطوة السبيل ، ومن نية هي ازديبل ، ومن
حقير من المقاصد أو جليل .

عزاء (٣)

أيها المقدم للقتل ، ما يدرِّيني لعلك مظلوم ، وما يدرِّيك لعلك بالقتل
مرحوم . أَجل^٤ آذن بانقضاء ، وقد دفعك إلى القضاء ، وإذا كان الأجل
لا بُدَّ منه ، والموت لا متاخر عنه ، فيدُ السجان ، أهون من براثن السرطان ،
وعضة الغل أخف من عضة السل . وهلك نجوت اليوم من الجlad الأصغر ،
فكيف النجاة من الجlad الأكبر (٤) .

(١) الراحلة : الناقة - (٢) المحفة : مركب كالمودج .

(٣) قالها شوق المحكوم عليه بالاعدام .

(٤) الجlad الأكبر : عزائيل .

العلم والبيان

إذا تعلمت فنادب ، وإذا تأدب فتعلم ، فإن فقر العلم إلى البيان ، فقر الخطيب إلى اللسان ، أو الكاتب إلى البناء ، وإن حاجة البيان إلى العلم حاجة القلم إلى الأنامل ، أو اليد إلى محرك من الحس عامل .

علم لا أدب معه ، عود بلا وتر ، وسحاب ليس فيه مطر ، وريحان غير نصر ولا عطر ، وأدب لا علم معه ، قالب ولا مبائك ، ومنوال ولا حائل (١) .

* * *

التعريب

يا أخوا اللغات : اصرف كل احسانك إلى أدب لسانك ، ثم اتبع ، إن شئت في غيره ، وعد إلى قومك بخيরه ؛ وإن أردت أن تنفع ، فكن « كابن المفعم » ، نقل محسناً ، وعرب متقدماً ، ولم يقل : « أنا » .

الغزو

أيها المسرور بمكانه ، المغورو بإمكانه ، التيه بالجاه ، المختال بالمال ، المجري خيل تحيلاته ، المجرر ذيل كبرياته ، المتنفس بالقابه وأسمائه : إليك . فالقبول ، هبة القبول (٢) وصحبة الجد (٣) لها حد ، وعادة التوفيق ، مفارقة الرفيق ، وما الأموال ، إلا الزوال ، ولا العافية إلا عارية (٤) ، وكل ولادة يوماً تموت ، سيعزل من يليها أو يموت .

(١) المراد أن العلم الذي لا أدب معه كقالب الصانع لا منفعة له إذا لم يوجد الذهب الذي يصب فيه ، أو كنسج لا يستطيع إبراز النسيج إلا إذا حركه يد النساج ، وقد ثبته العلم بالقالب والمنوال ، وشبه الأدب بالذهب والنساج .

(٢) إليك : أي « تنح » و « ارجع » . و « القبول » الأولى مصدر ، والثانية ربع الصبا .

(٣) الجد : الخط .

(٤) العارية : العطية التي لا عوض لها .

العمل

متخذ الراحة عادة ، مقضي عليه بالبلاد ، وضجيج الدعة ، وما أضيعه ، وأشأم مضجعه ؛ ومحالف البيت ، حي كيت ؛ فبا أخا اليسار ، الضياع والعقار ؛ لا تبينَ قعيد الدار . ولا تخُل بالنفس الأمارة ؛ وقم إلى مالك ؛ فأحسن استماره ، وزده إصلاحاً يزدك عمارة (١) . وبأيها الصارع (٢) لفقره ، الصاجع في عقره (٣) ، تأمل بعين الإفقة ، هل زادك القعود إلا فاقة ؟ إن باليد المتبطة لشلا ، وإن مع القدم المتuelle لذلا . قم فاحرف . ولا تعيش خبلا (٤) على قرابتك ، عيلا على صحابتك ، واعلم أن الكنان أشرف من يسأل الناس .

الغيب

المقاديرُ أعنَة ، والغيوبُ أجنة (٥) ، خلف الحجب مستكتة (٦) ، والغد لله وحده ، يعلم علمه وعلم ما بعده ، فمن كان ذا علم ، فليقف عنده ، ولا يجاوز حدَّه . ضلَّ المنجمون ، وكذب المتكهنون ، الذين يأفكون (٧) ، والذين يدعون علم ما سيكون .

(١) العمارة : ما تعمَر به اندار .

(٢) الصارع : الضعيف .

(٣) عقر الدار : وسطها .

(٤) الخبال : الخيال الفاسد .

(٥) الأجنة : جمع الجنين ، وهو المستور من كل شيء .

(٦) مستكتة : مستترة .

(٧) يأفكون : يكذبون .

من رسائل شوقي

رسالة

إلى الأستاذ مرجيليوت مدرس اللغة العربية في جامعة اكسفورد (١)

أيها الأستاذ الكريم :

تذكّرتُ «أثينا» مدينة الحكم في الدهور الحالية ، وأياماً غمناها على رسومها العافية وأطلاها البالية : فكأنني أنظر إلى المؤتمر ، علماؤه المألة ، وأنت القمر ، أو زُمَرُ الحجيج وأنت حادي الزُّمَر ، وأرى الملوك في الحفر ، بُنيانهم مصدوع الجُدُر ، وبيانهم نورُ البشر ، نزلنا بهم فإذا الدول خير ، وإذا المالك أثر ، والطلولُ شغلُ الفؤاد والبصر ، منا العبراتُ ومنها العبر ، صمت الإنسان ، ونطق الحجر ، فسبحان العزيز المقتدر ، القاهر فوق عباده بالقدر ، كان ذلك والحوادث أجنة ، والأمور في أحسن الأعنة ، والأرض بالسلم مطمئنة ، مغتبطة بسلامة الشباب ، منبسطة بتلاقي الأحباب ، والصفو في الدار والأكدار بالباب ، ثم أخذ الله الأممَ بذنوبهم فرمادهم بعونِ في الماء ، ضرَّوسٌ في الأرض والسماء ، منهومة بالأموال مدمنة للدماء ، نزلت بالبرية فعصفت بأحسن شبابها وبناتها ، ونقشت موفور أمنها وأقوتها ، وهنكت في البرى مصون رفاتها ، وخليطت في الخنادق أحياها بأمواتها وعدت على الوحش في فلواتها ، وعلى الطير في وكناتها ، وعلى الرياح في محترقاتها ، وعلى بلَّم (٢) البحار وأحوالها ، وهَوَامِ القفار وحشراتها ، وعلى بيوت الله في سراراتها . والنواقيس في قبابها ، والمآذن في سمواتها ، فسبحان الملك الأكبر

(١) كتب شوقي هذه الرسالة تقدیماً لقصیدته «أيها النيل» .

(٢) البلم : السمك الصغير .

الذي يَقْهِرُ وَلَا يَقْهَرُ ، وَيُغَيِّرُ وَلَا يَتَغَيِّرُ ، وَالذِّي يُقْيِمُ الْقِيَامَةَ فِي مِيقَاتِهِ .
 الشِّعْرُ كَالْأَحْلَامِ تُدْخِلُ عَلَى الْمَسْرُورِ الْكَبْرِيِّ ، وَتُكَثِّرُ عَلَى الْمَحْزُونِ فِي السُّرْرِيِّ ، وَفِرِيقَةُ الشَّاعِرِ كَعَيْنِ صَاحِبِ الْأَيَّامِ عِنْدَهَا لِلْحَزْنِ عَبْرَةٌ ، وَلِلْمَسْرُورِ عَبْرَةٌ ، وَهَذِهِ أَيْمَانُهَا الْأَسْتَاذُ الْكَرِيمُ كَلْمَةً قَيْلَتْ وَالْمَهْوُمُ سَارِيَةً ، وَالْأَقْدَارُ بِالْمُخَاوفِ جَارِيَةً ، وَالْدَّمَاءُ مَتْبَارِيَةً ، وَذَنَابُ الْبَشَرِ يَقْتَلُونَ عَلَى الْفَانِيَةِ ، نَظَمَتْهَا تَغْنِيَّاً بِمَحَاسِنِ الْمَاضِيِّ وَتَقْيِيدًا لِمَآتِيرِ الْأَيَّامِ ، وَقَضَائِهِ لَهُقَّ «النَّيل» الْأَسْعَدُ الْأَجْمَدُ وَنَسْبِتُهَا إِلَيْكَ عِرْفَانًا لِفَضْلِكَ عَلَى لِغَةِ الْعَرَبِ وَمَا أَنْفَقْتَ مِنْ شَابٍ وَكَهْوَلَةً فِي إِحْيَاءِ عِلْمَهَا وَنَشْرِ آدَابِهَا وَإِلْقَائِهَا كَلِمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ خَلْفَ الضَّبَابِ دَرْوِسًا نَافِعَةً عَلَى أَنْبِلِ شَابِ الْعَصْرِ ، فِي أَعْظَمِ جَامِعَاتِ الْعَالَمِ ، فَلَعْلَهَا تَقْعُدُ إِلَيْكَ فَتَتَذَكَّرُ عَلَى التَّوَيِّ تِلْكَ الْأَيَّامِ ، وَتَنَادِمُ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى بِسَاطِ الْأَدَبِ وَالْكَلَامِ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَنَ الدَّمَاءَ وَيُقْيِمَ جَدَارَ السَّلَامِ .

(١) رسالة

من شوقي إلى المؤرخ اسماعيل (بك) رأفت

صديقي المحرر ،

صدرتُ عن باريس ، وكأنها «بابل» ذات البرج والجسر ، وهي في دولتها ، أو «طيبة» في الزمن الأول ، إلا أنها مدينة الشمس ، وبباريس مدينة النور ، أو «رومة» مقر القياصر ، ومزدحم الأجناس والعناصر ، وهي في رفعة ملوكها الفاختر ، تموج بالأمم كالبحر الزاخر ، أو «الاسكندرية» ذات المسلة — والمسلة في باريس — وهي في ذروة سعادها ، وأوج كمالها ، تغير الشمس في سرير مجدها بخلالها وجمالها ، أو «بغداد» في إبان إقبالها ، وسلطان أقيالها ، وأئمها وأسعد حالها ، فسبحان المنعم ، أعطى «مدينة

(١) كتب شوقي هذه الرسالة تقديمًا لقصيدته «رومة» .

المعرض » الأسماء كلها . وجلت قدرته ، بعث للهداية في واحدة .

رحلتُ عنها في اليوم الذي أسفِر صباحه عن ليلةِ الاحتفال بتوزيع الجوائز
على المارضين ، وقد نالها منهم ستون ألفاً أو يزيدون ، كلهم من مشهوري
الصناع ، وكبار المخترعين ، شيعوا في ذلك جنازة القرن التاسع عشر ومئتي
الخلائق فيها حتى دفناه و كانه نهار مرّ ، أو ليلة تغتصب بالسمر ، ثم انقلبنا
ننفس الأنامل من ترابه ، وذكر من محسنه أنه جبلٌ واضحٌ الغُرْرِ
والتمجيل : يذكره التاريخ بالتعظيم والتجليل ، قام العلمُ فيه على أمنٍ بُنيانٍ ،
ورُفعت الحجبُ بين الحقائق والإنسان ، ضربت له أطولُ سماء من ضروب
العرفان ، واستمدَّ من القادر مبالغ الإمكان ، فاقتاد البَرَّ بـشِعرةٍ ، وزمَّ
البحر بـإبرةٍ ، وفرق الأرض وبـلغ الجبال . وأوشك أن يمْدَّ إلى السماء
بـجibal ، ونـفذَ على النجم المدى ونـجد على القطب هـدى ، وغاص على الحروب
الماء ، وركب إلى الواقع المـوأء ، وكسـر شـرة الداء ، وقتل قـتـالـه وراـضـه
الـعيـاء ، ودخل بـصرـه على الـجـسم الـأـحـشـاء ، وأنـطـق الـآـلـة الـصـماء ، وـنـقل الـحـدـيـثـ
ـمـ فـضـاء إـلـى فـضـاء ، عـلـى اـنـقـطـاع الـصـلـة بـيـن الـنـطـقـ وـالـإـضـغـاء ، وـحـرـكـ الصـورـ
ـوـ هيـ هـيـاء ، إـذـا رـأـيـتها حـسـبـتها جـمـاعـة الـأـحـيـاء ، وـنـالـ سـرـائـرـ الـحـوـباءـ وـخـاصـسـ
ـفـي الـطـبـائـعـ وـالـأـهـوـاءـ ؛ فـانـكـشـفـ لـهـ الـغـطـاءـ وـبـرـحـ الـخـفـاءـ ؛ وـنـثـرـ فـكـادـ يـوـحـيـ
ـإـلـيـهـ فـيـ الـإـنـشـاءـ ؛ وـنـظـمـ فـلـمـ يـدـعـ مـنـ آـيـةـ فـيـ الـأـرـضـ وـلـاـ فـيـ السـمـاءـ :

كل هذا أثّر الأستاذ عرضته (باريس) للناس في غير معرض آخر
لهم؛ فواهـاـ لهـ من سـوقـ ثمـ يـنـفـضـ ، وـيـأـسـفـاـ عـلـى بـشـيـانـهـ يـوـمـ يـنـفـضـ ..

برحثها وهي تجربة على المدائن الكبيرة وتنزلي بالحضارات ما حضر منها وما غير ، وقدرت إلى روما لعلي أرد النفس إلى الحشوش ، وأداوي الفواد من نشوة اغتراره بما رأى : فبلغتها وإذا أنا بين أثر يكاد يتكلم وحجر كان لكرامته يستسلم ، فوتفت أتأمل ذا الجدار وذا الجدار . وأنشد ذلك القصر وتلك الدار ، إلى أن ثار الشعر ، والشعر ابن أبيين : «التاريخ

والطبيعة» فنظمت وكأني بها في يديك تقرأ .
أحب التوفيق إليَّ، أهلاً الأستاذ، إكرام العالم وإجلال الصديق؛ وأنت
لي بحمد الله هذان معًا؛ فهل تمنَّ بقبول هدية هي إلى التاريخ أدنى منها
إلى الشعر؟

رسالة (١)

إلى المسئر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة

أتاذن لرجل تعود أن يخرج عن دائرة الموظف كلما عرضت حال
يخدم الوطن فيها الرجالُ أن يرفع لشعره ذكره ، ويشرِّف قدره ، مهدياً
اليكَ منه هذه القصيدة في لغة (الصاد) ، وهي مما قلتُ في (أنس الوجود)
ذلك الأثر المحتضر ، الذي جمع العِبر ، ومحاه الدهر أو كاد ، وكان إحدى
آياته الكبرى هيكل «لفرعون» و «بطليموس» توارثُها عن «الكهنة»
«القسوس» وصارت «لل المسيح» وكانت «لموروس» ثم ظهر «الأذان»
فيها على «الناقوس» ثم لا تكون عشيَّة أو ضحاهَا حتى يهون في الماء كلُّ
حجر كان يُقبل (كالأسود) (٢) وكل ركن كان يُستلم «كالحطيم» (٤)
شهدت على «أنس الوجود» ما يُعلم الإنسان — ولو أنه (روزفلت) علماً
وحكمة وأدباً — كيف يختقرُ الدنيا ويحترم الدين جميعاً .

دخلته ذات يوم وكان «الدوقي أوف كونوت» لديه يتمشى في ظلاله ،
وينتقل بين رسومه وأطلاله ، عيناه ونفسه في إكباره وإجلاله ، فكانت
مني التفاتة فرأيت «فلاحاً» قد أقبل ثم ألقى عباءته وتوجه يُصلِّي «العصر»
غير مُلقِّ بالاً «لفرعون» كيف كان يعبد ويعبد ، ولا «لطليموس»
كيف كان يعظُّم ويعْجَد ، ولا للمسيحية السمححةِ كيف دخلت على «الوثنية»

(١) هذه الرسالة كتبها شوقي مقدماً لقصيدته «أنس الوجود» .

(٢) الأسود : هو الحجر الأسود الذي يملكه .

(٣) الحطيم : جدار حجر الكعبة ، وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام .

المعبد ، ولا «للملك إدوارد» الذي تحمل جنوده الآن مصر وهو في ثياب أخيه «الدوق» يرفع البصر ويسأله ممتلئاً من آيات النهر مهابة وإعجاباً ، مشتغلاً بالتاريخ القائم المجسم . يقرؤه كتاباً كتاباً . دين سهل سمح يسر ، وإله واحد يعبد حيث وجدة العابد . على العراء كما في الهياكل ، والكنائس والمساجد .

التاريخ أيها الضيف العظيم غابر متجدد ، قد يمهل منوال ، وحاضره مثال ، والغد بيد الله المتعال . وأنت اليوم تمسي فوق مهد الأعصر الأول ، ولحد قواهر الدول ، أرض تحذها «إسكندر» عربنا ، ولأنها على أهلها «قيصر» سفيننا ، وخلف «ابن العاص» فيها لساناً وجنساً وديناً . فكان أعظم المستعمرات حقيقة وأكبرهم يقيناً . وهو الذي لم يعلم عليه أنه بغي أو ظلم أو سفك الدماء أو نهى أو أمر ، إلا بين الرجاء والخذر ، من عدل «عمر» الذي تُنبئك عنه السير .

قامت (أيها الضيف العظيم) في السودان خطيباً فأنصت العَصْر ، والتفتت مصر . وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءلون : «كيف خالف الرئيس سُنة الأحرار من قادة الأمم وساسة المالك أمثاله ، فطارد الشعور وهو يهب ، والوجودان وهو يشب ، والحياة وهي تدب ، في هذا الشعب ، ومن حرمة العواطف السامية ، ألا تطارد كأنها وحوش ضارية ، على صحراء أو بادية ، كما طاردت السباع بالأمس نقاً من طائعها الجافية» .

المصري (أيها الضيف العظيم) سمح كريم كثير التجوز ، فقد ظفرت بمن مهد عذرك . ونفّي الغلن عن كرمك . وادخر ودك الذي تحظى به الأمم المستضعفة ، والشعوب المتلهفة ، المشوقة إذ قيل : إنما أراد الرئيس أن يمدح ديناً من حقه أن يمدح بكل لسان : وفي كل مكان ، فكيف به في بعض معاهده في السودان . وأراد كذلك أن يحذر من الفتنة في الجيوش ، وينهى عن إيقاظها ، ويدرك للمحسن من الحكام ما رأى أو سمع من حسناته ،

ويبدعو هذه الأمة التي حركتها المستقبلة في السكون إلى العمل في ظلِّ
الحق ، والصبر بإذن الله مضمون ، ومستقبل بمشيئة الله مأمون ، وقدِّيماً فاز
بالصبر الصابرون .

فإن كان ذلك (أيها الضيف العظيم) – وهو ما لا نعتقد غيره – فهذاك من
نصحَّ الأمم ، وبعثَ العزائمَ والهمم ، وعلَّم باللسان والقلم .

على أننا نرجو أن سندكراًنا عند قومك الكرام الأحرار بما أنتم جمِيعاً
أهلَه ، وأن ستعطينا عهْدَك ، وتصفينا ودَّك ، وتملاً من أجمل الظُّنون
وأحسنها بُرداًك ، يوم تفَيل السفينة عظمتَك وَبَجْدَك ، وتنقل من أقصى
البروج إلى أقصاها سعدَك .

على يد الله تجري إن هي اندفعت وفي حمى الله لا في الماء تتحجب

نماذج من شعر شوقي

ضمنت الأجزاء الأربع من «الشوقيات» معظم القصائد المنشورة وغير المنشورة التي نظمها أمير الشعراء أحمد شوقي.

وقد وقعنا على قصيدة قديمة غير منشورة في الشوقيات ، تروي أسطورة هندية عن خلق المرأة ، فنشرناها مع مختارات شوقي الشعرية التي لا تحتاج إلى تعريف ، لأنها تعرف نفسها عن نفسها .

نهرج البردة

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَيْانِ وَالْعُلُمِ
أَحْلَلَ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ
رَمِيَ الْقَضَاءُ بِعِينِي جَوْذِرَ أَسْدًا
يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَدْرِكَ سَاكِنَ الْأَجْمَعِ
لَا رَنَا حَدَّثْتِنِي النَّفْسُ قَائِلَةً
يَا وَيْحَ جَنِيلَكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رُمِيَ
جَحْدُتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَبِدِي
جُرْحُ الْأَحَبَّةِ عَنِي غَيْرُ ذِي الْأَلْمِ
رَزَقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ
إِذَا رُزِقْتَ أَتَتِمَانَ الْعَذْرِ فِي الْشَّيْمِ
يَا لَا إِيمَيِّ فِي هَوَاهُ وَالْهُوَيِّ قَدْرٌ
لَوْ شَفَّكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلْمِ
لَقَدْ أَنْلَتُكَ أَذْنَاً غَيْرَ وَاعِيَةً
وَرَبَّ مُنْتَصِبٍ وَالْقَدْبُ فِي صَمَمِ

يَا نَاعِسُ الْطَّرْفِ لَا دُقْتَ الْهَوِي أَبْدًا
 أَسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوِي فَنِمَ
 أَفْدِيلَكَ إِلْفَاً وَلَا آلُو الْخِيَالَ فَدَىٰ
 أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرْمِ
 سَرِيٌّ فَصَادِفُ جُرْحًا دَامِيًّا فَأَسَا
 وَرْبٌ فَضْلٌ عَلَى الْعُشَاقِ لِلْحُلُمِ
 مِنَ الْمَوَائِسِ بَانًا بِالرُّبَّى وَقَنَا
 الْلَاعِبَاتُ بِرُوحِي السَافَحَاتُ دَمِي
 السَافَرَاتُ كَأَمْثَالِ الْبُدُورِ ضُحَىٰ
 يُغْزِنَ شَمْسَ الضُّحَىٰ بِالْحَلْيِ وَالْعِصَمِ
 الْقَاتِلَاتُ بِأَجْفَانٍ بِهَا سَقَمٌ
 وَلِلْمَنِيَّةِ أَسْبَابٌ مِنَ السَقَمِ
 الْعَاثِرَاتُ بِالْبَابِ الْرِجَالِ وَمَا
 أَقْلَنَ مِنْ عَشَراتِ الْدَلَلِ فِي الْرَّيْمِ
 الْمُضَرَّمَاتُ خُدُودًا أَسْفَرْتُ وَجَلتُ
 عَنْ فِتْنَةِ تُسْلِمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ
 الْحَامِلَاتُ لَوَاءَ الْحَسْنِ مُخْتَلِفًا
 أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرَدٌ غَيْرُ مَنْقُسٍ

من كل بيضاءً أو سمراءً زينتـا
لـلعينـ ، وأـلـحسنـ في الـأـرامـ كالـعـصمـ
يرعنـ للـبـصـرـ السـاميـ ومنـ عـجبـ
إـذـ أـشـرـنـ أـسـرـنـ الـلـيـثـ بـالـعـنـمـ
وـضـعـتـ خـدـيـ وـقـسـمـ أـلـفـوـادـ رـبـيـ
يـرـتـعـنـ فـيـ كـنـسـيـ مـنـهـ وـفـيـ أـكـمـ
يـاـ بـنـتـ ذـيـ الـلـبـدـ الـمـحـيـ جـانـبـهـ
أـلـقـاكـ فـيـ الـغـابـ أـمـ أـلـقـاكـ فـيـ الـأـطـمـ
ماـكـنـتـ أـعـلـمـ حـتـىـ عـنـ مـسـكـنـهـ
أـنـ أـلـنـيـ وـأـلـمـنـايـاـ مـضـرـبـ الـخـيمـ
منـ أـنـبـتـ الـغـصـنـ مـنـ صـمـصـامـةـ ذـكـرـ ؟
وـأـخـرـجـ الـرـيـمـ مـنـ ضـرـغـامـةـ قـرـمـ ؟
بـيـنـيـ وـبـيـنـكـ مـنـ سـمـرـ أـلـقـناـ حـجـبـ
وـمـثـلـهـاـ عـفـةـ عـذـرـيـةـ الـعـصـمـ
لـمـ أـغـشـ مـغـنـاكـ إـلاـ فـيـ غـضـونـ كـرـيـ
مـغـنـاكـ أـبـعـدـ لـلـمـشـاقـ مـنـ إـرـمـ

يانفسُ دُنياكِ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ
 وإنْ بَدَا لِكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمٌ
 فُضُّلٌ بِتَقْوَاكِ فَاهَا كُلُّمَا ضَحِكَتْ
 كَمَا يُفْضِي أَذى الرُّقْشَاءِ بِالثَّرَمِ
 مُخْطُوبَةٌ هَنْدُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً
 مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ لَمْ تُرْمِلْ وَلَمْ تَئِمْ
 يَفْنَى الْزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاعَتِهَا
 جُرْحٌ بِآدَمَ يَبْكِي مِنْهُ فِي الْأَدَمِ
 لَا تَحْفَلِي بِجَنَاحَاهَا أَوْ جَنَائِهَا
 الْمَوْتُ بِالْزَّهْرِ مُشَلِّ الْمَوْتِ بِالْفَحْمِ
 كَمْ نَائِمٌ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
 لَوْلَا الْأَمَانِيُّ وَالْأَحَلَامِ لَمْ يَنْتَمِ
 طُورًا تَمْدُكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ
 وَتَارَةً فِي قَرَارِ الْبُؤْسِ وَالْوَصَمِ
 كَمْ ضَلَّلْتَكَ وَمَنْ تَحْجَبَ بِصَيْرَتَهِ
 إِنْ يَلْقَ صَابَاً يَرِدُ أَوْ عَلْقَمَاً يَسْمُ
 يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَدَهَا
 مُسَوَّدَةُ الصُّحْفِ فِي مُبَيْضَةِ الْلَّمَ

رَكْضَتْهَا فِي مَرِيعِ الْمُعْصِيَاتِ وَمَا
 أَخْذَتُ مِنْ حِمْيَةِ الطَّاعَاتِ لِلتُّخْمَ
 هَامَتْ عَلَى أَثَرِ الْلَّذَّاتِ تَطْلِبُهَا
 وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِيَ الصَّبَا تَهْمَ
 صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ
 فَقَوْمٌ النَّفْسُ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمُ
 وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرٍ عَافِيَةٍ
 وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخَمٍ
 تَطْغِي إِذَا مُكْنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهُوَ
 طَغِيَ الْجِيَادِ إِذَا عَضَّتْ عَلَى أَشْكُمْ
 إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغَفْرَانِ لِي أَمْلَأُ
 فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُعْتَصِمٍ
 أَلْقَى رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى
 مُفْرَجِ الْكَرْبِ فِي الْدَّارَيْنِ وَالْفَمَ
 إِذَا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذُّلُّ أَسَأَلَهُ
 عِزَّ الْشَّفَاعَةِ لِمَ أَسَأَنْ سَوِيَ أَمَمْ

وإِن تَقَدَّمْ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ
قَدَمْتُ بَيْنَ يَدِيهِ عَبْرَةَ النَّدَمِ
لِزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ
يُمْسِكُ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللَّهِ يَغْتَسِمُ
فَكُلِّ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ وَعَارِفَةً
مَا بَيْنَ مُسْتَلِمٍ مِنْهُ وَمُلْتَزِمٍ
عَلِقْتُ مِنْ مَدْحِهِ حَبْلًا أَعْزُّ بِهِ
فِي يَوْمٍ لَا عِزَّ بِالْأَنْسَابِ وَاللَّهُ حَمَّ
بُزْرِي قَرِيفِي زَهِيرًا حِينَ أَمْدَحْهُ
وَلَا يَقْاسُ إِلَى جُودِي لَدَى هَرَمِ
مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ الْبَارِي وَرَحْمَتُهُ
وَبُغْيَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ نَسَمَةِ
وَصَاحِبِ الْحَوْضِ يَوْمَ الرَّسُلِ سَائِلَةُ
مَتَّيْ الْوَرْوُدُ وَجَبْرِيلُ الْأَمِينُ ظَمِيْرُ
سَنَاوَهُ وَسَنَاهُ الشَّمْسُ طَالِعَةُ
فَالْجِرْمُ فِي فَلَكِ وَالضَّوْءُ فِي عَلَمِ
قَدْ أَخْطَأَ النَّجَمَ مَا نَالَتْ أَبُوْتَهُ
مِنْ سُودِ بَادِخِ فِي مَظَهِرِ سَنِمِ

نُمُوا إِلَيْهِ فزَادُوا فِي الْوَرَى شَرَفًا
 وَرُبَّ أَصْلٍ لِفَرْعَوْنَ فِي الْفُخَارِ نُحِي
 حَوَاهُ فِي سُبُّحَاتِ الطُّهْرِ قَبْلَهُمْ
 نُورَانِ قَامَا مَقَامَ الصُّلُبِ وَالرَّحِيمِ
 لَا رَآهُ بَحِيرَا قَالَ نَعِرِفُهُ
 بِمَا حَفِظَنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسَّيْمِ
 سَائِلٌ حِرَاءً وَرُوحٌ أَلْقَدْسُ هَلْ عَلِمَا
 مَصْوَنَ سِرٌّ عَنِ الْإِدْرَاكِ مِنْ كُتْمِ
 كُمْ جِيشَةٍ وَذَهَابٌ شُرُفتُ بِهِمَا
 بَطْحَاءُ مَكَّةَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْغَسَّامِ
 وَوْحَشَةُ لَابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بَيْنَهُمَا
 أَشَهَى مِنَ الْأَنْسِ بِالْأَحَبَابِ وَالْحَشَمِ
 يُسَامِرُ الْوَحْيُ فِيهَا قَبْلَ مَهْبِطِهِ
 وَمَنْ يَبْشِّرُ بِسِيمِيِّ الْخَيْرِ يَتَسَمِّ
 لَا دُعا الصَّحْبُ يَسْتَسْقِونَ مِنْ ظَمَاءِ
 فَاضَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّسْنِيمِ بِالسَّنَمِ
 وَظَلَّلَتْهُ فَصَارَتْ تَسْتَظِلُّ بِهِ
 غَمَامَةُ جَذَبَتْهَا خِيرَةُ الدَّيْمِ

مَحِبَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ أَشْرَبَهَا
قَعَادُ الدَّيْرِ وَالرُّهْبَانُ فِي الْقِبْلَةِ

إِنَّ الشَّمَائِلَ إِنْ رَقَّتْ يَكَادُ هَا
يُغَرِّي الْجَمَادُ وَيُغَرِّي كُلَّ ذِي نَسْمَةٍ

وَنَوْدِيَ اقْرَأَ تَعَالَى اللَّهُ قَاتِلَهَا
لَمْ تَتِصْلِ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِقَمَّ

هُنَاكَ أَذْنَ لِلرَّحْمَنِ فَامْتَلَأَتْ
أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ النَّغْمَ
فَلَا تَسْلُ عنْ قُرَيْشٍ كَيْفَ حِيرَتُهَا
وَكَيْفَ نُفْرَتُهَا فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ
تَسَاءَلُوا عَنْ عَظِيمٍ قَدْ أَلَمَ بِهِمْ
رَمَى الْمَشَايخُ وَالْوَلْدَانَ بِاللَّمَّ
يَا جَاهِلِينَ عَلَى الْهَادِي وَدَعْوَتِهِ
هَلْ تَجْهَلُونَ مَكَانَ الصَّادِقِ الْعَلَمِ؟

لَقَبَّتُمُوهُ أَمِينَ الْقَوْمَ فِي صِغَرٍ
وَمَا الْأَمِينُ عَلَى قَوْلٍ بِمُتَّهِمٍ

فَاقَ الْبُدُورُ وَفَاقَ الْأَنْبِيَاءَ فَكَمْ
بِالْخُلُقِ وَالْخَلْقِ مِنْ حَسْنٍ وَمِنْ عَظَمَ
جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالآيَاتِ فَانْصَرَمْتَ
وَجَئْنَا بِحُكْمِهِ غَيْرِ مُنْصَرِمْ
آيَاتُهُ كَلِمًا طَالَ الْمَدِيْ جُدُدُ
يَزِينُهُنَّ جَلَلُ الْعِتْقِ وَالْقِدْمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشَرِّفَةٌ
يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوِيَّ وَبِالرَّحْمَمِ
يَا أَفَصَحَ النَّاسِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً
حَدِيثُكَ الشَّهَدُ عَنْدَ الْذَائِقِ الْفَهْمِ
حَلَّيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ
فِي كُلِّ مُنْتَشِرٍ فِي حُسْنٍ مُنْتَظِمٍ
بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ
تُحَيِّي الْقُلُوبَ وَتُحَيِّي مِيتَ الْهَمِ
سَرَّتْ بِشَائِرُ الْهَادِي وَمَولَدُهُ
فِي الشَّرْقِ وَالْغَربِ مَسْرَى النُّورِ فِي الظَّلْمِ
تَخْطَفَتْ مَهَاجُ الطَّاغِيَنَ مِنْ عَرَبٍ
وَطَبَّرَتْ أَنْفُسَ الْبَاغِيَنَ مِنْ عَجمٍ

رَيْتُ لَهَا شُرُفَ الْإِبْوَانَ فَانْصَدَعَتْ
مِنْ صَدَمَةِ الْحَقِّ لَا مِنْ صَدَمَةِ الْقُدُّمِ

أَتَيْتَ وَالنَّاسَ فَوْضَى لَا تَمْرُ بِهِمْ
إِلَّا عَلَى صَنْمٍ قَدْ هَامَ فِي صَنْمٍ
وَالْأَرْضُ مَلْوَءَةُ جُورًا ، مَسْخَرَةُ
كُلُّ طَاغِيَةٍ فِي الْخَلْقِ مُحْتَكِمْ

مُسِطِّرُ الْفُرْسِ يَبْغِي فِي رَعِيَّتِهِ
وَقِيَصُّ الرُّومِ مِنْ كَبِيرِ أَصْمَّ عَمَّ
يَعْذِبُ بَنَانِ عَبَادَ اللَّهِ فِي شُبُّهِ
وَيَذْبَحَانِ كَمَا ضَحَّيَتْ بِالْغَنَمِ
وَالْخُلُقُ يَفْتِكُ أَقْوَاهُمْ بِأَضْعَافِهِمْ
كَاللَّيْثِ بِالْبُهْمِ أَوْ كَالْحُوتِ بِالْبَلَمِ
أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكَهُ
وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصِيِّ عَلَى قَدَمِ
لَا خَطَرْتَ بِهِ أَلْتَفَوْا بِسَيْلِهِمْ
كَالشَّهْبِ بِالْبَلَدِ أَوْ كَالْجُندِ بِالْعِلْمِ

صلى ورائِكَ مِنْهُمْ كُلَّ ذِي خَطْرٍ
وَمَنْ يُفْزُ بِحَبِيبِ اللَّهِ يَأْتِمُ
جُبْتَ السَّمَاوَاتِ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ
عَلَى مَنْوَرَةِ دَرِيَّةِ الْلُّجُمِ
رَكْوَبَةٌ لَكَ مَنْ عِزٌّ وَمَنْ شَرِفٌ
لَا فِي الْجِيَادِ وَلَا فِي الْأَبْيَقِ الرُّسُمِ
مَشِيَّةُ الْخَالِقِ الْبَارِيِّ وَصَنْعَتُهُ
وَقُدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشَّكِّ وَالْتَّهَمِ
حَتَّى بَلَغَ سَمَاءً لَا يُطَارُ لَهَا
عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمٍ
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَتْبِهِ
وَيَا مُحَمَّدًا هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمْ
خَطَطْتَ لِلَّدِينِ وَالدُّنْيَا عِلْمَهُما
يَا قَارِيَّ اللَّوْحِ بَلْ يَا لَا مِسْ أَلْقَلِمِ
أَحْطَتْ بَيْنَهُمَا بِالسُّرِّ وَانْكَشَفَتْ
لَكَ الْخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمٍ
وَضَاعَفَ الْقُرْبُ مَا قُلِّدَتْ مِنْ مَنْ
بِلَا عِدَادٍ وَمَا طُوقَتْ مِنْ نِعْمَ

سلْ عصبةَ الشُّرُكَ حول الفَار سائمة
لولا مطاردةُ المختار لم تُسْمِ
هُلْ أَبْصَرُوا الْأَثْرَ الوضَاءَ أَمْ سَمِعُوا
هَمْسَ التَّسَابِيعِ وَالْقُرْآنَ مِنْ أُمُّمٍ؟
وَهُلْ تَمَثِّلُ نسجِ العنكبوتِ لَهُمْ
كالْغَابِ، وَالْحَائِمَاتِ الزُّغْبِ كَالرَّخْمِ
فَأَدَبَرُوا وَوْجُوهَ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ
كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَلِ الْحَقِّ مَنْهَزِمٌ
لَوْلَا يَدُ اللَّهُ بِالْجَارِينِ مَا سَلِيمًا
وَعَيْنَهُ حَوْلَ رَكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقْمِ
تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَرَا
وَمَنْ يَضْمُونُ جَنَاحَ اللَّهِ لَا يَفْضِمُ
يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاهَ بِتَسْمِيَتِي
وَكَيْفَ لَا يَتَسَامِي بِالرَّسُولِ شَمِي
الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبْعُ
لِصَاحِبِ الْبَرَدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمَ

مَدِحُهُ فِيكَ حُبٌّ خَالِصٌ وَهُوَ
وَصَادِقُ الْحُبِّ يُمْلِي صَادِقَ الْكَلْمَ
اللَّهُ يَشْهُدُ أَنِّي لَا أُعَارِضُهُ
مَنْ ذَا يُعَارِضُ صَوْبَ الْعَارِضِ الْعَرَمِ
وَإِنَّمَا أَنَا بَعْضُ الْغَابِطِينَ وَمَنْ
يَغْبِطُ وَلِيَكَ لَا يُنْذَمُ وَلَا يُلْمَ
هَذَا مُقَامٌ مِنَ الرَّحْمَنِ مَقْتَبِسٌ
تَرْمِي مَهَابُتَهُ سَحْبَانَ بِالْبَكْمَ
الْبَدْرُ دُونَكَ فِي حَسْنٍ وَفِي شَرْفٍ
وَالْبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرْمٍ
شَمُّ الْجَبَالِ إِذَا طَاولَتَهَا انْخَفَضَتْ
وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَاسْمَتَهَا تِسْمَ
وَاللَّيْثُ دُونَكَ بَأْسًا عَنْدَ وَثَبَتِهِ
إِذَا مَشَيْتَ إِلَى شَاكِي السَّلَاحِ كَمَيِ
تَهْفُو إِلَيْكَ وَإِنْ أَدْمِيَتْ حَبَّتَهَا
فِي الْحَرْبِ أَفْئَدُ الْأَبْطَالِ وَالْأَلْبُمَ
مَحْبَّةُ اللَّهِ الْقَاهَا وَهِبَتُهُ
عَلَى ابْنِ آمْنَةِ فِي كُلِّ مَصْطَدَمَ

كَانَ وَجْهُكَ تَحْتَ النَّقْعَ بَدْرٌ دُجَى
 يُضِيئُ مُلْتَشِمًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَشِم
 بَدْرٌ تَطَلَّعُ فِي بَدْرٍ فُغْرَتْهُ
 كَفْرَةُ النَّصْرِ تَجْلُو دَاجِيَ الظَّلَم
 ذُكِرَتْ بِالْيُتْسِمِ فِي الْقُرْآنِ تَكْرَمَةً
 وَقِيمَةُ الْلَّوْلُوِ الْمَكْنُونِ فِي الْيُتْسِمِ
 اللَّهُ قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ رِزْقَهُمْ
 وَأَنْتَ خُبُّرٌ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْقِسْمِ
 إِنْ قَلْتَ فِي الْأَمْرِ لَا ، أَوْ قَلْتَ فِيهِ نَعْمَ
 فَخِيرَةُ اللَّهِ فِي لَا مِنْكَ أَوْ نَعْمَ
 أَخْوَكَ عَبْسِي دَعَا مِنْتَأً فَقَامَ لَهُ
 وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَجِيلًا مِنَ الْرُّمْ
 وَالْجَهْلُ مَوْتٌ فَإِنْ أُوتِيتَ مُعْجِزَةً
 فَابْعَثْ مِنَ الْجَهْلِ أَوْ فَابْعَثْ مِنَ الرَّجْمِ
 قَالُوا غَرَّوْتَ ، وَرُسْلُ اللَّهِ مَا بُعْثَوا
 لِيُقْتَلُ نَفْسٌ وَلَا جَاءُوا لِسَفْكِ دَمٍ
 جَهْلٌ وَتَضْلِيلٌ أَحَلَامٌ وَسَفَسَطَةٌ
 فَتَحَتَ بِالسِيفِ بَعْدَ الفَتْحِ بِالقَلْمَ

لَمْ أَتِي لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِي حَسْبٍ
 تَكْفِلَ السِيفُ بِالْجَهَالِ وَالْعَمَّ
 وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَهُ بِالْخَيْرِ ضِيقْتَ بِهِ
 ذِرْعًاً وَإِنْ تَلَقَهُ بِالشَّرِّ يَنْحِسِمْ
 سَلِيلَ الْمَسِيحِيَّةِ الْغَرَّاءِ كَمْ شَرِبَتْ
 بِالصَّابِرِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْغَلِيمِ
 طَرِيْدَةَ الشَّرِكِ يَوْذِيْهَا وَيُوَسِّعُهَا
 فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالًا ساطِعَ الْحَدَمَ
 لَوْلَا حُمَاءً لَهَا هَبُوا لِنُصْرَتِهَا
 بِالسِيفِ مَا انتَفَعَتْ بِالرُّفْقِ وَالرُّحْمَ
 لَوْلَا مَكَانٌ لِعِيسَى عِنْدَ مُرْسِلِهِ
 وَحُرْمَةٌ وَجَبَتْ لِلرُّوحِ فِي الْقِدَمِ
 لَسْمَرَ الْبَدَنُ الْأَطْهَرُ الشَّرِيفُ عَلَى
 لَوْحَيْنِ لَمْ يَخْشَ مُؤْذِيْهِ وَلَمْ يَجِمْ
 جَلَّ الْمَسِيحُ وَذاقَ الصَّلْبَ شَانِسُهُ
 إِنَّ الْعِقَابَ بِقَدْرِ الذَّنْبِ وَالْجُرْمِ
 أَخُو النَّبِيِّ وَرُوحُ اللَّهِ فِي نُزُلٍ
 فَوْقَ السَّمَاوَاتِ وَدُونَ الْعَرْشِ مُحْتَرِمٌ

عَلِمْتَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ
 حَتَّى الْقِتَالَ وَمَا فِيهِ مِنَ الذَّمَّ
 دُعُوتُهُمْ لِجِهَادٍ فِيهِ سُودَدُهُمْ
 وَالْحَرْبُ أَسْنَ نَظَامَ الْكَوْنِ وَالْأَمْمَ
 لَوْلَاهُ لَمْ نَرَ لِلْدُولَاتِ فِي زَمَنِنِ
 مَا طَالَ مِنْ عَمَدٍ أَوْ قَرَّ مِنْ دَعْمٍ
 تَلْكَ الشَّوَاهِدُ تُتَرَى كُلَّ آوْنَةٍ
 فِي الْأَعْصَرِ الْغَرِّ لَا فِي الْأَعْصَرِ الْدَّهْمِ
 بِالْأَمْسِ مَالَتْ عُرُوشُ وَأَعْتَلَتْ سُرُورُ
 لَوْلَا الْقَدَائِفُ لَمْ تُثْلِمْ وَلَمْ تَنْصِمْ
 أَشْيَاعُ عِيسَى أَعَدُوا كُلَّ فَاصِمَةً
 وَلَمْ نُعْدَ سَوَى حَالَاتٍ مُنْقَصِّمَ
 مَهْمَا دُعِيتَ إِلَى الْهَيْجَاءِ قُمْتَ لَهَا
 تَرْمِي بِأَسْدٍ وَيَرْمِي اللَّهُ بِالْرُّجمِ
 عَلَى لِوَائِكَ مِنْهُمْ كُلُّ مُنْتَقِّمٍ
 اللَّهُ مُسْتَقْتَلٌ فِي اللَّهِ مُعْتَزِّمٍ
 مُسَبِّحٌ لِلْقَاءِ اللَّهِ مُضْطَرِّمٍ
 شَوْفًا عَلَى سَابِعٍ كَالْبَرْقِ مُضْطَرِّمٍ

لَوْ صَادَفَ الدَّهْرَ يَبْغِي نُقْلَةً فَرَمَى
بِعَزْمِهِ فِي رَحَالِ الدَّهْرِ لَمْ يَرِمْ

بِيَضٍ مَفَالِيلَ مِنْ فَعْلِ الْحَرُوبِ بِهِمْ
مِنْ أَسْيُفِ اللَّهِ لَا الْهَنْدِيَّةُ الْخُلُمُ

كَمْ فِي الْتُّرَابِ إِذَا فَتَّشَتْ عَنْ رَجُلٍ
مَنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ أَوْ مَنْ مَاتَ بِالْقَسْمِ

لَوْلَا مَوَاهِبٌ فِي بَعْضِ الْأَنَامِ لَا
تَفَاقِطُ النَّاسُ فِي الْأَقْدَارِ وَالْقِيمَ

شَرِيعَةُ لَكَ فَجَرَتْ الْعُقُولُ بِهَا
عَنْ زَانِيرِ بَصَنُوفِ الْعِلْمِ مُلْتَنِمٌ

بِلُوحٍ حَوْلَ سَنَا التَّوْحِيدِ جَوْهُرُهَا
كَالْحَلْيِيُّ لِلسِيفِ أَوْ كَالْوَشِيُّ لِلْعِلْمِ

غَرَاءُ حَامَتْ عَلَيْهَا أَنْفُسُ وَنُهَمَّيَ
وَمَنْ يَجِدْ سَلْسَلًا مِنْ حِكْمَةٍ يَحْمُ

نُورُ السَّبِيلِ يُسَاسُ الْعَالَمُونَ بِهَا
تَكْفَلَتْ بِشَابِ الدَّهْرِ وَالْهَرَمَ

يُجْرِي الزَّمَانُ وَأَحْكَامُ الزَّمَانِ عَلَى
حُكْمِهَا نَافِذٌ فِي الْخَلْقِ مَرْتَسِمٌ
لَا اعْتَلَتْ دُولَةُ الْإِسْلَامِ وَاتَّسَعَتْ
مَشْتَهَيْهَا فِي نُورِهَا التَّمِيمِ
وَعَلَمَتْ أُمَّةً بِالْقَفْرِ نَازِلَةً
رُغْيَ الْقِيَاصِرِ بَعْدَ الشَّاءِ وَالنَّعْمِ
كَمْ شَيَّدَ الْمُصْلِحُونَ الْعَامِلُونَ بِهَا
فِي الشَّرْقِ وَالْغَربِ مُلْكًا بِاَذْنِ الْعِظَمِ
لِلْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالتَّمْدِينِ مَا عَزَمُوا
مِنَ الْأُمُورِ وَمَا شَدُّوا مِنَ الْحُزْمِ
سَرْعَانَ مَا فَتَحُوا الدُّنْيَا لِمِلْتَهُمْ
وَأَنْهَلُوا النَّاسَ مِنْ سَلْسَالِهَا الشَّبَّيمِ
سَارُوا عَلَيْهَا هُدَاءُ النَّاسِ فَهِيَ بِهِمْ
إِلَى الْفَلَاحِ طَرِيقٌ وَاضْعَفُ الْعِظَمِ
لَا يَهْلِمُ الدَّهْرُ رُكْنًا شَادَ عَدْلَهُمْ
وَحَائِطُ الْبَغْيِ إِنْ تَلْمِسُهُ يَنْهَلِمُ

نالوا السعادة في الـَّدَارِينَ واجتمعوا
 على عيْمٍ من الرُّضوانِ مقتسمٌ
 دَعْ عنكَ رُومَا وآثِينا وما حَوْتَا
 كُلُّ الْيَوْاقِيتِ في بَغْدَادَ وَالتُّوْمَ
 وَخَلَّ كِسْرَى وَإِيْوَانَاً يُدْلُّ بِهِ
 هُوَيْ على أَثْرِ النَّيْرَانِ وَالْأَيْمَ
 وَاتَّرَكَ رَعْمَسِيسَ، إِنَّ الْمَلَكَ مَظَهِرَهِ
 فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ
 دَارَ الشَّرَائِعَ رُومَا كُلَّمَا ذَكَرْتَ
 دَارَ السَّلَامَ لَهَا أَلْقَتَ يَدَ السَّلَمِ
 مَا ضَارَعْتَهَا بَيَانًاً عَنْدَ مَلْتَامِ
 وَلَا حَكْتَهَا قَضَاءً عَنْدَ مَخْتَصِمِ
 وَلَا احْتَوْتَ فِي طَرَازِ مِنْ قِيَاصِرَهَا
 عَلَى رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمَعْتَصِمٍ
 مِنَ الَّذِينَ إِذَا سَارَتْ كَتَائِبِهِمْ
 تَصْرِفُوا بِحُدُودِ الْأَرْضِ وَالْتُّخُمِ
 وَيَجْلِسُونَ إِلَى عَلَمٍ وَمَعْرِفَةٍ
 فَلَا يَدْانُونَ فِي عَقْلٍ وَلَا فَهْمَ

يُطَاطِي هُوَ الْعُلَمَاءُ الْهَامَ إِنْ نَبْسُوا
مِنْ هِيَةِ الْعِلْمِ لَا مِنْ هِيَةِ الْحُكْمِ
وَيُمْطِرُونَ فَمَا بِالْأَرْضِ مِنْ مَحْلٍ
وَلَا بِمِنْ بَاتَ فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْ عُدُمٍ
خَلَائِفُ اللَّهِ جَلُوا عَنْ مَوَازِنَةٍ
فَلَا تَقِيسَنَّ أَمْلَاكَ الْوَرَى بِهِمْ
مِنْ فِي الْبَرِّيَّةِ كَالْفَارُوقِ مَعْدَلَةً
وَكَابِنٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَاشِعِ الْحَشْمِ
وَكَالْإِمَامِ إِذَا مَا فَضَّ مَزَدَحَمًا
بِمِدْمَعِ مَا قَيِّقَ الْقَوْمُ مَزَدَحَمٌ
الْزَانِرُ الْعَذْبُ فِي عِلْمٍ وَفِي أَدْبٍ
وَالنَّاصِرُ النَّدْبُ فِي حَرْبٍ وَفِي سَلْمٍ
أَوْ كَابِنْ عَفَانَ وَالْقُرْآنَ فِي يَدِهِ
يَحْنُو عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْفُطْمُ
وَيَجْمِعُ الْآيَ تَرْتِيبًاً وَيَنْظُمُهَا
عِقْدًا بِجَيْدِ الْلَّيَالِيِّ غَيْرِ مُنْفَصِّمٍ
جُرْحَانَ فِي كَبْدِ الْإِسْلَامِ مَا التَّأْمَامَ
جُرْحُ الشَّهِيدِ وَجُرْحُ الْكِتَابِ دُمِي

وَمَا بَلَاءُ أَبِي بَكْرٍ بِمُتَهَّمٍ
بَعْدَ الْجَلَائِلِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْخِدْمَ

بِالْحَزْمِ وَالْعَزْمِ حَاطِ الدِّينِ فِي مَحْنٍ
أَضْلَلَتِ الْحَلْمَ مِنْ كَهْلٍ وَمُحْتَلِمٍ

وَحُدْنَ بِالرَاشِدِ الْفَارُوقِ عَنْ رِشْدِ
فِي الْمَوْتِ وَهُوَ يَقِينٌ غَيْرُ مَنْبَهِمٍ

يُجَادِلُ الْقَوْمَ مُسْتَلًا مَهْنَدَه
فِي أَعْظَمِ الرَّسُولِ قَدْرًا، كَيْفَ لَمْ يَدْمِ
لَا تَعْذِلُوهُ إِذَا طَافَ الْذَّهُولُ بِهِ
مَاتَ الْحَبِيبُ فَضَلَّ الصَّبُّ عَنْ رَغْمِ

* * *

يَا رَبَّ صَلَّ وَسَلَّمَ مَا أَرَدْتَ عَلَى
نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرِ الرُّسُلِ كُلَّهُمْ
مُحِبِّي الْلَّبَابِي صَلَّ لَا يُقْطِعُهَا
إِلَّا بَدْمَعٍ مِنِ الإِشْفَاقِ مَنْسَجُمْ

مُسْبِحاً لَكَ جُنْحَ اللَّيْلِ مُحْتَمِلاً
ضُرَّاً مِنَ السُّهْدِ أَوْ ضُرَّاً مِنَ الْوَرَمِ
رَضِيَّةً نَفْسُهُ لَا تَشْتَكِي سَأَمًا
وَمَا مَعَ الْحَبِّ إِنْ أَخْلَصَتْ مِنْ سَأَمٍ
وَصَلَّ رَبِّي عَلَى آلِ لَهُ نُخَبٍ
جَعَلَتْ فِيهِمْ لَوَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ
بَيْضُ الْوِجْهِ وَوَجْهُ الدَّهْرِ ذُو حَلْكٍ
ثُمُّ الْأَنُوفِ وَأَنْفُ الْحَادِثَاتِ حَمِيٍّ
وَأَهِدِ خَيْرَ صَلَاتِهِ مِنْكَ أَرْبَعَةَ
فِي الصَّحْبِ صَاحِبَتْهُمْ مَرْعِيَّةُ الْحُرَمِ
الرَاكِبِينَ إِذَا نَسَادَ النَّبِيُّ بِهِمْ
مَا هَالَ مِنْ جَلَلٍ وَأَشْتَدَّ مِنْ عُمُمِ
الصَّابِرِينَ وَنَفْسُ الْأَرْضِ وَاجْفَةُ
الضَّاحِكِينَ إِلَى الْأَخْطَارِ وَالْقُحْمِ
يَا رَبَّ هَبْتُ شُعُوبَ مِنْ مَنِيَّهَا
وَأَسْتَيْقَظَتْ أُمَّ مِنْ رَقَدَةَ الْعَدَمِ

سعده ونحس وملائكة أنت مالكه
تُدِيلُ من نعمٍ فييه ومن نقمٍ
رأي قضاوك فينا رأي حكمته
أكْرَم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لاجلِ رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسفاً ولا تُسم
يا رب أَحَسْنْت بَدْءَ المسلمين به
فتَمَّ الفضل وأَمْنَحْ حُسْنَ مختتم

أبو الهول

أباً الْهَوْلِ، طَالَ عَلَيْكَ الْعُصْرُ
وَبَلَّغَتَ فِي الْأَرْضِ أَقْصَى الْعُمُرِ
فِيَا لِدَةَ الْدَّهْرِ، لَا الْدَّهْرُ شَبَّ،
وَلَا أَنْتَ جَاوزْتَ حَدَّ الصَّغْرِ
إِلَامَ رَكْبُكَ مَنْ الْرَّمَا
لِلْطَّيِّ أَلَّا صِيلٍ وَجَوْبُ الْسَّحَرِ
تُسَافِرُ مُنْتَقِلاً فِي الْقُرُو
نِفَائِيَّانَ تُلْقِي غُبارَ السَّفَرِ؟
أَبَيْنِكَ عَهْدُ وَبَيْنَ الْجِبَارِ
لِ، تَزُولَانِ فِي الْمَوْعِدِ الْمَنْتَظَرِ؟
أَبَا الْهَوْلِ! مَاذَا وَرَاءَ الْبَقا
ءِ—إِذَا مَا تَطاوَلَ—غَيْرُ الْفَضَّجَرِ؟

عجبت للقمان في حرصه على لبَدٍ والنَّسُورِ الآخرِ (١)

وشكوى لبيد لطول الحياة ة، ولو لم تُطلِّ لتشكىَ الْقِصَرَ (٢)

(١) لقمان : لقمان بن عادباء ، وتزعم العرب أنه الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم ليستقي
ها ، فلما أهلكرها خير لقمان بين بيته سبع بقرات سمر من أطيب عفر في جبل وعر لا يسمها القطر
أو بيته سبعة أنسر كلها أهلك نسر مختلف بعده نسر . فاستحقرا الأبقار وآثر النسور . فلما لم
يبيغ غير السابع قتل ابن أخي له : ياعم ، ما بقي من عمرك إلا عمر هذا . فقتل لقمان . هذا ليد .
وليد - بلسانهم : الدهر . قالوا : وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في حوية في الجبل الذي هو في أصله
فيعيش الفرخ خمسة سنة أو أقل أو أكثر فإذا مات أخذ آخر مكانه حتى هنكت كلها إلا السابع
أخذه فوضعه في ذلك الموضع وسماء ليدا ، وكان أطوطها عمراً فصررت العرب به المثل فقالوا :
طال الأبد على ليد . قاتل الأعشى :

وأنت الذي أهليت قياد بكأسه
ولقمان إذ خيرت لقمان في العبر
لنفسك أن تختر سبعة أنسر
إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
ف عمر حتى خال أن نسورة
خلود وهل تبقى النسوس على الدهر

فعاش لقمان - كما زعموا - ثلاث آلاف وخمسة سنة . وقد النابفة :
أصحت خلاه وأضحي أهلها احتلوا أخني عليها الذي أخني على ليد
وهذا لقمان بن عادباء غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم .

ومن يزيد من أخبار الأعشى والتابعة يراجع ديوان «الأعشى» وديوان «التابعة» تحقيق فوزي عطوي
الشركة اللبنانية للكتاب ، كما يراجع كتاب «المعلقات العشر - دراسة ونصوص» لفوزي
عطوي - الشركة اللبنانية للكتاب - طبعة ١٩٦٩ .

(٢) «وشكوى لبيد» أي وعجبت لشکوى لبيد لطول الحياة ... الخ ، وهو لبيد بن ربيعة
الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم صاحب الملة المشهورة التي أولها :
عفت الديار محلها فمقتهاها بمن تأبد غولها فرجامها
كان لبيد من المعررين . روی أنه مات وهو ابن مائة وأربعين وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومائة
أول خلافة معاوية . أما شکرواهم التي ألم إليها بذلك حيث يقول :
لقد سنت من الحياة وطوطها وسؤال هذا الناس كيف ليد

ولو وجدت فيك يابن الصّفا
ة لَحِقْت بِصَانِعَكَ الْمُقْتَدِرِ
فِإِنَّ الْحَيَاةَ تُفْلِحُ الْحَدِيدُ إِذَا لَبَسَهُ وَتُبْلِي الْحَجَرُ
أَبَا الْهُولِ مَا أَنْتَ فِي الْمُعْضَلِ
تِ؟ لَقَدْ ضَلَّتِ السَّبِيلَ فِيَكَ الْفِكَرُ
تَحِيرَتِ الْبَدُؤُ ماذا تَكُونُ
نُ وَضَلَّتِ بَوَادِي الظُّنُونِ الْحَضَرُ
فَكَنْتَ لَهُمْ صُورَةً الْعَيْنُهُوا
نُ، وَكَنْتَ مِثَالَ الْحِجَارَى وَالْبَصَرِ
وَسِرِكَ فِي حُجْبِهِ كَلَّما
أَطَلَّتْ عَلَيْهِ الظُّنُونُ اسْتَرَّ
وَمَا رَاعُوهُمْ غَيْرُ رَأْسِ الْرِّجَا
لِ عَلَى هِيكَلِي مِنْ ذَوَاتِ الظُّفَرِ
وَلَوْ صُورُوا مِنْ نَوَاحِي الْطَّبَا
عَ تَوَالَّوا عَلَيْكَ سِبَاعَ الْصُّورِ
فِيَرَبَّ وَجْهِ كَصَافِي النَّمَى
رِ تَشَابَهَ حَامِلَهُ وَالْتَّمَرِ

أبا الهولِ ويحكَ لا يُستقدِ
لُ مع الدهر شيءٌ ولا يحتقرْ
تهزَّتْ دهراً بـسديك الصبا
ح فنَقَرَ عينيكَ فيما نقرَ
أساً البياضَ وسلَّ آلـسوادَ
وأوغَلَ منقارهُ في آلـالْهُـفْرِ
فـعُدَتْ كـائـنـكـ ذو الـمـحبـيـةـ
ـنـ ، قـطـيـعـ آـلـقـيـامـ سـلـيـبـ الـبـصـرـ
ـكـائـنـ الرـمـالـ عـلـىـ جـانـبـيـهـ
ـلـكـ وـبـيـنـ يـسـديـكـ ذـنـوبـ الـبـشـرـ
ـكـائـنـكـ فـيـهـاـ لـوـاءـ الـفـضـاـ
ـءـ عـلـىـ الـأـرـضـ أوـ دـيـبـانـ الـقـدـرـ
ـكـائـنـكـ صـاحـبـ رـمـلـ يـرـىـ
ـخـبـايـساـ الغـيـوبـ خـلالـ الـسـطـرـ

* * *

أبا الهولِ أنتَ نَدِيمُ الزَّماـنـ
ـنـ نـجـيـ الأـوـانـ سـمـيرـ الـعـصـرـ

بَسَطَتْ ذِرَاعِيكَ مِنْ آدَمِ
وَوَلَيْتَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْزُّمَرِ

تَطَلَّ عَلَى عَالَمٍ يَسْتَهِنُ
لُّولُ وَتَوْفِي عَلَى عَالَمٍ يُحْتَضَرُ

فَعَيْنٌ إِلَى مَنْ بَدَا لِلْوَجْوَهِ
دِ، وَأُخْرَى مَشِيعَةٌ مِنْ غَيْرِ
فَحَدَّثَ فَقَدْ يُهَتَّدِي بِالْحَدِيدِ
ثِ، وَخَبَرٌ فَقَدْ يُوتَسِي بِالْخَبَرِ

أَلَّمْ تَبْلُلْ فَرَعَوْنَ فِي عَزَّهِ
إِلَى الشَّمْسِ مُعْتَزِيًّا وَالْقَمَرِ
ظَلِيلَ الْحَضَارَةِ فِي الْأَوَّلِيَّةِ
سَنَ، رَفِيعُ الْبَنَاءِ، جَلِيلُ الْأَثَرِ
يُؤَسِّسُ فِي الْأَرْضِ لِلْغَابِرِيَّةِ
نَ وَيَغْرِسُ لِلآخْرِينَ الشَّمَرِ
وَرَاعِكَ مَارَاعَ مِنْ خِيْلٍ قَمْبِيَّةِ
زَ تَرْمِي سَانِبَكُهَا بِالشَّرَرِ

جوارفُ بالنار تغزو البلا
د وآونةً بالقنا المستجرِ
وأبصرت إسكندرًا في الملا
قشيب العلا في الشَّباب النَّضرِ

تبَلَّجَ في مصر إكليلاً
فلم يَعُدْ في الملك عمرَ الزَّهَرَ

وشاهدتَ قيصرَ كيفَ استبدَّ
وكيفَ أَذْلَّ بمصرَ القَصْرَ

وكيفَ تجَبَّرَ أَعوانهُ
وساقوا الخلائقَ سَوقَ الْحُمُرَ

وكيفَ ابْتُلُوا بقليلِ العدِيْدِ
لمِن الفاتحينِ كريمِ النَّفْرِ

رمى ناجَ قيصرَ رميَ الزجا
جِ، وَفَلَ الجموعَ وَثَلَ السررَ

فَدَعْ كُلَّ طاغيةَ للزَّمَا
نِ فَإِنَّ الزَّمَانَ يُقيِّمُ الْصَّرَعَ

رأيتَ الدياناتِ في نظمِها
و حينَ و هي سلْكُها و انتشرَ
تُشادُ البيوتُ لها كالبُرُو
جِإذاً أخذَ الطرفُ فيها انحرَ
تللاقى أساساً و شمَّ الجبا
لِ كما تللاقى أصولُ الشجرِ
و إيزيسُ خلفَ مقاصيرِها
تَخْطَى الملوكُ إلَيْها السُّرُ
تضيءُ على صفحاتِ السما
ء و تُشرقُ في الأرضِ منها الحُجْرِ
و آبيسُ في نيرةِ الْعَالَمِ
نَ ، وبعضُ العقاديدِ نيرٌ عَسِيرٌ
تُسَاسُ به معضلاتِ الْأَمْوَالِ
رِ ، و يُرجى النعيمُ و تخشى سُرُورٌ
ولا يشعرُ الْقَوْمُ إِلَّا بِهِ
ولو أخذتهُ الْمُدِي ما شعرَ

يَقِلُّ أَبُو الْمُسْكِ عَبْدًا لَه
وَإِنْ صَاغَ أَحْمَدُ فِيهِ الْدَرَرَ
وَآنَسَتْ مُوسَى وَتَابُوتَهُ
وَنُورَ الْعَصَا وَالْوَصَابَا الْغُرَرَ
وَعِيسَى يَلْمُ رَدَاءُ الْجِبَا
ءُ وَمَرِيمُ تَجْمَعُ ذِيلَ الْخَفَرَ
وَعُمَرُ يَسُوقُ بِمَصْرَ الصَّحَا
بَ وَيُزْجِي الْكِتَابَ وَيَحْدُو السُورَ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ الْهُدَى وَالضَّلا
لَ وَدُنْيَا الْمُلُوكِ وَأُخْرَى عُمَرَ؟
وَنَبَذَ الْمُقَوْقَسِ عَهْدَ الْفُجُورِ
رِ وَأَخَذَ المُقَوْقَسِ عَهْدَ الْفَجَرِ
وَتَبَدِيلَهُ ظَلَمَاتُ الضَّلا
لِ بَصَبَحَ الْهَدَايَةُ لَا سَفَرُ
وَتَأْلِيفَهُ الْقِبْطَ وَالْمُسْلِمِيَّةِ
نَ كَمَا أَلْفَتَ بِالْوَلَاءِ الْأَسْرَ

أبا الهولِ ، لو لم تكن آيةً
لكانَ وفاوكَ إحدى العِبرْ
أطلّتَ على الهرمينِ الوقو
فَكشاكلةٌ لاتَّريمِ الحفر
تُرجي لبانيهما عودةٌ
وكيف يعودُ الرميم النخر؟
تجوسُ بعينِ خلالَ الديا
ر وترمي بأخرى فضاءَ النهرَ
ترومُ بمنفيسَ بيضَ الظبا
وسُمرَ القنا والخميسِ الدثرَ
ومهدِ العلومِ الخطيرِ الجلا
لِوهمَ الفنونِ الجليلِ الخطرَ
فلا تستبين سوي قريةٌ
أَجَدَّ محسنهَا ما اندرَ
تَكاد لِغرقهَا في الجمو
دِإذا الأَرض دارت بها لم تَدُرْ
فهل من يبلغُ عنَّا الأصو
لَبَأنَّ الفروع اقتدت بالسَّيرِ؟

وَأَنَا خَطَبْنَا حِسَانَ الْعَلَا
 وَسَقَنَا لَهَا الْعَالَىَ الْمَدَّحَرَ
 وَأَنَا رَكِبْنَا غُمَارَ الْأَمُوْرَ
 رِ وَأَنَا نَزَّلْنَا إِلَى الْمُوتَمَرَ
 بِكُلِّ مُبِينٍ شَدِيدَ اللَّدَا
 دَ وَكُلِّ أَرَيْبٍ بَعِيدَ النَّظَرَ
 تُطَالِبُ بِالْحَقِّ فِي أُمَّةٍ
 جَرِيَ دُمْهَا دُونَهُ وَانْتَشَرَ
 وَلَمْ تَفْتَخِرْ بِأَسَاطِيلِهَا
 وَلَكِنْ بِدَسْتُورِهَا تَفْتَخِرْ
 فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مِنْ لَمْ يَحْفَظْ
 وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مِنْ لَمْ يَطْرَأْ
 تَحْرُكَ أَبَا الْهَوْلِ هَذَا الزَّمَانُ
 نُ تَحْرُكَ مَا فِيهِ ، حَتَّى الْحَجَرَ

* * *

«فَلَمَا أَئْمَهَا أَجَابَهُ آخِرَ كَانَ يَخْتَفِي وَرَاءَ التَّمَثَالِ وَيَنْطَقُ
 بِلِسَانِهِ» :

نجيَّ أبي الهول آن الأَوَّلِ
 نُ ، ودان الزمانُ ولأنَّ القدر
 خبأَتْ لقومك ما يستقو
 فعندي الملوكُ بِاعيَانِها
 وعندَ التوابيتِ منها الآخر
 محاظلمةَ اليأسِ صُبحُ الرجا
 ء وهذا هو الفلقُ المنتظر
 «ثمَّ انشقَ صدرُ أبي الهول عن فتيٍ وفتاةٍ مثلاً أمماه
 وأنشدا هذا النشيد»:

ونُعيَدُ محسَنَ ماضينا
 اليوم نسود بواطننا
 ونُشيدُ العز بآيادينا
 وطن بالحقِّ نويده
 وبعين الله نشيده
 ونحسنـه ونزيـنه
 سر التاريخ وعنصـره
 وجنـان الخلـد وكوثـره
 نتـخذ الشـمس له تاجـاً
 وسماء السـودـد أـبراجـاً
 والعـصر يراكم والأـمم
 أـبني الأـوطـان أـلا هـمـمـ
 سعيـاً أـبداً سعيـاً سعيـاً
 لأنـجـعل مصرـ هي الدـنيـا

ولد الهدى

وُلد الْهَدِي فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءٌ
وَفِيمُ الزَّمَانِ تَبْسُمُ وَثَنَاءٌ
الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَ حَوْلُهُ
لِلْدِينِ وَالْدُّنْيَا بِهِ بُشَرَاءُ
وَالْعَرْشُ يِزَهُو وَالْحَظِيرَةُ تِزَدَهِي
وَالْمُنْتَهِي وَالسُّدْرَةُ الْعَصَمَاءُ
وَحْدِيَقَةُ الْفَرْقَانِ ضَاحِكَةُ الرَّبِّي
بِالْتُّرْجُمَانِ شَذِيَّةُ غَنَاءُ
وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلًا مِنْ سَلْسَلٍ
وَاللُّوْحُ وَالْقَلْمَنِ الْبَدِيعُ رَوَاءُ
نُظِّمَتْ أَسَامِي الرَّسُلِ فِيهِ صَحِيفَةُ
فِي اللُّوْحِ، وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغَرَاءُ

اسمُ الجَلَالَةِ فِي بَدِيعِ حِرْوَفِهِ
أَلِفُ هَنَالِكَ وَاسْمُ (طه) الْبَاءُ

* * *

يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الْوُجُودَ تَحْيَةً
مِنْ مُرْسَلِينَ إِلَى الْهُدَىِ بِكَ جَاءُوا

بَيْتُ النَّبِيِّنَ الَّذِي لَا يَلْتَقِي
إِلَّا الْحَنَائِفُ فِيهِ وَالْحُنَفَاءُ

خَيْرُ الْأُبُوَّةِ حَازَهُمْ لَكَ (آدَمُ)
دُونَ الْأَنَامِ وَأَحْرَزَتْ حَوَاءُ

هُمْ أَدْرَكُوا عِزَّ النَّبِيَّةِ وَانْتَهَتْ
فِيهَا إِلَيْكَ الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ

خَلَقْتَ لَبِيْتَكَ وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهَا
إِنَّ الْعَظَائِمَ كَفُؤُهَا الْعَظَمَاءُ

بِكَ بَشَّرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فَزِينَتْ
وَتَضَوَّعَتْ مِسْكًا بِكَ الْغَبْرَاءُ

وَبِدَا مُحِيَّكَ الَّذِي قَسَمَاهُ
حَقٌّ وَغَرَّتُهُ هَدَىٰ وَحِيَاءُ

وعليه من نور النبوة رونقُ
ومن الخليل وهديه سيماءٌ
أثنى (المسيح) عليه خلف سمائه
وتهللَتْ واهتزَتْ (العذراء)
يوم يتباهى على الزمان صباحه
ومساوه (محمد) وضائِ
الحق عالي الركن فيه مظفرٌ
في المُلْك لا يعلو عليه لواءٌ
ذُعرَتْ عروش الظالمين فزارتْ
وعلت على تيجانهم أصدائِ
والنارُ خاوية الجوانب حولهم
خَمَدَتْ ذوائبها وغاصَ الماءُ
والآي تترى والخوارق جمةٌ
(جبريل) رواحْ بها غدائِ
نعم الْيَتَيمُ بدَتْ مَخايلُ فضله
واليتمُ رزقُ بعْضُهُ وذكاءُ
في المهدِ يُستسقى الحيا برجائه
وبقصدِه تستدفعُ البأساءُ

لِسُوی الْأَمَانةِ فِي الصِّبَا وَالصَّدْقِ لَمْ
يَرْفَهُ أَهْلُ الصَّدْقِ وَالْأَمَانَةِ
يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهُوَى الْعَلَا
مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبُرَاءُ
لَوْلَمْ تُقِيمْ دِينًا ، لَقَامَتْ وَحْدَهَا
دِينًا تُضِيءُ بِنُورِهِ الْأَنَاءُ
زَانْتَكِ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلَ
يُغَرِّي بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكُرَمَاءُ
أَمَا الْجَمَالُ فَإِنَّتْ شَمْسُ سَمَائِهِ
وَمَلَاحَةً (الصَّدِيق) مِنْكِ أَيَّاهُ
وَالْحَسْنُ مِنْ كَرْمِ الْوِجُوهِ وَخَيْرُهُ
مَا أُوتِيَ الْفُؤَادُ وَالْزُعمَاءُ
فَإِذَا سَخَّوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُودِ الْمَدِي
وَفَعَلْتَ مَا لَا تَفْعَلُ الْأَنَوَاءُ
وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا وَمَقْدِرًا
لَا يَسْتَهِنُ بِعَفْوِكَ الْجُهْلَاءُ
وَإِذَا رَحِمْتَ فَإِنَّتْ أُمَّاً أَوْ أَبًّا
هَذَا فِي الدُّنْيَا هَمَا الرُّحْمَاءُ

وإذا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِيَ غَضْبَةُ
فِي الْحَقِّ لَا ضِغْنَ وَلَا بُغْضَاءُ
وإذا رضيت فذاك في مرضاته
وَرِضَى الْكَثِيرَ تَحْلُمُ وَرِيَاءُ
وإذا خطبْتَ فللمُنَابِرَ هَزَّةُ
تَعْرُو النَّسْدِيَّ وَاللَّقْلُوبَ بَكَاءُ
وإذا قضيت فلا ارتياشَ كَانَةُ
جَاءَ الْخُصُومَ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ
وإذا حَمَيْتَ الْمَاءَ نَمْ يُورَدُ وَلَوْ
أَنَّ الْقَيَاصِرَ وَالملوَكَ ظِمَاءُ
وإذا أَجَرْتَ فَأَنْتَ بَيْتُ اللهِ لَمْ
يَدْخُلْ عَلَيْهِ الْمُسْتَجِيرَ عَدَاءُ
وإذا ملكت النفسَ قمت ببرُّها
ولَوْاَنَّ ما ملكت يَدَاكَ الشَّاءُ
وإذا بنيت فخير زوج عشرة
وإذا أَبْتَنَيْتَ فدونك آباءَ
وإذا صحبت رأى الوفاء مجسماً
في بردك الأصحاب والخلطاءُ

وإذا أخذتَ العهدَ أوْ أَعْطَيْتَهُ
 فجمعُ عَهْدِكَ ذمَّةٌ ووفاءٌ
 وإذا مشيتَ إِلَى العِدَى فغضَنْفَرُ
 وإذا جريتَ فَإِنَّكَ النَّكِبَاءُ
 وتمَدَّ حِلْمَكَ لِلسَّفَيْهِ مَدَارِيَا
 حتى يضيقَ بِعِرْضِكَ السَّفَهَاءُ
 في كُلِّ نَفْسٍ مِنْ سُطُّوكَ مَهَابَةُ
 ولكلِّ نَفْسٍ فِي نِدَاكَ رَجَاءُ
 والرأيُ لَمْ يُنْضَ أَمْهَنْدُ دُونَهُ
 كالسيفِ لَمْ تَضْرِبْ بِهِ الْأَرَاءُ

* * *

يَا أَيُّهَا الْأَمِيْهِ حَسْبُكَ رَتْبَةُ
 فِي الْعِلْمِ أَنْ دَائِنْتُ بِكَ الْعُلَمَاءُ
 الذِّكْرُ آيَةٌ رَبِّكَ الْكَبْرِيَّةِ الَّتِي
 فِيهَا لِبَاغِيَ الْمَعْجزَاتِ غَنَاءُ
 صَدْرُ الْبَيَانِ لَهُ إِذَا التَّقَتِ اللِّغَيْ
 وَتَقْدِمُ الْبَلْغَاءُ وَالْفَصْحَاءُ

نُسِخَتْ بِهِ التُّورَاةُ وَهِيَ وَضِيَّةٌ
وَتَخَلَّفَ الْإِنْجِيلُ وَهُوَ ذُكَاءٌ

لَا تَمَشَّىٰ فِي (الحجاج) حَكِيمٌ
قَضَّتْ (عُكاظُهُ) بِهِ وَقَامَ حِرَاءُ

أَزْرِي بِمِنْطَقِ أَهْلِهِ وَبِيَانِهِمْ
وَحِيٌّ يَقْصُّرُ دُونَهِ الْبَلْغَاءُ
حَسَدُوا فَقَالُوا شَاعِرٌ أَوْ سَاحِرٌ
وَمِنْ الْحَسُودِ يَكُونُ الْأَسْتَهْزَاءُ

قَدْ نَالَ (بِالْهَادِيِّ) الْكَرِيمُ وَ(بِالْهَدِيِّ)
مَا لَمْ تَنَلْ مِنْ سُودِ سِينَاءُ

أَمْسَى كَائِنَكَ منْ جَالِلِكَ أُمَّةٌ
وَكَائِنَهُ مِنْ إِنْسِيَهُ بِيَدِهِ

يُوحِي إِلَيْكَ الْفُوزُ فِي ظُلْمَاتِهِ
مُتَابِعًاً تُجْلِي بِهِ الظَّلَمَاءُ

دِينُ يَشِيدُ آيَةً فِي آيَةٍ
لِبَنَائِهِ السُّورَاتِ وَالْأَضْوَاءُ

الحقُّ فيه هو الأَسَاسُ وَكَيْفَ لَا
وَاللهُ جَلَ جَلالهُ الْبَنَاءُ
أَمَا حَدِيثُكَ فِي الْعُقُولِ فَمُشَرِّعٌ
وَالْعِلْمُ وَالْحِكْمُ الْغَوَالِيُّ الْمَاءُ
هُوَ صِبَغَةُ الْفُرْقَانِ نَفْحَةُ قُدْسِيهِ
وَالسِّينُ مِنْ سُورَاتِهِ وَالرَّاءُ
جَرَتِ الْفَصَاحَةُ مِنْ يَنَابِيعِ النُّهَى
مِنْ دَوْحِهِ وَتَفْجَرَ الْإِنْشَاءُ
فِي بَحْرِهِ لِلسَّابِحِينَ بِهِ عَلَى
أَدَبِ الْحِيَاةِ وَعِلْمِهَا إِرْسَاءُ
أَتَتِ الدُّهُورُ عَلَى سُلَافَتِهِ وَلَمْ
تَفْنَ السُّلَافُ وَلَا سَلَالُ الْنُّدَمَاءُ
بِكَ يَابْنَ عَبْدِ اللهِ قَامَتْ سَمَحةُ
بِالْحَقِّ مِنْ مِلَلِ الْهَدَى غَرَاءُ
بُنِيَّتْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَهِيَ حَقِيقَةٌ
نَادَى بِهَا سُقْرَاطُ وَالْقَدْمَاءُ
وَجَدَ الزَّعَافَ مِنَ السُّمُومِ لِأَجْلِهَا
كَالْشَّهِيدِ ثُمَّ تَنَاهَى الشَّهَدَاءُ

ومشى على وجه الزمان بنورها
كَهَانُ وادي النيل والعرفاء

إِيزيس ذات الملك حين توحدتْ
أَخذتْ قِوَامَ أمرها الأَشياء

لَا دعوت الناس لَبَّيْ عاقل
وَأَصْمَّ مِنْكَ الجاهلين نِداء

أَبوا الخروج إِلَيْكَ من أَوهامهم
وَالنَّاسُ فِي أَوهامهم سُجَنَاء

وَمِنْ الْعُقُولِ جَدَاوِلُ وَجَلَامِدُ
وَمِنْ النُّفُوسِ حَرَائِرُ وَإِماءَ

دَاءُ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَرْسَطَالِيسِ لَمْ
يُوصَفْ لَهُ حَتَّى أَتَيْتَ دَوَاءَ

فَرَسَّمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حُكْمَةً
لَا سُوقَةٌ فِيهَا وَلَا اُمْرَاءٌ
اللَّهُ فَوْقَ الْخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ
وَالنَّاسُ تَحْتَ لِوائِهَا أَكْفَاءُ

والدِّينُ يُسْرٌ والخِلَافَةُ بِيَهُ
وَالْأَمْرُ شُورَى وَالْحَقُوقُ قَضَاءُ
الاشْتَراكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ
لَوْلَا دُعَاوَى الْقَوْمَ وَالْغُلْوَاءُ
دَاوَيْتَ مُتَّهِدًا وَدَاؤُوا طَفْرَةً
وَأَخْفَفْتَ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ
الْحَرْبُ فِي حَقٍّ لَدِبِكَ شَرِيعَةً
وَمِنْ السُّومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءُ
وَالْبَرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ وَفَرِيضَةٌ
لَا مِنَّةٌ مِنْوَةٌ وَجِبَاءٌ
جَاءَتْ فَوْحَدَتْ الزَّكَاةَ سَبِيلَهُ
حَتَى التَّقْيَى الْكَرْمَاءُ وَالْبَخْلَاءُ
أَنْصَفَتْ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغَنِيِّ
فَالْكَلُّ فِي حَقٍّ الْحِيَاةُ سَوَاءُ
فَلَوْلَآ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَةً
مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفَقْرَاءُ

* * *

يأيها المسرى به شرفاً إلى
مala تناول الشمس والجوزاء
يتتسائلون وأينت أظهر هيكلٍ
بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مُطهرين كلامها
نور وريحانية وبهاء
فضل عليك لذي الجلال ومنة
والله يفعل ما يرى ويشاء
تششى الغيب من العوالم كلما
طويت سماء قلدتك سماء
في كل منطقة حواشي نورها
نون وأنت النقطة الزهراء
أنت الجمال بها وأنت المجتبى
والكاف والمراة والحسنا
الله هيئاً من حظيرة قدسيه
نزلأً لذاتك لم يعجزه علاء
العرش تحتك سدة وقوائمه
ومناكب الروح الأمين وطاء

والرسل دون العرش لم يوْذَنْ لهم
حاشا لغيركَ موعد ولقاء

* * *

الخيلُ تَابَىٰ غَيْرَ (أَحْمَدَ) حَامِيَا
وَبَهَا إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ خِيلَاءُ
شِيَخُ الْفَوَارِسِ يَعْلَمُونَ مَكَانَهُ
إِنْ هِيجَتْ آسَادَهَا الْهِيجَاءُ
وَإِذَا تَصَدَّىٰ لِلظَّبَىٰ فَمَهَنَدُ
أَوْ لِلرَّمَاحِ فَصَعْدَةُ سَمَرَاءُ
وَإِذَا رَمَىٰ عَنْ قَوْسِيهِ فِيمِينُهُ
قَدْرُ وَمَا تَرْمِي الْيَمِينُ قَضَاءُ
مِنْ كُلِّ دَاعِيِ الْحَقِّ هَمَّةُ سِيفَهُ
فَلِسِيفَهِ فِي الرَّأْسِيَاتِ مَضَاءُ
سَاقِيِ الْجَرِيحِ وَمُطْعِمِ الْأَسْرَىٰ وَمِنْ
أَمِنَتْ سَنَابَكَ خِيلَهُ الْأَشْلَاءُ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الْأَرْجَالِ غَلَاظَةُ
مَا لَمْ تَزْنَهَا رَأْفَةُ وَسَخَاءُ

وال Herb من شرف الشعوب فإن بغوا
 فالمجدُ مَمَا يَدْعُونَ بِرَاءَ
 وال Herb يَبْعُثُهَا الْقَوْيُ تجْرِأً
 وينوءُ تحت بلائها الضعفاءُ
 كم من غزاءً للرسول كريمة
 فيها رضىً للحق أو إعلاءً
 كانت لجناد الله فيها شدةً
 في إثراها للعالمين رخاءً
 ضربوا الضلالَ ضربةً ذهبت بها
 فعلَى الجهالة والضلال عفاءً
 دعموا على الحرب السلامَ وطالما
 حقنت دماءً في الزمانِ دماءً

* * *

الحقُّ عَرَضَ اللَّهُ كُلَّ أَبِيَّةٍ
 بين النُّفُوسِ حَمِّىَ لَهُ ووقاءٌ
 هل كان حول (محمد) من قومه

فدعى فلبي في القبائل عصبة
 مُسْتَضْعِفُونَ قلائلٌ أَنْصَاء
 ردوا ببَيْس العزم عنده من الأذى
 مَا لَا تَرُدُ الصخْرَةُ الصَّمَاءُ
 وَالْحُقُّ وَالإِيمَانُ إِنْ صُبَّا عَلَى
 برد فيه كتبةٌ خرساءٌ
 نَسْفُوا بَنَاءَ الشَّرْكِ فَهُوَ خرائبٌ
 وَأَسْتَأْصِلُوا الْأَصْنَامَ فَهِيَ هَبَاءٌ
 يَمْشُونَ، تُغْضِي الْأَرْضُ مِنْهُمْ هَبَيْةً
 وَبَهُمْ حِيَالٌ نَعِيمُهَا إِغْصَاءٌ
 حَتَّى إِذَا فُتِحتَ لَهُمْ أَطْرَافُهَا
 لَمْ يُطْغِيهِمْ تَرَفٌ وَلَا نِعْمَاءٌ
 يَامَنْ لَهُ عِزٌ الشَّفَاعةُ وَحْدَهُ
 وَهُوَ الْمُنْزَهُ مَالِهُ شُفَاعَاءٌ
 عَرْشُ الْقِيَامَةِ أَنْتَ تَحْتَ لَوَائِهِ
 وَالْحُوْضُ أَنْتَ حِيَالُهُ السَّقَاءُ
 تروي وتسقي الصالحين ثوابهم
 والصالحات ذخائر وجزاءٌ

أَمْلَلَ هَذَا ذُقْتَ فِي الدُّنْيَا الطَّوْى
 وَانْشَقَّ مِنْ خَلْقٍ عَلَيْكَ رَدَاءُ
 لِي فِي مَدِيْحَكَ يَا رَسُولُ عَرَائِسُ
 تُبَيِّنَ فِيكَ وَشَاقِهِنَّ جَلَاءُ
 هُنَّ الْحَسَانُ فَإِنْ قَبْلْتَ تَكْرَمًا
 فَمَهُورُهُنَّ شَفَاعَةُ حَسَنَاءُ
 أَنْتَ الَّذِي نَظَمَ الْبَرِيَّةَ دِينَهُ
 مَاذَا يَقُولُ وَيَنْظِمُ الشُّعْرَاءُ
 الْمَصْلُحُونَ أَصَابِعُ جُمِيعَتِ يَدَأُ
 هِيَ أَنْتَ بَلْ أَنْتَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
 مَا جَئْتُ بَابَكَ مَادِحًا بَلْ دَاعِيًّا
 وَمِنْ الْمَدِيْحِ تَضَرُّعٌ وَدَعَاءُ
 أَدْعُوكَ عَنْ قَوْمِي الْضَّعَافِ لِأَرْزَمَةٍ
 فِي مُثْلِهَا يَلْقَى عَلَيْكَ رَجَاءُ
 أَدْرِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ نُفُوسَهُمْ
 رَكِبَتْ هَوَاهَا وَالْقُلُوبُ هَوَاءُ

مُتَفَكِّكُونَ فَمَا تَضْمُ نفوسهم
ثَقَةٌ ، وَلَا جَمْعٌ لِالْقُلُوبِ صِفَاءٌ
رَقِدُوا وَغَرَّهُمْ نَعِيْمٌ باطِلٌ
وَنَعِيْمٌ قَوْمٌ فِي الْقِيُودِ بِلَاءٌ

* * *

ظلموا شريعتك التي نلنا بها
ما لم ينل في رومة الفقهاء
مشت الحضارة في سنانها واهتدى
في الدّين والدنيا بها السعداء
صلى عليك الله ما صاحب الدجى
حادٍ وحنت بالفلا وجناء
واستقبل الرضوان في غرفاتهم
بح JAN عن آنـك السمحاء
خير الوسائل من يقع منهم على
سبـبـ إـلـيـكـ فـحـسـبـيـ (الزـهـراءـ)

شهيد الحق

إِلَامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ إِلَامًا؟
وَهُذِي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلَامًا؟ (١)
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
وَتُبَدِّلُونَ الْعِدَاوَةَ وَالْخِصَامَ؟
وَأَيْنَ الْفَوْزُ؟ لَامْسِرُ اسْتَقَرَّتْ
عَلَى حَالٍ وَلَا السُّودَانُ دَامَ
وَأَيْنَ ذَهَبْتُمْ بِالْحَقِّ لَـا
رَكِبْتُمْ فِي قَضِيَّةِ الظَّلَامَ؟
لَقَدْ صَارَتْ لَكُمْ حُكْمًا وَغُنْمًا
وَكَانَ شِعَارُهَا الْمَوْتُ الزُّوَّامًا
وَثِقْتُمْ وَاتَّهَمْتُمْ فِي الْلَّيَالِي
فَلَا ثَقَةً أَدْمَنَ وَلَا اتَّهَاماً

(١) نظم شوقي هذه القصيدة في الذكرى السابعة عشرة للمرحوم مصطفى كامل وأشار إلى ما انتاب البلاد يومذاك من أحوال .

شَبِّيْتُمْ بَيْنَكُمْ فِي الْقُطْرِ نَاراً
عَلَى مُحْتَلِّهِ كَانَتْ سَلَاماً

إِذَا مَا رَأَيْتُهَا بِالْعُقْلِ قَوْمٌ
أَجَدَّ لَهَا هُوَ قَوْمٌ ضِرَاماً

تَرَامِيْتُمْ ، فَقَالَ النَّاسُ : قَوْمٌ
إِلَى الْخُذْلَانِ أَمْرُهُمْ تَرَامَى

وَكَانَتْ مِصْرُ أَوَّلَ مَنْ أَصْبَيْتُمْ
فَلَمْ تُحْصِ الْجِرَاحَ وَلَا الْكَلامَا

إِذَا كَانَ الرُّمَاهُ رَمَاهَ سَوِيٌّ
أَحْلَوا غَيْرَ مَرْمَاهَا السَّهَاماً

أَبْعَدَ الْعُروَةَ الْوُثْقَى وَصَفَّ
كَائِيَابِ الْغُضَنْفَرَ لَنْ يُرَامَا

تَبَاغِيْتُمْ كَائِنَكُمْ خَلَيَا
مِنَ السَّرْطَانِ لَا تَجِدُ الضَّيْماً؟

أَرَى طَيَارَهُمْ أَوْفِيَ عَلَيْنَا
وَحَلَقَ فَوْقَ أَرْوَسَنَا وَحَامَا

وَأَنْظُرْ جِيشَهُمْ مِنْ نَصْفِ قَرْنَيْ
 عَلَى أَبْصَارِنَا ضَرَبَ الْخِيَاماً
 فَلَا امْسَاوْنَا نَقْصُوهُ رَمْحًا
 وَلَا خُوَانِنَا زَادُوا حَسَاماً
 وَنُلْفِي الْجَوْ صَاعِقَةً وَرَعْدًا
 إِذَا قَصْرُ الْدَبَارِ فِيهِ غَاماً
 إِذَا انْفَجَرَتْ عَلَيْنَا الْخَيْلُ مِنْهُ
 رَكَبْنَا الصَّمْتَ أَوْ قُدْنَا الْكَلامَا
 فَأَبْنَا بِالْتَخَاذْلِ وَالْتَلَاحِي
 وَآبَ بِمَا ابْتَغَى مِنَا وَرَامَا

* * *

مَلْكُنَا مَارِنَ الدُّنْيَا بِوقْتٍ
 فَلَمْ نَحْسُنْ عَلَى الدُّنْيَا الْقِيَاماً
 طَلَعْنَا وَهِيَ مُقْبَلَةٌ أَسْوَدًا
 وَرَحْنَا وَهِيَ مُدْبَرَةٌ نَعَاماً
 وَلَيْنَا الْأَمْرَ حَزْبًاً بَعْدَ حَزْبٍ
 فَلَمْ نَلْكُ مُصْلِحِينَ وَلَا كِرامَا

جعلنا الحُكْم توليةً وعزلاً
 ولم نعد الجزاء والانتقاما
 وسُسنا الأمْر حين خلا إلينا
 بأهواء النفوس فما استقاما
 إذا التصريحُ كانَ براحَ كفري
 فلمْ جُنَّ الْرِّجَالُ به غراماً؟
 وكيف يكون في أيدٍ حلاً
 وفي أخرى من الأيدي حراماً؟
 وما أدرى غداة سُقِيتُمُوهُ
 أتريساقاً سقيتم أم سِماماً؟⁽¹⁾

* * *

شهيدَ الحقّ قم تره يتيمًا
 بـأرضٍ ضيّعت فيه اليتامي
 أقامَ على الشفاه بها غريبًا
 ومر على القلوب فما أقاما

(1) سعام : سعوم .

سَقِمَتْ فلم تبت نفسُ بخیر
 كَانَ بِمَهْجَةِ الْوَطَنِ السَّقَامَا
 ولم أَرَ مثَلَّ نعْشِكَ إِذْ تهَاوِي
 فغطَّى الْأَرْضَ وانتَظَمَ الْأَنَامَا (١)
 تَحْمَلَ هِمَّةً وَأَقْلَّ دِينًا
 وضم مُروءَةً، وحوى زماما
 وَمَا أَنْسَاكَ فِي الْعِشْرِينَ لِمَا
 طلعت حِيالَهَا قَمِراً تَمَاماً
 يُشارُ إِلَيْكَ فِي النَّادِي وَتُرْمَى
 بعيري من أَحَبِّ وَمِنْ تَعَامِي
 إِذَا جَئْتَ الْمَنَابِرَ كُنْتَ قُسَّاً
 إِذَا هُوَ فِي عَكَاظَ عَلَى السَّنَامَا (٢)
 وَأَنْتَ أَلَذُّ لِلْحَقِّ اهْتِزَازًا
 وَأَلْطَفُ جِينَ تَنْطَقُهُ ابْتِسَاماً
 وَتَحْمِلُ مِنْ أَدِيمِ الْحَقِّ وَجْهًا
 صُرَاحًا لِيْسَ يَتَخَذُ اللِّثَامَا

(١) تهادى : تمايل فوق عنق المшиعين .

(٢) قس : قس بن ساعدة الأبيادي الذي كان يخطب الناس في عكاظ وهو على ظهر البعير .

أَتذَكُّرُ قَبْلَ هَذَا الْجِيلِ جِيلًا
سَهْرَنَا عَنْ مَعْلَمِهِمْ وَنَامَ؟
مِهَارُ الْحَقِّ بَغَضْنَا إِلَيْهِمْ
شَكِيمَ الْقِبْرِيَّةِ وَالْجَامَ(١)
لَوْاْوَكَ كَانَ يَسْقِيهِمْ بِجَامِ
وَكَانَ الشِّعْرُ بَيْنَ يَدَيِّ جَامَا
مِنَ الْوَطَنِيَّةِ اسْتَبَقُوا رَحِيقًا
فَضَضْنَا عَنْ مُعْتَقِهَا الْخَاتَمَا
غَرَسْنَا كَرْمَهَا فَزَكَا أَصْوَلَا
بِكُلِّ قَرَارِهِ وَزَكَا مُدَامَا
جَمَعْتُهُمْ عَلَى نِبَرَاتِ صَوْتِ
كَنْفُخِ الصُّورِ حَرَّكَتِ الرِّجَامَا(٢)
لَكَ الْخُطَبُ الَّتِي غُصَّ الْأَعْدَادِيِّ
بِسُورْتَهَا وَسَاغَتِ لِلنَّدَامِيِّ
فَكَانَتْ فِي مَرَارَتِهَا زَئِيرًا
وَكَانَتْ فِي حَلَوْتِهَا بُغَامَا(٣)

(١) الجام : الإناء الفضي .

(٢) الرجام : القبور .

(٣) «البغام» : صوت الظبي

بَكَ الْوَطْنِيَّةُ اعْتَدَلَتْ وَكَانَتْ
حَدِيثًا مِنْ خَرَافَةٍ أَوْ مِنَامًا
بَنِيتَ قَضِيَّةَ الْأَوْطَانِ مِنْهَا
وَصَبَرَتَ الْجَلَاءَ لَهَا دِعَامًا
هزَّتْ بَنِي الزَّمَانَ بِهِ صَبِيًّا
وَرُعِتْ بِهِ بَنِي الدُّنْيَا غَلَامًا

بعد المنفى

أنادي الرسم لو ملك الجوابا
وأجزيه بدمعي لو أثابا (١)
وقل لحقه العبرات تجري
وإن كانت سواد القلب ذابا
سبقَنْ مُقَبَّلاتِ التربِ عني
وأدَّينَ التحيَّةَ والخطابا
نشرتُ الدمعَ في الْدَمْنِ البوالي
كتنزمي في كواعبها الشبابا
وقفتُ بها كما شاعت وشاءعوا
وقوفاً عَلَمَ الصبرَ الذهابا

(١) كانت هذه القصيدة فاتحة شعر الشاعر بعد عودته من منفاه ببلاد الاندلس، وقد اشاد فيها بذكر تلك البلاد شكرأ لها ، وعرفانا يحملها . ثم انتقل الى استقبال بلاده بعد تلك الغيبة الطويلة ، وعرض على مسألة التموين التي كانت حينئذ شغل البلاد الشاغل . وقد انشدت هذه القصيدة في اجتماع بجان التموين بال اوبرا الملكية عام ١٩٢٠ .

لها حقٌ وللأحباب حقٌ
 رشتُ وصالهم فيها حُباباً
 ومن شكرَ الماجِم محسِناتٍ
 إذا التبرُّ انجلٰ شكر الترابا
 وبين جوانحي وافٍ ألوفٌ
 إذا لَحَ الديار مضى وثابا
 رأى ميل الزمان بها فكانت
 على الأيام صحبته عتابا

* * *

وداعاً أرضَ آندلسٍ وهذا
 ثنائي إن رضيت به ثوابا
 وما أثنيتُ إلا بعدَ علمٍ
 وكم من جاهل أثني فعابا
 تخذُلُكِ موئلاً فحللتُ آندَى
 ذريًّا من وائلٍ وأعزَّ غابا
 مغربُ آدمٍ من دار عدنٍ
 قضاها في حمايكِ لي اغترابا

شُكِرْتُ الْفُلْكَ يَوْمَ حَوَيْتِ رَحْلِي
 فِيَا لِمَفَارِقٍ شُكِرَ الْغَرَابَا
 فَأَنْتَ أَرَحَّتِنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ
 كَأَنْفَ الْمَيْتِ فِي الْزَّرَعِ اِنْتَصَابَا
 وَمَنْظِرٌ كُلُّ خَوَانٍ يَسْرَانِي
 بِوْجَهِ كَالْبَغَيِّ رَمِيَ النَّقَابَا
 وَلَيْسَ بِعَامِرٍ بَنِيَانٌ قَوْمٌ
 إِذَا أَخْلَاقَهُمْ كَانَتْ خَرَابَا

* * *

أَحَقُّ كُنْتَ لِلزَّهْرَاءِ سَاحَّا
 وَكُنْتَ لِسَاكِنِ (الْزَاهِي) رَحَابَا؟
 وَلَمْ تَكُ (جُور) أَبْهَى مَنْكِ وَرَدَا
 وَلَمْ تَكُ بَابِلُ أَشْهَى شَرَابَا؟
 وَأَنَّ الْمَجَدَ فِي الْدُّنْيَا رَحِيقُ
 إِذَا طَالَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ طَابَا؟
 أُولَئِكَ أُمَّةٌ ضَرَبُوا الْمُعَالِي
 بِمَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا قِبَابَا

جرى كدراً لهم صفو الليالي
 وغاية كل صفو أن يشابة
 مشيبة القرون أديل منها
 ألم تر قرنها في الجو شاباً
 معلقة تنظر صولجاناً
 يخر عن السماء بها لعاباً
 تُعد بها على الأمم الليالي
 وما تدرى السنين ولا الحساباً

* * *

ويا وطني لقيتكَ بعد يأسٍ
 كأني قد لقيتُ بكَ الشباباً
 وكل مسافرٍ سيءٌ وبُ يوماً
 إذا رُزقَ السَّلامَةَ والإِيَابَا
 ولو أني دُعيتُ ل كنتَ ديني
 عليهِ أُقابلُ الْحَتَمَ المجبَا
 أديرُ إِلَيْكَ قبلَ الْبَيْتِ وجهِي
 إذا فهتُ الشهادةَ والمتَابَا

وقد سَبَقَتْ رِكَابِيَ القوافي
 مقلَّدةً أَرْمَتها طِرابا
 تَجُوبُ الْدَّهَرَ نَحْوَكَ وَالْفِيَافِي
 وَتَقْتَحِمُ الْلِيَالِي لَا لِعَبَابَا
 وَتُهُدِيكَ النَّاءَ الْحَرَّ تَاجًا
 عَلَى تَاجِيكَ مُوْتَلِفًا عُجَابَا

* * *

هدا نَا ضوءُ ثَغْرِكَ مِنْ ثَلَاث
 كَمَا تَهْدِي (الْمُنَورَةُ) الرِّكَابَا
 وقد غَشَّى الْمَسَارُ الْبَحْرَ نُورًا
 كَنَارُ (الطُور) جَلَّتِ الشَّعَابَا
 وَقَيلَ الشَّغْرُ فَاتَّأَدَتْ، فَارْسَتْ
 فَكَانَتْ مِنْ ثَرَاكَ الطُّهْرِ قَابَا
 فَصَفَحَا لِلزَّمَانِ لِصَبَحِ يَوْمٍ
 بِهِ أَضْحَى الزَّمَانُ إِلَيْ ثَابَا
 وَحِيَا اللَّهُ فَتِيَانًا سِمَاحًا
 كَسَوا عَطْفَيِّ مِنْ فَخْرِ ثَيَابَا

مَلَائِكَةٌ إِذَا حَفُوكَ يَوْمًا
أَحْبَكَ كُلُّ مَنْ تلقَى وَهَابَا
وَإِنْ حَمَلتَكَ أَيْدِيهِمْ بِحُورًا
بَلْغَتَ عَلَى أَكْفَهُمْ السَّحَابَا
تَلْقَوْنِي بِكُلِّ أَغْرِ زَاهٍ
كَانَ عَلَى أَسِيرِتِهِ شَهَابَا
تَرَى الْإِيمَانُ مُؤْتَلِفًا عَلَيْهِ
وَنُورُ الْعِلْمِ وَالْكَرَمُ اللُّبَابَا
وَتَلْمُحُ مِنْ وَضَاءَةِ صَفَحتِيِّهِ
مَحِيَا مَصْرَ رَائِعَةً كَعَابَا
وَمَا أَدْبَيْ لَمَا أَسْدَوْهُ أَهْلُ
وَلَكَنْ مِنْ أَحَبِ الشَّيْءَ حَابِيَ
شَابَ النَّيْلَ : إِنْ لَكُمْ لَصَوتًا
مَلْبِيٌّ حِينَ يُرْفَعُ مُسْتَجَابَا
فَهَزُوا (الْعَرْشَ) بِالسَّدَعَوَاتِ حَتَّىٰ
يَخْفَفَ عَنْ كَنَانِتِهِ العَذَابَا
أَمْنِ حَرْبِ الْبَسُوسِ إِلَى عَلَاءٍ
يَكَادُ يُعِيدُهَا سِيعًا صَعَابَا؟

وَهُلْ فِي الْقَوْمِ يُوسُفٌ يَتَقِبِّهَا
 وَيُحْسِنُ حِسْبَةً وَيَسْرِي صَوَابًا؟

 عَبَادُكَ رَبٌّ قَدْ جَاءُوكَ بِمَصْرِ
 أَنِيلًا سُقْتَ فِيهِمْ أَمْ سَرَابًا

 حَنَانِكَ وَأَهْدِ لِلْحُسْنَى تجَارًا
 بِهَا مُلْكُوكَ الْمَرَافِقُ وَالرَّقَابَا

 وَرَقَقَ لِلْفَقِيرِ بِهَا قُلُوبًا
 مَحْجَرَةً وَأَكْبَادًا صَلَابَا

 أَمْ أَكَلَ الْيَتَيمَ لَهُ عَقَابُ
 وَمَنْ أَكَلَ الْفَقِيرَ فَلَا عَقَابًا؟

 أُصَبِّ بِمِنَ التَّجَارِ بِكُلِّ ضَارٍ
 أَشَدَّ مِنَ الزَّمَانِ عَلَيْهِ نَابَا

 يَكَادُ إِذَا غَذَاهُ أَوْ كَسَاهُ
 يَنْسَازُهُ الْحَشَاشَةُ وَالإِهَابَا

 وَتَسْمَعُ رَحْمَةً فِي كُلِّ نَادٍ
 وَلَسْتُ تَحْسُنُ لِلْبَرِّ انتَدَابَا

أَكَلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا

زَكَاةً الْمَالَ لَيْسَ فِيهِ بَابًا

إِذَا مَا طَاعُمُونَ شَكُوا وَضَجُوا

فَدَعُهُمْ وَاسْمَعُ الْغَرْثَى السُّفَابَا

فَمَا يَبْكُونَ مِنْ ثُكْلٍ وَلَكِنْ

كَمَا تَصْفُ الْمَعَدَّدُ الْمَصَابَا

وَلَمْ أَرْ مُثْلِ سوقِ الْخَيْرِ كَسْبَا

وَلَا كَتْجَارَةَ السَّوْءِ اِكْسَابَا

وَلَا كَأْوَلَكَ الْبُؤْسَاءَ شَاءَ

إِذَا جَوَّعَهَا اِنْتَشَرَتْ ذَئَابَا

وَلَوْلَا الْبِرُّ لَمْ يُبَعِّثْ رَسُولٌ

وَلَمْ يَحْمِلْ إِلَى قَوْمٍ كِتَابًا

العلم والتعليم

قُم لِلْمَعْلِمٍ وَفِي التَّبْجِيلِ
كَادَ الْمَعْلُمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولاً
أَعْلَمْتُ أَشْرَفَ أَوْ أَجْلَّ مِنَ الَّذِي
يَبْنِي وَيُنْشِيُّ أَنْفُسًا وَعُقُولًا؟

سَبَحَانَكَ اللَّهُمَّ، خَيْرُ مَعْلِمٍ
عَلِمْتَ بِالْقَلْمَنْ أَلْقُرُونَ الْأُولَى
أَخْرَجْتَ هَذَا الْعَقْلَ مِنْ ظُلْمَاتِهِ
وَهَدَيْتَهُ النُّورَ الْمُبِينَ سَبِيلًا

وَطَبَعْتَهُ بِيَدِ الْمَعْلُمِ تَسَارَةً
صَدِيقَةُ الْحَدِيدِ، وَتَسَارَةً مَصْقُولًا
أَرْسَلْتَ بِالتَّوْرَاةِ مُوسَى مُرْشِدًا
وَابْنَ الْبَتْوَلِ فَعَلَمَ الْإِنْجِيلَ

وَفَجَرْتِ يَنْبُوعُ الْبَيَانِ مُحَمَّدًا
فَسَقَى الْحَدِيثَ وَنَأَوْلَ التَّنْزِيلًا
عَلِمَتِ يُونَانًا وَمَصْرُ فَرَالْتَا
عَنْ كُلِّ شَمْسٍ مَا تُرِيدُ أَفْوَلًا
وَالْيَوْمَ أَصْبَحْنَا بِحَالٍ طُفُولَةٍ
فِي الْأَعْلَمِ تَلْتَمِسَانَهُ تَطْفِيلًا
مِنْ مَشْرِقِ الْأَرْضِ الشَّمْوَسْ تَظَاهَرَتْ
مَا بَالُ مَغْرِبَهَا عَلَيْهِ أَدِيلَا
يَا أَرْضُ مُذْ فَقَدَ الْمَعْلُومُ نَفْسُهُ
بَيْنَ الشَّمْوَسْ وَبَيْنَ شَرْقِكَ حِيلَا
ذَهَبَ الَّذِينَ حَمَوا حَقِيقَةَ عِلْمِهِمْ
وَاسْتَعْذَبُوا فِيهَا الْعَذَابَ وَبِيلَا
فِي عَالَمِ صَاحِبُ الْحَيَاةِ مَقِيدًا
بِالْفَرْدِ ، مَخْزُومًا بِهِ ، مَغْلُولًا
صَرَعَتْهُ دُنْيَا الْمُسْتَبِدِ كَمَا هُوتَ
مِنْ ضَرْبَةِ الشَّمْسِ الرَّؤُوسُ ذُهُولًا
سُقْرَاطُ أَعْطَى الْكَاسَ وَهِيَ مُنْيَةٌ
شَفْتِيْ مُحِبٌ يَشْتَهِي التَّقْبِيلًا

عرضوا الحياة عليه وهي غباؤه
 فلابيٌّ وآثر أن يموت نبيلاً
 إن الشجاعة في القلوب كثيرة
 ووجدت شجعان العقول قليلاً

* * *

إن الذي خلق الحقيقة علقتها
 لم يُخلِّ من أهلِ الحقيقة جيلاً
 ولربما قتل الغرام رجالها
 قُتِلَ الغرام ، كم استباح قتيلاً
 أو كل من حامي عن الحق أقتنى
 عند السواد ضغائناً وذحولاً
 لو كنتُ اعتقدُ الصليب وخطبته
 لاقمتُ مِن صلبِ المسيح دليلاً

* * *

أَمْعَلْمِي الوادي وسَاسَة نشئه
 والطَّابِعين شبابَه المأمولَا
 والحاملين ، إِذَا دُعوا لِيُعلَّمُوا ،
 عبَّة الأمانة فادحًا مسؤولاً

كانت لنا قدمٌ إِلَيْهِ خفيفةٌ
ورمت بدنلوبٍ فـكـا الفيلا
حتى رأينا مصر تخطو إصبعاً
في العلم ، إِن مشتَ المالك ميلا
تلـكـ الـكـفـورـ وـحـشـوـهـاـ أـمـيـةـ
من عهد «خوفو» لم تر القـنـديـلاـ
تجـدـ الـذـينـ بـنـيـ «الـمـسـلةـ»ـ جـدـهـمـ
لـاـ يـحـسـنـونـ لـإـبـرـةـ تـشـكـيـلاـ
ويـدـلـلـونـ إـذـاـ أـرـيدـ قـيـادـهـمـ
كـالـبـهـمـ تـأـنسـ إـذـ تـرـيـ التـدـلـيـلاـ
يتـلـوـ الرـجـالـ عـلـيـهـمـ شـهـوـاتـهـمـ
فـالـنـاجـحـونـ الـذـهـمـ تـرـتـيـلاـ
الـجـهـلـ لـاـ تـحـيـاـ عـلـيـهـ جـمـاعـةـ
كـيـفـ الـحـيـاةـ عـلـيـ يـدـيـ عـزـرـيـلاـ؟ـ
وـالـلـهـ لـوـلـاـ أـلـسـنـ وـقـرـائـعـ
دارـتـ عـلـىـ فـيـطـنـ الـشـابـ شـمـولاـ

وتعهدت من أربعين نفوسهم
 تغزو القنوط وتغرس التأملاً
 عرفت مواضع جدبهم فتابعت
 كالعين فيضاً والغمام مسيلاً
 تسدي الجميل إلى البلاد وتستحي
 من أن تكافأ بالثناء جميلاً
 ما كان دنلوب ولا تعليمه
 عند الشائد يغنيان فتيلاً

* * *

ربوا على الإنفاق فتيان الحمي
 تجلوهم كهف الحقوق كهولاً
 فهو الذي يبني الطياع قوية
 وهو الذي يبني النفوس عدواً
 ويقيم منطق كل أعوج منطقٍ
 ويريه رأياً في الأمور أصيلاً

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة
جاءت على يده البصائر حولا
وإذا أتي الإرشاد من سبب الهوى
ومن الغرور فسمه التضليل لا
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقام عليهم ماتماً وعويلاً
إنني لأعذركم وأحسب عبئكم
من بين أعباء الرجال ثقيلاً
وجد المساعد غيركم وحرمتهم
في مصر عون الامهاتِ جليلاً
وإذا النساء نشأن في أميةٍ
رضع الرجال جهالة وخمولاً
ليس اليتيم من انتهى أبواه من
هم الحياة ، وخلفاه ذليلاً
فأصاب بالدنيا الحكمة منها
وبحسن تربية الزمان بدليلاً !
إنَّ اليتيم هو الذي تلقى له
أمماً تخلت ، أو أباً مشغولاً

مصرٌ إذا ما راجعتْ أيامها
 لم تلق للسبت العظيم مثيلاً
 (البرلمان) غداً يمدُّ رواقه
 ظلاً على الوادي السعيدِ ظليلاً
 نرجو إذا التعليمُ حرك شجوه
 ألا يكون على البلاد بخيلاً
 قل للشباب : اليومَ بُوركَ غرسُكم
 دَنَتِ القُطُوفُ وذَلَّتْ تذليلًا
 حيوا من الشهداء كلَّ مغيبٍ
 وضعوا على أحجارِه إكْليلًا
 ليكون حظ الحيّ من شُكرانكم
 جمًا، وحظُّ الميت منه جَرِيلًا
 لا يلمسُ الدستورُ فيكم روحه
 حتى يري جُنديةَ المجهولاً
 ناشدتكم تلك الدماء زكيّةً
 لا تبعثوا للبرلمان جَهولاً

فليسَّالنَّ عن الأَرائِكِ سَائِلُ
 أَحْمَلَنَ فَضْلًا أَمْ حَمَلَنَ فُضْلًا
 إِنْ أَنْتَ أَطَلَعْتَ الْمِثْلَ ناقصاً
 لَمْ تلقَ عِنْدَ كَمَالِهِ التَّمِيلَا
 فَادْعُوا لَهَا أَهْلَ الْأَمَانَةِ وَاجْعَلُوا
 لِأُولَى الْبَصَائِرِ مِنْهُمْ التَّفْضِيلَا
 إِنَّ الْمَقْصُرَ قَدْ يَحُولُ وَلَنْ تَرَى
 لِجَهَالَةِ الْطَّبَعِ الْغَبَيِّ مُحِيلَا
 فَلَرَبَّ قَوْلٍ فِي الْرِّجَالِ سَمِعْتُمْ
 ثُمَّ انْقَضَى فَكَانَهُ مَا قِيلَـا
 وَلَكُمْ نَصْرَتُمْ بِالْكَرَامَةِ وَالْهُوَى
 مِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ هُوَ الْمُخْدُولَا
 كَرْمٌ وَصَفْحٌ فِي الشَّابِ وَطَالَـا
 كَرْمٌ الشَّابُ شَمَائِلًا وَمِيمُولَا
 قَوْمًا اجْمَعُوا شَعْبَ الْأُبُوَّةِ وَارْفَعُوا
 صَوتَ الشَّابِ مُحِبَّاً مَقْبُولَا

ما أَبْعَدَ الْغَايَاتِ إِلَّا أَنِّي
أَجَدُ الثَّبَاتَ لَكُمْ بِهِنَّ كَفِيلًا
فَكَلُّوا إِلَى اللَّهِ النِّجَاحَ وَثَابِرُوا
فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ كَافَلًا وَوَكِيلًا

أيها النيل^(١)

من أي عهدٍ في القرى تتدفقُ
 وبأي كفٍ في المدائن تُغدقُ
 ومن السماة نزلت أم فجّرت مِنْ
 علىاً الجنان جداولا تترقرق
 وبأي عينٍ أم بـأية مُزنةٍ
 أم أي طوفان تفيض وتفهق^(٢)
 وبأي نَوْلٍ أنت ناسج بُردةٍ
 للضفتين جديدها لا يخلق^(٣)
 تسود ديباجاً إذا فارقتها
 فإذا حضرتَ أخضر ضر الاستبرق^(٤)

(١) راجع في ذصل المختارات من نثر شوقي: (رسالة شوقي إلى الاستاذ مر جياوتو)

(٢) المزنة: المسحابة الماطرة - تفهق: تُمْتَلِئُ وتفيض

(٣) بُردة: ثوب - يخلق: يهلي

(٤) أخضر ضر الاستبرق: أصبح الحرير أخضر اللون.

في كل آونةٍ تبدل صبغةً
 عجباً، وأنتَ الصَّابعُ المُثَانِقُ
 أَتَيْ الدُّهورَ عليكَ مهدُكَ متزعِ
 وحياضكَ الشَّرقَ الشَّهِيَّةَ دَفَعَ
 تسقي وَتُطْعِمُ ، لا إِنْاوَكَ ضائِقُ
 بالواردينَ ، ولا خوانكَ ينفقُ
 والماءُ تسكبُهُ فَيَسْبُكَ عَسْجَداً
 والأَرْضُ تُغْرِقُهَا فَيَحِيَا المَغْرِقُ
 تعيني منابعكَ العَقُولَ ويُسْتَوِي
 مَتَخَبَطٌ في عِلْمَهَا وَمَحْقَقٌ
 أَخْلَقْتَ رَأْوُوقَ الدُّهورَ ولم تَنْزِلَ
 بكَ حَمَاءً كَالْمَسَكَ لَا تَرْوَقَ
 حُمَرَاءً في الأَحْوَاضِ إِلَّا أَنْهَا
 بِيَضَاءِ فِي عُنْقِ الشَّرِيِّ تَنَالُقُ
 دِينُ الْأَوَّلِ فِيكَ دِينُ مُرْوَعَةٍ
 لِمَ لَا يُؤْلِهُ مَنْ يَقوِيْ وَيَرْزُقُ
 لَوْ أَنَّ مَخْلوقاً يُؤْلِهَ لَمْ تَكُنْ
 لِسُوكَ مَرْتَبَةُ الْأَلْوَهَةِ تَخْلُقُ

جعلوا الهوي لك والوِقار عبادةً
 إِنَّ الْعِبَادَةَ خَشِيَّةٌ وَتَعْلُقُ
 دانوا بِبَحْرِ الْمَكَارِمِ زَاخِرٍ
 عَذْبُ الْمَشَارِعِ مَدَهُ لَا يُلْحِقُ
 مُتَقِيدٌ بِعَهْوَدِهِ وَوَعْوَدِهِ
 يَجْرِي عَلَى سَنَنِ الْوِفَاءِ وَيَصْدُقُ
 يَتَقَبَّلُ الْوَادِي الْحِيَاةَ كَرِيمَةً
 مِنْ رَاحِتِكَ عَمِيقَةً تَتَدَفَّقُ
 مُتَقْلِبُ الْجَنْبَيْنِ فِي نَعْمَائِيهِ
 يَعْرِي وَيُصْبِغُ فِي نَدَاكَ فَيُورِقُ
 فَيَبْيَسُ خَصْبًا فِي ثَرَاهُ وَنِعْمَةً
 وَيَعْمَمُ مَاءَ الْحِيَاةِ الْمُوسَقَ
 وَإِلَيْكَ بَعْدَ اللَّهِ يَرْجِعُ تَحْتَهُ
 مَا جَفَّ أَوْ مَا مَاتَ أَوْ مَا يَنْفَقُ

* * *

أَينَ الْفَرَاعَنَةُ الْأَلَى أَسْتَدْرِيْ بِهِمْ
 (عِيسَى) وَ(يُوسُف) وَ(الْكَلِيم) الْمُصَعَّقُ

الموردونَ الناس منهمل حكمةٌ
 أفضي إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ لِيَسْتَقُوا
 الرافعونَ إِلَى الصَّحِّيْحِ آبَاءَهُمْ
 فالشَّمْسُ أَصْلَهُمُ الْوَضِيْعُ الْمَرْعِقُ
 وَكَانَّا بَيْنَ الْبَلِيْلِ وَقَبُورِهِمْ
 عَهْدٌ عَلَى أَنْ لَا مَسَاسٌ وَمَوْثِقٌ
 فِحْجَابِهِمْ تَحْتَ الشَّرِيْرِ مِنْ هِيَبَةِ
 كِحْجَابِهِمْ فَوْقَ الشَّرِيْرِ لَا يَخْرُقُ
 بَلْغُوا الْحَقِيقَةَ مِنْ حَيَاةِ عِلْمِهَا
 حَجَبٌ مَكْثَفَةٌ وَسُرُّ مَغْلُقٌ
 وَتَبَيَّنُوا مَعْنَى الْوَجُودِ فَلَمْ يَرُوا
 دُونَ الْخَلُودِ سَعَادَةً تَتَحْقِقَ
 يَبْنُونَ لِلْدُنْيَا كَمَا تَبْنِي لَهُمْ
 خَرْبًا غَرَابَ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعُقُ
 فَقَصُورُهُمْ كَوْخٌ وَبَيْتٌ بَدَاوِةٌ
 وَقَبُورُهُمْ صَرْحٌ أَشْمٌ وَجَوْسَقٌ
 رَفَعُوا لَهَا مِنْ جَنْدِلٍ وَصَفَائِحٍ
 عَمَدًا فَكَانَتْ حَثْطًا لَا يَنْتِقَ (١)

(١) يَنْتِقُ : يَتَزَعَّزُ .

تتشايع الداران فيه فما بـدا
 دنيا ، وما لم يـد أخـرى تـصدق
 للـموت سـر تـحتـه وجـدارـه
 سور عـلـى السـرـ الخـفـيـ وـخـندـقـ
 وـكـانـ منـزـلـهـ بـأعـمـاـقـ الـثـرـىـ
 بـيـنـ المـحـلـةـ وـالـمـحـلـةـ فـنـدقـ
 موـفـورـةـ تـحـتـ الـثـرـىـ آـزوـادـهـ
 رـحـبـ بـهـمـ بـيـنـ الـكـهـوـفـ الـمـطـبـيقـ

* * *

ولـنـ هـيـاـكـلـ قـدـ عـلـاـ الـبـانـيـ بـهاـ
 بـيـنـ الـثـرـىـ وـالـثـرـىـ تـنـسـقـ
 مـنـهـاـ الـمـشـيدـ كـالـبـرـوجـ وـبـعـضـهاـ
 كـالـطـوـدـ مـضـطـجـعـ آـشـمـ مـنـطـقـ
 جـدـدـ كـأـوـلـ عـهـدـهاـ وـجـيـالـهاـ
 تـنـقـادـمـ الـأـرـضـ الـفـضـاءـ وـتـعـقـ
 مـنـ كـلـ ثـقـلـ ، كـاهـلـ الـدـنـيـاـ بـهـ
 تـعـبـ وـوـجـهـ الـأـرـضـ عـنـهـ ضـيقـ

عالٍ على بَاعِ الْبَلِي لَا يَهْتَدِي
ما يُعْتَلِي مِنْهُ وَمَا يَتَسَلَّقُ
مِتَمِّكِنٌ كَالظَّوِيدِ أَصْلًا فِي الثَّرَى
وَالْفَرْعَانُ فِي حَرَمِ السَّمَاءِ مَحْلُقٌ
هِيَ مِنْ بَنَاءِ الظُّلْمِ إِلَّا أَنَّهُ
يَبِيِضُ وَجْهَ الظُّلْمِ مِنْهُ وَيَشْرُقُ
لَمْ يَرْهِقِ الْأَمْمَ الْمُلُوكَ بِمَثْلِهَا
فَخَرَأً لَهُمْ يَبْقَى وَذَكْرًا يَعْبُقُ
فَتِسْتَ بِشَطَّيْكَ الْعِبَادَ فَلَمْ يَزُلْ
قَاصِي يَحْجُّهُمَا وَدَانِ يَرْمُقَ
وَتَضَوَّعَتْ مَسْكُ الدَّاهُورِ كَائِنًا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ بِخُورُ يُحرَقُ
وَتَقَابَلَتْ فِيهَا عَلَى السُّرِّ الدَّمِيِّ ا
مُسْتَرِدِيَاتِ الدَّلْلِ لَا تَتَفَقَّ
عَطَلَتْ وَكَانَ مَكَانَهُنَّ مِنْ أَعْلَى
(بِلْقِيس) تَقْبِيسُ مِنْ حَلَاهُ وَتَسْرُقُ
وَعَلَا عَلَيْهِنَّ التَّرَابُ وَلَمْ يَكُنْ
يَزْكُو بِهِنَّ سَوِيَ الْعَبِيرِ وَيَلْبَقُ

حُجُّرٌ أَهْمَانِهَا مُوْطِّعَةٌ وَسَتُورُهَا
 مَهْتَوِكَةٌ بِيَدِ الْبَلِيلِ تَتَخَرَّقُ
 أَوْدَى بِزِينَتِهَا الزَّمَانُ وَحْلِيَّهَا
 وَالْحَسْنُ بَاقٌ وَالشَّابُ الرَّيْقُ
 لَوْ رَدَّ فِرْعَوْنُ الْفَدَاهَ لِرَاعَهُ
 أَنَّ الْغَرَانِيقَ الْعُلَى لَا تَنْطِقُ
 خَلَعَ الزَّمَانُ عَلَى الْوَرَى أَيَامَهُ
 فَإِذَا الضُّحَى لَكَ حَصَّةٌ وَالرَّوْنَقُ
 لَكَ مِنْ مَوَاسِيمِهِ وَمِنْ أَعْيَادِهِ
 مَا تَحْسُرُ الْأَبْصَارُ فِيهِ وَتَبْرُقُ

* * *

لَا (الْفُرْسُ) أَوْتَوا مِثْلَهُ يَوْمًا وَلَا
 (بَغْدَادُ) فِي ظَلِّ (الرَّشِيدُ) وَ(جَلَقُ)
 فَتْحُ الْمَالِكُ أَوْ قِيَامُ (الْعَجْلُ) أَوْ
 يَوْمُ الْقُبُورُ أَوْ الزَّفَافُ الْمُونِيقُ
 كَمْ موَكِبٌ تَتَخَالِيلُ الدُّنْيَا بِهِ
 يُجْلِي كَمَا تُجْلِي النَّجُومُ وَيُنْسِقُ

(فرعون) فيه من الكتايبِ مُقبل
 كالسُّحب قرن الشمس منها مُفتقد
 تَعْنُو لعزَّته الوجهُ ووجهه
 للشمس في الآفاق عانِ مُطريق
 آبَتْ من السفر البعيدِ جنوذه
 وأتَتْه بالفتحِ السعيدِ الفيلق
 ومشيَّ الملوكِ مُصفَّدين ، خدودُهم
 نَعْلٌ لفرعونَ العظيمِ ونمرق
 ملوكةً أعناقهم ليمينه
 يَابَى فيضربُ أو يمنُ فيعتقُ
 ونجيبةٌ بينَ الطفولةِ والصبا
 عَذراءَ تشربُها القلوبُ وتعلقَ
 كانَ الزَّفافُ إِلَيْكَ غايةَ حظّها
 والحظُ إنْ بلغَ النهايةَ مُويق
 لاقتَ أعراساً ولاقتَ ماتماً
 كالشيخِ ينعمُ بالفتاةِ وتزهى
 في كُلَّ عامٍ دُرَّةَ تُلقى بلا
 ثمنٍ إِلَيْكَ وحرةَ لا تصدق

حولُ تسائلٍ فيهِ كُلُّ نجيبةٍ
 سَبَقَتْ إِلَيْكَ مَتَّ يَحُولُ فَتَلْحُقٌ
 والمَجْدُ عِنْدَ الْغَانِيَاتِ رَغْبَةٌ
 يُبَغِّي كَمَا يُبَغِّي الْجَمَالُ وَيُعْشِقُ
 إِنْ زَوْجُوكَ بِهَنَّ فَهِيَ عَقِيْدَةٌ
 وَمِنْ الْعَقَائِدِ مَا يُلْبِي وَيُحَمِّقُ
 مَا أَجْمَلَ الْإِيمَانَ لَوْلَا ضَلَّةٌ
 فِي كُلِّ دِينٍ بِالْهَدَايَةِ تُلْصَقُ
 زَفَّتْ إِلَى مَلْكِ الْمُلُوكِ يَحْثُها
 دِينُ وَيَدْفَعُها هَوَىً وَتَشْوِقُ
 وَلِرَبِّما حَسَدَتْ عَلَيْكَ مَكَانَهَا
 تِرْبُّ تَمَسَّحَ بِالْعَرْوَسِ وَتُحَدِّقُ
 مَجْلُوَةٌ فِي الْفُلْكِ يَحْدُو فَلْكُهَا
 بِالشَّاطِئَيْنِ مُزْغَرِدٌ وَمَصْفَقٌ
 فِي مِهْرَاجَانٍ هَرَّتْ الدُّنْيَا بِهِ
 أَعْطَافُهَا وَأَخْتَالَ فِيهَا الْمَشْرُقُ
 فَرَعَوْنُ تَحْتَ لِوَائِهِ ، وَبَنَاهُ
 يَجْرِي بِهَنَّ عَلَى السَّفَيْنِ الزَّوْرَقُ

حتىٌ إِذَا بَلَغْتُ مَا كُبِّهَا الْمَدَى
 وَجَرَى لِغاِيَتِهِ الْقَضَاءُ الْأَسْبَقُ

 وَكَسَا سَمَاءَ الْمَهْرَجَانَ جَلَالَةٌ
 سِيفُ الْمَنِيَّةِ وَهُوَ صَلْتُ يَبْرُقُ

 وَتَلَفَّتَ فِي الْيَمِّ كُلَّ سَفِينَةٍ
 وَانْشَالَ بِالْوَادِي الْجَمْوَعُ وَحَدَّقُوا

 أَلْقَتْ إِلَيْكَ بِنَفْسِهَا وَنَفِيسَهَا
 وَأَتَتْكَ شِيقَةً حَوَاهَا شِيقٌ

 خَلَعَتْ عَلَيْكَ حَيَاءَهَا وَحِيَاتَهَا
 أَأَعْزَزَ مِنْ هَذِينَ شَيْءًا يُنْفَقُ

 وَإِذَا تَنَاهَى الْحُبُّ وَأَتَفَقَ الْفِدَى
 فَالرُّوحُ فِي بَابِ الْضَّحَى أَلْقَى

 مَا الْعَالَمُ السُّفْلَى إِلَّا طِينَةٌ
 أَزَلِيَّةٌ فِيهِ تُضِيءُ وَتُغْسِقُ

 هِيَ فِيهِ لِلْخِصْبِ الْعَمِيمِ خَمِيرَةٌ
 يَنْدَى بِمَا حَمَلَتْ إِلَيْهِ وَيَبْثُقُ

ما كان فيها للزيادة موضع
وإلى حماها النقص لا يتطرق

منبئه في الأرض تنظم الشري
وتثال ما في السماء وتعلق

منها الحياة لنا ومنها ضدها
أبداً نعود لها، ومنها نخلق

والزرع سنبله يصيب وجبه
منها فيخرج ذا وهذا يُلق

وتشد بيت النحل فهو مُطَب
وتمد بيت النمل فهو مُرَوق .

وتظل بين قوي الحياة جوائلاً
لاتستقر دوائلاً ، لا تمحق

هي كلمة الله القدير روحه
في الكائنات وسره المستغلق

في النجم والقمر مظهرها إذا
طلعت على الدنيا وساعة تخفق

والذرُّ والصخراتُ مَا كَوَرْت
والفيلُ مَا صورَتْ والخِرْنَقْ
فَتَنَتْ عَقُولَ الْأَوَّلِينَ فَالْهَوَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا يَرُوعُ وَيَخْرُقُ
سَجَدُوا لِمَخلوقٍ وَظَنُوا خَالِقًا
مَنْ ذَا يَمْيِيزُ فِي الظُّلَامِ وَيَفْرُقُ
دَانَتْ (بَابِيسَ) الرَّعِيَّةُ كُلُّهَا
مِنْ يَسْتَغْلُلُ الْأَرْضَ أَوْ مِنْ يَعْزِقُ
جَاءُوا مِنَ الْمَرْعَى بِهِ يَمْشِي كَمَا
تَمْشِي وَتَلْتَفُتُ الْمَهَأَةُ وَتَرْسُقُ
دَاجٌ كَجَنْحِ اللَّيلِ زَانْ جَبِينَهُ
وَضَاحٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَهَلَّةِ أَشْرَقَ
الْعَسْجَدُ الْوَهَّاجُ وَشَيْءُ جَلَالِهِ
وَالْوَرْدُ مَوْطِيَّهُ خَفَّهُ وَالْزَّنْبَقُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ بَعْدَ طَوْلِ عِبَادَةِ
يُوتَى بِهِ حَوْضَ الْخَلُودِ فَيُغَرِّقُ

ياليت شعري هل أضاعوا العهد أم
حضرروا من الدنيا عليه وأشقووا
قومٌ وقارُ الدين في أخلاقهم
والشعبُ ميا يعتادُ أو يتخلّق
يدعونَ خلف الستر آلهة لهم
ملأوا النَّدِيَّ جلالةً وتأبَّقا
واستحجبوا الكهان ، هذا مُبلغٌ
ما يهتفونَ به وذاكَ مصدقٌ
لا يسألونَ إذا جرت ألفاظهم
من أين للحجر اللسانُ الأذقُ
أو كيف تخترق الغيوب بهيمةُ
فيما ينوب من الأمور ويطرق
وإذا هم حجُّوا القبور حسبتهم
وفدَ (العتيق) بهم ترامي الأينق
يأتونَ (طيبة) بالهديِّ أمّا مهُم
يغشى المدائن والقرى ويُطبق
فالبرُّ مشدودُ الرواحل محدَّج
والبحرُ مددودُ الشّراع موسَّق

حتى إذا ألقوا بهيكلها العصا
 وفوا النذور وقربوا وأصدقا
 وجرت زوارق بالحجيج كأنها
 رُقط تدافع أو سهام تمرق
 من شاطيء فيه الحياة لشاطيء
 هو مضجع للسابقين ومرفق
 غربوا غروب الشمس فيه واستوى
 شاهٌ ورخٌ في التراب وبيدق (١)
 حيث القبور على الفضاء كأنها
 قطع السحاب أو السراب الديسق (٢)
 للحق فيه جولةً وله سنًا
 كالصبح من جنباتها يتفلق
 نزلوا بها فمشي الملوك كrama
 وجثا المدل بماله والمملق
 ضاقت بهم عرصاتهم فكأنما
 ردت وداعها الفلاة الفييق

(١) بيدق : قطعة شطرنج .

(٢) الديسق : بياض السراب .

وتنادم الأحياء والموتى بها
فكانهم في الدهر لم يتفرقوا

• • *

أصل الحضارة في صعيديك ثابت
ونباتها حَسْنٌ عليك مُخلّق
ولدت فكنت المهدى ترعرعت
فأظالها منك الحفيُّ المشيق
ملأت ديارك حكمةً ، ماثورها
في الصخر والبردي الكريم منبئ
وبنت بيوت العلم بادحة الذرى
يسعى لهنَّ مغربٌ وشرقٌ
واستحدثت ديناً فكان فضائلاً
وبناءً أخلاق بطول وبشهق
مهَدَ السبيل لكل دينٍ بعده
كامسك رياه بأخرى تُفتق
يدعو إلى برٌّ ويرفع صالحًا
ويعاف ما هو للمروة مخلق

للناس من أَسْرَارِهِ مَا عَلِمُوا
 ولشُعْبَةِ الْكَهْنُوتِ مَا هُوَ أَعْقَمُ
 فِيهِ مَحْلٌ لِلْأَقَانِيمِ الْعُلَى
 وَلِجَامِعِ التَّوْحِيدِ فِيهِ تَعْلُقٌ
 تَابُوتُ مُوسَىٰ لَا تَزَالُ جَلَالَةً
 تَبَدُّو عَلَيْكَ لَهُ وَرَيَا تُنْشَقَ
 وَجَمَالُ يَوْسُفُ لَا يَزَالُ لِوَادِهِ
 حَوْلَيْكَ فِي أَفْقِ الْجَلَالِ يُرْنَقُ
 وَدَمْوعُ إِخْوَتِهِ رَسَائِلُ تَوْبَةٍ
 مَسْطُورَهُنَّ يَشَاطِئُكَ مُنْمَقٌ
 وَصَلَةُ مَرِيمٍ فَوْقَ زَرْعِكَ لَمْ يَزُلْ
 يَزِكُوكَ لَذِكْرِهَا النَّبَاتُ وَيَسْمُقُ
 وَخُطْبَى الْمَسِيحِ عَلَيْكَ رُوحًا طَاهِرًا
 بَرَكَاتُ رَبِّكَ وَالنَّعِيمُ الْغَيْدُقُ
 وَوَدَائِعُ (الفاروق) عِنْدَكَ دِينَهُ
 وَلِوَادِهِ وَبِيَانِهِ وَالْمَنْطَقُ

بعث الصحابة يحملون من الهدى
 والحق ما يُحيي العقول ويُفتّق
 فتحُ الفتوح من الملائكة رزْدق
 فيه ومن (أصحاب بدر) رزْدق (١)
 يبنون لله الكنانة بالقنا
 والله من حول البناء موفق
 أحلاسُ خيلٍ بيَدِ آنَ حسامهم
 في السلم من حذر الحوادث مقلق
 تُطوي البلاد لهم وينجد جيشهم
 جيش من الأخلاق غازٌ مورِّق
 في الحق سُلَّ وفيه أغمد سيفهم
 سيف الكريم من الجهالة يفرق
 والفتح بغيٌ لا يهون وقعه
 إلا العفيف حسامه المترفق
 ما كانت «السطاط» إلا حائطاً
 يأوي الضعيف لركنه وأمره
 وبه تلوذ الطير في طلب الكري
 ويبيت «قيصر» وهو منه مُورَّق

(١) رزدق : صف الناس

«عمرٌ» على شطب الحصير مُعَصِّب

يُدعى له «الحاخام» في صلواته

(موسى) ويسأّل فيه عيسى البطرق

يا نيل أنت بطيء مانعـت «الهدى»

وَبِمُدْحَّةٍ (التوراة) أَخْرَى أَخْلَقَ

وإليك يهدي الحمد خلق حازهم

كِنْفُ عَلَى مَرِ الدَّهُورِ مُرَهَّقٌ

كُنْفٌ «كمعن» أو كساحة «حاتم»

خَلْقٌ يُودِعُهُ وَخَلْقٌ يُطْرُقُ

وعلیک تُجلی من مصنونات النهی

خودُ عرائس خدرهنَّ المهرَق

الدرّ في لِبَاتِهِنَّ منظَّم

والطِّبُّ فِي حَبْرَاتِهِ مُرْقُرْقٌ

لی فیک مدح لیس فيه تکلف

أَمْلَاهُ حَلَّ لِيْسَ فِيهِ تَمْلِقٌ

مَا يَحْمِلُنَا الْهَوِي لَكَ أَفْرَخُ
 سَنْطِيرٌ عَنْهَا وَهِيَ عِنْدَكَ تَرْزِقُ
 تَهْفُو إِلَيْهِمْ فِي التَّرَابِ قُلُوبُنَا
 وَتَكَادُ فِيهِ بَغْيَرِ عَرْقٍ تَخْفِقُ
 تُرْجِي لَهُمْ ، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالَهُ
 مَنَا وَمِنْكَ بَهْمَ أَبْرُ وَأَرْفَقُ
 فَاحْفَظْ وَدَائِعَكَ الَّتِي اسْتَوْدَعْتَهَا
 أَنْتَ الْوَفِيُّ إِذَا أُوتِمْنَتْ ، الْأَصْدِقُ
 لِلأَرْضِ يَوْمٌ ، وَالسَّمَاءُ قِيَامَةُ
 وَقِيَامَةُ الْوَادِي (۱) غَدَةٌ تَحْلَقُ (۲)

(۱) الْوَادِي : وَادِي النِّيلِ

(۲) تَحْلَقُ : تَجْفَفُ

ضجيج الحجيج

ضجَّ الْحِجَازُ وضجَّ الْبَيْتُ وَالْحَرَمُ

وَاسْتَصْرَخَتْ رَبَّهَا فِي مَكَّةَ الْأُمَّ (١)

قَدْ مَسَّهَا فِي حَمَّاَكَ الْفَرُّ فَاقْضِ لَهَا

خَلِيفَةَ اللَّهِ أَنْتَ السَّيِّدُ الْحَكَمُ

لَكَ الرَّبُوعُ الَّتِي رَبَعَ الْحَجِيجَ بِهَا

أَللَّهُشَرِيفُ عَلَيْهَا أَمْ لَكَ الْعِلْمُ؟

أَهْيَنَ فِيهَا ضَيْوَفُ اللَّهِ وَاضْطَهَدُوا

إِنْ أَنْتَ لَمْ تَنْتَقِمْ فَسَالَهُ مَنْتَقِمٌ

أَفِي الضُّحَىٰ وَعِيُونُ الْجَنْدِ نَاظِرَةٌ

تُسَبِّيُّ النِّسَاءُ وَيُوْذِي الْأَهْلُ وَالْحَشْمُ

وَيُسْفِكُ الدُّمُّ فِي أَرْضٍ مَقْدَسَةٍ

وَتَسْبِحُ بِهَا الْأَعْرَاضُ وَالْحُرَمُ

(١) رفعت هذه القصيدة الى السلطان عبد الحميد . استصرخاً من الشريف

وأعلنها في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٠٤ .

يد الشريف على أيدي الولاية علت
ونعله دون ركن البيت تُسلّم

«نيرون» إن قيس في باب الطغاة به
مبالغٌ فيه «والحجاج» متهم

أدبُه ، أدبُ أمير المؤمنين ، فما
في العفو عن فاسقٍ فضلُ ولا كرم

لاترجمُ فيه وقاراً للرسول فما
بين البُغاء وبين المصطفى رَحْم

ابنُ الرسول فتى ، فيه شمائله
وفيه نخوته والعهدُ والشَّمْ

ما كانَ طه لرهطِ الفاسقين أباً
آل النبي بأعلام الهدى خُتموا

خليفة الله شَكوى المسلمين رقتْ
لسدةِ الله بل ترقى لك الكلم ؟

الحجُّ ركن من الإسلام نُكِّيره
واليوم يوشك هذا الركن ينهدم

من الشريف ومن أَعوانِه فللت
نُعمى الزِيادة مَا لَا تَفْعَلُ النَّقْمَ
عَزَّ السَّبِيلُ إِلَى طَهٍ وَتَرْبَتَهُ
فَمَنْ أَرَادَ سَبِيلًا فَالطَّرِيقُ دَمٌ
مُحَمَّدٌ رَوَّعَتْ فِي الْقَبْرِ أَعْظُمُهُ
وَبَاتَ مُسْتَأْمَنًا فِي قَوْمَهُ الصَّنْمَ
وَخَانَ «عَوْنَ الرَّفِيق» الْعَهْدُ فِي بَلْدِهِ
مِنْهُ الْعَهْوَدُ أَتَتْ لِلنَّاسِ وَالذَّمِّ
قَدْ سَالَ بِالدَّمِ مِنْ ذَبْحٍ وَمِنْ بَشِّرٍ
وَاحْمَرَّ فِيهِ الْحَمْيُ وَالْأَشْهُرُ الْحَرَمُ
وَفَرَّغَتْ فِي الْخُدُورِ السَّاعِيَاتُ لَهُ
الْدَاعِيَاتُ وَقَرَبَ اللَّهُ مُغْتَنِمٌ
آبَتْ ثَكَالَى أَيَامِي بَعْدَمَا أَخْذَتْ
مِنْ حَوْلَهِنَّ النَّوْيَ وَالْأَيْنِقَ الرَّسْمَ
حُرِّمَنَ آنوارَ خَيْرِ الْخَلْقِ مِنْ كِتَابٍ
فَدَمْعُهُنَّ مِنْ الْحَرْمَانِ مَنْسَجِمٌ
أَيُّ الصَّغَائِرِ فِي الإِسْلَامِ فَاشِيةٌ
تُودَى بِأَيْسِرِهَا الدُّولَاتُ وَالْأَمَمُ

يجيش صدري ولا يجري بها قلمي
 ولو جرى لبكي واستضحك القلم
 أغضبتُ ضئلاً بعرضي أن ألمَ به
 وقد يروق العمى للحرّ والصم
 موهٌ على الناس ، أو غالطهم عيناً
 فليس تكتفهم ما ليس ينكتم
 من الزيادة في البلوى وإن عظمت
 أن يعلم الشامتون اليوم ما علموا
 كلُّ الجراح بالآلام فما لمست
 يد العدو فشم الجرح والألم
 والموت أهون منها وهي دامية
 إذا أساها لسان للمعدي وفم

* * *

رب الجزيرة أدرِّكها فقد عبشت
 بها الذئاب وضلَّ الراعي الغنم
 إنَّ الذين تولوا أمرها ظلموا
 والظلم تصحبه الأهوال والظلم

في كلّ يوم قتال تفشر له
وفتنة في ربوع الله تضطرم
أزرى الشرييف وأحزاب الشرييف بها
وقساموها كإرث الميت وانقسموا
لاتجزهم عنك حلماً واجزهم عنتاً
في الحلم ما يسم الافعال أو يضم
كفى الجزيرة ما جروا لها سفهاً
وما يحاول من أطراها العجم
تلك الثغور عليها وهي زينتها
مناهلٌ عذبت للقوم فازدحموا
في كل لجٍ حواليها لهم سفن
وفوق كل مكان يابسٌ قدم
والاهم امراء السوء واتفقوا
مع العداة عليها فالعداهم
فجرَ السيف في وقتٍ يفيد به
فإن للسيف يوماً ثم بنصرِم

الرحلة إلى الأندلس

اختلاف النهار والليل ينسى
اذكرا لي الصبا وأيام أنسى
وصفا في ملاوة (١) من شباب
صوّرت من تصورات ومس
عصفت كالصبا العوب ومرّت
سِنَةً حُلْوَةً ولسْنةً خَلْسٍ
وسلا مصرَ هل سلا القلبُ عنها
أَوْ أَسا جُرْحَه الزمان الموئي
كلّما مرت الليالي عليه
رقَّ والعهدُ في الليالي تُقَسِّي
مُسْطَطَارٌ إِذَا البواحِرُ رَنَتْ
أَوْلَ اللَّيَلِي أَوْ عَوْتَ بَعْدَ جَرْسٍ

(١) ملاوة : فترة من الزمان .

راهِبٌ فِي الْضَّلُوعِ لِلسُّفَنِ فَطَنَ
كَلْمَا ثُرْنَ شَاعَهُنْ بِنَقْسٍ
يَا أَبْنَةَ الْيَمِّ مَا أَبْوَكِ بِخِيلٌ
مَا لَهُ مَوْلَعًا بِمَنْعِ وَحْسِ
أَحَدَرَامَ عَلَى بِلَابِلَهِ الدَّوَّ
حُ حَلَالَ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ
كَلُّ دَارٌ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا
فِي خَبِيثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رِجْسٍ
نَفْسِي مِرْجَلٌ وَقَلْبِي شِرَاعٌ
بِهِمَا فِي الدَّمْوَعِ سِيرِي وَأَرْسِي
وَاجْعَلِي وَجْهَكَ (الْفَنَارَ) وَمَجْرَا
لَكَ يَدَ (الشَّغَرَ) بَيْنَ (رَمْلَ) وَ(مَكْسَ)
وَطَنِي لَوْ شُغِلتُ بِالْخَلْدِ عَنِهِ
نَازَعْتِنِي إِلَيْهِ فِي الْخَلْدِ نَفْسِي
وَهَفَّا بِالْفَوَادِ فِي سَلْسَبِيلٍ
ظَمَّاً لِلسَّوَادِ مِنْ (عَيْنِ شَمْسَ)
شَهَدَ اللَّهُ لَمْ يَغْبُ عَنْ جَفُونِي
شَخْصِهِ سَاعَةً وَلَمْ يَخْلُ حِسَّيْ

يُصْبِحُ الْفَكْرُ وَ (الْمُسْلَة) نَادِ
يَهُ وَ (بِالسَّرَّةِ الزَّكِيَّةِ) يُمْسِي
وَ كَانَّ أَرَى الْجَزِيرَةَ أَيْكَا
نَغَمَتْ طِيرَه بِأَرْخَمِ جَرَسِ
هِيَ (بِلْقَيْسُ) فِي الْخَمَائِلِ صَرَحَ
مِنْ عَبَابٍ وَ صَاحِبٍ غَيْرُ نِكْسِ
حَسِبَهَا أَنْ تَكُونَ لِلنِّيلِ عَرْسًا
قَبْلَهَا لَمْ يُجِنْ يَوْمًا بَعْرَسِ
لِبِسْتِ الْأَصِيلِ حُلَّةً وَ شَيِّ
بَيْنَ صَنْعَاءَ فِي الثَّيَابِ وَ قَسِ
قَدَّهَا النِّيلُ فَأَسْتَحْتَ فَتَوَارَتِ
مِنْهُ بِالْجَسَرِ بَيْنَ عُرَيْ وَ لُبْسِ
وَ أَرَى النِّيلَ (كَالْعَقِيقِ) بِوَادِيهِ
هُ وَ إِنْ كَانَ كَوْثَرَ الْمُتَحَسِّيِ
ابْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ذُو الْمَوْكِبِ الْفَخْمِ
الَّذِي يَحْسِرُ الْعَيْنَ وَ يَخْسِي
لَا تَرِي فِي رَكَابِهِ غَيْرَ مَثِينِ
بِجَمِيلِ وَ شَاكِرِ فَضْلَ عَرْسِ

وأرى (الجizza) الحزينة تكلى
لم تفق بعد من مناحة (رمسي)
أكثرت ضجة السوّاق عليه
وسؤال السيراع عنّه بهمس
وقيام النخيل ضفّرن شعراً
وتجردن غير طوقٍ وسلس
وكأنَّ الأهرام ميزان فرعو
ن بيومٍ على الجبار نحس
أو قناطيره تائق فيها
ألف جابِ وألف صاحب مكس
روعه في الضحى ملاعب جنُّ
حين يعشى الدجي حماها ويغسي
و(رهين الرمال) أفطس إلاً
أنَّه صنع جنة غير فطس
تنجلي حقيقة الناس فيه
سبعُ الخلق في أسرارِ إنسى
لعيَ الدُّهر في ثراه صبياً
واللبالي كواعباً غير عنس

رَكِبَتْ صُيَّدُ الْمَقَادِيرِ عَيْنِيهِ
لَنَقَدٍ وَمِخْلَبِيهِ لَفَرْسٍ
فَأَصَابَتْ بِهِ الْمَالِكَ (كَسْرِي)
(وَهِرَقْلَا) وَ (الْعَبْرِي الْفَرَنْسِي)
يَا فَوَادِي لَكُلَّ أَمِيرٍ قَرَارٌ
فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجُلِي بَعْدِ لِبْسٍ
عَقَّلَتْ لَجَّةُ الْأَمْوَارِ عَقْسُولًا
كَالْتُ الْحَوْتُ طَوْلُ سَبْعِ وَغَسِّ
غَرِقَتْ حِيثُ لَا يَصَاحُ بَطَافٍ
أَوْ غَرِيقٌ وَلَا يَصَاحُ لِحِسٍ
فَلَكَ يَكْسِفُ الشَّمْوَسَ نَهَارًا
وَيَسُومُ الْبَدْوَرَ لَيْلَةً وَكَسْ
وَمَوَاقِيتُ لِلْأَمْوَارِ إِذَا مَا
بَلَغَتْهَا الْأَمْوَارُ صَارَتْ لَعْكَسٍ
دُولَ كَالْرِجَالِ مَرْتَهَنَاتٍ
بَقِيَامٍ مِنْ الْجَدُودِ وَتَعْسٍ
وَلِيَالِي مِنْ كُلِّ ذَاتِ سَوَارٍ
لَطَمَتْ كُلَّ رَبٌّ (رُومٌ) وَ(فَرْسٌ)

سَدَّدْتُ بِالْهَلَالِ قَوْسًا وَسَلَّتْ
 خنجرًا ينفاذان من كُلِّ نرس
 حكمت في القرون (خوفو) و(دارا)
 وعفت (وانلاً) وألوت (بعبس)
 أين (مروان) في المشارق عرشُ
 أمُويٌّ وفي المغارب كرسيٌّ
 سَقِّمت شمسهم فردَّ عليها
 نورها كُلُّ ثاقب الرأي نَطَسْ
 ثم غابت وكل شمسٍ سوى هاتيه
 لَكَ تَبْلِي وَتَنْطُوي تحت رَمْسَ
 وعظَ (البحيري) إيوان (كسرى١)
 وشقتني القصورُ من (عبد شمس)
 دُبَّ ليل سريتُ والبرقُ طِرْفيٌ
 وبساطٍ طويتُ والريحُ عَنسِيٌّ
 أَنْظِمَ الشَّرْقَ فِي (الجزيرة) بالغرَّ
 بَ وَأَطْوَيَ الْبَلَادَ حَزْنًا لَدَهْسَ
 فِي دِيَارِ مِنَ الْخَلَائِفِ دَرْسَ
 وَمَنَارٌ مِنَ الطَّوَافِ طَمَسَ

ورُبِّي كالجنان في كَنْفِ الزيتو
 ن خضير وفي ذراً الْكَرْم طُلْسٌ
 لم يرْعِني سوى ثرى قرطبيٌ
 لمست فيه عِبرة الدهر خمسيٌ
 يا وقى الله ما أصْبَحْ منه
 وسقى صفوَة الجبا ما أَمْسَىٌ
 قرية لا تُعدُّ في الأرض كانت
 تمسك الأرض آنَ تَمِيدَ وترسيٌ
 غَشِيتْ ساحلَ المحيط وغَطَتْ
 لُجَّةَ الرُّوم من شراعٍ وقلسٍ
 رَكِبَ الْدَّهْرُ خاطري في ثراها
 فاتَّى ذلك الحمى بعد حَلْسٍ
 فتَجلَّتْ لِيَ الْقُصُورُ ومن في
 ها من العِزَّ في منازلَ قُعْسٍ
 ما ضفتْ قط في الملوك على نذ
 ل المعالي ولا ترددت بِنَجْسٍ
 وكأنَّى بلغتُ للعلم بِينَا
 فيه مال العقول من كُل درسٍ

قدساً في البلاد شرقاً وغرباً
حجَّهُ القومُ من فقيهٍ وقسٌ
وعلى الجمعةِ الجلالةِ و(النا
صرُّ) نور الخميس تحت الدُّرْفَسِ
يُنزلُ التاجَ عن مفارقِ (دونِ)
ويُحلِّي به جبينِ (البرنسِ)
سِنَةٌ من كَرَى وطيفُ أَمَانٍ
وصحَا القلبُ من ضلالٍ وهَجَسٍ
وإِذَا الدارُ ما بها من أَنيسٍ
وإِذَا القومُ مالهم من مُحِسٍ
ورقيقٌ من البيوت عتيقٌ
جاوزَ الأَلْفَ غير مذمومٍ حَرْسٌ
أَثْرٌ من (محمد) وتراثٌ
صار (للروح) ذي الولاءِ الأَمْسِ
بلغَ النَّجْمَ ذِرْوَةً وتناهى
بينِ (ثهلان) في الأَسَاسِ و(قدس)
مَرْمَرٌ تسبحُ النَّواظِرُ فيه
ويَطُولُ المدى عليها فترسي

وسوارٌ كأنها في أستواءٍ
 ألفاتُ الوزير في عرض طرسٍ
 فترَةُ الدهرِ قد كست سطريها
 ما اكتسى الهدبُ من فتوري ونعسٍ
 ويحها كم تزيَّنت لعليمٍ
 واحد الدهر وأستعدت لخمسٍ
 وكأنَّ الرفيفَ في مشرح العيْ
 من ملأه مُدثراتِ الدّمّقسيِ
 وكأنَّ الآياتَ في جانبيه
 يتنزَّلُونَ من معارجِ قدسٍ
 مِنْبَرٌ تحتَ (منذرٍ) من جلالٍ
 لم ينزلُ يكتسيهُ أو تحتَ (قسٍ)
 ومكانُ الكتابِ يُغريكَ رَيَا
 ورده غائباً ، فتدنو لِلمسِ
 صنعة (الداخل) المبارك في الْغرِ
 بِ وآلِ له ميامينَ شمسٍ

* * *

مَنْ (لِحُمَرَاء) جَلَّتْ بِغُبَارِ الْ
 دَهْرِ كَالْجُرْحِ بَيْنَ بُرُّ وَنُكْسِ
 كَسَّا الْبَرْقَ لَوْ مَحَا الضَّوْءَ لِحظَّاً
 لِمَحْتَهَا الْعَيْنَ مِنْ طَوْلِ قَبْسٍ
 حِصْنٌ (غُرْنَاطَة) وَدَارُ بَنِي (الْأَحَدِ)
 هَرَ) مِنْ غَافِلٍ وَيَقْظَانَ نَدْسِ
 جَلَّلَ الثَّلَجُ دُونَهَا رَأْسَ (شِيرِي)
 فَبِلَا مِنْهُ فِي عَصَابِ بِرْسٍ
 سَرْمَدُ شَيْبُهُ وَلَمْ أَرْ شَيْبَيَاً
 قَبْلَهُ يُرجِيُ الْبَقَاءَ وَيُنْسِي
 مَشَتِ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفَ (الْحَمَّ
 مَرَاء) مَشَيَ النَّعِيَّ فِي دَارِ عَرْسٍ
 هَتَّكَتْ عَزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ
 سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرِ وَأَنْسِ
 عَرَصَاتِ تَثَلَّتْ الْخَيْلُ عَنْهَا
 وَأَسْتَرَاحَتْ مِنْ أَحْتِرَاسِ وَعْنِ
 وَمَفَانِي عَلَى الْلَّيَالِي وَضَاءُ
 لَمْ تَجِدْ لِلْعَشِيِّ تَكْرَارَ مَسْ

لَا ترى غَيْرَ وَافِدِينَ عَلَى النَّا
رِيخ سَاعِينَ فِي خُشُوعٍ وَنَكْسٍ
نَقْلُوا الْطَّرْفَ فِي نَضَارَةٍ آتَيْ
مِنْ نَقْوَشٍ وَفِي عَصَارَةٍ وَرَسْ
وَقِبَابٍ مِنْ لَازَورْدٍ وَتِبَّرٍ
كَالرَّبِّيِّ الشَّمْ بَيْنَ ظِلِّ شَمْسٍ
وَخَطْوَطٍ تَكَفَّلَتْ لِلْمَعَانِي
وَلِأَلْفَاظِهَا بِأَزِينِ لَبْسٍ
وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءً
مَقْفَرَ الْقَاعِ مِنْ ظَبَاءٍ وَخُنْسٍ
لَا (الثَّرِيَا) وَلَا جَوَارِيِّ الثَّرِيَا
يَتَنَزَّلُ فِيهِ أَقْمَارٌ إِنْسٌ
مَرْمَرٌ قَامَتْ الأَسْوَدُ عَلَيْهِ
كَلَّةً أَلْظَفَرَ لِيَنَّاتِ الْمَجَسِ
تَنَشَّرَ المَاءُ فِي الْحِيَاضِ جَمَانًا
يَتَنَزَّلُ عَلَى تَرَائِبِ مُلْسِ
آخِرِ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ
بَعْدَ عَرَكٍ مِنَ الزَّمَانِ وَضَرَسْ

فتراما ، تقول : رايةُ جيشٍ
بادَ بالأَمْسِ بَيْنَ أَسْرٍ وَحَسِّ
وَفَاتِحَهَا مَقَالِيدُ مُلْكٍ
باعها الوارثُ المُضيَعُ بِيَخْسٍ
خَرَجَ الْقَوْمُ فِي كِتَابَ صُمٍّ
عَنْ حِفَاءٍ كَمُوكَبِ الدُّفْنِ خُرْسٍ
رَكِبُوا بِالْبَحَارِ نَعْشًا وَكَانَتْ
تَحْتَ آبَائِهِمْ هِيَ الْعَرْشُ أَمْسٌ
رَبُّ بَانٍ لَهَا دَمٌ ، وَجُمُوعٌ
لِمُشِّتٍ ، وَمُحْسِنٌ لِمُخْسٍ
إِمْرَةُ النَّاسِ هِمَّةٌ لَا تَأْتَى
لِجَانٍ وَلَا تَسْنَى لِجَبَسٍ
وَإِذَا مَا أَصَابَ بَنِيَانَ قَوْمٍ
وَهِيَ خُلُقٌ فَإِنَّهُ وَهِيَ أَسْ
يَا دِيَارًا نَزَلتُ كَالْخَلْدِ ظِلَّاً
وَجَنِي دَانِيَا وَسَلْسَالُ أَنْسٍ

محسناً الفصول لانساجُرْ في
هَا بقيظ ولا جُمادى بقرس
لاتحسُ العيونُ فوقَ رُباهَا
غِيرَ حورٍ ، حُوَّ المراشف لُعُسٌ
كُسيتْ أَفْرُخِي بظللك ريشاً
وربَا في ربك واشتدَّ غرسٌ

هم بنو مصر لا الجميلُ لديهم
بمضاعٍ ولا الصنيع بمنسي
من لسانٍ على ثنائك وقفٍ
وجنانٍ على ولائك حبسٌ
حسبهم هذه الطُّلُولُ عِظاتٌ
من جديد على الدهور ودرسٌ
وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما
ضي فقد غاب عنك وجهُ النَّاسِي

نَكْبَةُ دِمْشَقِ

سَلَامٌ مِنْ صَبَا (بَرَدَى) أَرَقُ
وَدَمْعٌ لَا يُكَفَّكُّ يَا دَمْشَقُ
وَمَغْنِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي
جَلَاءُ الرُّزْءَ عَنْ وَصْفِ يَلِيقٍ
وَذَكْرٍ عَنْ خَوَاطِرِهَا لِقَلْبِي
إِلَيْكِ تَلَفَّتُ أَبَدًا وَخَفَقُ
وَبِي مَا رَمَتُ بِهِ الْلِيَالِي
جِرَاحَاتُهَا فِي الْقَلْبِ عُمْقٌ
دَخَلْتُكِ وَالْأَصْيَلُ لَهِ اِتِّلَاقٌ
وَوَجْهُكِ ضَاحِكُ الْقَسْمَاتِ طَلْقٌ
وَتَحْتِ جِنَانِكِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي
وَمَلْءُ رُبَّاكِ أَوْرَاقُ وَوُرَقٌ

وحولي فتيةٌ غُرْ صِباح
 لهم في الفضل غایاتٌ وسبق
 على لَهواهُم شراءُ لُسْنٌ
 وفي أَعْطافِهم خطباءُ شُدُّق
 رواة قصائدِي فاعجبْ لشِعرٍ
 بكل محلَّة يرويه خلق
 غمزتُ إِبَاءَهُم حتى تلَظَّتْ
 أنوفُ الأَسْدِ واضطربَ المَدَقُ
 وضعَ من الشكيمَة كُلُّ حُرٌّ
 أَبَيٌّ من أُمِيَّةٍ فيه عِتق

* * *

لـها الله أَنباءً تـوالـت
 على سـمع الـوليِّ بما يـشـقـّ
 يـفـصلـهـا إـلـى الدـنـيـا بـرـيدـُ
 وـيـجـملـهـا إـلـى الـآـفـاقـ بـرـقـُ
 تـكـادـ لـروعـةـ الـأـحـدـاثـ فـيـهاـ
 تـخـالـ مـنـ الـخـرـافـةـ وـهـيـ صـدـقـ

وَقِيلَ مَعَالِمُ الْتَّارِيخِ دُكَّتْ
وَقِيلَ أَصَابَهَا تَلْفٌ وَحْرَقْ
الْأَسْتِ، دِمْشَقُ، لِلإِسْلَامِ ظِهْرًا
وَمَرْضِعَةُ الْأُبُوَّةِ لَا تَعْقِ
صَلَاحُ الدِّينِ تَاجُكَ لَمْ يُجْعَلْ
وَلَمْ يُوْسِمْ بِسَازِينَ مِنْهُ فَرْقْ
وَكُلُّ حَضَارَةٍ فِي الْأَرْضِ طَالَتْ
لَهَا مِنْ سَرْحَكَ الْعُلُويِّ عِرْقْ
سَمَاوَكَ مِنْ حَلِّ الْمَاضِي كِتَابْ
وَأَرْضَكَ مِنْ حَلِّ التَّارِيخِ رَقْ
بَنِيتَ الدُّولَةِ الْكَبْرِيِّ وَمُلْكًا
غَبَارَ حَضَارَتِيهِ لَا يُشَقِّ
لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامُ وَعِرْسْ
بَشَائِرُهُ بِسَانْدَلْسِ تَدْقِ

* * *

رَبَاعُ الْخَلْدِ وَيَحْكُمُ مَا دَهَا هَا
أَحَقُّ أَنْهَا دَرَسَتْ أَحَقُّ

وَهُلْ غَرَفُ الْجِنَانِ مُنَضَّدَاتٌ
 وَهُلْ لَنْعِيمَهُنَّ كَأَمْسِ نَسْقٌ
 وَأَيْنَ دُمَى الْمَقَاصِرِ مِنْ حِجَالٍ
 مَهَتَّكَةٌ وَأَسْتَارٌ تُشَقَّ
 بَرْزَنٌ وَفِي نَوَاحِي الْأَيْكَ نَارٌ
 وَخَلْفَ الْأَيْكَ أَفْرَاخٌ تُزَقَّ
 إِذَا رُمَّنَ الْسَّلَامَةَ مِنْ طَرِيقٍ
 أَتَتْ مِنْ دُونِهِ لِلْمَوْتِ طُرُقٌ
 بَلِيلٌ لِلْقَدَائِفِ وَالْمَنَابِيَا
 وَرَاءَ سَمَائِهِ خَطْفٌ وَصَعْقٌ
 إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ احْمَرَّ أَفْقٌ
 عَلَى جَنَبَاتِهِ وَإِسْوَادَ أَفْقٌ
 سَلِيٌّ مِنْ رَاعَ غِيدَكِ بَعْدَ وَهَنَّ
 أَبَيْنُ فَؤَادُهِ وَالصَّخْرُ فَرْقُ؟
 وَلِلْمُسْتَعْمِرِينَ وَإِنْ أَلَانَوا
 قُلُوبٌ كَالْحِجَارَةِ لَا تُرْقَ
 رَمَالِكِ بَطِيشَهُ وَرَمَى فَرْنَسَا
 أَخْوَ حَرْبٍ بِهِ صَلَفٌ وَحُمَقٌ

إِذَا مَا جَاءَهُ طُلَابُ حَقٌّ
يَقُولُ عَصْبَابَةُ خَرْجُوا وَشَقُوا
دَمُ الْأَشْوَارِ تَعْرِفُهُ فَرْنَسَا
وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقٌّ
جَرَى فِي أَرْضِهَا، فِيهِ حِيَاةٌ
كَمِنْهَا لِلسمَاءِ وَفِيهِ رِزْقٌ
بِلَادُ مَاتَ فِتَيَّهَا لِتَحِيَا
وَزَالَوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَبْقُوا
وَحَرَّتُ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاهَا
فَكَيْفَ عَلَى قَنَاهَا تُسْتَرَّ
بَنِي سُورِيَّةَ اطَّرَحُوا الْأَمَانِي
وَأَلْقُوا عَنْكُمُ الْأَحَلامَ أَلْقُوا
فَمَنْ خِدَعَ السِّيَاسَةَ أَنْ تُغْرُوا
بِالْقُلُوبِ الْإِمَارَةَ وَهِيَ رِيقٌ
وَكُمْ صَبَّا بِدَائِثَ منْ ذَلِيلٍ
كَمَا مَالَتْ مِنْ الْمَصْلُوبِ عَنْقَ
فَتَوَقَّ الْمَلَكُ تَحْدُثُ ثُمَّ تَمْضِي
وَلَا يَمْضِي لِمُخْتَلِفِينَ فَتَسْقِي

نَصَحْتُ وَنَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَارًا
 وَلَكُنْ كُلُّنَا فِي الْهَمِ شَرْقٌ
 وَبِجَمِيعِنَا إِذَا اخْتَلَفْتُ بِلَادٍ
 بِيَانٍ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ وَنُطْقٌ
 وَقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حَيَاةً
 فَإِنْ رَمْتُمْ نَعِيمَ الدَّهْرِ فَاشْقُوا
 وَلِلأَوْطَانِ فِي دَمِ كُلِّ حَرَبٍ
 يَدُ سَلْفُتْ وَدِينُ مُسْتَحْقٍ
 وَمَنْ يَسْقِي وَيَشْرُبُ بِالْمَنَابِيَا
 إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقَوْا وَيَسْقُوا؟
 وَلَا يَبْنِي الْمَالِكُ كَالْفَصَاحِيَا
 وَلَا يُدْنِي الْحَقْوَقُ وَلَا يُحْقِّقُ
 فَفِي الْفَتْلِ لِلْأَجْيَالِ حَيَاةٌ
 وَفِي الْأَسْرِيِّ فِي مدِيَ لَهُمُ وَعِنْقٌ
 وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمَرَاءِ بَابٌ
 بِكُلِّ يَدٍ مَضْرَجَةٌ يُدَقُّ

جَاكِمْ ذُو الْجَلَالِ بْنِي دِمْشَقِ
 وَعِزُّ الْشَّرَقِ أَوْلَهُ دِمْشَقُ
 نَصْرَتْمِ يَوْمَ مِحْنَتِهِ أَخَاكِمْ
 وَكُلُّ أَخٍ بِنَصْرِ أَخِيهِ حَقٌّ
 وَمَا كَانَ الدُّرُوزَ قَبْيلَ شَرٍّ
 وَإِنْ أَخْدَنَا بِمَا لَمْ يَسْتَرُّ
 وَلَكِنْ ذَادَةُ وَقْرَاهُ ضَيْفٌ
 كَيْنَبُوعُ الصَّفَا خَشْنُوا وَرَقُوا
 لَهُمْ جَبَلٌ أَشَمُّ لَهُ شِعَافٌ
 مَوَارِدُ فِي السَّحَابِ الْجُونُ بُلْقُ
 لَكُلُّ لَبُوءَةٍ وَلَكُلُّ شِبْلٍ
 نِضَالٌ دُونَ غَايَتِهِ وَرَشْقٌ
 كَانَ مِنَ السَّمَوَاتِ فِيهِ شِيشاً
 فَكُلْ جِهَانَهُ شَرَفٌ وَخَلْقٌ

الحرية الحمراء

في مهرجان الحق طَوِّيْ يوم الدُّمْ
مهجُّ من الشهاداء لم تتكلّم (١)
يبدو على هاتور نُورُ دمائها
كُسْدَمُ الحُسَيْن على هلال محرَّم
يوم الجهاد بها كصدر نهاره
متمايل الأعطااف مبتسمُ الفم
طلعت تحجُّ البيت فيه كأنها
زُهر الملائكة في سماء الموسم
لم لا تطلُّ من السماء وإنما
بين السحاب قبورها والأنجم
ولقد شجاها الغائبون ورعاها
ما حلَّ بالبيت المضيء المظلم

(١) قيلت في احتفال بيوم ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر).

وإذا نظرت إلى الحياة وجدتها
عُرْسًا أقيمت على جوانب مائة
لابد للحرية الحمراء من
سلوي ترقى جرحها كالبلىسم
وتبتسم يعلو أسرتها كما
يعلو فم الثكلى وثغر الآيت
يوم البطولة لو شهدت نهاره
لنظمت للأجيال مالم ينظم
غُبنت حقيقته وفات جمالها
باع الخيال العقري اللهم
لولا عوادي النفي أو عقباته
والنفي حال من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورة
مثلت فيها صورة المستسلم
وحكىت فيها النيل كاظم غبظه
وحكىته متغيظاً لم يكظم
دعت البلاد إلى الغمار فغامرت
وطنية بمثقف ومعلم

ثارت على الحامي العتيد وأقسمت
بسواه جل جلاله لا تحتمي
نشر الكنانة ربهما وتخيرت
يده لنصرتها ثلاثة أسمهم
من كلّ أعزّل حُقُّه بيمنه
كالسيف في يمني الكمي المعلم
لم يُحجموا في ساعة قد أظفرت
ملك البحار بكل قبص مُحجم
وقفوا مطيئهمو بسلم قصره
والبَأْس والسلطان دون السلم
وتقدموا حتى إذا ما بلّغوا
أوحوا إلى مصر الفتاة تقدّمي
سالت من الغاب الشبول غلا بها
لبن اللباء وهاج عرق الضيغم
يوم النصال كستك لون جمالها
حرّية صبغت أديمك بالدم

أَصْبَحْتَ مِنْ غَرَرِ الزَّمَانِ وَأَصْبَحْتَ
ضَحْكَتْ أَسْرَةً وَجْهَكَ الْمُتَجَهِّمُ
وَلَقَدْ يَتَمَّتْ فَكِنْتَ أَعْظَمَ رَوْعَةً
يَا لَيْتَ مِنْ «سَعْدٍ» الْحَمِّى لَمْ تَبْتَسِمْ
لَيْسَمْ أَبُو الْأَشْبَالَ مَلِئَ جَفُونَهُ
لَيْسَ الشَّبُولُ عَنِ الْعَرِينِ بَنْوَمْ

* * *

يا فائع الطلع^(١)

يا نائح (الطلع) أشباء عوادينا
نشجي لِوَادِيكَ أم نَاسِي لِوَادِينا ؟ (٢)
ما ذا تقص علينا غير أن يداً
قصت جناحك جالت في حواشينا !
رمي بنا البين أيكاً غير سامينا
أخاك الغريب : وظلاً غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا
سهوأ ، وسل عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم تبرح بمنصدع
من الجناحين عي لا يليينا
فإن يك الجنس يا بن الطلع فرقنا
إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تآل ماءك تخنانا ولا ظماً
ولا أدكاراً ، ولا شجواً أفانيينا

(١) نظم شوقي هذه القصيدة في منفاه ببابانيا ، وقد ضعنها حنيفة الى وطنه ، ووصف فيها كثيراً من مشاهده ومعاهده .

(٢) الطلع : واد في ظاهر اشبيلية كان المعتمد بن عباد شديد التعلق به .

تَجَرُّ من فَنَنْ ساقاً إِلَى فَنَنْ
 وَنَسْحَبُ الذَّيْلَ ترْتَادُ الْمُؤَسِّينا
 أَسْأَهُ جَسْمَكَ شَتَّى حِينْ تَطْلِبُهُمْ
 فَمِنْ لِرْوَحِكَ بِالنُّطْسِ الْمَدَاوِينَا! (١)

* * *

آهَا لَنَا نَازِحَيْ أَيْكَ بَأْنَدَلْسِي
 وَإِنْ حَلَّلَنَا رَفِيفاً مِنْ رَوَابِينَا (٢)
 رَسْمٌ وَقَفَنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَهُ
 تَجِيشُ بِالدَّمْعِ وَالْإِجْلَالُ يَثْنِيْنَا
 لِفِتْيَةٍ لَا تَنَالُ الْأَرْضُ أَدْمَعَهُمْ
 وَلَا مَفَارِقُهُمْ إِلَّا مَصَّلِيْنَا
 لَوْ لَمْ يَسُودُوا بِدِينِ فِيهِ مَنْبَهَةٌ
 لِلنَّاسِ كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا
 لَمْ نَسْرِ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ
 كَالظَّمْرِ مِنْ (بَابِل) سَارَتْ (لَدَارِينَا)
 لَمَّا أُخْلَدَ نَابَتْ عَنْهُ نَسْخَتْهُ
 تَمَاثِيلُ الْوَرَدِ (خَيْرِيَّاً) وَ (نَسْرِيَّاً)

(١) النُّطْسِ: الأَطْبَاهُ (٢) الأَيْكَ الشَّجَرُ الْكَثِيفُ الْمَلَفُ - الرَّفِيفُ: الْحَصِيبُ.

نسقي ثراهم ثناءً، كلما ثُرَّتْ
 دموعنا نظمت منها مراثينا
 كادت عيون قوافينا تُحرِّكَه
 وكدَنَ يوقظنَ في الترب السلاطينا
 لكنَّ مصر وإنْ أغضَتْ على مِقَةٍ (١)
 عينُ من الخلد بالكافور تسقينا
 على جوانبها رَفَتْ تمائِلُنا
 وحول حافاتها قامت رواقينا
 ملاعِبُ مَرِحتْ فيها مَآربنا
 وأرْبُعُ أَنِسْتْ فيها أَمَانينا
 ومطَلَعُ لِسَعُودِ منْ أَواخِرنا
 ومَغْرِبُ لِجَدُودِ منْ أَوَالينا
 بِنَا فلم نَخلُ منْ رَوحٍ يُرَاوِحُنا
 منْ بر مصر وريحانٍ يُغادينا
 كَابُّ موسىٌ، على اسم الله تكفلنا
 وباسمِه ذهبتْ في اليم تُلقينا

(١) مِقَةٌ : محنة .

وَمَصْرُ كَالْكَرْمِ ذِي الْإِحْسَانِ : فَاكِهَةٌ .
لِحَاضِرِينَ وَأَكْنَابُ لِبَادِينَا

* * *

يَا سَارِيَ الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا
بَعْدَ الْمَدْوَءِ وَيَهْمِي عَنْ مَاقِينَا
لَا تَرْقِرِقَ فِي دَمْعِ السَّمَاءِ دَمًا
هَاجَ الْبُكَاءُ فَخَضَبَنَا الْأَرْضَ بِاَكِينَا
اللَّيلُ يَشَهُدُ لَمْ تَهْتَكْ دِيَاجِيَهِ
عَلَى نِيَامِ وَلَمْ تَهْتَفْ بِسَالِينَا
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَنَا إِلَّا عَلَى قَدْمِ
قِيَامِ لِيَلِ الْهَوَى لِلْعَهْدِ رَاعِينَا
كَزْفَرَةٌ فِي سَمَاءِ اللَّيَلِ حَائِرَةٌ
مَا نَرَدَّ فِيهِ حِينَ يُضْوِينَا
بِاللَّهِ إِنْ جُبْتَ ظَلْمَاءَ الْعُبَابَ عَلَى
نَجَائِبِ النُّورِ مَحْلُودًا (بِجَرِينَا)
تَرَدَّ عَنْكَ يَدَاهُ كَلَّ عَادِيَةٍ
إِنْسًا يَعِيشَ فَسَادًا أَوْ شَيَاطِينَا

حتى حوتاك سماء النيل عاليه
 على الغيوث وإن كانت ميامينا
 وأحرزتك شفوف اللازورد على
 وشي الزبرجد من أفواف وادينا
 وحازك الريف أرجاءً مورجةً
 رب خمائل واهتزت بساتينا
 فقيف إلى النيل واهتف في خمائله
 وانزل كما نزل الطل الرياحينا
 وآسى ما بات يذوي من منازلنا
 بالحوادث ويضوى من معانينا

* * *

ويا معطرة الوادي سرت سحراً
 فطاب كل طروح من مرامينا
 ذكية الذيل لو خلنا غلالتها
 قميص يوسف لم نحسب مغالينا
 جشمت شوك السرى حتى آتيت لنا
 بالوردي كتبأ وبالريأ عناوينا

فلو جزيناكِ بالأَرواحِ غالِيَةٌ
 عن طِيبِ مَسْرَاكِ لم تَنْهُضْ جَوَازِينا
 هَلْ مِنْ ذُبُولِكِ مُسْكِي نُحَمَّلُهُ
 غَرَائِبُ الْشَّوْقِ وَشِيَاءُ مِنْ أَمَالِينا
 إِلَى الَّذِينَ وَجَدْنَا وَدَّ غَيْرَهُمْ
 دُنْيَا وَوَدَّهُمُ الصَّافِي هُوَ الدِّينَا

* * *

يَا مِنْ نَغَارٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَمَائِرِنَا
 وَمِنْ مَصُونٍ هَوَاهِمْ فِي تَنَاجِيْنَا
 نَابَ الْحَنِينُ إِلَيْكُمْ فِي خَوَاطِرِنَا
 عَنِ الدَّلَالِ عَلَيْكُمْ فِي أَمَانِيْنَا
 جَئْنَا إِلَى الصَّبَرِ نَدْعُوهُ كَعَادِتِنَا
 فِي النَّائِبَاتِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِأَيْدِيْنَا
 وَمَا غَلِبَنَا عَلَى دَمْعٍ وَلَا جَلْدٍ
 حَتَّى أَتَتْنَا نُواكِمْ مِنْ صَيَاصِيْنَا
 وَنَابِغِيًّا كَانَ الْحَشَرَ آخِرَهُ
 تَميَّنَا فِيهِ ذَكْرًا كُمْ وَتَحِيَّنَا

نطوي دُجاه بُجُرحٍ من فرَاقِكم
 يكادُ في غَلَسِ الأَسْحَارِ يَطْوِينَا
 إِذَا رَسَا النَّجْمُ لَمْ تَرْقَ مَحاجِرُنَا
 جَتِي يَزُولُ وَلَمْ تَهَدُ تِرَاقِينَا
 بَتَنَا نَقَاسِي الدَّوَاهِيَّ مِنْ كَوَاكِبِهِ
 جَتِي قَعْدَنَا بِهَا: حَسْرَبِ تُقَاسِينَا
 يَبْدُو النَّهَارُ فِيْخَفِيهِ تَجْلِدُنَا
 لِلشَّامِتَيْنِ وَيَأْسُوهُ تَأَسِّينَا

* * *

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكَنَافِ الرَّبِّيِّ رَفَةً
 أَنَّا ذَهَبَنَا وَأَعْطَافِ الصَّبَا لِيَنَا
 إِذَ الزَّمَانُ بَنَا غَيْنَاءَ زَاهِيَّةً
 تَرِفُّ أَوقَاتَنَا فِيهَا رَيَاجِينَا
 الْوَصْلُ صَافِيَّةُ، وَالْعِيشُ نَاغِيَّةُ
 وَالسَّعْدُ جَاشِيَّةُ، وَالدَّهْرُ مَاشِينَا
 وَالشَّمْسُ تَخْتَالُ فِي الْعِقْيَانِ تَحْسِبُهَا
 (بِلْقِيس) تَرْفُلُ فِي وَشِي الْيَمَانِيَّنَا

والنيلُ يقبلُ كالدنيا إذا احتفلتْ
 لو كان فيها وفاءً للمصافينا
 والسعُدُ لو دامَ، والنعمي لو اطَّردتْ
 والسيلُ لو عَفَّ، والمقدارُ لو دينا
 ألقى على الأرض حتى ردَّها ذهباً
 ماءً لمَسنا به الإِكسير أو طينا
 أعداه من يُمنه (التابوت) وارتسمتْ
 على جوانبه الأنوارُ من سينا
 له مبالغ ما في الخلقِ من كرمٍ
 عهدُ الكرام وميشاقُ الوفينـا
 لم يَجرِ للدهر إِعذار ولا عرسٌ
 إلا ب أيامنا أو في لياليـنا
 ولا جوى السعدُ أطْغَى في أَعْنَتْهـا
 منا جِياداً ولا أَرضي ميادينا
 نحن اليوقيت خاص النار جوهـنا
 ولم يهُنْ بيد التَّشتيت غالـينا

وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ
إِذَا تَلَوْنَ كَالْحِرَباءِ شَانِينَا

لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسَ مِيزَانًا وَلَا صَعْدَتْ
فِي مَلْكِهَا الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلِ وَادِينَا

أَلَمْ تُولِّهِ عَلَى جَافَاتِهِ وَرَأَتِ
عَلَيْهِ أَبْنَاءَهَا الْغُرُّ الْمِيَامِينَا؟

إِنْ غَازَلتْ شَاطِئِيهِ فِي الْضَّحْيَ لِبِسَا
خَمَائِلَ السُّنْدُسِ الْمُوشَيَّةِ الْغَيْنَا

وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجِ الْوَادِ مِنْ شَجَرِ
لَوَافِظَ الْقَزْ بِالْخِيطَانِ تَرِيمِينَا

وَهَذِهِ الْأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
قَبْلِ (الْقِيَاصِرِ) دِنَّاهَا (فَرَاعِينَا)

وَلَمْ يَضْعِ حَجَرًا بَانَ عَلَى حِجَرٍ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا

كَانَ أَهْرَامَ مَصْرِ حَائِطًا نَهَضَتْ
بِهِ يَدُ الْدَّهْرِ لَا بَنِيَانُ فَانِينَا

إِبْوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ عَلَيْهَا مَقَاصِرٌ
 يُفْنِي الْمُلُوكَ وَلَا يُبْقِي الْأَوَّلِينَ (١)
 كَانَهَا وَرْمَالًا حَوْلَهَا التَّطَمَّتْ
 سَفِينَةٌ غَرَقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا
 كَانَهَا تَحْتَ لَلَّاءِ الضَّحَى ذَهَبًا
 كَنُوزُ (فَرَعُونَ) غَطَّيْنَ المَوازِينَا

* * *

أَرْضُ الْأُبُوَّةِ وَالْمِيلَادِ طَيَّبَهَا
 مَرُّ الصَّبَا فِي ذِيولٍ مِنْ تَصَابِينَا

كَانَتْ مَحْجَلَةً ، فِيهَا مَوَاقِفُنَا
 غُرَّاً مُسْلِسَةً الْمَجْرَى قَوَافِينَا
 فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لَا عِبْنَا
 وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحَلامِ لَا هِنَا
 وَلَمْ نَدْعُ لِلْيَالِي صَافِيًّا ، فَدَعَتْ
 (بَأَنْ نَغْصَنَ فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا)

(١) الاواني : جمع الايوان

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة
 والبرّ نار وغىٰ ، والبحر غسلينا (١)
 سعياً إلى مصر نقضى حقاً ذاكرنا
 فيها إذا نسي الوافي . وباكينا
 كنْزٌ (بحلوان) عند الله نطلبُه
 خير الودائع من خير المودينا
 لو غابَ كلُّ عزيز عنه غيبتنا
 لم يأتِه الشوقُ إلا من نواحينا (٢)
 إذا حملنا مصر ، أو لَهُ شَجَنًا
 لم نذرِّ أَيْ هوِ الأمينِ شاجينا

(١) غسلين : حديد

(٢) اشارة الى المرحومة والدة احمد شوقي

رومۃ

قف برومَا وشاهد الأَمْر وأشهد
أنَّ لِلْمَلِكِ مَالِكًا سُبْحَانَهُ (١)
دُولَةٌ فِي الْتَّرَى وَأَنْقَاضُ مُلْكٍ
هَدَمَ الدَّهْرَ فِي الْعُلَا بُنْيَانَهُ
مَزَقَ تَاجَهُ الْخَطُوبُ وَأَلْقَتْ
فِي الْتَّرَابِ الَّذِي أَرَى صُولْجَانَهُ
طَلْلٌ عَنْدَ دَمْنَةٍ عَنْدَ رَسْمٍ
كَكْتَابِ مَحَا الْبَلِي عُنْوَانَهُ
وَتَمَاثِيلُ كَالْحَقَائِقِ تَزْدَادُ
دُوضُوحًا عَلَى الْمَدِي وَإِبَانَهُ
مِنْ رَآهَا يَقُولُ: هَذِي مَلُوكُ الدَّهْرِ
رِر، هَذِي وَقَارُونُهُمُ الرِّزَانَهُ

(١) قَدَّمَ شُوقِي لِهَذِهِ التَّصْبِيدَةَ بِرِسَالَةٍ بَعْثَبَها إِلَى صَدِيقِهِ الْمُؤْرِخِ اسْمَاعِيلَ بْكَ رَأْفَتْ

وبقيا هياكل وقصورٍ
 بين أخذِ البلي ودفعِ المثانه
 عبَثَ الدهر بالحواريٌّ فيها
 و«بيليوس» لم يَهُبْ أرجوانه
 وجرت هاهنا أمورٌ كِبارٌ
 واصلَ الدهرُ بعدها جَريانه
 راحَ دينُ وجاءَ دينٌ وولَّ
 مُلُكَ قومٍ وحلَّ ملُكٌ مكانه
 والذِي حَصَلَ المَجْدُونَ إهرا
 قُ دماءٍ خليقة بالصيامه
 ليت شعرى إلامَ يقتتلَ اللَّا
 سُ على ذي الدَّنِيَّةِ الفتَانهْ
 بلدُ كَانَ للنصارى قِتاداً
 صار ملك القُسوس عرشَ الديانه
 وشعوبٌ يمحون آيةَ عيسىٌ
 ثم يُعلون في البرية شائمهْ

وَيُهِينُونَ صَاحِبَ الرُّوحِ مَيْتًا
 وَيَعْزُونَ بَعْدَهُ أَكْفَانَهُ
 عَالَمٌ قُلْبٌ وَأَحَلامٌ خَلَقٌ
 تَبَارِي غَبَاوَةً وَفَطَانَهُ
 رُومَةُ الْرَّهْرَهُ فِي الشَّرَائِعِ وَالْحِكْمَةِ
 فِي الْحُكْمِ ، وَالْهُوَى وَالْمَجَانَهُ
 وَالتَّنَاهِي فَمَا تَعْدِي عَزِيزًا
 فِيكِ عَزٌّ وَلَا مَهِينَةً مَهَانَهُ
 مَا لَحِيٌّ لَمْ يُمْسِيْ مِنْكِ قَبِيلٌ
 أَوْ بَلَادٌ يَعْدَهَا أَوْ طَانَهُ
 يَصْبُحُ النَّاسُ فِيكَ مَوْلَى وَعُبْدًا
 وَيَرِي عَبْدِكَ الْوَرَى غَلْمَانَهُ
 أَيْنَ مُلْكُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَربِ عَالٌ
 تَحْسُدُ الشَّمْسُ فِي الْضُّحَى سُلْطَانَهُ
 قَادِرٌ يَمْسُخُ الْمَالِكَ أَعْمَالًا
 لَا وَيَعْطِي وَسِعَهَا أَعْوَانَهُ

أين مالُ جَبَّيْتِهِ ورعايا
كُلُّهُم خازنٌ وأنتِ الخزانة؟
أين أشرافكِ الذين طغوا في آللَّهِ
رِحْتَى أذاقهُم طغيانه؟
أين قاضيكِ؟ ما أناخَ عليه؟
أين ناديكِ؟ ما دها شيخانه؟
قد رأينا علىكِ آثار حزنٍ
ومن الدور ما تَرَى أحزانه
اقصري واسألي عن الدهر مصرًا
هل قضت مرتين منه اللُّبانه
إِنْ مِنْ فَرَقَ الْعِبَادَ شُعُوبًا
جعل القِسْط بينها ميزانه
هَبِّكِ أَفْنَيتِ بالحداد الليالي
لن تَرُدِّي على الورى رومانه

على قبر نابليون

قفْ على كنِزٍ بباريس دفينْ
من فريد في المعاني وثمينْ
وافتَقِدْ جوهرةً من شَرَفٍ
صَدَفُ الدهر بِتربِيَّها ضئينْ
قد توارت في الثَّرَى حتى إِذا
قَدْمُ العَهْد توارت في الْسَّنِينْ
غُرِبَتْ حتى إِذا ما أَسْتَيَّاستْ
دنتِ الْدَّارُ ولكن لاتَ حينَ
لم تُذِبْ نَارُ الْوَغْيِ ياقوتَها
وأَذَابَتْه تباريَحُ الْحَنِينْ
لَا تلومُهَا ، أَلَيْسَ حَرَّةً
وهوَى الْأَوْطَانَ لِلْأَحْرَارِ دِينَ ؟

غَيْبَتْ بِسَارِيسْ ذُخْرَأً وَمُضِيْ
تُرْبَهَا الْقِيمْ بِالْحَرْزِ الْحَصِينْ

نَزَلَ الْأَرْضَ وَلَكِنْ بَعْدَمَا
نَزَلَ الْتَّارِيخَ قَبْرَ النَّابِغِينْ

أَعْظُمُ الْلَّبِثِ تَلْقَاهَا الشَّرَّائِيْ
وَرُفَاتُ النَّسَرِ حَازَتْهُ الْوُكُونْ

وَجَوَى الْغِمْدُ بِقَایا صَارَمٍ
لَمْ تَقْلِبْ مَثْلَهُ أَيْدِي الْقُيُونْ

شَيْدَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَبَنَوَا
حَائِطَ الشَّكَّ عَلَى أَمْسَى الْيَقِينِ

لَسَتْ تُحْصِي حَوْلَهُ الْأَلْوِيَّةَ
أَسِرَّتْ أَمْسِى وَرَايَاتِ سُبِينِ

نَامَ عَنْهَا وَهِيَ فِي سَدَّتِهِ
دِيْدَبَانُ سَاهِرُ الْجَفْنِ أَمِينِ

وَكَائِيٌّ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٌ
 لَكَ بِالْأَمْسِ هُوَ الْيَوْمُ خَدِينٌ
 وَوَلِيٌّ كَانَ يَسْقِيكَ الْهَوَى
 عَسْلًا قَدْ بَاتَ يَسْقِيكَ الْوَزِينَ
 فَإِذَا اسْتَكْرِمْتَ وَدًا فَاتَّهُمْ
 جَوَهْرَ الْوَدَّ وَإِنْ صَحَّ ظَنِينَ

* * *

مَرْمُرٌ أَضْجَعَ فِي مَسْنَوْنِهِ
 حَجَرُ الْأَرْضِ وَضِرْغَامُ الْعَرَبِينَ
 جَلَّتْهُ هِبَّةُ الْثَّاوِي بِهِ
 رَوْعَةُ الْحِكْمَةِ فِي الْشِّعْرِ الرَّصِينَ
 هَلْ دَرِيَ الْمَرْمُرُ مَاذَا تَحْتَهُ
 مَنْ قُوَى نَفْسِي وَمَنْ خَلَقَ مُتَّيِنَ؟
 أَيُّهَا الْفَالُونَ فِي أَجْدَاثِهِمْ
 ابْحَثُوا فِي الْأَرْضِ : هَلْ عِيسَى دَفِينَ؟
 يَمْحِي الْمِيتُ وَيَبْلِي رَمْسَهُ
 وَيَغْوِلُ الْرَّبَّعُ مَا غَالَ الْقَطِينَ

حصّنوا ما شئتمُ موتاكم !
هل وراء الموتِ من حصنٍ حصين؟
ليس في قبر وإن نال السُّهْي
ما يزيد الميت وزناً ويزين
فانزل التاريخ قبراً أو فنم
في الثَّرَبِ غُفلاً كبعضِ الْهَامِدِينِ
وأخذَ الأحياء ما شئت فلن
تجدَ التاريخ في المنخدعين !
يا عاصاماً حويَ المجد سويَ
فضلة قد قسمَت في المعرقين
أمك النفسُ قديماً أكرمت
وابوكَ الفضلُ خيرُ المنجبين
نسبُ البدرِ أو الشمس - إذا
جيءَ يالآباء - مغمورٌ رَهين
وأصولُ الخمر ما أَزْكَى على
خبث ما قد فعلت بالشاربين

لَا يَقُولُنَّ أَمْرُ أَصْلِي فَمَا
أَصْلُهُ مِسْكٌ وَأَصْلُ الْنَّاسِ طِينٌ
قَدْ تَوَجَّتَ فَقَالَتْ أُمَّهُ :
وَلَدُ الْشَّوْرَةِ عَقَ الْثَّائِرِينَ
وَتَزَوَّجَتْ فَقَالُوا : مَا لَهُ
وَلِحُورٍ مِنْ بَنَاتِ الْمَلْكِ عَيْنَ ؟
قَسْمًاً لَوْ قَدَرُوا مَا احْتَشَمُوا
لَا يَعِفُ النَّاسُ إِلَّا عَاجِزِينَ
أَرَأَيْتَ الْخَيْرَ وَافِي أُمَّةٍ
لَمْ يَنَالُوا حَظًّا فِي الْنَّاسَابِغِينَ
يَصْلُحُ الْمَلْكُ عَلَى طَائِفَةٍ
هُمْ جَمَالُ الْأَرْضِ جَيْنَا بَعْدَ حِينَ
مَلَأُوا الدُّنْيَا ، عَلَى قِلْتَهُمْ
وَقَدِيمًاً مُلِئَتْ بِالْمَرْسَلِينَ
يَحْسُنُ الدَّهْرُ بِهِمْ مَا طَلَعُوا
وَبِهِمْ يَزِدَادُ حَسَنًاً آفَلِينَ

قد أقاموا قدوة صالحة
وهمضوا أمثلة للمحتذين
إنما الأسوة - وألدنى أسى -
سبب العمران نظم العالمين
يا صريع الموت ندمان أليلي
كل حج بالذى ذقت رهين
كدت من قتل المنايا خبرة
تعلم الآجال أيان تحين
يا مُبِينَدَ الأَسْدِ في آجامها
هل أبادت خيلك الدود المهين !
يا عزيز السجن بالبابا إلى
كم تردى في الترى ذلل السجين ؟
رب يوم لك جلى وانشنى
سائل الغرة مسوح الجبين
أحرز الغاية نصرا غاليا
لفرنسا وحوى الفتح الثمين

قيصر الأنُسَاب فِيهِ نازلاً
 قيصر النفس عصامَ المالكين
 مُجْلِسَ التاج عَلَى مَفْرَقِهِ
 بيديه لا بِأَيْدِي المُجلسين
 جول (استرلتز) كَانَ المُلتَقِيَّ
 واصطدام النَّسَرِ بِالْمُسْتَنِسِين
 وُضِعَ الشَّطْرُنجُ فَاسْتَقْبَلَتْهُ
 بِبَنَانِ عَابِثٍ بِاللَّاعِبِينَ
 فَإِذَا الْمَلَكَانِ هَذَا خَاصِّعَ
 لَكَ فِي الْجَمْعِ وَهَذَا مُسْتَكِينَ
 صِدْتَ شَاهَ الْرُّوسِ وَالنَّمْسا مَعًا
 مِنْ رَأْيِ شَاهِينٍ صِيدًا فِي كَمِينٍ

* * *

يَا مُلْقِي النَّصَرِ فِي أَحْلَامِهِ
 أَيْنَ مِنْ وَادِي الْكَرَى (سَنْتِ هِلِينَ)?
 يَا مُنْبِيلَ التاج فِي الْمَهْدِ ابْنَهِ
 مَا أَلَّذِي غَرَّكَ بِالْغَيْبِ الْجَنِينَ؟

اتَّشَدْ فِي أُمَّةٍ أَرْهَقْتَهَا
 إِنَّهَا كَالنَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ
 أَنْعَبَ الرِّيحَ مَدَىًّا مَا سَلَكَتْ
 مِنْ سُهُولٍ وَأَجَازَتْ مِنْ حُزُونٍ
 مِنْ أَدِيمٍ يَهْرَأُ الْدَبَّ إِلَى
 فَلَوَاتٍ تُنْتَجُ الْفَضْبَ الْكَنِينَ
 لَكَ فِي كُلِّ مُغَارٍ غَارَهُ
 وَعَلَيْهَا الدَّمْعُ فِيهِ وَالْأَنْيَنَ
 وَمِنْ الْمَكْرِ تَغْيِيبَكَ بِهَا
 هَلْ يَزَكِي الْذَّبَحَ غَيْرُ الْذَّابِحِينَ؟
 سُخْرَ الْنَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا
 لَقْوِيُّ أَوْ غَنِيُّ أَوْ مُبِينٌ
 وَالْجَمَاعَاتُ ثَنَابَا الْمَرْتَقَى
 فِي الْمَعَالِي وَجُسُورُ الْعَابِرِينَ

* * *

يَا خَطِيبَ الْدَهْرِ هَلْ مَالَ الْبَلِي
 بِلْسَانٍ كَانَ مِيزَانَ الْشُّوُونَ؟

تُرْجَحُ السلم إذا حَرَّكته
 كِفَةً أو تُرْجَحُ العرب الزَّبُون
 خُطَب لا صوت إِلا دونها
 في صداتها الخيلُ تجري والسنين
 من قصير اللفظِ في مكِيرِ الْئَهِيِّ
 وطويلِ الرُّمح في كيدِ الْوَتِينِ
 غَيْرَ وضَاعِ ولا واشِ ولا
 مُنْكَرِ الْقَوْلِ ولا لغو اليمينِ
 سِرْنَ أَمْثَالًا فلو لم يُحِيْهِ
 سِيفُهُ أَحْيَيْنَهُ في الْغَاثِيرِينِ

* * *

قمْ إِلَى الأَهْرَامِ وَاخْشُعْ وَأَطْرِحْ
 خيْلَهُ الصَّيْدِ وزهُوَ الْفَاتِحِينِ
 وَتَمَهَّلْ إِنْمَا تَمْشِي إِلَى
 حَرَمِ الدَّهْرِ وَمَحْرَابِ الْقَرْوَرِ
 هُوَ كَالصَّخْرَةِ عِنْدَ الْقَبْطِ أو
 كَالْحَطَمِ الْطُّهْرِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينِ

وتسنم مِنْبَرًا مِنْ حَجَرٍ
لم يكن قبلك حظ الخاطبين
وادع أجيالاً تولت يسمعوا
للك وابعث في الأولى حاشرين
وأعدها كلماتٌ أربعًا
قد أحاطت بالقرون الأربعين
ألهبت خيلاً وحضت فيلقاً
وأجالت عسلا صاب المئون
قد عرضت الدهر والجيش معاً
غاية قصر عنها الفاتحون
ما علمنا قائداً في موطنٍ
صفح الدهر وصف الدارعين
فترى الأحياء في مُعترظ
وترى الموتى عليهم مُشرفين
عظة قومي بها أولى وإن
بعد العهد ، فهل يعتبرون ؟

هذه الأهرام من تاريخهم (١)
 كيف من تاريخهم لا يستحون !
 يا كثير الصيد للصيد العلي
 قم تأمل كيف صادتك المنون
 قم تر الدنيا كما غادرتها
 منزل الغدر ، وماء الخادعين
 وتر الحق عزيزا في القنا
 هيئا في العزل المستضعفين
 وتر الأمر يدا فوق يد
 وتر الناس ذناباً وضئين
 وتر العز لسيف نرق
 في بناء الملك أو رأي رزين
 سenn كانت ، ونظم لم ينزل
 وفساد فوق باع المصلحين

(١) ورد المصدر في « الشوقيات » بدون حرف الجر « من » ولكن الوزن لا يستقيم ، عندئذ ، إلا باشبع ضمة الميم في « تاريخهم » .

أنس الروحود^(١)

أيها المستحي «بأسوان» داراً
كالثريّا تُريدُ أن تنقضَّا
إخْلَع النعلَ وانْخْضِي الطرفَ وانْخُشعَ
لاتطاؤل من آيةِ الدهرِ غَضَّا
يف بتلك «القصور» في اليمِ غرقَى
مُمسِّكاً بعُضُّها من الذعْرِ بعضاً
كمذاري أخفينَ في الماءِ بَضَّا
سابحاتٍ به وأبدِينَ بَضَّا
مُشرفاتٍ على الزَّوالِ ، وكانتْ
مُشرفاتٍ على الكواكب نَهضَا

(١) قدَّم شوقي لهذه القصيدة برسالة وجهها إلى المستر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأميركيَّة .

شابَ منْ حولها الزمان وشابتُ
 وشبابُ الْفُنونِ ما زالَ غَصَّا
 ربَ «نقشٍ» كَانَما نَفَضَ الصَا
 نَعْ مِنْهُ الْيَدِينِ بِالْأَمْسِ نَفَضَّا
 و«دهان» كَلَامِعِ الْزَّيْتِ مَرَّت
 أَعْصَرُ بِالسَّرَّاجِ وَالْزَّيْتِ وَضَّا
 و«خطوطٍ» كَانَهَا هُدْبُ رِيمٍ
 حَسَنَتْ صُنْعَةً وَطُولًا وَعَرَضًا
 و«ضحايا» تَكَادُ تَمْشِي وَتَرْعِي
 لَوْ أَصَابَتْ مِنْ قَدْرَةِ اللهِ نَبْضًا
 و«محاريب» كَالْبَرُوجِ بَنْتَهَا
 عَزَّمَاتُ مِنْ عَزْمَةِ الْجِنِّ أَمْضَى
 شَبَّدَتْ بَعْضَهَا الْفَرَاعِينِ زُلْفَى
 وَبَنَى لَبْعَضُ أَجَبَّ يَتَرَضَّى
 و«مقاصير»، أَبْدَلَتْ بَفْتَاتَ الْ...
 مَسْكِ تَرْبَى وَبِالْيَوْاقِيتِ قَضَّا

حُظِّهَا الْيَوْمُ هَلَّةً وَقَدِيمًاٌ
صُرِفَتْ فِي الْحَظْوَظِ رَفِيعًا وَخَفِيفًا
سَقَتِ الْعَالَمَيْنِ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْشِ
مِنْ إِلَى أَنْ تَعَاطِتِ النَّحْسُ مَحْضًا
صَنْعَةٌ تُدَهِّشُ الْعُقُولَ وَفَنْ
كَانَ إِتقَانُهُ عَلَى الْقَوْمِ فَرْضًا

يا قصوراً نظرتها وهي تقضي
فسكبت الدموع والحق يُفضي
أنت سطُر ومجُد مصر كتاب
كيف سام الْبَلِيلِ كتابك فضًا
وأنا المحتفِي بتاريخ مصر
من يَصُنْ مجدَ قومه صان عِرْضاً
رب سر بجانبيك مزالٍ
كان حتى على «الفراعين» غمضًا
قل لها في الدُّعاء لو كان يُجدي
يا سماء الجلال لا صرت أرضًا

حارَ «فيك» المهندسون عقولاً
 وتولتْ عزائمُ الْعِلْمِ مَرْضَى
 أين ملكُ حيالها وفريدُ
 من نظام النعيمِ أصبح فضّاً
 أين «فرعون» في المواكب تترى
 يركضُ المالكين كالخيل ركضاً
 ساق للفتح في المالك عرضاً
 وجلا للفخارِ في السلم عرضاً
 أين «إيزيس» تحتها النيل يجري
 حكمتْ فيه شاطئين وعرضاً
 أسدلَ الطرفَ كاهنٌ ومليلٌ
 في ثراها وأرسلَ الرأس خفضاً
 يُعرضُ المالكون أسرى عليها
 في قيودِ الهوانِ عازين جرّضى⁽¹⁾
 مالها أصبحتْ بغيرِ مُجِيرٍ
 تستكى من نوائب الدهرِ عصياً

(1) جرّضى : معمومين .

هي في الأسر بين صخر وبحر
ملكة في السجون فوق حضوضي^(١)

أين «هوروس» بين سيف ونطعِ
أبهذا في شرعهم كان يقضي
لبت شعري قضى شهيد غرام
أم رماه الوشاة حقداً وبغضاً
رب ضرب من سوط فرعون مضّ
دون فعل الفراق بالنفس مضّ

وهلاك بسيفه وهو قانٍ
دون سيف من الواحظ يتضي
قتلوه فهل لذاك حديث
أين راوي الحديث نثراً وقرضاً
بإمام الشعوب بالأمس واليو
م ستعطى من الثناء فترضي
(مصر) بالنازلين من ساح (معن)
وحِمي الجود (حاتم) الجود أفضى

(١) حضوضي : جبل في البحر .

كُنْ ظهِيرًا لِأَهْلَهَا وَنصِيرًا
وَأَبْذل النصْحَ بَعْدَ ذَلِكَ مَحْضًا
قل لِقَوْمٍ عَلَى (الولايات) أَيْقًا
ظِي إِذَا ذاقَتِ الْبَرِيَّةُ غُمْضًا
شِيمَةُ (النيل)، أَنْ يَفِي، وَعَجِيبٌ
أَحْرَجَوهُ فَضَيْعَ الْعَهْدَ نَقْضاً
حَاشَهُ الْمَاءُ فَهُوَ صَبَدٌ كَرِيمٌ
لَيْتَ بِالنِّيلِ يَوْمٌ يَسْقُطُ غَيْضًا
شِيدٌ وَالْمَالُ وَالْعِلُومُ قَلِيلٌ
أَنْقَنْدُوهُ بِالْمَالِ وَالْعِلْمِ نَقْضاً

قم ناج جلق

قُمْ ناجِ جِلَقَ وَأَنْشُدْ رِسْمَ مَنْ بَانَوا
مَشَتْ عَلَى الرَّسْمِ أَحَدَاثُ وَأَزْمَانٍ (١)

هذا الأَدِيمُ كِتَابٌ لَا كِفَاءَ لَهُ
رَثُ الصَّحَافَ بِاقِّيَّ مِنْهُ عُنْوانٌ
الدِّينُ وَالْوَحْيُ وَالْأَخْلَاقُ طَائِفَةٌ
مِنْهُ وَسَائِرَهُ دُنْيَا وَبَهْتَانٌ
مَا فِيهِ إِنْ قُلْبَتْ يَوْمًا جَوَاهِرُهُ
إِلَّا قَرَائِحٌ مِنْ رَادٍ وَأَذْهَانٌ
بَنُو أُمَّةَ لِلْأَنْبِيَاءِ مَا فَتَحُوا
وَلِلْأَحَادِيثِ مَا سَادُوا وَمَا دَانُوا

(١) القيت في حفلة التكريم التي اقامها لشوفي الجمع العلمي العربي بدمشق.

كانوا مُلوكاً سَرِيرُ الْشَّرْقِ تختهم
 فهل سأّلت سريرَ الْغَربِ ما كانوا
 عالِينَ كالشمسِ في أطّرافِ دولتها
 في كل ناحيةٍ مُلْكُ وسلطان
 يا ويحَ قلبيَّ مهما انتابَ أَرْسَمُهُمْ
 سرى به الْهَمُّ أو عادتُهُ أَشجانٌ
 بالأَمْسِ قمتُ على (الزهراء) أَنْدَبْهُمْ
 وأَلْيَوْمَ دمعي على «الفِيحَا» هتان
 في الأَرْضِ مِنْهُمْ سماواتُ وأَلْوَيَةُ
 ونَيَّراتُ وَأَنْوَاءُ وَعِقَبَانُ
 معادنُ الْعَزِّ قد مالَ الرِّغَامُ بهم
 لو هان في تُرْبَةِ الإِبْرِيزِ ما هانوا
 لولا دمشق لـما كانت (طلبيطة)
 ولا زَهَتْ بِبَنِي العَبَاسِ بَغْدان
 مَرَرَتْ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسَالَهُ
 هل في المَصَلَّى أو الْمَحْرَابِ (مروان)

تغيير المسجدُ المحزون و اختلفت
 على المنابرِ أحرارُ و عبادان
 فلا الأذانُ آذانٌ في منارته
 إذا تعالي ولا الآذان آذان
 آمنتُ بالله واستثنيتُ جنتَه
 دمشقُ روحُ وجناتُ وريحانُ
 قالَ الْفَاقُ وقد هبَّت خمائتها
 الأرضُ دارُ لها «الفيحاء» بستان
 جَرَى وصَفَقَ يلْقاناً بها «برَدَى»
 كما تلقَّاكَ دون الخلدِ رضوان
 دخلَتُها وحواشيهَا زمردةٌ
 والشمسُ فوقَ لجينِ الماءِ عقيان
 والحورُ في «دمَرٍ» أو حولَ «هامتَها»
 حورٌ كواشفُ عن ساقٍ وولدان
 و «ربوة» الوادِ في جلبابِ راقصةٍ
 الساقُ كاسيةٌ والنحرُ عريانٌ

والطيرٌ تصدحُ من خلف العيون بها
وللعيون كما للطير الحان
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفةً
أفواههُ فهو أصياغُ وألوان
وقد صفتَ «بردى» للريح فابتعدت
لدى ستورِ جواشيهنْ أفنان
ثم انشئت لم يزل عنها البلال ولا
جفتَ من الماء أذبال وأردان
خلقتُ «لُبنان» جناتِ النعيم وما
نبعتَ أنَّ طريقَ الخلد ل لبنان
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة
فيها الندى وبها «طبي» وشيبان
نزلتُ فيها بفتیان جَحاجحة
آباوهم في شباب الدهر غسان
بيضِ الأسرة باقٍ فيهم صيد
من «عبدِ شمسٍ» وإن لم تبق تيجان

يَا فَتِيَّةَ الشَّامِ شُكْرًا لَا أَنْقَضَاءَ لَهُ
لَوْ أَنْ إِحْسَانَكُمْ يَجْزِيَهُ شُكْرًا
مَا فَوْقَ راحَاتِكُمْ يَوْمَ السَّماَحِ يَدُ
وَلَا كَأْوَطَانَكُمْ فِي الْبَشَرِ أَوْطَانَ
خَمِيلَةُ اللَّهِ وَشَتَّهَا يَدَاهُ لَكُمْ
فَهَلْ لَهَا قَيْمٌ مِنْكُمْ وَجَنَانٌ
شَيْدُوا لَهَا الْمَلَكَ وَابْنُوا رَكْنَ دُولَتِهَا
فَالْمَلَكُ غَرْسٌ وَتَجْدِيدٌ وَبَنِيَانٌ
لَوْ يُرْجَعُ الدَّهْرُ مَفْقُودًا لَهُ خَطَرٌ
لَا بَالْوَاحِدِ الْمَبْكِيِّ ثَكَلَانٌ
الْمَلَكُ أَنْ تَعْلَمُوا مَا أَسْطَعْتُمُو عَمَلاً
وَأَنْ يَبْيَسْنَ عَلَى الْأَعْمَالِ إِتقَانٌ
الْمَلَكُ أَنْ تَخْرُجَ الْأَمْوَالُ نَاشِطَةً
لِمَطْلَبِ فِيهِ إِصْلَاحٌ وَعُمْرَانٌ
الْمَلَكُ تَحْتَ لِسَانٍ حَوْلَهُ أَدْبٌ
وَتَحْتَ عَقْلٍ عَلَى جَنَبِيهِ عِرْفَانٌ

أُمّلِكَ أَنْ تَتَلَاقُوا فِي هُوَى وَطَنٍ
تَفَرَّقْتَ فِيهِ بِأَجْنَاسٍ وَأَدِيَانٍ
نَصِيحَةٌ مِلْوَهَا الْإِخْلَاصُ صَادِقَةٌ
وَالنُّصْحُ خَالِصَهُ دِينٌ وَإِيمَانٌ
وَالشِّعْرُ مَا لَمْ يَكُنْ ذَكْرًا وَعَاطِفَةً
أَوْ حَكْمَةً فَهُوَ تَقْطِيعٌ وَأَوْزَانٌ
وَنَحْنُ فِي الشَّرْقِ وَالْفُصُحَى بِنُورَ حَمِيرٍ
وَنَحْنُ فِي الْجَرْحِ وَالآلَامِ إِخْوَانٌ

* * *

رمضان ولی هاتها ياساقی^(١)

رمَضَانُ وَلَى ، هَاتَهَا يَاسَاقِي
مُشْتَاقَةً تَسْعَى إِلَى مُشْتَاقِ
مَا كَانَ أَكْثَرُهُ عَلَى أَلْفَهَا
وَأَقْلَهُ فِي طَاعَةِ الْخَلَاقِ
اللَّهُ غَفَارُ الذُّنُوبِ جَمِيعُهَا
إِنْ كَانَ ثَمَّ مِنَ الذُّنُوبِ بِوَاقِي
بِالْأَمْسِيِّ قَدْ كُنَّا سَجِينَيْ طَاعَةً
وَالْيَوْمَ مَنْ أَعْيَدَ بِالْإِطْلاقِ
صَحِحَّتْ إِلَيْيَّ مِنَ السُّرُورِ وَلَمْ تَزُلْ
بَنْتُ الْكَرْوَمِ كَرِيمَةَ الْأَعْرَاقِ

(١) الأبيات الموضعية بين قوسين في هذه القصيدة ترجمتها جريدة «ال atan» بقلم المرحوم عثمان (باشا) غالب.

هات أَسْقِنِيْهَا غَيْرَ ذَاتِ عَوَاقِبٍ
 حَتَّى نُرَاعَ لِصَيْحَةِ الْصَّفَاقِ (٢)
 صِرْفًاً مُسْلَطَةُ الشَّعَاعِ كَائِنًا
 مِنْ وَجْهِتِكَ تُدَارُ وَالْأَحْدَاقِ
 حَمْرَاءً أَوْ صَفْرَاءً إِنْ كَرِيمَهَا
 كَالْغَيْدِ ، كُلُّ مَلِحَّةٍ بِمَذَاقِ
 وَحْدَادِ مِنْ دَمِهَا الرَّكِيْ تَرِيقُهُ
 يَكْفِيْكَ يَا قَاسِيْ دُمُ الْعُشَّاقِ
 لَا تَسْقِنِيْ إِلَّا دِهَاقًاً إِنِّيْ
 أَسْقَى بِكَأسِيْ فِي الْهُمُومِ دِهَاقِ (٢).
 فَلَعْلَ سُلْطَانُ الْمَدَامَةِ مُخْرِجِيْ
 مِنْ عَالَمٍ لَمْ يَطُو غَيْرَ نِفَاقِ
 (وَطَنِيْ أَسِفْتُ عَلَيْكَ فِي عَيْدِ الْمَلاِ
 وَبَكَيْتُ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ إِشْفَاقِ)

(١) الصَّفَاقِ : الدِّيْكَ.

(٢) الْدِهَاقِ : الْمُتَلَثَّةِ .

(لا عيَدَ لي حتى أراك بِأَمَّةٍ
 شَمَاء را دِيَةٍ من الْأَخْلَاقِ)
 (ذهب الكَرَامُ الْجَامِعُونَ لِأَمْرِهِمْ
 وبقيتُ في خَلِيفٍ بِغَيْرِ خَالِقِ)
 (أَيْظَلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ خَادِلًاً
 ويقال شعب في الحضارة رَافِي)
 وإذا أَرَادَ اللَّهُ إِشْقَاءَ القرى
 جعل المَدَاءَ بِهَا دُعَاءَ شِقَاقِ)

* * *

العيَدُ بين يديك يا ابن محمد
 نَشَرَ السَّعُودُ حُلَيًّا عَلَى الْآفَاقِ
 وَأَتَى يُقْبَلُ راحْتِيكَ وَيُرْتَجِي
 أَنْ لَا يَفُوتَكُمَا الزَّمَانَ تَلَاقِ
 قابْلَتِهِ بَسْعُودٍ وَجْهِكَ وَالسَّنَا
 فازدادَ مِنْ يُمْنِي وَمِنْ إِشْرَاقٍ
 فاهنَا بِطَالِعِهِ السَّعِيدِ يَزِينُهُ
 عيَدُ الْفَقِيرِ وَلِيلَةُ الْأَرْزَاقِ

يتنزَّلُ الأَجْرَانِ (١) فِي صُبْحِيهِما
 جَزْلَيْنِ عَنْ صُومٍ وَعَنْ إِنْفَاقٍ
 إِنِّي أُجَلُّ عَنِ الْقَتَالِ سَرَائِرِي
 إِلَّا قَتَالَ الْبُؤْسِ وَالْإِمْلاَقِ
 وَأَرَى سَوْمَ الْعَالَمِينَ كَثِيرَةً
 وَأَرَى التَّعَاوُنَ أَنْجَعَ التَّرِيَاقَ
 قَسَّمَتْ بَنَيَهَا وَاسْتَبَدَّتْ فَوْقَهُمْ
 دُنْيَا تَعْقُّ لَعِيمَةُ الْمَيْثَاقِ
 وَاللَّهُ أَتَعْبُهَا وَضَلَّلَ كَيْدَهَا
 نَ رَاحْتِيَكَ بِوَابِلِ غِيدَاقِ (٢)
 يَأْسُو جَرَاحَ الْيَائِسِينَ مِنَ الْوَرَى
 وَيُسَاعِدُ الْأَنْفَاسَ فِي الْأَرْمَاقِ (٣)
 بَلَغَ الْكَرَامُ الْمَجَدَ حِينَ جَرَوا لَهُ
 بِسَوَابِقِهِ وَبِلَفْتَهِ (بِبُرَاقِ)

(١) الأجران: أجر الصوم، وأجر زكاة الفطر. (٢) غيداق: مغدق، كثير الجود.

(٣) الأرماق: جمع الرمق، وهو بقية الحياة.

ورأوا غبارك في السُّمُّي وتراكضوا
 من للنجوم ومن لهم بلحاق
 مولاي طِلْبَة مصر أَن تبقى لها
 فإذا بقيتَ فكل خير باق
 سبق القريضُ إِليك كلَّ مهنيٌ^١
 من شاعر متفرد سباق
 لم يدَخِر إِلا رضاك ولا أقتني
 إِلا ولاءك أنفسَ الأَعْلَاق
 إن القلوب وأنت ملء صميمها
 بعثت تهانيهما من الأَعْمَاق
 وأنا الْفَتَى^٢ (الطائي) (١) فيك وهذه
 كَلِمِي هزَّتُ بها أَبا إِسْحاق (٢)

* * *

(١) الطائي : الشاعر أبو تمام الطائي :

(٢) أبو اسحق : الخليفة المعتصم بالله :

وصف مرقص^(١)

فَهِيَ وَجُودٌ عَدَمْ
 وَأَنْبَعَثْتُ فِي الْهَرَمْ
 كَرْمَتْهَا مِنْ كَرْمَ
 تَقْدِمَةً لِلصَّنَمْ
 نَاحِيَةً فِي (الْهَرَمْ)
 غَيْرَ شَذَّاً أَوْ ضَرَمَ
 بَعْدَ مَتَابِ الْمَ
 وَهِيَ عَلَيْهِ أَنَّمْ
 مَا عَرَفَ الْعُمُرَ هَمْ
 زَهْرَةٌ وَالْحَسْنُ كِمْ
 لَمْ يُرِّ إِلَّا ظَلَمْ
 قَدْرَهُ مِنْ قَسْمَ

طَالَ عَلَيْهَا الْقِدَمْ
 قَدْ وُئِدَتْ فِي الْصَّبَا
 بِالْغَ فَرَعَوْنُ فِي
 أَهْرَاقَ عُنْقُوْدَهَا
 خَبَّاهَا كَاهِنْ
 أَكْتُشِفَتْ فَامَّحَتْ
 أَوْ كَخِيَالٍ لَهَا
 نَمْ بَهَا دَنَهَا
 بَيْ رَشا نَاعِمْ
 أَخْرَجَهَا اللَّهُ كَالْ
 تَخْطُرُ عَنْ عَادِلٍ
 تَبِسْمُ عَنْ لُولُو

(١) قال شوفي هذه القصيدة، يصف «البال» الخديوي الذي أقيم عام ١٩٣٠ في سراي عابدين :

هَذِبَهُ فِي الْبَيْتِ
 جَانِبَهُ مُهْتَضِمٌ
 أَيْ قَوِيٌّ حَكْمٌ
 شَمْ عَلَيْهِ ادَّعَمٌ
 مُؤْمِنَةً بِالْغَنَمِ
 نَّالَ الْعَرَبِيُّ الْعِلْمُ؟
 لِيلَتِهِ لَمْ يَنْمِ
 ذَلِكَ رَبُّ الْقَلْمَنْ
 لَوْ حَفِيَ النَّجْمُ لَمْ
 نَرْمَ وَلَمْ نَتَهْمَ
 لَوْ أَنْصَفْتُ لَمْ أَلَمْ
 عُذْتُ بِهَا فَابْتَسَمْ
 بَيْنَ ضَلَوْعِي أَشَمْ
 يَهْتَكُ إِلا الْحَرَمَ
 يَمْزِجُهَا بِالشَّيْمَ
 إِنْ دَفْعَتْهُ أَحْتَشَمَ
 أَمْ ظَبَيْاتُ الْخَيْمَ

كَرْمَهُ فِي الْنَّوْيِ
 مُضْطَهَدُ حَصْرُهَا
 طَاوَعَ مِنْ صَدْرِهَا
 حَمَلَهُ ثَقْلَهُ
 تَسَأَلُ أَتَرَابُهَا
 أَيْ فَتَسَىً ذَلِكَ
 يَشْرَبُهَا سَاهِرًا
 قُلْنَ : تَجَاهِلِيهِ
 شَاعِرُ مَصْرُ الَّذِي
 قَلَتْ لَهَا: لَيْتَ لَمْ
 عَادَلَتِي فِي الْطَّلِيِ
 إِنْ عَبَسَ الْعِيشُ لِي
 يَشْرَبُهَا كَابِرٌ
 يَبَذُلُ إِلا الْنَّهِيِّ
 يُكَسِّبُهَا خُلْقَةٌ
 يَمْنَعُهَا حَلْمَهُ
 تَلْكَ شَمْوَسُ الدُّجَيِّ

شَقَّ سَنَاهُ الظَّلْمِ	تَقْبِيلٌ فِي مَوْكَبِ
قَرْنَ ذُكَاءَ نَجَمِ	بَلْتُ بَأْنُواهِ
آلٌ إِلَيْهَا أَعْظَمُ	مَقْصِدُهَا سُدَّةٌ
بعْضُ صِغَارِ الْخَدَمِ	حِيثُ كَبَارُ الْمَلَأِ
فَانسَرَبَتْ مِنْ أَمَمِ	قَدْ وَقَفُوا لِلْمَهَمِّا
بَيْنَ لَيْوَثٍ بَهِمِ	تَخْطُرُ مِنْ جَمِيعِهِمْ
دَاخِلَةً فِي أَجَمِ	خَارِجَةً مِنْ شَرَىِ
لَا هِيَةً لَمْ تَجِمِ	نَاعِمَةً لَمْ تُرِعِ
فِي الْمَهَاجَاتِ اَنْتَظَمِ	انْتَشَرَتْ لَوْلُواً
مَثْلَ حَمَامِ الْحَرَمِ	تَمْرَحَ فِي مَأْمَنِ
حِيثُ تَلَاقَيَ أَنَّامِ	مُؤْتَلِفٌ سِرْبُهَا
مُخْتَلِقَاتِ النَّغْمِ	مَنْدَفَعَاتٌ عَلَىِ
أَوْ قَدْمٍ فِي قَدْمِ	بَيْنِ يَدٍ فِي يَدِ
تَرْجَعَ كَرَّ النَّسَمِ	تَذَهَّبُ مَشِيَ الْقَطَا
ضَوْءَ جَبِينٍ وَفِمِ	تَبَعُّ أَنَّى بَسَدَتِ
فَاتِنَةَ بِالرَّسَمِ	تَعْجِلُ خَطْوَا تَنِي
نَتَرَكَهُ لَمْ بُلَمْ	تَجْمَعُ مِنْ ذِيلِهَا

نَمَّ	وَلَا يَنْسَمِ	تَرْفُلُ	فِي مُخْمَلٍ
تَقْرَبُ	إِلَّا أَتَتْهُمْ	تَبْعُ	إِلَّا أَهْلَهُ
حَوْلَ	خِوَانٍ نَظِمْ	فَاجْتَمَعَتْ	فَالْتَقَتْ
ظُنَّ	بِهِ النَّفْصُ تَمْ	مُنْتَهِبٍ	كَلَّمَا
بَحْرُ	نَوَالٍ خَضَمْ	مَائِدَةً	مَدَّهَا
مِنْ	شَهْوَاتِ الْنَّّمَّ	تَحْسِبَهَا	صُورَتْ
مَا	عَهِدْتَ فِي (إِرَمَ)	لَمْ تُرَ	فِي (بَابِلَ)
أَقْلَعَ	عَمَا زَعَمْ	(حَاتِمُ)	لَوْ شَامَهَا
أَدْرَكَ	عَنِ الْكَرْمِ	(مَعْنَ)	لَوْ أَنْتَابَهَا
يَحْرِجُهَا	مَزْدَحْمِ	أَشْبَهُ	بِالْبَحْرِ لَا
يَبْلُغُ	أَلْفَيْنِ شَمْ	قَامَ لِدِيهَا	الْمَلا
مُلْتَقِيًّا	مَا رَسَمْ	مُقْتَرِحًا	مَا اشْتَهَى
أَيْكِتِهِ	مَا احْتَرَمْ (١)	لَوْ طَلَبَ	الْطَّيْرَ مِنْ
سَاحِتَهُ	بِالْأَمْمِ	يَا مَلِكًا	لَمْ تَضْقِ
مِنْ عَرَبَ	أَوْعِجمْ	تَجْمَعُ	أَشْرَافَهَا
بَيْنَ	صَنَوْفَ الْنَّعَمَ	يَخْطُرُ	مَنْ أَمَّهَا

(١) احْتَرَمْ : مَعْنَى :

سادَةُ أَفْرِيقِيَا
أَنْتَ رَشِيدُ الْعُلَى
لِيَلْتُكُمْ قَدْرُهَا
مَشْرِقَةٌ مَثْلُهَا
لَا بَرْحٌ الصَّفُوْ فِي
مَا شَرَبُوهَا وَمَا

لَجَّهَا وَالْأَكْمَ
فِي الْمَلَائِكَةِ احْتَكْمَ
فَوْقَ غَوَالِي الْقِيمَ
فِي زَمْنٍ لَمْ يَقْمِ
ظِلَّكُمُو يَغْتَنِمَ
طَالَ عَلَيْهَا الْقِدَمَ

* * *

كبار الحوادث في وادي النيل

همَتْ الْفُلْكُ وَاحْتَواهَا الْمَاءُ
وَحَدَاهَا بِمَنْ تُقْلِلُ الْرَّجَاءُ
ضَرَبَ الْبَحْرُ ذُو الْعُبَابِ حَوَالَيْهِ
بِهَا سَمَاءً قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ
وَرَأَى الْمَارِقُونَ مِنْ شَرَكِ الْأَرْ
ضِّ شِبَاكًاً تَمَدَّهَا الْأَدَمَاءُ
وَجَبَالًاً مَوَاجِهًًا فِي جَبَالٍ
تَنْدَجِيَ كَانَهَا الظَّلَمَاءُ
وَدُوِيًّا كَمَا تَاهَبَتِ الْخَبَرُ
لُّ وَهَا جَتْ حُمَّاتِهَا الْهَيْجَاءُ

لُجَّةٌ عِنْدَ لُجَّةٍ عِنْدَ أُخْرَى
كَهْضَابٌ مَاجَتْ بِهَا الْبِيَادُ

وَسَفِينٌ طُورَأً تَلُوحُ وَحِينَا
يَتَوَلِّ أَشْبَاحَهُنَّ الْخَفَاءُ

نَازِلَاتٌ فِي سِيرَهَا صَاعِدَاتٌ
كَالْهَوَادِي يَهْزِهِنَّ الْحُدَاءُ

رَبٌّ إِنْ شَئْتَ فَالْفَضَاءُ مُضِيقٌ .
وَإِذَا شَئْتَ فَالْمُضِيقُ فَضَاءُ

فَاجْعَلِ الْبَحْرُ عَصْمَةً وَابْعَثِ الرَّحْ
مَةَ فِيهَا الرِّيحَ وَالْأَنْوَاءَ
أَنْتَ أَنْسُ الْوُجُودِ إِنْ بَعْدَ الْأَنْ
سُ وَأَنْتَ الْحَيَاةُ وَالْإِحْيَا
يَتَوَلِّ الْبَحَارُ مِهْمَأً ادْلَهَمَّتْ
مِنْكَ فِي كُلِّ جَانِبٍ لَّأَلَاءُ
وَإِذَا مَا عَلَّمْتَ فَذَاكَ قِيَامٌ
وَإِذَا مَا رَغَتْ فَذَاكَ دُعَاءُ

فإذا راعها جلالك خرت
هيبة فهـي والبساط سواء
والعریض الطویل منها كتاب
لـك فيـه تحـیة وثـناء
يا زمانـ الـبـحـار لـولاـك لم تـفـ
جـعـ يـنـعـمـي زـمانـها الـوـجـنـاءـ
فقدـيـمـاـ عنـ وـخـدـيـها ضـاقـ وجهـ الأـ
رضـ وـأـنـقـادـ بالـشـرـاعـ المـاءـ
وانـتـهـتـ إـمـرـةـ الـبـحـارـ إـلـىـ الشـرـ
قـ وـقـامـ الـوـجـودـ فـيـمـاـ يـشـاءـ
وـبـنـيـنـاـ فـلـمـ نـخـلـ لـبـانـ
وـعـلـونـاـ فـلـمـ يـعـزـنـاـ عـلـاءـ
وـمـلـكـنـاـ فـالـكـوـنـ عـبـيدـ
وـالـبـرـايـاـ بـأـسـرـهـمـ أـسـراءـ
قـلـ لـبـانـ بـنـيـ فـشـادـ فـغـالـ
لمـ يـعـزـ مـصـرـ فـيـ الزـمـانـ بـنـاءـ
ليـسـ فـيـ الـمـكـنـاتـ أـنـ تـنـقلـ الـأـجـبـ
الـأـلـ سـمـاـ وـأـنـ تـنـالـ السـمـاءـ

أَجْفِلَ الْجَنُّ عَنْ عَزَائِمٍ فَرَعَوْ
 نَ وَدَانَتْ لِبَاسَهَا الْأَزَاءُ
 شَادَ مَالِمَ يَشِدُّ زَمَانَ وَلَا أَنَّ
 شَأْ عَصْرٌ وَلَا بَنِي بَنَاءُ
 هِيكَلٌ تُنْشَرُ الْدِيَانَاتُ فِيهِ
 فَهِيَ وَالنَّاسُ وَالْقَرْوَنُ هَبَاءُ
 وَقَبُورٌ تُحَطَّ فِيهَا الْلِيَالِي
 وَيُوَارِى إِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
 تَشْفَقُ الشَّمْسُ وَالْكَوَاكِبُ مِنْهَا
 وَالْجَدِيدَانَ (١) وَالْأَلْيَلِي وَالْفَنَاءُ
 فَاعْذِرْ الْحَاسِدِينَ فِيهَا إِذَا لَا
 مُوا فَصَعْبُ عَلَى الْحَسُودِ النَّثَاءُ
 زَعَمُوا أَنَّهَا دُعَائِمُ شِيدَتْ
 بِيَدِ الْبَغْيِ مُلوَّهَا ظَلَمَاءُ
 دَمَرَ النَّاسُ وَالرَّعَيَّةَ فِي تَشَدِّ
 بِيَدِهَا وَالْجَلَائِقُ الْأَسْرَاءُ

(١) الْدِيدَانُ : الْلَّيلُ وَالنَّهَارُ .

أَينْ كَانَ الْفَضَاءُ وَالْعَدْلُ وَالْحَكْ
مَةُ وَالرَّأْيُ وَالنُّهَىٰ وَالذِكَاءُ
وَبَنُو الشَّمْسِ مِنْ أَعْزَاءَ مَصْرُ
وَالْعِلْمُونَ الَّتِي بِهَا يَسْتَضْمَأُ
فَادَعُوا مَا أَدَعَىٰ أَصَاغَرَ آثِيَّ
نَا وَدُعَوْهُمْ خَنَّاً وَافْتَرَاءُ
وَرَأَوَا لِلَّذِينَ سَادُوا وَشَادُوا
سُبَّةً أَنْ تُسْخَرَ الْأَعْدَاءُ
إِنْ يَكُنْ غَيْرَ مَا أَتَوْهُ فَخَارٌ
فَإِنَّا مِنْكُمْ يَا فَخَارَ بَرَاءُ
لِيَتْ شِعْرِي وَالدَّهْرُ حَرْبُ بَنِيهِ
وَأَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ أَفِيَاءُ
مَا الَّذِي دَاخَلَ الْلَّيْلَىٰ مَنَا
فِي صَبَانَا وَلِلَّيْلَىٰ دَهَاءُ
فَعَلَا الدَّهْرُ فَوْقَ عَلِيَّاءَ فَرَعُو
نَ وَهَمَّتْ بِمَلْكِهِ الْأَرْزَالُ
أَعْلَنَتْ أَمْرَهَا الْذَئَابُ وَكَانُوا
فِي ثِيَابِ الرَّعَاةِ مِنْ قَبْلِ جَاؤُوا

وأنت كل شامت من عِدَى المَلِكِ
لِيَهُمْ وانضمت الْأَجْزَاءُ
ومضي المالكون إلا بقايا
لَهُمْ في ثَرَى الصَّعِيدِ التَّجَاءُ
فعلى دُولَةِ الْبُنَاءِ سَلامٌ
وعلى مَا بَنَى الْبُنَاءُ الْعَفَاءُ
وإِذَا مَصَرَ شَاءَ خَيْرٌ لِرَاعِي السَّوْءِ
تُؤْذَى فِي نَسْلِهَا وَتَسْأَءُ
قَدْ أَذَلَ الرِّجَالَ فَهِيَ عَبْدٌ
وَنُفُوسُ الرِّجَالِ فَهِيَ إِمَاءٌ
فَإِذَا شَاءَ فَالرِّقَابُ فَدَاهُ
وَيُسِيرُ إِذَا أَرَادَ الدَّمَاءَ
وَلِقَوْمٍ نَوَالَهُ وَرَضَاهُ
وَلَا قَوْمٍ أَلْقَلَى وَالْجَفَاءُ
فَفَرِيقٌ مُمْتَعَونَ بِمَصِيرٍ
وَفَرِيقٌ فِي أَرْضِهِمْ غَرَباءُ
إِنْ مِلْكُ النُّفُوسِ فَابْغِ رَضَاهَا
فَلَهُمَا ثُورَةٌ وَفِيهَا مَضَاءٌ

يسكن الوحش للوثوب من الأَسْ
ر فكيف الخلائق العقلاء
يحسب الظالمون أَن سيسودو
ن وَأَن لَن يُؤْيِد الضعفاء
والليالي جوائز مثلما جا
روا وللدهر مثلهم أَهواه

* * *

لبثت مصر في الظلام إِلَى أَن
قيل مات الصباح والأَصواتُ
لم يكن ذاك من عميٌّ ، كُلُّ عينٍ
حجب الليل ضوء هَا غمياً
مانراها دعا الوفاء بنيهَا
وأتاهم من القبور النداء
ليزيحوا عنها العدى فـأَزاحوا
وأَزيحت عن جفنها الأَقذاء
وأُعِيد المجد القديم وقامت
في معالي آبائها الأَبناء

وأَتَى الدُّهْر تائِبًا بِعَظِيمٍ
مِنْ عَظِيمٍ آبَاوِهِ عَظِيمٌ
مَنْ كَرَمْسِيس فِي الْمُلُوك حَدِيشًا
وَلِرَمْسِيسِ الْمُلُوك فِيدَاءٌ
بَايْعَتِهِ الْقُلُوب مِنْ صُلْب «سِيْتِي»
يَوْمَ أَنْ شَاقَهَا إِلَيْهِ الرَّجَاءُ
وَاسْتَعْدَدَ الْعَبَادُ لِلْمُولَدِ الْأَكَّ
بَرْ وَأَزَّيْنَتْ لَهُ الْغَبَرَاءُ
جَلَّ «سِيزُو سِتَّرِيس» عَهْدًا وَجَلتْ
فِي صَبَاهُ الْآيَاتُ وَالآلَاءُ
فَسَمِعَنَا عَنِ الصَّبِيِّ الَّذِي يَهُ
فَوْ وَطَبَعَ الصَّبَا الْفَشُومُ الْإِبَاءُ
وَيَرِي النَّاسَ وَالْمُلُوك سَوَاءً
وَهُلْ أَنْسَاسَ وَالْمُلُوك سَوَاءً
وَأَرَانَا التَّارِيْخ فَرَعُونَ يَمْشِي
لَمْ يَحُلْ دُونَ بَشَرَهِ كَبْرِيَاءُ
يَوْلَدُ السَّيِّدُ الْمَتَوَّجُ غَصَّاً
طَهَرَتْهُ فِي مَهْدَهَا النَّعْمَاءُ

لِمْ يَغْيِرْهُ يَوْمَ مِيلَادِهِ بُوْ
 سُّ وَلَا نَالَهُ وَلِيَدًا شَقَاءُ
 فَإِذَا مَا الْمَلَائِكَةُ تَوَلَّوْ
 هُ تَوَلِي طَبَاعَهُ الْخِيلَاءُ
 وَسَرِي فِي فَوَادِهِ زَخْرَفُ الْقَوْ
 لَ تَرَاهُ مُسْتَعْدِبًا وَهُوَ دَاءُ

* * *

فَإِذَا أَبْيَضُ الْهَدِيلَ غَرَابُ
 وَإِذَا أَبْلَجُ الصَّبَاحَ مَسَاءً
 جَلَّ رَمْسِيسُ فَطَرَةً وَتَعَالَى
 شَيْعَةً أَنْ يَقُودَهُ السَّفَهَاءُ
 وَسَمَا لِلْعُلَا فَنَالَ مَكَانًا
 لَمْ يَنْلِهِ الْأَمْثَالُ وَالْأَنْظَارُ
 وَجِيُوشُ يَنْهَضُنَ بِالْأَرْضِ مَلْكًا
 وَلَوَاءُ مَنْ تَحْتَهُ الْأَحْيَاءُ
 وَوُجُودٌ يَسَاسُ ، وَالْقَوْلُ فِيهِ
 مَا يَقُولُ الْقَضَاءُ وَالْحُكْمَاءُ

و بناءً إلى بناء يودُّ الخلْ^ه
لُدُّ لونَال عمرَه والبقاء
و علومٌ تُحيي الـبـلـادـ ، و بنـاـ
هـورـ فـخـرـ الـبـلـادـ . و الشـعـراءـ
إـيهـ سـيـزوـ سـتـريـسـ ماـذـاـ يـنـالـ إـلـهـ
و صـفـ يـوـمـاـ أـوـ يـبـلـغـ الإـطـرـاءـ
كـبـرـتـ ذـاتـكـ العـلـيـةـ أـنـ تـحـ
صـىـ ثـنـاـهاـ الـأـلـقـابـ وـالـأـسـماءـ
لـكـ آـمـونـ وـالـهـلـالـ إـذـاـ يـكـ
بـرـ وـالـشـمـسـ وـالـضـحـىـ آـبـاءـ
وـلـكـ الـرـيفـ وـالـصـعـيدـ وـتـاجـاـ
مـصـرـ وـالـعـرـشـ عـالـيـاـ وـالـرـدـاءـ
وـلـكـ المـنـشـآـتـ فـيـ كـلـ بـحـرـ
وـلـكـ الـبـرـ أـرـضـهـ وـالـسـمـاءـ
لـبـتـ لـمـ يـبـلـكـ أـلـزـمـانـ وـلـمـ يـهـ
لـ لـمـلـكـ الـبـلـادـ فـيـكـ رـجـاءـ
هـكـذاـ الدـهـرـ حـالـهـ ثـمـ ضـدـ
ماـ لـحـالـ مـعـ الزـمـانـ بـقـاءـ

لارعائِ التاريخ يا يوم قمي
زَ ولا طنطَنْتُ بك الأنباء
دارت الدائرات فيك ونالت
هذه الأمة اليد العسراة
فبمصرِ ما جنت لمصرِ
أي داءٍ ما إن إلينه دوائے
نكد خالد وبوس مقيم
وشقاءً يجده منه شقاءً
يَوم منفيس وأبلاد لكسري
والملوك المطاعة الأعداء
يأمر السيف في الرقاب وينهى
ولمصرِ على القاضي إغضاء
جيء بالملك العزيز ذليلاً
لم تزل فواده أبناء
يبصرُ الآل إذ يراح بهم في
 موقف الذل عنوةً وي جاء
بنتُ فرعون في السلسل تمشي
أزعج الدهر عريها والحفاء

فَكَانَ لَمْ يَنْهُضْ بِهَوْدِجَهَا الدَّهْرِ
رَوْلَادْ سَارَ خَلْفَهَا الْأُمَّاءِ

* * *

وَأَبُوهَا الْعَظِيمِ يَنْظَرُ لَمَّا
رُدِيَتْ مُثْلِمًا تَرَدَّى الْإِمَامَةِ
أُعْطِيَتْ جَرَّةً وَقِيلَ إِلَيْكَ النَّهَى
رَأَوْمِي كَمَا تَقْوَمُ النِّسَاءُ
فَمَشَتْ تُظَهِّرُ الْإِبَاءَ وَتَحْمِيُ الدَّهْرَ
مَعَ أَنْ تَسْتَرِقَهُ الْفَرَّاءُ
وَالْأَعْادِي شَوَّاخِصُ وَأَبُوهَا
بِيَدِ الْخَطْبِ صَخْرَةٌ صَمَاءُ
فَأَرَادُوا لِيَنْظَرُوا دَمَعَ فَرَعُو
نَ، وَفَرَعُونَ دَمَعَهُ الْعَنْقَاءُ
فَأَرَوْهُ الصَّدِيقَ فِي ثُوبٍ فَقَرَرَ
يَسَّالُ الْجَمْعَ وَالسُّؤَالَ بِلَاءُ
فَبَكَيْ رَحْمَةً وَمَا كَانَ مَنْ يَبْكِي
كَيْ وَلَكَنَّمَا أَرَادَ الْوَفَاءَ

هكذا الملكُ والملوكُ وإن جار
ر زمان وروعتْ بلواءٌ

• • •

لا تسلني ما دولة الفرس ! ساءت
دولةُ الفُرس في الْبِلاد وسأؤوا
أَمَّةٌ همها الخراب تُبْلِي
ها وحَقُّ الخراب الإِعْلَاءُ
سلبتْ مصرَ عزَّها، وَكَسْتها
ذِلَّةً ما لها الزمان انقضاء
وارتوى سيفها فعاجلها اللَّهُ
ه بسيف ما إِن له إِرْوَاءٌ
طَلْبَةُ للعباد كانت لِإِسْكَنَ
در في نَيلِها اليَدُ البيضاءُ
شاد إِسْكَنْدَر لِصَرْ بنَاءُ
لم تَشَدِه المَلْوَكُ والأُمَراءُ
بلَدًا يَرْحُلُ الأَنَام إِلَيْهِ
ويَحْجُّ الطَّلَابُ والحكَماءُ

عاش عمراً في الْبَحْرِ ثغر المعالي
والمنارُ الذي به الاهتداء
مطمئناً من الكتائب والكتُ
ب بما ينتهي إِلَيْهِ العَلَاءُ
يبعث الضوء للبلاد فتسري
في سناء الفهوم والفهماء
والجواري في الْبَحْرِ يُظْهَرُونَ عزَّ الـ
ملك والبحر صولةٌ وثراءٌ
والرعايا في نعمته ، ولبَطْلِيـ
موس في الأرض دولةٌ عَلَيْـاءٌ
فقضى الله أن تضيّعـ هذا المـ
لـك أـنـشـيـ صـعـبـ عـلـيـهاـ الـوـفـاءـ
تـخـدـلـتـهاـ روـماـ إـلـىـ الشـرـ تمـهـيدـ
مـدـأـ ، وتمـهـيدـهـ بـأـنـشـيـ بـلـاءـ
فتـنـاهـيـ الفـسـادـ فيـ هـذـهـ الـأـ
ضـ وجـازـ الـأـبـالـسـ الإـغـوـاءـ
ضـيـعـتـ قـيـصـرـ الـبـرـيـةـ أـنـشـيـ
يـاـ لـرـبـيـ مـاـ تـجـرـ النـسـاءـ

فَتَنَتْ مِنْهُ كَهْفٌ رُوماً الْمَرْجَى
وَالْحُسَامُ الَّذِي بِهِ الْاتِّقَاءُ
فَاهْرَ الْخَصْمُ وَالْجَحَّافِلُ مِهْمَا
جَدَ هُولُ الْوَغْيَى وَجَدَ الْلَّقَاءُ
فَأَتَاهَا مِنْ لِيسْ تَمْلِكُهُ أَنْ
شَىٰ وَلَا تَسْتَرِقُهُ هَيْفَاءُ
بَطْلُ الدَّوَلَتَيْنِ جَامِي حَمَى رُو
مَا الَّذِي لَا تَقُودُهُ الْأَهْوَاءُ
أَخْذُ الْمَلْكُ وَهِيَ فِي قَبْضَةِ الْأَفَّ
عَىٰ عَنِ الْمَلْكِ وَالْهُوَى عَمِيَاءُ
سَلَبَتْهَا الْحَيَاةُ فَاعْجَبَ لِرَقْطَا
أَرَاحَتْ مِنْهَا الْوَرَى رَقْطَاءُ
لَمْ تُصْبِ بِالْخَدَاعِ نَجْحَاً وَلَكِنْ
خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنَاءُ
قَتَلَتْ نَفْسَهَا وَظَنَتْ فِيدَاءُ
صَغَرَتْ نَفْسَهَا وَقَلَّ الْفِداءُ
سَلْ كِلُوبَتَرَةُ الْمَكَابِدِ هَلَا
صَدَّهَا عَنْ وَلَاءِ رُومَا الْدَهَاءُ
فِبِرِّ رُومَا تَأَيَّدَتْ ، وَبِرِّ رُومَا
هِيَ تَشْقِي وَهَكَذَا الْأَعْدَاءُ

ولروما أُمّلِكَ الْذِي طالما وَ
 فاه في السر نصْحُهَا وَأَلْوَاهُ
 وَتولت مصرًا يَمِينَ عَلَى المصْ
 رِيِّ من دون ذا الورى عَسْرَاءُ
 تُسْمِعُ الْأَرْضَ قِيصرًا حِينَ تَدْعُ
 وَعَقِيمُ مِنْ أَهْلِ مِصْرِ الدَّعَاءُ
 وَيُنِيلُ الْوَرَى الْحَقْوَقَ فَإِنْ نَا
 دَتَهُ مِصْرٌ فَأَذْنَهُ صَمَاءُ
 فاصبري مصر للبلاء ، وأنى
 لك ؟ والصبر للبلاء بلاء
 ذا الذي كنت تتَّجِينَ إِلَيْهِ
 ليس منه إلى سواه التجاءُ

* * *

رب شُقت العباد أَزْمَانَ لَا كَنْ
 بٌ بِهَا يَهْتَدِي وَلَا أَنْبِيَاءُ
 ذَهَبُوا فِي الْهَوَى مَذَاهِبَ شَتَّى
 جَمَعْتَهُمَا الْحَقْيَقَةُ الزَّهَرَاءُ

فإِذَا لَقَبُوا قَوِيًّا إِلَهًا
فَلَهُ بِالْقُوَى إِلَيْكَ انتِهَاءٌ
وإِذَا آثَرُوا جَمِيلًا بِتَنْزِيزٍ
— هُنَّ فِي إِنَّ الْجَمَالَ مِنْكُوكَ حِبَاءٌ
وإِذَا أَنْشَأُوا التَّمَاثِيلَ غُرَّاً
فِي إِلَيْكَ الرَّمُوزُ وَالْإِيمَاءَ
وإِذَا قَدَرُوا الْكَوَاكِبَ أَرْبَا
بَاً فَمِنْكُوكَ السَّنَاءُ وَمِنْكُوكَ السَّنَاءُ
وإِذَا أَهْلَوُا النَّبَاتَ فَمِنْ آ
ثَارَ نُعْمَاكَ حَسْنَهُ وَالنَّمَاءُ
وإِذَا يَمْمُوا الْجَبَالَ سَجُودًا
فَالْمَرَادُ الْجَلَالَةُ الشَّمَاءُ
وإِذَا تَبَعَّدَ الْبَحَارُ مَعَ الْأَسْمَاءِ
مَاكَ وَالْعَاصِفَاتُ وَالْأَنْوَاءُ
وسبَاعُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَرْأَءِ
حَامُ وَالْأُمَّهَاتُ وَالآباءُ
لَعَلَّكَ الْمَذَكُورَاتُ عَيْدُ
خُضَّعُ وَالْمُؤْنَشَاتُ إِمَاءَ

جمع الخلقَ والفضيلةَ سُرُّ
شفَّ عنْهُ الحجابُ فهو ضياءٌ

* * *

سجدت مصر في الزمان لِإيزِير
س النَّدِي من لها اليد البيضاءُ
إِن تَلِ الْبَرَّ فَالبِلَاد نَضَار
أَوْ تَلِ الْبَحْرَ فَالرِّيَاحِ رُخَاءُ
أَوْ تَلِ النَّفْسِ فَهِيَ فِي كُلِّ عَضُو
أَوْ تَلِ الْأَفْقَ فَهِيَ فِي هِذَا كَاءُ
قَيْل إِيزِيسْ: رَبَّ الْكُونِ لَوْلَا
أَنْ تَوَحَّدْتِ لَمْ تَكُ الأَشْيَاءُ
وَاتَّخَذْتِ الْأَنُورَ حَجْبًا فَلَمْ تَبِ
صَرَكَ أَرْضَ وَلَا رَأَتْكَ سَمَاءُ
أَنْتِ مَا أَظَهَرَ الْوُجُودَ وَمَا أَخَ
فَيْ وَأَنْتِ الإِظْهَارُ وَالإِخْفَاءُ
لَكِ آبِيسُ وَالْمُحَبَّبُ أُوزِيرِ
رِيسُ وَابْنَاهُ كَلْهَمُ أَوْلِيَاءُ

مثلت للعيون ذاتك والتم
 ثيل يدني من لا له إدانة
 وأدعاك اليونان من بعد مصر
 وتلاه في حبك القدماء
 فإذا قيل ما مفاخر مصر
 قيل منها إيزيسها ألهاء

* * *

رب هذى عقولنا في صباحتها
 نالها الخوف واستباها الرجاء
 فعشيقناك قبل أن تأتى الرؤس
 ل وقامت بحبك الأعضاء
 ووصلنا السرى فلولا ظلام الـ
 جهل لم يخطئنا إليك آهتداء
 واتخذنا الأسماء شتى فلما
 جاء موسى انتهت لك الأسماء
 حجنا في ألمان سحراً بسحر
 واطمأننا إلى العصا السعداء

ولد الرفقُ يوم مولد عيسى
والمرءات والهوى والحياة
وازدهى الكون بالوليد وضاءات
بسناه من الشرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يس
ري من الفجر في الوجود الضياء
تملاً الأرض والعالم نوراً
فالشرى مائع بها وضاء
لا وعيٌ ، لا صولة ، لا انتقام
لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء
ملك جاور التراب فلما
ملَّ ، نابت عن التراب السماء
وأطاعتـه في الإلهـ شيخ
خشـع خـضع لـه ضـفاءـ
أذـعنـ الناسـ وـالـمـلـوكـ إـلـىـ ماـ
رسـموـاـ وـالـعـقـولـ وـالـعـقـلاءـ
فلـهمـ وـقـفـةـ عـلـىـ كـلـ أـرـضـ
وـعـلـىـ كـلـ شـاطـيـ إـرـسـاءـ

دخلوا ثيبةً فَأَحْسِنْ لقيا
هم رجال بثيبة حكماء
فَهُمُ الْسُّرُّ حِينَ ذَاقُوا ، وَسَهَلُ
أَنْ يَنْالُ الْحَقَائِقَ الْفُهْمَاءُ
فَإِذَا الْهِيَكْلُ الْمَقْدَسُ دِيرُ
وَإِذَا الدِّيرِ رُونَقَ وَبَهَاءُ
وَإِذَا ثَيَبَةً لَعِيسَى وَمَنْفِيَ
سُّونِيلُ الثَّرَاءِ وَالْبَطْحَاءُ
إِنَّمَا الْأَرْضُ وَالْفَضَاءُ لِرَبِّي
وَمَلُوكُ الْحَقِيقَةِ الْأَنْبِيَاءُ
لَهُمُ الْجُبُّ خَالصًا مِنْ رِعَايَا
هم وَكُلُّ الْهُوَى لَهُمُ الْوَلَاءُ
إِنَّمَا يَنْكِرُ الْدِيَانَاتِ قَوْمٌ
هم بِمَا يَنْكِرُونَهُ أَشْقِيَاءُ
هَرِمتْ دُولَةُ الْقِيَاصِرِ وَالْدُوَّ
لَاتْ كَالْنَاسُ دَاؤُهُنَّ الْفَنَاءُ

لِيْسْ تُغْنِي عَنْهَا الْبَلَادْ وَلَا مَا
لُّ الْأَقَالِيمْ إِنْ أَتَاهَا النَّدَاءْ
نَالْ رُومَا مَا نَالَ مِنْ قَبْلِ آتِيهِ
نَا وَسِمْتَهُ ثِيَّبَةُ الْعَصَمَاءْ
سَنَةُ اللَّهِ فِي الْمَالِكِ مِنْ قَبْلِ
لُّ وَمَنْ بَعْدَ مَا لِنْعَمَ بِقَاءْ

* * *

أَظْلَمُ الشَّرْقَ بَعْدَ قِيَصَرَ وَالْغَرْ
بُ وَعَمَّ الْبَرِيَّةَ الْإِدْجَاءُ
فَالْوَرِيَ فِي ضَلَالِهِ مُتَمَادٌ
يَفْتَكُ الْجَهَلَ فِيهِ وَالْجَهَلُ
عَرَفَ اللَّهَ ضَلَّةً ، فَهُوَ شَخْصٌ
أَوْ شَهَابٌ أَوْ صَخْرَةٌ صَمَاءُ
وَتَوَلَّ عَلَى النُّفُوسِ هُوَ الْأَوَّلُ
ثَانٌ حَتَّى انتَهَتْ لَهُ الْأَهْوَاءُ
فَرَأَى اللَّهُ أَنْ تُطَهَّرَ بِالسَّيِّ
فَوَأَنْ تَغْسَلَ الْخَطَايَا الدَّمَاءُ

وَكَذَاكَ النُّفُوسُ وَهِيَ مَرَاضٍ
بَعْضُ أَعْصَائِهَا لِبَعْضٍ فَدَاءٌ
لَمْ يَعْادِ اللَّهُ الْعَبِيدُ وَلَكِنْ
شَقِيقَتْ بِالْغَبَّاوةِ الْأَغْبَيَاءُ
وَإِذَا جَلَّتِ الذُّنُوبُ وَهَالَتِ
فَمَنِ الْعَدْلُ أَنْ يَهُولَ الْجَزَاءَ
أَشْرَقَ النُّورُ فِي الْعَوَالِمِ لَمَا
بَشَّرَتْهَا بِالْحَمْدِ الْأَنْبَاءُ
بِالْيَتِيمِ الْأَمْيَّ وَالْبَشَرِ الْمُؤْمِنِ
حَتَّى إِلَيْهِ الْعِلُومُ وَالْأَسْمَاءُ
قَوْةُ اللَّهِ إِنْ تَوَلَّتْ ضَعِيفًا
تَعْبَتْ فِي مِرَاسِهِ الْأَقْوَيَاءُ
أَشْرَفَ الْمُرْسَلِينَ . آيَتُهُ النَّطِ
قُ مُبِينًا . وَقَوْمُهُ الْفَصَحَاءُ
لَمْ يَنْفُهُ بِالنَّوَابِغِ الْغَرْ حَتَّى
سَبَقَ الْخَلْقَ نَحْوَهُ الْخَلْقَاءُ
وَأَتَتْهُ الْعُقُولُ مُنْقَادَةً اللَّهُ
بَ وَلَبَّى الْأَعْوَانَ وَالنَّصَرَاءُ

جاء للناس ، والسرائر فوضى
لم يُؤْلِف شتائهن لواء
وَحِمَى اللَّهُ مُسْتَبَاحٌ وَشَرْعُ الدَّ
هُ وَالْحَقُّ وَالصَّوَابُ وَرَاءُ
فَلْجَبْرِيلُ جَيْئَةً وَرَوَاحٍ
وَهَبُوتٌ إِلَى الشَّرِيٍّ وَارْتِقَاءُ
يُحَسَّبُ الْأَفْقُ فِي جَنَاحِيهِ نُورٌ
سُلْبَتْهُ النَّجُومُ وَالْجُوزَاءُ
تَلْكَ آيُّ الْفَرْقَانِ أَرْسَلَهَا اللَّهُ
هُ ضِيَاءً يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ
نَسْخَتْ سَنَةُ النَّبِيِّنَ وَالرَّسُوْلِ
لَ كَمَا يَنْسَخُ الضِّيَاءُ الضِّيَاءُ
وَحِمَاهَا غُرُّ كَرَامٌ أَشَدًا
عُلَى الْخَصْمِ بَيْنَهُمْ رُحْمَاءُ
أُمَّةٌ يَنْتَهِيَ الْبَيْانُ إِلَيْهَا
وَتَوَوَّلُ الْعِلُومُ وَالْعُلَمَاءُ
جَازَتِ النَّجْمُ وَاطْمَأَنَّتْ بِأَفْقٍ
مَطْمَئِنٌ بِهِ الْسَّنَا وَالْسَّنَاءُ

كَلِمَا حَثَّ الرَّكَابُ لِأَرْضِ
جَاوِرَ الرَّشْدَ أَهْلَهَا وَالذِّكَاءِ
وَعَلَا الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَسَمَا الْفَضْـ
لِ وَنَالَتْ حَمْوَقَهَا الْصُّفَاءِ
تَحْمِلُ النَّجْمَ وَالْوَسِيلَةَ وَالْمَيـ
زَانَ مِنْ دِينِهَا إِلَى مِنْ تَشَاءُ
وَتَنْيِيلُ الْوِجْدَنِ مِنْهُ نَظَاماً
هُوَ طَبُ الْوِجْدَنِ وَهُوَ الدَّوَاءُ
يَرْجِعُ النَّاسَ وَالْعَصُورَ إِلَى مَا
سَنَ وَالْجَاهِلُونَ وَالْأَعْدَاءُ
فِيهِ مَا تَشَتَّهِي الْعَزَائِمُ إِنْ هـ
مَ ذُووْهَا وَيَشْتَهِي الْأَذْكِيَاءُ
فَلِمَنْ حَاوَلَ النَّعِيمُ نَعِيمُ
وَلِمَنْ آثَرَ الشَّقَاءَ شَقَاءُ
أَيْرَى الْعُجُمُ مِنْ بَنِي الظَّلِّ وَالْمَـ
عَجِيباً أَنْ تُنْجِبَ الْبَيْدَاءُ
وَتُثِيرُ الْخِيَامَ آسَادَ هِيجَـ
هَ تَرَاهَا آسَادُهَا الْهِيجَاءُ

فهي تعلو شأنًا إذا حرر النبي
ل وفي رقة لها إزراء

* * *

واذكر الغرَّ آلَ أيوب وأمدح
فمن المدح للرجال جزاءُ
هم حماة الإسلام والنفر الباقي
ض الملوك الأعزاء الصلحاءُ
كل يوم بالصالحة حصنٌ
وبلبليس قلعة شماءُ
وبنمر للعلم دار وللضي
فان نار عظيمة حمراءُ
ولأعداء آل أيوب قتلُ
ولأسراهם قيري وشواءُ
يعرف الدين من صلاح ويدرى
من هو المسجدان والإسراءُ
إنه حصنه الذي كان حصناً
وحماه الذي به الاحتماءُ

يُوم سار الصَّلِيبُ والْحَامِلُوهُ
وَمَشَى الغَرْبُ قَوْمُهُ وَالنِّسَاءُ
بِنُفُوسٍ تَجُولُ فِيهَا الْأَمَانِي
وَقَلُوبٌ تَشُورُ فِيهَا الدَّمَاءُ
يَضْمُرُونَ الدَّمَارَ لِلْحَقِّ وَالنَّا
سُودِينَ الَّذِينَ بِالْحَقِّ جَاؤُوا
وَيَهُدُونَ بِالْتَّلَادَةِ وَالصُّدُّ
بَانَ مَا شَاءَ بِالْقُنَى الْبَنَاءُ
فَتَلَقَّتْهُمْ عَزَائِمُ صَدِيقٍ
نَصَ لِلْدِينِ بَيْنَهُنَّ خَبَاءُ
مَزْقَتْ جَمِيعَهُمْ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ
مَثْلَمًا مَزْقَ الظَّلَامِ الضِّيَاءُ
وَسَبَتْ أَمْرَدَ الْمُلُوكَ فَرَدَّتْ
— هُوَ مَا فِيهِ لِلرَّعَايَا رَجَاءُ
وَلَوْ أَنَّ الْمَلِيكَ هِبَّ أَذَاهُ
لَمْ يَخْلُصْهُ مِنْ أَذَاهَا الْفِداءُ

هكذا المسلمون والعرب الخا
 لون لا ما يقوله الأعداء
 فبهم في الزمان نلتا الليالي
 وبهم في الورى لنا آنباء
 ليس للذل حيلة في نفوس
 يستوي الموت عندها والبقاء

* * *

واذ كر الترك إنهم لم يطاعوا
 فيرى الناس أحسنوا أم أساووا
 حكمت دولة الجراكش عنهم
 وهي في الدهر دولة عَسْرَاء
 واستبدت بالأمر منهم فـ«باشا»
 الترك في مصر آلة صماء
 يأخذ المال من مواعيد ما كا
 نوا لها منجزين فهي هباء
 ويسومونه الرضا بأمر
 ليس يرضي أقلهن الرضا

فِيدارى ليعصمَ الغَدَّ من هم
والمداراة حكمةٌ ودَهاءٌ
وأَتَى النَّسْرُ ينهبُ الأَرْضَ نَهْبًا
حوله قومُه النسورُ ظِماءٌ
يشتهي النيلَ أَن يشيد عليه
دولَة عرضها الشَّرِّ والسماءُ
حَلَمتْ رومَةُ بها في الليالي
ورآها القياصرُ الأقوباءُ
فَأَتَتْ مصَرَّ رُسلُهُمْ تَتَوَالِي
وترامتْ سوانحُها العلَماءُ
ولو أَسْتَشَدَ الفرنسيسُ رومَا
لَأَتَهُمْ من رومَةَ الأنْباءُ
علمتْ كُلَّ دُولَة قد تولَّتْ
أنَّا سُمِّيَّا وَأَنَّا الْوَبَاءُ
قاهرُ العصرِ والمَالِكُ زابِلَ
يونَ ولَتْ قوَادُهُ الكُبراءُ

جاء طيشاً، وراح طيشاً ومن قبـ
لُ أطاشت أنسابها العـليـاءـ
سكتت عنه، يوم عـيـرـهـ الأـهـ
رام ، لكن سـكـوتـهـ استهزـاءـ
فـهـيـ تـوـحـيـ إـلـيـهـ أـنـ تـلـكـ (واتـرـ
لو) فـأـيـنـ الجـيـوشـ أـيـنـ اللـوـاءـ

* * *

ذَكْرِي الْمُولَد

سَلُوا قَلْبِي غَدَةً سَلا وَثَابَا
لَعَلَّ عَلَى الْجَمَالِ لَهُ عِتَابَا
وَيُسَأَلُ فِي الْحَوَادِثِ ذُو صَوَابِ
فَهَلْ تَرَكَ الْجَمَالُ لَهُ صَوَابًا؟
وَكَنْتُ إِذَا سَأَلْتُ الْقَلْبَ يَوْمًا
تَوَلَّ الدَّمْعَ عَنْ قَلْبِي الْجَوابَا
وَلِي بَيْنَ الْضَّلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ
هَمَا الْوَاهِي الَّذِي ثَكَلَ الشَّبَابَا
تَسْرَبَ فِي الدَّمْوعِ فَقَلْتُ وَلَّ
وَصَفَقَ فِي الْضَّلُوعِ فَقَلْتُ ثَابَا
وَلَوْ خُلِقْتُ قُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ
لَمَا حَمَلْتُ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابَا

وأَحَبِّ سُقْيَتُ بَهْمٍ سُلَافَاً
وَكَانَ الْوَصْلُ مِنْ قِصْرٍ حَبَابَا
وَنَادَمْنَا الشَّبَابَ عَلَى بَسَاطٍ
مِنَ الْلَّذَاتِ مُخْتَلِفٍ شَرَابَا
وَكُلُّ بَسَاطٍ عِيشٍ سُوفَ يَطْوِي
وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بَهْ وَطَابَا
كَانَ الْقَلْبَ بَعْدَهُمْ غَرِيبٌ
إِذَا عَادَتِهِ ذَكْرِي الْأَهْلِ ذَابَا
وَلَا يُنْبِيكَ عَنْ خُلُقِ الْلِّيَالِي
كَمْنَ فَقْدِ الْأَحَبَةِ وَالصَّحَابَا
أَخَا الدُّنْيَا ، أَرَى دُنْيَاكَ أَفْعَى
تُبَدِّلُ كُلَّ آوْنَةٍ إِهَابَا
وَأَنَّ الرُّقْطَ أَيْقَظَ هَاجِعَاتٍ
وَأَتَرَعَ فِي ظِلَالِ السَّلَامِ نَابَا
وَمِنْ عَجَبٍ تُشَبِّبُ عَاشِقِيهَا
وَتُفْنِيهِمْ وَمَا بَرَحْتَ كَعَابَا

فمن يغترُّ بالدنيا فإني
لبستُ بها فَأَبْلِيْتُ الثيابا
لها ضَحِكَ القيان إلى غبيٌّ
ولي ضحكُ اللبيب إذا تغابى
جنيتُ بروضِهَا ورداً وشوكاً
وذقتُ بكأسِهَا شهداً وصاباً
فلم أَرَ غير حكم الله حكماً
ولم أَرَ دون باب الله ببابا
ولا عَظَمْتُ في الأشياء إلا
صحيحَ العلم ، والأدب اللبابا
ولا كرَّمتُ إلا وجهَ حرّ
يقلدَ قومه المئن الرغابا
ولم أَرَ مثل جمعِ المال داعاً
ولا مثلَ البخيل به مُصاباً
فلا تقتلُك شهوته . وزنها
كما تزنُ الطعام أو الشرابا

وَخَذْ لِبْنِيكَ وَالْأَيَامَ ذَخْرًا
وَأَعْطَ اللَّهَ حِصْتَهُ احْتِسَابًا
فَلَوْ طَالَتْ أَحْدَاثُ الْلَّيَالِي
وَجَدَتْ الْفَقْرَ أَقْرَبَهَا إِنْتِيابًا
وَأَنَّ الْبَرَّ خَيْرٌ فِي حِيَاةٍ
وَأَبْقَى بَعْدَ صَاحِبِهِ ثَوَابًا
وَأَنَّ الشَّرَّ يَصْدُعُ فَاعْلِيهِ
وَلَمْ أَرْ خَيْرًا بِالشَّرِّ آبَا
فَرْفَقًاً بِالْبَنِينَ إِذَا الْلَّيَالِي
عَلَى الْأَعْقَابِ أَوْقَعَتِ الْعَقَابَ
وَلَمْ يَتَقدَّمُوا شَكْرَ الْبَنَامِي
وَلَا أَدْرَعُوا الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابَا
عَجِبْتُ لِعَشْرِ صَلَوةِ وَصَامَوا
عَوَاهِرَ خَشِيةَ وَتُقْيَّ كَذَابَا
وَتُلْفِيهِمْ حِيَالَ الْمَالِ صُمَّا
إِذَا دَاعَى الزَّكَاةَ بِهِمْ أَهَابَا

لَقَدْ كَتَمُوا نَصِيبَ اللَّهِ مِنْهُ
كَيْنَانَ اللَّهُ لَمْ يُحْصِ النَّصَابَا
وَمَنْ يَعْدُ بِحُبِّ اللَّهِ شَيْئاً
كَحْبِ الْمَالِ ، ضَلَّ هُوَ وَخَابَا
أَرَادَ اللَّهُ بِالْفَقَرَاءِ بِرَا
وَبِالْأَيْتَامِ حَبَا وَارْتَيَابَا
فَرَبُّ صَغِيرٍ قَوْمٍ عَلَمَهُ
سَمَا وَحْمَى الْمُسَوَّمَةَ الْعِرَابَا
وَكَانَ لِقَوْمِهِ نَفْعاً وَفَخْرَا
وَلَوْ تَرَكُوهُ كَانَ أَذَى وَعَابَا
فَعَلِّمَ مَا اسْتَطَعْتُ ، لَعَلَّ جِيلًا
سَيَّاتِي بُحَدَّثُ الْعَجَبُ الْعَجَابَا
وَلَا تُرْهَقْ شَبَابُ الْحَيِّ يَائِسًا
فَإِنَّ الْيَائِسَ يَخْتَرُمُ الشَّبابَا
يَرِيدُ الْخَالقُ الرِّزْقَ اشْتِراكًا
وَإِنْ يَكُ خَصُّ أَقْوَاماً وَجَابِي

فَمَا حَرَمَ الْمَجْدُ جَنَّا يَدِيهِ
وَلَا نَسِيَ الشَّقَىٰ وَلَا الْمُصَابَا
وَلَوْلَا الْبَخْلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقٌ
عَلَى الْأَقْدَارِ تَلَقَّاهُمْ غِضَابًا
تَعْبَتُ بِأَهْلِهِ لَوْمًاً وَقَبَلي
دُعَاءُ الْبَرِّ قَدْ سَئَمُوا الْخَطَابَا
وَلَوْ أَنِّي خَطَبْتُ عَلَى جَمَادٍ
فَجَرَتْ بِهِ الْيَنَابِيعُ الْعَذَابَا
أَلَمْ تَرْ لِلْهَوَاءِ جَرِي فَأَفْضَىٰ
إِلَى الْأَكْوَاخِ وَاخْتَرَقَ الْقَبَابَا
وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي الْآفَاقِ تَغْشَىٰ
حِمَىٰ كَسْرَىٰ كَمَا تَغْشَىِ الْيَبَابَا
وَأَنَّ الْمَاءَ تَرُوِيَ الْأَسَدَ مِنْهُ
وَيَشْفِي مِنْ تَعْلُلِهَا الْكَلَابَا
وَسَوَىٰ اللَّهُ بَيْنَكُمُ الْمَنَابِعَا
وَوَسَدَ كُمْ مَعَ الرُّسْلِ التَّرَابَا

وأَرْسَلَ عَائِلاً مِنْكُمْ يَتِيمًا
دَنَا مِنْ ذِي الْجَلَالِ فَكَانَ قَابَا

نَبِيُّ الْبَرِّ بَيْنَهُ سَبِيلًا
وَسَنَّ خَلَالَهُ وَهَدَى الشَّعَابَا

تَفَرَّقَ بَعْدَ عِيسَى النَّاسُ فِيهِ
فَلَمَّا جَاءَ كَانَ لَهُمْ مَتَابِا

وَشَافِي النَّفْسِ مِنْ نِزَغَاتِ شَرٌّ
كَشَافٍ مِنْ طَبَائِعِهَا الذَّئَابَا

وَكَانَ بِيَانِهِ لِلْهَدْيِ سُبْلًا
وَكَانَتْ خَيْلُهُ لِلْحَقِّ غَابَا

وَعَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجَدِ حَتَّى
أَخْذَنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ أَغْتَصَابَا

وَمَا نَيْلَ الْمَطَالِبِ بِالتَّمْنَى
وَلَكِنْ تَوْحِذَ الدُّنْيَا غِلَابَا

وَمَا اسْتَعْصَى عَلَى قَوْمٍ مِنْهُ
إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابًا

• • •

تَجَلَّ مَوْلَدُ الْهَادِي وَعَمَّتْ
بِشَائِرُهُ الْبَوَادِيَ وَالْقَصَابَا
وَأَسَدَتْ لِلْبَرِيَّهُ بَنْتُ وَهْبٍ
يَدًا بِيَضَاءِ طَوْقَتِ الرَّقَابَا
لَقَدْ وَضَعَتْهُ وَهَاجَأَ مُنِيرًا
كَمَا تَلِدُ السَّمَاوَاتُ الشَّهَابَا
فَقَامَ عَلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ نُورًا
يَضِيءُ جَبَالَ مَكَةَ وَالنَّقَابَا
وَضَاعَتْ يَثْرِبُ الْفَيْحَاَ مُسْكَا
وَفَاحَ الْقَاعُ أَرْجَاَ وَطَابَا
أَبَا الزَّهْرَاَ قَدْ جَاوزَتْ قَدْرِي
بِمَدْحِلَكَ بَيْدَ أَنَّ لَيَّ أَنْتَسَابَا
فَمَا عَرَفَ الْبَلَاغَةَ ذُو بَيَانٍ
إِذَا لَمْ يَتَخَذَكَ لَهُ كَتَابَا

مدحتُ المالكين فزدت قدرأً
في حين مدحتُك اقتدتُ السحابا
سأّلت الله في أبناءِ ديني
فإنْ تكن الوسيلة لي أحبابا
وما لل المسلمين سواكَ حصن
إذا ما الضُّرُّ مسَّهم ونابا
كأنَ النحسَ حين جرى عليهم
أطّار بكل مملكة غرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً
وكان من النحوس لهم حجابا
بنيت لهم من الأخلاق ركناً
فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
وكان جنابهم فيها مهيباً
وللأخلاقُ أجرٌ أن تهابا
فلولاها لساوى الليث ذئباً
وساوى الصارمُ الماضي قرابا ١

فإن قرنت مكرامها بعلمٍ
تذلت العلا بهما صعابا
وفي هذا الزمان مسيحٌ علمٌ
يرد على بنى الأمم الشبابا

* * *

الشعلب والديك

برَزَ الشعلبُ يوماً
في شعار الوعظينا
فمشى في الأرض يهدى ،
ويسبُّ الماكرينا
ويقولُ «الحمد لله
إِلَهُ الْعَالَمِينَ
يَا عِبَادَ اللَّهِ تُوبُوا
وَأَزْهَدُوا فِي الطَّيْرِ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشَ الزَّاهِدِينَا
واطلبوا الديك يودن
فاتَى الديك رسولُ
عَرَضَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ
فأَجَابَ الديك: عُذْرًا
بلغ الشعلبَ عَنِّي ،
عن جدو دي الصالحينَا
دخل البطنَ اللَّعِينا
أنَّهم قالوا وخيرُ السَّقُولُ العارفينَا:
«مُخْطِيٌّ مَنْ ظَنَّ يوْمًا
أَنَّ لِلشعلبِ دِينًا» !

سلیمان والهدّهڈ

وقفَ الْهَدْهَدُ فِي بَا
قال : « يا مولاي كُن لي عِيشتي صارتْ مُمِلَّه
مَتْ مِنْ حَبَّةِ بُرْرٍ أَحَدَثَتْ فِي الصَّدْرِ غُلَّهُ
لَامِيَاهُ النَّيلِ تُروِيهِ —————ها وَلَا أَمْوَاهُ دَجْلَهُ
وَإِذَا دَامَتْ قَلِيلًا قَتَلْتَنِي شَرُّ قِتْلَهُ ! »
فَأَشَارَ السَّيِّدُ الْعَا
وَأَتَى فِي الْلُّؤْمِ فَعَلَهُ
رِ ، وَذِي الشَّكْوَى تَعَلَّهُ
سُرِقَتْ مِنْ بَيْتِ نَمْلَهُ
يَشْتَكِي مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ !
قدْ جَنَّى الْهَدْهَدُ ذَنْبًا
تَلَكَّ نَارُ الْإِثْمِ فِي الصَّدْرِ
ما أَرَى الْحَبَّةَ إِلَّا
إِنَّ لِلظَّالِمِ صَدْرًا

ملك الغربان

كان للغربان ، في العصر ، ملِيك
وله في النَّخْلَة الْكُبُرَى أَرِيْكٌ
فيه كرسٍ و خِدر و مهود
لصغار الملك ، أَصْحَابَ الْعَهُود
جاءه يوماً «نُدُور» الخادم ،
وهو في الباب الْأَمِينِ الْحَازِمُ ،
قال : «يا فرعَ الْمُلُوكِ الصالحين
أَنْتَ مَا زلت تحبُّ الناصحين
سُوْسَةً كَانَتْ عَلَى الْقَصْرِ تَدُور
جَازَتِ الْقَصْرَ ، وَدَبَّتِ فِي الْجَذُورَ
فَابْعَثَ الْغَرْبَانَ فِي إِهْلَاكِهَا
قَبْلَ أَنْ نَهْلِكَ فِي أَشْرَاكِهَا»

ضَحْكُ السُّلْطَانُ مِنْ هَذَا الْمَقَالِ
 ثُمَّ أَدْنَى خَادِمُ الْخَيْرِ وَقَالَ :
 «أَنَا رَبُّ الشَّوْكَةِ الضَّافِيِّ الْجَنَاحِ
 أَنَا ذُو الْمَنْقَارِ غَلَابُ الرِّيَاحِ
 «أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ
 أَنَا لَا أَبْصِرُ تَحْتِ يَانُورٍ» !
 ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامٍ
 قَامَ بَيْنَ الرِّيَاحِ وَالنَّخْلِ خَصَامٌ
 وَإِذَا النَّخْلَةُ أَقْوَى جِذْعُهَا
 فَبِدَا لِلرِّيَاحِ سَهْلًا قَلْعَهَا
 فَهَوَتْ لِلأَرْضِ كَالْتَلِّ الْكَبِيرِ
 وَهَوَى الْدِيْوَانُ وَانْقَضَ السَّبَرِ.
 فَدَهَا السُّلْطَانُ ذَا الْخُطْبِ الْمَهْوُلِ
 وَدَعَا خَادِمَهُ الْفَالِي يَقُولُ :
 يَا نُورَ الْخَيْرِ أَسْعَفْ بِالصِّيَاحِ
 مَا تَرَى مَا فَعَلْتَ فِينَا الرِّيَاحَ ؟
 قَالَ : يَا مُولَاي لا تَسْأَلْ نُورَ
 «أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ» !

الاسد وزيرة والحمار

الليث مَلِكُ الْقِفَارِ ،
سَعَتْ إِلَيْهِ الرَّعَايَا
قَالَتْ : تَعِيشُ وَتَبْقَى
مَاتَ الْوَزِيرُ فَمَنْ ذَا
قَالَ : الْحَمَارُ وَزَيْرِي
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ
وَخَلَفَتْهُ وَطَارَتْ
حَتَّى إِذَا الشَّهْرُ وَلَى
لَمْ يَشْعُرْ الْلَّيْثُ إِلَّا
الْقَرْدُ عَنْدَ الْيَمَنِ

(١) الـليـث : الـاسـد .

(٢) الصـوارـي : الـوـحوـش .

(٣) خـلـفـتهـ : تـرـكـهـ .

والقطُّ بين يديه
فقال : مَنْ في جُدوْدِي
أَين اقتداري وبطشي
فجاءَهُ الْقَرْدُ سرًّا ،
«يَا عَالِيَ الْجَاهِ فِينَا
رَأْيُ الرَّعِيَّةِ فِيكُمْ

يَلْهُو بِعَظَمَةِ فَارٍ !
مَثْلِي عَدِيمَ الْوَقَارِ ؟
وَهَبَبْتِي وَاعْتَبَارِي
وَقَالَ ، بَعْدَ اعْتَذَارِ:
كَنْ عَالِيَ الْأَنْظَارِ
مِنْ رَأْيِكُمْ فِي الْحَمَارِ »

نَكِيَّةُ بَيْرُوت

يَا رَبَّ أَمْرَكَ فِي الْمَالِكِ نَافِذُ
وَالْحُكْمُ حُكْمُكَ فِي الدَّمِ الْمَسْفُوكَ
إِنْ شَتَّ أَهْرِقَهُ وَإِنْ شَتَّ أَحْمَهُ
هُوَ لَمْ يَكُنْ لِسَوْا كَبِيلَ الْمَلُوكَ
وَأَحْكَمَ بِعَدْلِكَ إِنَّ عَدْلَكَ لَمْ يَكُنْ
بِالْمُمْتَرِيٍّ فِيهِ وَلَا الشَّكُوكَ
أَلَّا جَالَ دَنَتْ وَتَهِيَّاتْ
قَدَرَتْ ضَرَبَ الشَّاطِيءَ الْمَتَرُوكَ؟
مَا كَانَ يُحْمِيَهُ وَلَا يُحْمِيَ بِهِ
فُلْكَانَ أَنْعَمَ مِنْ بُواخِرَ «كُوكَ»
هَذِي بِجَانِبِهَا الْكَسِيرِ غَرِيقَةُ
تَهْوِيَ، وَتَلْكَ بُرُكَنِهَا الْمَدْكُوكَ

(١) قُبِلَتْ هَذِهِ الْقُصْيَّةُ عَلَى اثْرِ ضَرَبِ الْأَسْطُولِ الإِيطَالِيِّ مَدِينَةِ بَيْرُوت

بِيْرُوتُ ، مَاتَ الْأَسْدَ حَتَّىْ أَنْوَفَهُمْ
 لَمْ يَشْهُرُوا سِيفًا وَلَمْ يَحْمُوكُ
 سَبْعُونَ لَيْثًا أَحْرَقُوا أَوْ أَغْرَقُوا
 يَا لِيْتَهُمْ قُتِلُوا عَلَى « طَبْرُوكَ »
 كُلُّ يَصِيدُ الْلَّيْثَ وَهُوَ مَقِيدُ
 وَيَعْزُ صَيْدُ الْضِيْغُمِ الْمَفْكُوكُ
 يَا مَضْرِبَ الْخَيْمِ الْمَنِيفَةِ لِلْقَرِيرِ
 مَا أَنْصَفَ الْعُجُومُ الْأَلْيَ ضَرْبُوكُ
 مَا كُنْتَ يَوْمًا لِلْقَنَابِلِ مَوْضِعًا
 وَلَوْ أَنْهَا مِنْ عَسْجِدٍ مَسْبُوكُ
 بِيْرُوتُ ، يَا رَاحَ النَّزِيلِ وَأَنْسَهَ
 يَمْضِي الزَّمَانُ عَلَيْ لَا أَسْلُوكُ
 الْحَسْنُ لِفَظُ فِي الْمَدَائِنِ كُلُّهَا
 وَوَجَدَتْهُ لِفَظًا وَمَعْنَى فِيهِ
 نَادَمْتُ يَوْمًا فِي ظَلَالِكِ فَتِيَةَ
 وَسَمُوا الْمَلَائِكَ فِي جَلَالِ مَلُوكِ

يُنسون (حساناً) عصابة (جلق)
 حتى يكاد بجلقٍ يفديك
 تَالله ما أحدثت شرًا أو أذىً
 حتى تراعي أو يُرَاعَ بنوك
 أنتِ التي يحمي ويمنع عرضها
 سيف الشريف وختنجر الصعلوك
 إن يجهلوك فإن أمك سبوريا
 والأبلق الفرد الأشمُ أبوك
 والسابقين إلى المفاحر والعلا
 بدْهَ المكارم والندي أهلوك
 سالت دماءً فيكِ حول مساجدٍ
 وكنائس ومدارس و«بنوك»
 كنا نُوَمَّلَ أن يُمَدَّ بقاوها
 حتى تبَلَّ صدَى القنا المشبوك
 لك في ربِّ النيل المبارك جيرةً
 لو يقدرونَ بدمعهم غسلوك

وداع اللورد كروم

أيامكمْ أَم عهْدُ إِسْمَاعِيلَا؟
أَم أَنْتَ فَرْعَوْنُ يَسُوسُ الْنَّبِيلَا؟

أَم حَاكِمٌ فِي أَرْضِ مِصْر بِأَمْرِهِ
لَا سائِلًا أَبْدًا وَلَا مَسْؤُلًا؟

يَا مَالِكَ الرِّقَاب بِبِاسِهِ
هلا أَتَخْذَت إِلَى الْقُلُوب سَبِيلًا

لَا رَحْلَتَ عن الْبَلَادِ تَشَهِّدُ
فَكَانَكَ الدَّاءُ الْعَيَاءُ رَحِيلًا

أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ الْوَدَاعِ إِهَانَةً
أَدَبًّا لِعُمْرِكَ لَا يُصِيبُ مُثِيلًا

هَلَّا بَدَالَكَ أَنْ تَجَامِلَ بَعْدَ مَا
صَاغَ الرَّئِيسُ لَكَ الشَّنَا إِكْلِيلًا

انظر إلى أدب الرئيس ولطفه
تجد الرئيس مهذبًا ونبيلا
في ملعب للمضحكات مشيد
مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله
وتصدر الأعمى به تطفيلا
جُنُّ أَقْلَّ وحطّ من قدريهما
والمرء إن يجُنْ يعيش مرذولا
لَا ذكرت به البلاد وأهلها
مثلت دور ماتها تمثيلا
أنذرتنا رقًا يدوم وذلة
تبقى وحالا لا ترى تطويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة؟
لا يملك التغيير والتبديل؟
الله يحكم في الملوك ولم تكن
دولٌ تنازعه القوى لتدولا
فرعون قبلك كان أعظم سطوة
وأعزّ بين العالمين قبيلا

اليوم أخلفت الوعود حكمة
كنا نظن عهودها الإنجيلا

دخلت على حكم الوداد وشرعه
مصرأً فكانت كالسلال دخولا

هدمت معالمها وهدَّت رُكْنها
وأضاعت استقلالها المأمولا

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى
جحدوا الإله وصنعه والنيلا

كم مِنَّةٍ موهمة أتبعتها
مناً على الفطن الخبيث ثقلا

في كل تقرير تقول خلقتكم
أفهل ترى تقريرك التنزيلا؟

هل من نداك على المدارس أنها
تذر العلوم وتأخذ (الفوتولا)

أم من صيانتيك القضاة بمصر أن
تأتي بقاضي دنشواي وكيلا؟

أَمْ هُلْ يَعْدِلُكَ إِلَيْضَا عَادَةً مَنَّةً
 جِيشَ كِجِيشِ الْهَنْدِ بَاتَ ذَلِيلًا
 انْظُرْ إِلَى فَتِيَانِهِ مَا شَانُهُمْ
 أَوْلَيْسَ شَانًاً فِي الْجَيْوشِ ضَئِيلًا
 حَرَّمْتُهُمْ أَنْ يَبْلُغُوا رُتبَ الْعُلَا
 وَرَفَعْتُ قَوْمَكَ فَوْقَهُمْ تَفْضِيلًا
 فَإِذَا تَطَلَّعَتِ الْجَيْوشُ وَأَمَّلَتِ
 مُسْتَقْبِلًا لَمْ يَمْلُكُوا التَّامِيلًا
 مِنْ بَعْدِ مَا زَافُوا لِإِدُورَدَ الْعُلَا
 فَتَحَاهَا عَرِيضًا فِي الْبَلَادِ طَوِيلًا

* * *

لَوْ كُنْتُ مِنْ حَمْرِ الثَّيَابِ عَبْدَتُكُمْ
 مِنْ دُونِ عَيْسَى مُحَسَّنًا وَمُنْبِلاً
 أَوْ كُنْتُ بَعْضَ الْإِنْكَلِيزِ قَبْلَتُكُمْ
 مَلِكًا أَقْطَعَ كَفَهُ تَقْبِيلًا

أَوْ كُنْتُ عَضْوًا فِي (الْكَلُوب) مَلَأْتَهُ
أَسْفًا لِفُرْقَتِكُمْ بُكَا وَعَوْبِلا
أَوْ كُنْتُ قَسِيسًا يَهِيمُ مُبَشِّرًا
رَتَّلْتَ آيَةً مَدِحَكُمْ تَرْتِيلًا
أَوْ كُنْتُ صَرَافًا بِلنَدْنَ دَائِنًا
أَعْطَيْتُكُمْ عَنْ طِبَّةٍ تَحْوِيلًا
أَوْ كُنْتَ (تِيمَسْكَمْ) مَلَأْتَ صَحَافَيِّي
مَدْحًا يَرْدَدُ فِي الْوَرَى مَوْصُولا
أَوْ كُنْتُ فِي مَصْرِ نَزِيلاً جَاهِدًا
سَبَّحْتَ بِاسْمِكَ بُكْرَةً وَأَصْبِلا
أَوْ كُنْتَ (سِرِيُونَا) حَلْفُتُ بِأَنْكُمْ
أَنْتُمْ حَبُوتُمْ بِالْقَنَاءِ الْجِلَا
ما كَانَ مِنْ عَقَبَاتِهَا وَصَعَابَهَا
ذَلَّلْتُمُوهُ بِعَزْمِكُمْ تَذَلِّيلًا
عَهْدُ الْفَرْنَجِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ عَهْدَهُمْ
لَا يَبْخُسُونَ الْمُحْسِنِينَ فَتِيلًا

فارحل بحفظِ الله جلَّ صنيعهُ
مستعفياً إن شئت أو معزولاً
واحمل بساقك ربطَةً في لندن
وأخلق هناك غرَاي أو كمبيلاً
أو شاطر الملك العظيم بلاده
وسُسِّي المالك عرضها والطولاً
إنا تمنينا على الله المُنى
والله كان بنيلهنَّ كفيلاً
من سبَّ دين محمد فمحمدٌ
متمكِّن عند الإله رسولاً

* * *

خاتمة رياض

كبير السابقين من الكرام
برغمي أن أنا لك باللام (١)
مقامك فوق ما زعموا ولكن
رأيتُ الحقَّ فوقك والمقام
لقد وجداك مفتوناً فقالوا
خرجت من الوقار والاحتشام
وقال البعضُ كيدُك غير خاف
وقالوا رميةٌ من غير رام
وقيل شططت في الكفران حتى
أردتَ المنعيمَ بالانتقامِ

(١) قيلت هذه القصيدة بعد خطبة المرحوم رياض باشا في مدرسة محمد علي الصناعية في حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٠ في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية التي انشأها في الإسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤ وكان اللورد كروم غميد الدولة المحتجلة حاضراً هذا الافتتاح ، فتملقه الخطيب بكلام كفر به نعمة مصر واصحاب عرشها :

خطبت فكنت خطبًا لا خطيباً
أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه
وجرحك منه لو أحسست دامي
وما أغناه عنمن قال فيه
وما أغناك عن هذا الترامي
أحبتك البلاد طويل دهرٍ
وذا ثمن الولاء والاحترام
حقرت لها زماماً كنت فيه
لعيوباً بالحكومة والذمام
محاسنه غراسك والمساوي
لك الثمران من حمدي وذام
فهلا قلت للشبان قولًا
يليق بحافل الماضي الهمام؟
بيت تجارب الأيام فيهم
ويسلّعو الرابضين إلى القيام

خطبتَ على الشيبةِ غير دارٍ
بأنكَ من مُشيبكَ في منام
ولولا أن للاًّوطانِ جبًا
يُصمُ عن الوشایةِ كالغرام
جنبتَ على قلوبِ الجمعِ يأساً
كأنكَ بينهم داعي الحمام
أرائعكَ مقتلٌ من مصرِ باقٍ
فقمتَ تزيد سهماً في السهام
وهل تركت لكَ السبعونَ عقلًا
لعرفانِ الحالِ من الحرام؟
ألا أُنبيكَ عن زمِّنِ تولى
فتذكُّرهُ ودعوكَ في انسجام؟

سل «الحلمية» الفيحاءَ عنه
وسل داراً على «نور الظلام»
وسل من كان حولك عبد جاءه
يريكَ العَبَ أو باغي حُطام

رأوا إرثاً سيذهب بعد حينٍ
فكانوا عصبةً في الأقسام
ونالوا السمعَ من أذنِ كريمٍ
فنالوا أنواعَ المرام

همُ حزبُ وسائل مصر حزبٌ
وأنت أصمٌ عن داعي الوئام
وكيف ينالُ عونَ الله قومٌ
سراتهمْ عواملُ الانقسام
إذا الأحلام في قومٍ تولّتْ
أتى الكبراءُ أفعال الطغام

فيما تلك الليالي لاتعودي
ويا زمن النفاق بلا سلام
أحبك مصر من أعماق قلبي
وحبك في صميم القلب نامي

سيجمعوني بك التاریخ يوماً
إذا ظهر الكرام على اللشام

لاجلكِ رحت بالدنيا شقياً
 أصدُّ الوجه والدنيا أمامي
 وأنظر جنة جمعت ذئاباً
 فيصرفنني الإباء عن الزحام
 وهبتكِ غيرَ هيَابٍ يراعاً
 أشدَّ على العدوِّ من الحسام
 سيدركُ عنكِ فوقَ ثرى رياضٍ
 وفي التاريخ صفحة الاتهام
 أفي السبعين والدنيا تولت
 ولا يرجي سوى حسنِ الخاتم
 تكون وأنت أنت رياض مصر
 عرابي اليوم في نظر الأئم(١)

* * *

(١) في هذا البيت تمحمل على احمد عرابي ، الزعيم المصري الشهير .

علموه كيف يجفو

علموه كيف يجفو في حفا
 ظالم لاقيت منه ما كفني
 مسرف في هجره ماينتهي
 أتراهם علموه السرفا؟
 جعلوا ذنبي لديه سهرى
 ليت بدرى إذ درى الذنب عفا
 عرف الناس حقوقى عنده
 وغريمى ما درى ما عرفا
 صحيلى في العمر منه موعد
 ثم ما صدقت حتى أخلفا
 مستهم فى هواه مدنف
 يترضى مستها ماماً مدنف
 يا خليلي صفا لي حيلة
 وأرى الحيلة أن لا تصفا
 أنا لو ناديته في ذلة
 هي ذي روحى فخذها ماماً أحتفى

خدعواها

خَدَّعُوهَا بِقُولِهِمْ حَسَنَاءُ
وَالْغَوَانِي يَغْرُّهُنَّ النَّنَاءُ
إِنْ رَأَتِنِي تَمْيِيلٌ عَنِّي كَانَ لِمْ
تَكُّبِينِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ!
نَظَرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ
فَكَلامٌ فَمَوْعِدٌ فَلَقَاءُ
فَرَاقٌ يَكُونُ فِيهِ دَوَاءُ
أَوْ فَرَاقٌ يَكُونُ مِنْهُ الدَّاءُ
يَوْمَ كَنَا وَلَا تَسْلُ كَيْفَ كَنَا

نَتَهَادِي مِنَ الْهُوَى مَا نَشَاءُ
وَعَلَيْنَا مِنَ الْعَفَافِ رَقِيبٌ
تَعِبَتْ فِي مِرَاسِهِ الْأَهْوَاءُ
جَاذِبَتِنِي ثَوْبِي الْعُصِيِّ وَقَالَتْ
أَنْتُمُ النَّاسُ أَيُّهَا الشَّعْرَاءُ
فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي قُلُوبِ الْعَذَارِيِّ
فَالْعَذَارِيُّ قُلُوبُهُنَّ هَوَاءُ

سوينج النيل

سُوِيْجَنَّ النَّيلَ رِفْقًا بِالسويداءِ
فَمَا تطيقَ أَنِينَ المفرد النائي
اللهُ وادٍ كَمَا يهوي الهوى عجبُ
تركتَ كُلَّ خليٍّ فيه ذا داءُ
وأَنْتَ فِي الْأَسْرِ تشكُّو مَا تكابدُهُ
لصخرةٍ من بني الأعجماءِ صماءٌ
اللهُ فِي فَنَّ تلهم الزمانَ به
فإنما هو مشدوّدٌ بأشائى
وفي جوانحك اللاتي سمحت بها
فلو ترتفقت لم تسمع بأعضائي
ماذا تريد بذى الأنات فى سهرى
هذى جفونى تَسقى عهد إغفانى

حَسْبُ المضاجع مني ما تعالج من
جنبي ومن كبدٍ في الجنب حَرَاءٌ
أُمسي وأُصبح من نجواك في كَلَفٍ
حتى ليُعشق نطقي فيك إِصغائي
الليل يُنْهَضُنِي من حيث يُقْعِدُنِي
والنجم يملأ لي والفكُّرُ صهبائي
آتي الكواكبَ لم أُنْقُل لها قَدْمًا
لا ينقضي سهري فيها وإِسرائي
وأَلْحَظُ الأَرْضَ أَطْوَى ما يكون إِلَى
ما كان من آدم فيها وحواءٌ
مؤيداً بك في حَلْيٍ ومرتَحَلِي
وما هما غير إِصْباجي وإِمسائي
تُوحِي إِلَيَّ الذي تُوحِي وتسمع لي
وفي سماحك بعد الوحي إِغرائي

مضناك جفاه مرقدة

مُضناكَ جفاهَ مرقدَه
 حيرانُ القلبَ معذبهُ
 أوديَ حرقاً إلا رمقاً
 يستهوي الورقَ تاوههُ
 ويناجي النجمَ ويتعبهُ
 ويعلمُ كلَّ مطوقةٍ
 كم مدَّ لطيفك من شركَ
 فعساك بغمضٍ مسغفهُ
 الحسنُ حلفتُ بيوسفه
 قد ودَ جمالك أو قبساً
 وتمنَتْ كلُّ مقطعةٍ
 جَحَدت عيناك زكيَ دمي

وبكاهُ ورحِمَ عوده
 مقروحُ الجفنَ مسهده
 يُبقيه عليك وتنفده
 ويذيبُ الصخرَ تنهده
 ويُقيم الليلَ ويُقعده
 شجناً في الدوح ترددده
 وتساءَبَ لا يتتصيده
 ولعل خيالك مسعده
 و(السورة) إنك مفرده
 حوراءُ الخلدِ وأمردهُ
 يدَها لو تُبعث تشهدهُ
 أَكذلك خدك يَجحدُه

قَدْ عَزَّ شَهُودِي إِذْ رَمَّا
 وَهَمَّتْ بِجِيدِكَ أَشْرَكَهُ
 سَبَبَ لِرَضَاكَ أَمْهَدَهُ
 بَيْنِي فِي الْحَبِّ وَبَيْنِكَ مَا
 مَا بَالُ الْعَادِلِ يَفْتَحُ لِي
 وَيَقُولُ تَكَادُ تَجْنُّ بِهِ
 مُولَّاي وَرَوْجِي فِي يَدِهِ
 نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدْعُّ لَهُ
 قَسْمًا بِشَنَائِي ، لُؤْلُؤَهَا
 وَرِضَابٌ يَوْعَدُ كَوْثَرَهُ
 وَبِخَالٍ كَادَ يَحْجَ لَهُ
 وَبِخَصْرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي
 مَا خَنَّتْ هَوَاكَ وَلَا خَطْرَتْ

فَأَشَرْتُ لِخَدِّكَ أَشْهِدُهُ
 فَأَبَى وَأَسْتَكَبَرَ أَصْبِدُهُ
 مَا بَالَ الْخَصْرِ يُعْقِدُهُ
 لَا يَقْدِرُ وَاشِ يُفْسِدُهُ
 بَابَ السَّلْوَانِ وَأَوْصَدَهُ
 فَأَقُولُ وَأُوشِكُ أَعْبُدُهُ
 قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ
 وَخَنِيَا بِالْأَضْلَعِ مَعْبُدُهُ
 قَسْمَ الْبِلَاقُوتِ مُنْضَدِهُ
 مَقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشَهِّدُهُ
 لَوْ كَانَ يَقْبَلُ أَسْوَدَهُ
 وَعُوَادِي الْهَجْرِ تَبَدَّدَهُ
 سَلْوَى بِالْقَلْبِ تَبَرُّدَهُ

توت عنخ آمون

ِفِي يَا أَخْتَ (يُوشَ) خَبِّرِنَا
أَحَادِيثَ الْقَرْوَنَ الْغَابِرِينَا
وَقُصَّيِّ مِنْ مَصَارِعِهِمْ عَلَيْنَا
وَمِنْ دُولَاتِهِمْ مَا تَعْلَمِنَا
فَمَثْلُكَ مِنْ رَوَى الْأَخْبَارَ طَرًّا
وَمِنْ نَسْبِ الْقَبَائِيلِ أَجْمَعِنَا
نَرِى لَكِ فِي السَّمَاءِ خَضِيبَ قَرْنٍ
وَلَا نُحْصِي عَلَى الْأَرْضِ الطَّعَبِنَا
مَشِيتٌ عَلَى الشَّبَابِ شَوَّاءَ نَسَارٍ
وَدَرَتٌ عَلَى الْمَشِيبِ رَجِي طَحُونَا
تُعَيْنِينَ الْمَوَالِدَ وَالْمَثَابِـا
وَتَبَيْنِينَ الْحَيَاةَ وَتَهَدِمِنَا

فيا لكِ هرَّةً أَكلت بنيهَا
 وما ولدوا، وتنظر الجنينا
 أَمَّ المَالكين بني (أُمون)
 ليهِنِكِ أَنْهُم نزعوا (أُمونا) (١)
 ولدت له (المَآمين) الدواهي
 ولم تلدي له قطُّ (الأَمِينَا)
 فكانوا الشهبَ حين الأرض ليل
 وجين الناس جِدُّ مُضللينا
 مشتُّ بمنارهم في الأرض (روما)
 ومن أنوارهم قبست (أَثينَا)
 ملوكُ الدهر بالوادي أَقامُوا
 على (وادي الملوك) مُحَجِّبينا
 ربُّ مصَدِّدٍ منهم وكانت
 تُساقُ له الملوك مُصَدِّدِينا
 تقِيدَ في التراب بغير قِيدٍ
 وحلَّ على جوانبه رهينا

(١) أُمون : توت عنخ آمون ، أحد ملوك الفراعنة .

تعالى الله كأن السحر فيهم
أليسوا للحجارة منطقينا؟
غدوَّا يبنونَ ما يبقىٌ وراحوا
وراءَ الْآبَدَاتِ مُخَلَّدِينَا
إِذَا عَمَدُوا لِمَأْثِرَةٍ أَعْدُوا
لَهَا الْإِتْقَانَ وَالخُلُقَ الْمُتَبَدِّلَ
وَلِيُسَ الْخَلْدُ مَرْتَبَةً تُلْقَى
وَتُوْحَدُ مِنْ شَفَاهِ الْجَاهِلِينَا
وَلَكُنْ مِنْتَهِيَّ هَمَّ كَبَارٍ
إِذَا ذَهَبَتْ مَصَادِرُهَا ، بَقِينَا
وَسُرُّ الْعَبْرِيَّةِ حَسِينٌ يَسْرِي
فَيَنْتَظِمُ الصُّنَاعَ وَالْفَنُونَ
وَآثَارُ الرِّجَالِ إِذَا تَنَاهَتْ
إِلَى التَّارِيخِ خَيْرُ الْحَاكِمِينَا
وَأَخْذُكَ مِنْ فِيمِ الدُّنْيَا ثَنَاءً
وَتَرْكَكَ فِي مَسَامِعِهَا طَنِينَا

فغالٰي في بنيك الصيد غالٰي
فقد حُبَّ الغلوُ إلٰى بنينا
شَابٌ قَنْعٌ لا خير فيهم
وبُورك في الشَّبابِ الطامحينا
فناجيهم بعرشِ كَانَ صِنْوًا
لعرشك في شبيبته سنينا
وكان العزُّ حلية و كانتْ
قوائمهُ الكتائبَ والسفينا
وتاج من فرائدهِ (ابنُ سitti)
ومن خرزاتهِ (خوفو) و (مينا)
عَلَا خدًّا به صَرَّ، وأنفًا
ترفع في الحوادث أن يدينا
ولستُ بقائل ظلموا وجاروا
على الأجراءِ أو جلدوا القطينا
فإنما لم نُوقَ النَّقصَ حتى
نُطالب بالكمالِ الأوَّلينا

وما (البستيلُ) إِلَّا بُنْتَ أَمْسٍ
 وَكَمْ أَكَلَ الْحَدِيدُ بِهَا صَحِينَا
 وَرَبَّةُ بَيْعَةٍ عَزَّتْ وَطَالَتْ
 بَنَاهَا النَّاسُ أَمْسٍ مُسْخِرِينَا
 مُشَيْدَةٌ لِشَافِي الْعُمَى (عِيسَىٰ)
 وَكَمْ سَمَّلَ الْقُوسُونَ بِهَا عَيْوَنَا
 (أَخَا الْلَوْرَدَاتِ) مُثْلِكُ مَنْ تَحَلَّى
 بِحَلِيَّةِ آلِهٖ الْمُتَطَوِّعِينَ (١)
 لَكَ الْأَصْلُ الَّذِي نَبَتَ عَلَيْهِ
 فَرُوعُ الْمَجْدِ مِنْ (كَرْنَارْفُونَا)
 وَمَالِكٌ لَا يُعَدُّ وَكُلُّ مَالٍ
 سَيَفِنِيٌّ أَوْ سَيَفِنِي الْمَالِكِينَا
 وَجَدْتَ مَذَاقَ كُلِّ تَلِيدٍ مَجْدٍ
 فَكَيْفَ وَجَدْتَ مَجْدَ الْكَاسِبِينَا ؟
 نَشَرْتَ صَفَائِحًا فَجَزِّتَكَ مَصْرُ
 صَحَافَ سُودَدَ لَا يَنْطَوِينَا

(١) أَخَا الْلَوْرَدَاتِ : هُوَ الْلَوْرَدُ كَارْنَارْفُون.

فِإِنْ تَلَكُّ قَدْ فَتَحَتَ لَهَا كَنْوَزًا
 فَقَدْ فَتَحَتَ لَكَ الْفَتْحُ الْمُبِينَا
 فَلَوْ (قَارُون) فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا
 تَمَنَّى لَوْ رَضِيَتْ بِهِ قَرِينًا (١)
 سَبِيلُ الْخَلْدِ كَانَ عَلَيْكَ سَهْلًا
 وَعَادَتْهُ يَكْدُ السَّالِكِينَا
 رَأَيْتُ تَنْكِرًا وَسَمِعْتُ عَبَّاً
 فَعَذَرًا لِلْغَضَابِ الْمُحْنِقِينَا
 أَبُوتُنَا وَأَعْظَمُهُمْ تُرَاثُ
 نَحَادُرُ أَنْ يَوْوُلَ لِآخْرِينَا
 وَنَبَّابِي أَنْ يَحُلَّ عَلَيْهِ ضَيْمُ
 وَيَسْذَهِبَ نَهْبَةَ لِلنَّاهِبِينَا
 سَكَّ فَحَامَ حَوْلَكَ كُلُّ ظَنٌّ
 وَلَوْ صَرَّحْتَ لَمْ تُثِرِ الظَّنُونَا
 يَقُولُ النَّاسُ فِي سَرِّ وَجْهِ
 وَمَالِكَ حِيلَةَ فِي الْمَرْجِفِينَا

(١) قَارُون : يُضَرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الغَنِيِّ وَكَثْرَةِ الْمَالِ .

أَمْنٌ سرَقَ الْخَلِيفَةُ وَهُوَ حَيٌّ
يَعِفُّ عَنِ الْمُلُوكِ مَكْفُنِينَا؟ (١)

خَلِيلٌ اهْبَطَ الْوَادِي وَمِيلًا
إِلَى غُرْفَ الشَّمْوَسِ الْفَارَبِينَا
وَسِيرًا فِي مَحَاجِرِهِمْ رَوَيْدًا
وَطُوفَا بِالْمَضَاجِعِ خَاشِعِينَا

وَخُصًّا بِالْعُمَارِ وَبِالْتَّحَابِيَا
رُفَاتِ الْمَجَدِ مِنْ (توتَنْخَمِينَا)
وَقِبْرًا كَادَ مِنْ حَسْنٍ وَطَيْبٍ
يُضِيءُ حَجَارَةً وَيَضُوعُ طِينَا
يُخَالِ لِرَوْعَةِ التَّارِيخِ قُدَّتْ

جَنَادِلِهِ الْعَلَا مِنْ (طُورِ سِينَا)

وَكَانَ نَزِيلَهُ بِالْمَلَكِ يَدْعُونِي
فَصَارَ يُلْقَبُ الْكَنْزَ الشَّمِينَا
وَقُومًا هَاتَفَيْنِ بِهِ وَلَكِنْ
كَمَا كَانَ الْأَوَّلَ يَهْتَفُونَا

(١) إشارة إلى أن بريطانيا نقلت الخليفة وحيد الدين من الأسنانة إلى المدرعة البريطانية (مالايا)، وذهب به إلى مالطة، فهل يستغرب أن يسرقو الجواهر من قبور الملوك؟

فشم جلالهُ قرت ورامت
 على مرّ القرون الأربعينا
 جلالُ الملك أيام وتمضي
 ولا يمضي جلالُ الخالدين
 وقولا للنزيبل قدوم سعد
 وحيـا الله مقدمك اليمينـا
 سلامُ يومَ وارتـك المـانيا
 بواديـها ، ويومَ ظهرـتَ فيـنا
 خرجـت من القبور خروج عيسـى
 عليك جلالـهُ في العـالمـينا
 يـحـبـ البرـقـ باسمـك كلـ سـهلـاـ
 ويـخـترـقـ البـخـارـ بهـ الحـزـونـاـ
 وأـقـسـمـ كـنـتـ فيـ (لـوزـانـ) شـغـلاـ
 وـكـنـتـ عـجـيـبـةـ المـتفـاوـضـينـاـ (١)

(١) لوزان : المدينة السويسرية التي عقد فيها المؤتمر الدولي لاجراء الصلح بين اليونان وتركيا .

أتعلّم أنّهم صلفووا وتأهوا
 وصدوا البابَ عنا مُوصيّنا؟
 ولو كنا نجر هناك سيفاً
 وجدنا عندهم عطفاً ولينا
 سيقضي (كرزن^١) بالأمر عنا
 وحاجاتِ (الكتانة) ما قضيّنا (١)

* * *

تعال اليوم خبرنا أَكانت
 نواكَ سنتِ نومِ أم سنينا؟
 وماذا جبتَ من ظلمات ليلٍ
 بعيدِ الصبح يُنضي المُدلجينَا؟
 وهل تبقى النفوسُ إِذَا أَقامتْ
 هيَا كِلُّها وتبلى إِن بلينا؟
 وما تلك القبابُ وأين كانتْ
 وكيف أَصلَّ حافرُها القرونَا؟

(١) كرزن : الوزير البريطاني الذي مثل بريطانيا في مؤتمر (لوزان) الدولي.

مُرْدَة الْبَنَاء تُخَالُ بِرْجًا
بِبَطْنِ الْأَرْض مَحْتَوْطًا دَفِينًا (١)

تَغْطِي بِالْأَثَاث فَكَان قَصْرًا
وَبِالصُّورِ الْعِتَاق فَكَان زَوْنَا (٢)
حَمَلَتِ الْعَرْش فِيهِ فَهَلْ تُرْجِي
وَتَأْمَلْ دُولَةً فِي الْغَابِرِينَا؟

وَهُلْ تَلْقَى المَهِيمِنْ فَوْقَ عَرْشٍ
وَيَلْقَاهُ الْمَلَأ مُتَرْجِلِينَا؟

وَمَا بِالْطَّعَام يَكَادُ يَقْدِي
كَمَا تَرَكَتْهُ أَيْدِي الصَّانِعِينَا؟ (٣)

وَلَمْ تَلْكُ أَمْسْ تَصْبِرُ عَنْهُ يَوْمًا
فَكَيْفَ صَبَرَتْ أَحْقَابًا مَئِينَا
لَقَدْ كَانَ الَّذِي حَذَرَ الْأَوَّلِي
وَخَافَ بْنُو زَمَانَكَ أَنْ يَكُونَا

(١) مُرْدَة : ملسماء - (٢) الزُّون : المكان الذي تجتمع فيه الأصنام
(٣) يَقْدِي : يطيب .

يحب المرأة نيش أخيه حيَا
 وينبشه ولو في الهاكينا
 سُلِّمتَ من الحفائر قبل يوم
 يَسْلُّ من التراب الها مدينا
 فإن تلُّ عند بعثٍ فيه شكٌ
 فإن وراءه البعث اليقينا
 ولو لم يعصوك لكان خيراً
 كفي بالموت معتصماً حصينا
 يُضَرُّ أخو الحياة، وليس شيء
 بضائمه إذا صحبَ المونا

* * *

زمانُ الفرد؛ يا (فرعون) ولَّ
 ودالت دولةُ التجبرينا
 وأصبحت الرعاءُ بكل أرضٍ
 على حكم الرعية نازلينا

رثاء أبيه^(١)

سألوني لمْ لمْ أرثِ أبي
ورثاءَ الآبِ دينَ أيَّ دين
أيها اللوام ما أظلَمَكم
أينَ لي العقلُ الذي يُسعدُ أينَ؟
يا أبي ما أنتَ في ذا أَوَّلُ
كُلُّ نفسٍ للمنايا فرضُ عين
هلكت قبلك ناسٌ وقرى
ونعَى أَلْنَاعُونَ خبرَ الثقلين
غايةُ المرء وإن طالَ الْمَدَى
آخَذُ يَأْخُذَه بالأشْغَرِينَ

(١) والده هو المرحوم علي شوفي بك ، وقد نظم شوفي هذه القصيدة حوالي عام ١٨٩٧ .

وطَبِيبٌ يَتَوَلِّ عَاجِزًا
نَافِضًا مِنْ طِبِّهِ خُفَّيْ حُنْ
إِنَّ لِلْمَوْتِ يَدًا إِنْ ضَرَبَتْ
أَوْشَكَتْ تَصْدِعَ شَمَلَ الْفَرْقَدَيْنَ
تَنْفُذُ الْجَوَّ عَلَى عَقْبَانِهِ
وَتُلَاقِي الْلَّبِثَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنَ
وَتَحْطُّ الْفَرَخَ مِنْ أَيْكَتِهِ
وَتَنْسَالُ الْبَيْغَا فِي الْمَتَيْنِ
أَنَا مَمَاتٌ وَمَمَاتٌ أَنَا
لَقِيَ الْمَوْتَ كِلَانَا مَرْتَيْنَ
نَحْنُ كَنَا مَهْجَةً فِي بَدَنَ
ثُمَّ صَرَنَا مَهْجَةً فِي بَدَنَيْنَ
ثُمَّ عُدْنَا مَهْجَةً فِي بَدَنَ
ثُمَّ نُلْقَى جُثَّةً فِي كَفَنَيْنَ
ثُمَّ نَحْيَا فِي (عَلِيٍّ) بَعْدَنَا
وَبِهِ نُبَعِثُ أُولَى الْبَعْثَيْنَ

انظر الكونَ وقل في وصفه
كُلُّ هُذَا أَصْلُهُ مِنْ أَبْوَيْنِ
فإِذَا مَا قِيلَ مَا أَصْلُهُمَا
قُلْ هُمَا الرَّحْمَةُ فِي مَرْحَمَتِينَ
فَقَدَا الْجَنَّةَ فِي إِيجَادِنَا
وَنَعْمَنَا مِنْهُمَا فِي جَنَّتَيْنِ
وَهُمَا الْعَذْرُ إِذَا مَا أَغْضَبَاهَا
وَهُمَا الصِّفْحُ لَنَا مُسْتَرْضَيْنِ
لَيْتْ شَعْرِي أَيْ حَيٌّ لَمْ يَلِدْنَ
بِالَّذِي دَانَاهُ بِهِ مُبْتَدَئِينَ
وَقَفَ اللَّهُ بِنَا حِيثُ هُمَا
وَأَمَاتَ الرَّسُلَ إِلَّا الْوَالِدَيْنِ
مَا أَبَيَ إِلَّا أَخْ فَسَارَقَتْهُ
وَدُهُ الصَّدْقُ، وَوَدُّ النَّاسِ مِنْ
طَالَّا قَمَنَا إِلَى مَائِذَةٍ
كَانَتِ الْكَسْرَةُ فِيهَا كَسْرَتِينِ

وَشَرَبْنَا مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ
وَغَسَلْنَا بَعْدَ ذَاهِبِهِ الْيَدِينَ

وَتَمْشِينَا يَدِي فِي يَدِهِ
مَنْ رَأَنَا قَالَ عَنَا أَخْوَيْنَ

نَظَرُ الدَّهْرِ إِلَيْنَا نَظَرَةً
سُوتَ الشَّرِّ فَكَانَتْ نَظَرَتِينَ

يَا أَبِي وَالْمَوْتَ كَأسٌ مَرَّةٌ
لَا تَذَوقُ النَّفْسُ مِنْهَا مَرْتَيْنَ

كَيْفَ كَانَتْ سَاعَةً قَضَيْتَهَا
كُلُّ شَيْءٍ قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا ؟

أَشْرَبْتَ الْمَوْتَ فِيهَا جُرْعَةً
أَمْ شَرَبْتَ الْمَوْتَ فِيهَا جَرْعَتَيْنَ ؟

لَا تَخْفَ بَعْدَكَ حُزْنًا أَوْ بَكَا
جَمَدَتْ مَنِي وَمِنْكَ الْيَوْمَ عَيْنَ

أَنْتَ قَدْ عَلِمْتَنِي تَرَكَ الْأَسْيَى
كُلَّ زَيْنٍ مِنْتَهَاهُ الْمَوْتُ شَيْنَ (١)

لَيْت شِعْرِي هَل لَنَا أَن نُلْتَقِي
مَرَّة أَمْذَا افْتِرَاقُ الْمَلَوِينَ؟ (١)

وَإِذَا مَتْ وَأُودِعْتُ الشَّرَى
أَنْلَقَّ حَفْرَةً أَمْ حَفَرْتَيْنَ؟

* * *

(١) الملوين : الليل والنهار .

فوزي الغزي

جرحٌ على جرحٍ حنانكِ (جلق)
حملتِ ما يوهى العجال ويُزهق (١)
صبراً لبأة الشرق كلّ مصيبةٍ
تبلي على الصبر الجميل وتخلق
أنسيتِ نارَ الباطشين وهزةٌ
عرَّتِ الزمانَ كأنَّ (روما) تُحرق
رعناً أرسلها ودس شُواطئها
في حجرة التاریخ أَرعنَ أَحمق
فمشت تحطم باليمين ذخیرةٌ
وتلتصَّ أَخري بالشمال وتسرق
جنتُ فضعضعها وراضَ جماحُها
من نشئك الحمس الجنونُ المطبق

(١) فوزي الغزي هو أحد سراة الزعماء في الشام وأحد أوالية الثورة العربية في نهضتها العظمى . توفي وأقيمت له حفلة تأبين في دمشق ، وألقى فيها هذه القصيدة العصماء في سنة ١٩٢٠ .

لقي الحديد حميّةً أمويّةً
لا تكتسي صدءاً ولا هي تطرق
يا واضع الدستور أمّس كخلقه
ما فيه من عوجٍ ولا هو ضيق
نظمٌ من الشوري وحكم راشدٌ
أدبُ الحضارة فيهما والمنطق
لاتخشَ ما أَلْحقوا بكتابه
يَبْقى الكتابُ وليس يَبْقى الملحق
ميتَ الجلال من القوافي زقرة
تجري ومنها عَبْرَةٌ تترقرق
ولقد بعثتهما إِلَيْكَ قصيدة
أَفَنَّتَ منتظراً كعهدك شَيْقَ
أَبْكَى لِياليينا القصارَ وصحبةً
أَخْذت مخيلتها تجيش وتبرق
لَا ذَكْر الدنيا إِلَيْكَ فربما
كَرِه الحديث عن الأَجَاجِ المغرِق

طبعت من ألسن الحياة طعامها
 وشرابها وهوأوها المتنشق
 والناسُ بين بطئها وذعافها
 لا يعلمونَ بـأي سميـها سـقـوا
 أمـا الـولي فـقد سـقاـك بـسـمـهـ
 ما ليس يـسـقـيك العـدـوـ الأـزرـقـ
 طـلـبـوكـ وـالـأـجـلـ الـوـشـيـكـ يـحـثـهمـ
 وـلـكـلـ نـفـسـ مـدـدـةـ لـا تـسـبـقـ
 لـا أـعـانـ المـوـتـ كـيـدـ حـبـالـهـمـ
 عـلـقـتـ وـأـسـبـابـ الـمـنـيـةـ تـعـلـقـ
 طـرـقـتـ مـهـادـكـ حـيـةـ بـشـرـيـةـ
 كـفـرـتـ بـمـا تـنـتـابـ مـنـهـ وـتـطـرـقـ

* * *

يا «فـوزـ» تـلـكـ دـمـشـقـ خـلـفـ سـوـادـهـاـ
 تـرـمـيـ مـكـانـكـ بـالـعـيـونـ وـتـرـمـقـ
 ذـكـرـتـ لـيـالـيـ بـدـرـهاـ فـتـلـفـتـ
 فـعـسـاكـ تـطـلـعـ أـوـ لـعـلـكـ تـُشـرقـ

«بردَى» وراءِ صِفافِهِ مستعبِرٌ
 والحرُّ محلولُ الصِفائرِ مطرقٌ
 والطيرُ في جنباتِ «دمَرٍ» نوحٌ
 يجدُ الهمومَ خلَيْهِنَ ويأرقُ
 ويقولُ كُلُّ مُحَدَّثٍ لسميرهِ:
 أَبْذَاتٍ طوقٍ بعْدَ ذلِكَ يوثقُ

* * *

عشِقت تهاوِيلِ الجمال ولَمْ تجد
 في العقرية ما يُحبُّ وَيُعْشَقُ
 فهمشت كَانَ بناها يدُ مُدمِنٍ
 وكَانَ ظلَّ السُّمُّ فيها زَبْقُ
 ولوَانَ مَقدوراً يُرَدَّ لرَدَهَا
 بحياتهِ الوطنُ المروعُ المشفقُ
 أَشْقَى القضاةِ الأَرْضَ بعْدَكَ أُسْرَة
 لولا القضاةِ من السماءِ لما شقوا
 قَسَتِ الْقُلُوبُ عَلَيْهِمْ وَتَحْجَرَتْ
 فانظرَ فوَادِكَ هل يَلِينَ وَيَرْفَقُ

إِنَّ الَّذِينَ نَزَلْتْ فِي أَكْنَافِهِمْ
صَفَحُوا فَمَا مِنْهُمْ مَغِيظٌ مَحْنَقٌ

سَخِرُوا مِنَ الدُّنْيَا كَمَا سَخِرْتُ بِهِمْ
وَأَنْبَتَ مِنْ أَسْبَابِهَا الْمُتَعْلِقُ

يَا مَائِمًاً مِنْ (عَبْدِ شَمْسٍ) مِثْلِهِ
لِلشَّمْسِ يَصْنَعُ فِي الْمَاتِ وَيُنْسَقُ

إِنْ ضَاقَ ظَهَرُ الْأَرْضِ عَنْكَ فَبَطَنُهَا
عَمّا وَرَاءَكَ مِنْ رُفَاتٍ أَضْبِقَ

لَا جَمَعَتِ الشَّامُ مِنْ أَطْرَافِهِ
وَافِي يَعْزِي الشَّامُ فِيكَ الْمَشْرِقُ

يَبْكِي لَوَاءً مِنْ شَبَابِ أَمِيَّةٍ
يَحْمِي حَمْيَ الْحَقِّ الْمَبِينَ وَيَخْفَقُ

لَمْسَتْ نَوَاصِيهَا الْحَصْوَنُ تَرْوِمُهُ
وَتَلْمَسَتْهُ فَلَمْ تَجِدْهُ الْفَيلَقُ

رَكْنُ الْزَّعْمَةِ حِينَ تَطْلُبُ رَأْيَهُ
فَيَرِي، وَتَسَأَّلُهُ الْخَطَابُ فَيَنْطَقُ

ويكادُ من سحر البلاغة تحته
عود المنابر يستخفُ فيورق
«فيحاء» أين على جنائك وردةٌ
كانت بها الدنيا ترفُّ وتعيق؟

علوية تجد المسامع طيماً
وتحسُّ رياها العقولُ وتنشق
وأرائكُ الزهر الغصون وعرشها
يدُّ أمةٍ وجبنها والمفرق

من مبلغٍ عنِّي شُبولةَ جِلْقَ
قولاً يبرُّ على الزمان ويصدق
بالله جل جلاله ، بمحمدٍ
بيسوع ، بالغزير لا تتفرقوا

قد تفسد المرعي على أخواتها
شاةً تند من القطيع وتمرق

خليل مطران

لِبَنَانُ مَجْدُكَ فِي الْمَشَارِقِ أَوَّلُ
وَالْأَرْضُ رَابِيَّةٌ، وَأَنْتَ سَنَامٌ (١)
وَبَنُوكَ الْأَطْفَلُ مِنْ نَسِيمِكَ ظَلَمُونْ
وَأَشَمُّ مِنْ هَضَبَاتِكَ الْأَحَلامُ
أَخْرَجْتَهُمْ لِلْعَالَمِينَ جَحَاجِحاً
عَرْبًا ، وَأَبْنَاءُ الْكَرِيمِ كَرَامُ
بَيْنَ الرِّيَاضِ وَبَيْنَ أَفْقِ زَاهِرٍ
طَلَعَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ وَالْإِسْلَامُ
هَذَا آدِيبُكَ يَحْتَفِي بُوسَامَهُ
وَبِيَانِهِ لِلْمَشْرِقَيْنِ وِسَامُ
وَيُجَلِّ قَدْرُ قِلَادَهِ فِي صَدْرِهِ
وَلَهُ الْقَلَائِدُ سِمْطُهَا إِلَيْهِا

(١) قيلت في حفلة تكريم خليل مطران بدار الجامعة المصرية في ١٨ حزيران

(يوليو) ١٩١٣ :

صَدْرُ حَوَالِيَهُ الْجَلَلُ وَمِلْوَهُ
كَرْمٌ وَخَشِيهُ مُؤْمِنٌ وَذِمَامُ
جَلَاهُ إِحْسَانُ الْخَدِيو وَطَالِما
حَلَاهُ فَضْلُ اللَّهِ وَالْإِنْعَامُ
لِعَلَابِكَ يَا مُطْرَانُ أَمْ لِهَنَاكَ أَمْ
لَخَالَكَ التَّشْرِيفُ وَالْإِكْرَامُ
أَمْ لِلْمَوَاقِفِ لَمْ يَقِفْهَا ضَيْغَمُ
لَوْلَاكَ لَا ضَطَرْبَتْ لَهُ «الْأَهْرَام»
هَذَا مَقْعَدُ القَوْلِ فِيكَ وَلَمْ يَزَلْ
لَكَ فِي الضَّمَائِرِ مَحْفَلٌ وَمَقْعَدُ
غَالِي بِقِيمَتِكَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ
وَسَعِيٌ إِلَيْكَ يَحْفَظُهُ الْإِعْظَامُ
فِي مَجْمَعِ هَذِهِ الْبَيَانِ لَوَاهَهُ
بَكَ فِيهِ وَاعْتَزَّتْ بَكَ الْأَقْلَامُ
ابنُ الْمُلُوكِ تَلَا الشَّنَاءَ مَخْلَدًا
هَيَهَاتُ يَذْهَبُ لِلْمُلُوكِ كَلَامُ

فَمَنْ أَلْبَشَرُ لِبَعْلَبَكَ وَبَيْنَهَا
نَسَبٌ تُضِيءُ بَنُورَهُ الْأَيَّامُ
يَبْلُلُ الْمَكِينُ الْفَخْمُ مِنْ آثَارِهَا
يَوْمًا وَآثَارُ الْخَلِيلِ قِيَامٌ

• • •

المراة

«خرافة هندية»

في غايةِ اللطافةِ
وترجموها قبلنا
لأن فيها حكمه؟

أروي لكم خرافةً
أتَتْ من الهند لَنَا
إلى لغاتِ جمهُه

*
اللهُمَّ الْجَنودُ
هذا الوجود والورى
فيما رأى اليونانُ
عبدَهُ العبادُ
كما يصوغُ الحاتما
ولم يدعْ ، ولم يذرْ
حتى أتمَ الرَّجُلا
في الخلقِ والإنساءِ
ومنهُ أنتَ يصنعُ
حتى بدا الصوابُ له
مختلفاً تلويناً .

«توشتري» معبودٌ
قالوا : هو الذي برى
ومثله «فولكان»
كسلاماً حدَّادُ
فحين صاغ العالما
أنفق ما كان أدَّخر
وكلَّ شيءٍ بـذلا
وضاق بالنساءِ
فسحَّار ماذا يجمعُ
وبعد فكرِ أعملَه
كوهَا تكويناً

إلى لطافة الزَّهَرِ ، من استدارة القَمَرِ ،
 إلى رشاقة القصب ، إلى تراوح الشَّعَبِ ،
 فقلق النَّسِيمِ ، فلحظات الرَّيْمِ ،
 فقوسَ السَّبَاعِ ، في هجنة الشُّعَاعِ ،
 تأخذ بالنفوسِ ، فزهرة الطَّاوُوسِ ،
 إلى انكماش الأربَبِ ، ومن دموع السُّحُبِ ،
 فالزَّغب المُقْسَمِ ، إلى التواء الأرْقَمِ ،
 فالبرد من جليدِ ، فالحرَّ من وقودِ ،
 فخفَّة الأوراقِ ، فالشهد في المذاقِ ،
 فَهَمَدَر العصفُورِ ، فنَغَمَ الْهَادِيرِ ،
 مكوتاً منه امرأةً ، وكلَّ هذا هيَاءً
 لعبدَه قدَّمهَا ، وبعد ما أتَمَّها
 وعن هَوَاهَا لا تَحُلُّ ! وقال : خُذْها يا رجل

أتى له معتضاً
 يخذها ، كفاني همَا ،
 أرى بها لي قبلًا
 وتخلق الشحناء ،
 شاكيةً ولا سبَبْ ،
 وأذهبت لذاتي ،
 ما كان قد أعطاها !

بعده أسبوع مضى
 يقول : يا اللَّهُمَّ
 لا صبر لي معها ، ولا
 نظلُّ تشكو الداء
 محتالَةً على الغضبْ ،
 قد ضيَعْتْ أوقاتي ،
 فأخذ الإلهُ

فلم يكنْ بعضْ زمانْ .

فقال : رب ردها
بانست فلا أساها
مائلة أمامي ،
اطفة في لعهها

فَمَا نَعْمَلُ بَعْدَ هَا
كَانَتِي أَرَاهَا
مَا لِهِ أَيْسَامِي ،
خَفِيفَةً فِي وَثَبَها !

قال الإله : يا رجُل
ما زلتَ تُريدُ ،
فأنخذلُ الرَّفِيقَهُ .
لا عيش لي معَها ، ولا

حِيرَتْ مُولَاكْ ، فَقُلْ
أَحْفَظْ أَمْ أُعِيدْ ؟
وَقَالْ ذِي الْحَقِيقَةِ
بِدُونَهَا الْعِيشْ حَلَا !

الفهرس

أولاً : الدراسة :	الصفحة	العنوان	المقدمة
حياة شوقي (نسب شوقي – أول عهد شوقي بالقصر – شاعر الخديوي – شوقي في فرنسا – شوقي بين الخديوي توفيق والخديوي عباس – بين شوقي والمتنبي – حياة شوقي الخاصة) .	٩		
أحمد شوقي في المنفى : (تمهيد تاريخي – خلع عباس عن عرش مصر ، نفي شوقي – تأثير شوقي بالبحري – تأثير شوقي بابن زيدون – أسواق الذهب) .	٣٥		
شوقي وامارة الشعر : وداع الأندلس – لقاء الوطن – إمارة الشعر – كلمة حول «الإمارة» .	٥٠		
شاعرية شوقي : خلق شوقي شاعراً لا تأثيراً – مقارنات شوقي والشعر الملحمي) .	٧٩		
ثقافة شوقي : شوقي وشكسبير – طه حسين وثقافة شوقي – شوقي وأرسطور)	٨٧		

الصفحة	المطلع	العنوان
٩٧		شوفي بين التقليد والتجدد : تأثر شوفي بالأدب العربي والأدب الأجنبية — من مقدمة الشوقيات — تجديد فأنكفاء — موقف العقاد من شوفي — موقف نعيمه من شوفي — شوفي ووصف المخترات الحديثة — موقف البازجي من شوفي — شوفي والمسرحية الشعرية العربية — موقف الدكتور محمد مندور — رأى صالح جودت — الخرافات والآمثال — معارضات شوفي — أزجال شوفي)
١٣٥		أحمد شوفي ومعارك الصحافة : شوفي وعبد الوهاب — مفهوم النقد عند شوفي — معركتان — رد شوفي على نقاده — معركة تكريم شوفي — رأى المازني في شوفي موقف أنصار شوفي — هيكل في المعركة — وهجوم على هيكل — وطه حسين أيضاً — تبدل آراء النقاد بعد وفاة شوفي) .
١٥٣		شوفي شاعر الوطنية والفضائل الإنسانية : (السياسة والشعر — ذكرى دانشواي — ولاء شوفي لمصر — ولا. شوفي للعروبة — شاعر الحكمة — شاعر يرثي شاعراً
١٧٨		مراجعة الدراسة .
١٧٩		شوفي يؤرخ لنفسه :
* * *		
٢٠٠		ثانياً : مختارات من أدب شوفي : من أسواق الذهب
١٩٩		نماذج من ثغر شوفي :

الصفحة	العنوان	المطلع
٢٠٣	من رسائل شوقي	
٢٠٩	نماذج من شعر شوقي :	
٢١٠	نهج البردة (ريم على القاع بين البان والعلم)	
٢٣٣	أبو المول (أبا المول : طالت عليك العصر)	
٢٤٤	ولد المدى (ولد المدى فالكائنات ضياء)	
٢٦٠	شهيد الحق (إلام الحلف بيكم إلاما)	
٢٦٧	بعد المنفى (أنادي الرسم لو ملك الجوابا)	
٢٧٥	العلم والتعليم (قم للمعلم وفه التبجيلا)	
٢٨٤	أيها النيل (من أي عهد في القرى تتدفقُ)	
٣٠٣	ضجيج الحاجيج (ضجيج الحاجاز وضج البيت والحرامُ)	
٣٠٨	الرحلة إلى الأندلس (اختلاف النهار والليل ينسى)	
٣٢١	نكتبة دمشق (سلام من صبا بردى ارقُ)	
٣٢٨	الخرية الحمراء (في مهرجان الحق أو يوم الدم)	
٣٣٢	يا نائع الطلح (يا نائع الطلح أشباء عوادينا)	
٣٤٣	رومة (قف برومَا وشاهد الأمر واشهب)	
٣٤٧	على قبر نابوليون (قف على كنزاً بباريس دفين) -	
٣٥٨	أنس الوجود (أيها المستحي بأسوان داراً)	
٣٦٤	قم ناج جلاق (قم ناج جلّاق وانشد وسم مى بازوا)	
٣٧٠	رمضان ولی (رمضان ولی هاتها يا ساقى)	
٣٧٥	وصف لرقص (طال عليها القدم)	
٣٨٠	كبار الحوادث في وادي النيل (همت الفلك واحتواها الماء)	
٤١٢	ذكرى المولد (سلوا قلبى غداة سلا وثابا)	
٤٢٢	للشعلب والدليك (برز الشعلب يوماً)	

الصفحة	العنوان	المطلع
٤٢٣	سلیمان والمدهد (وقف المدد يوماً)	
٤٢٤	ملك الغربان (كان للغربان في العصر مليك)	
٤٢٦	الأسد ووزيره الحمار (الليث ملك القمار)	
٤٢٨	نكبة بيروت (يارب أمرك في المالك نافذ)	
٤٣١	وداع اللورد كروم (أيامكم ألم عهد اسماعيلا)	
٤٣٧	خاتمة رياض (كبير السابقين من الكرام)	
٤٤٢	علموه (علموه كيف يجفو فجفا)	
٤٤٣	خدعواها (خدعواها بقولهم حسناء)	
٤٤٤	سويع النيل (سويع النيل رفقاً بالسويدات)	
٤٤٦	مضناك (مضناك جفاه مرقده)	
٤٤٨	توت عنخ آمون (فقي يا أخت بوشع خبرينا)	
٤٥٩	رثاء أبيه (سألوني لم لم أرث أبي)	
٤٦٤	فوزي الغزي (جرح على جرح حنانك جلتُ)	
٤٧٠	خليل مطران	
٤٧٣	خرافة	
٤٧٦	الفهرس	